

وَحْيُ الْقَلَمِ

«بَيَانُ كَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ التَّنْزِيلِ»،
«أَوْ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ»
سعد باشا زغلول

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الأول

طبعة خاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة





رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبد مصطفى

كتب ثقافية

مصطفى صادق الرافعي، مصطفى صادق عبد الرازق
ابن سعيد بن أحمد، 1881 - 1937.
وحي القلم/ مصطفى صادق الرافعي.
القاهرة: دار المعارف، 2015.

مج 1، 24 سم
طبعة خاصة بنبوة الإمارات العربية المتحدة
تدمك 0 8254 02 977 978
1 - المقالات العربية.

2 - الأدب العربي - مجموعات
(أ) العنوان.

تصنيف ديوي: 814
رقم الإيداع: 2015 / 22775
رقم الكونجرس: X - 840010 - 01 - 2

تصميم الغلاف:
أيمن القاضي

لا يجوز استنساخ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابي من دار المعارف

تم التنفيذ في مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



تمت الطباعة بدعم من
مؤسسة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
للأعمال الخيرية والإنسانية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا
لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَهُ قُلْ
لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

سورة الأنعام: (٨٨ - ٩٠).

دعوة الأستاذ الإمام

حكيم الإسلام الشيخ محمد عبده رحمه الله
لمؤلف «وحى القلم» فى أول عهده بالأدب

وهدانا الله وبك كفا حل وسطى أفندي صارت كراغنى زاده الأديب
هـ ما نراؤك وهدنا ضمن قلبك لا أتا صلت لنا ونباء فليس ذلك
من آتاء سائر نباء ولكن أتممت من خلقه أديباً وادتم صلتك على صفا
القرء وادع الله ان يجعل لك من أهلك شيئاً يحفظ كبا طلل وان تبتك
فى أروافهم ففى أروافهم و سلام محمد عبده
١٣١٥
هـ ثوال

نص كتاب الأستاذ الإمام

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندى صادق الرافعى : زاده الله أدباً. لله ما أثمر أدبك، والله ما ضمن لى قلبك، لا أقارضك ثناءً بثناء، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكنى أعدك من خلص الأولياء، وأقدم صفك على صف الأقرباء. وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل، وأن يُقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل. والسلام.

٥ شوال سنة ١٣٢١هـ^(*)

محمد عبده

(*) يوافق هذا التاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٠٣ للميلاد.

مؤلفات الكاتب

- تاريخ آداب العرب.
- إعجاز القرآن.
- تحت راية القرآن.
- المعركة بين القديم والجديد.
- كتاب المساكين.
- حديث القمر.
- رسائل الأحزان.
- السحاب الأحمر.
- أوراق الورد.
- ديوان الرافعى.
- ديوان النظرات.
- السفود.

تصدير

بقلم

محمد سعيد العريان

«.. ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه محير، ولكن الحسن كذلك وبأنه كثير التكليف، ولكن الحرية كذلك».

الرافعي

هذا كتاب آخر أنشأه الرافعي، ففيه النفحة الأخيرة من أنفاسه، والنبضة الأخيرة من قلبه، والومضة الأخيرة من وجدانه... أفرأيت الليل المطبق كيف تتروّح نسماؤه الأخيرة بعبير الشجر وتتندى أزهاره في نسيم السحر؟ ألا وإنه إلى ذلك أول كتاب أنشأه على أسلوبه وطريقته، فقد عاش الرافعي ما عاش يكتب لنفسه وينشر لنفسه، لا يعنيه مما يكتب وينشر إلا أن يحيل فكرة في رأسه أو لمحة في خاطره أو خفقة في قلبه إلى تعبير في لسانه أو معنى في ديوانه، ولا عليه بعد ذلك أن يتأدى معناه إلى قارئه كما أراده أو يُغلق دونه، فلما اتصل سببه بمجلة «الرسالة»^(١) رأى لقارئه عليه حقا أكثر من حق نفسه، فكان أسلوبه الجديد الذي أنشأ به هذا الكتاب.

على أن هذا الكتاب - وشأنه ما قدّمت - بجميع كل خصائص الرافعي الأدبية متميزة بوضوح، فمن شاء فليقرأه دون سائر كتبه، فسينكشف له الرافعي في سائر

(١) اتصل الرافعي بمجلة الرسالة قبيل موته بثلاث سنوات، وكان ذلك أول اشتغاله بالصحافة، فلم يكن له قبلها صلة (صحافية) بجريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات، وقد كان لذلك أثره في أسلوبه من قبل ومن بعد إلى أسباب أخرى، وانظر (فترة جمام) و(عمله في الرسالة) و(نقلة اجتماعية) من كتابنا (حياة الرافعي).

كتبه. والأديب الحق تستعلن نفسه بطريقتها الخاصة فى كل زمان ومكان على اختلاف أحواله وما يحيط به.

والرافعى عند طائفة من قراء العربية أديب عسير الهضم، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يُصدر عن طبع، وعند بعضهم غامض معمى لا تخلص إليه النفس، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوى الذوق البيانى الخالص، أديب الأمة العربية المسلمة، يعبر بلسانها، وينطق عن ذات نفسها، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص فى وسائله، أو كدرة فى طبعه، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس العربية المسلمة التى ينطق الرافعى بلسانها حجابا يبعد بينه وبين ما يقرأ روحا ومعنى. فمن شاء أن يقرأ ما كتب الرافعى ليتذوق أدبه فيأخذ عنه أو يحكم عليه، فليستوثق من نفسه قبل، ويستكمل وسائله، فإن اجتمعت له أداته من اللغة والذوق البيانى، وأحس إحساس النفس العربية المسلمة فيما تحب وما تكره وما يخطر فى أمانيتها فذوقه ذوق وحكمه حكم، وإلا فليسقط الرافعى من عداد من يقرأ لهم أو فليسقط نفسه من عداد هذه الأمة.

على أنه إذا حق لنا أن نرتب كتب الرافعى ترتيبا يعين قارئه على تذوقه أو دراسة أدبه فإن «وحى القلم» فى رأس هذا الثبت. هو آخر ما أنشأ ولكنه أول ما ينبغى أن يقرأ له، وإن البدء به لتحقيق أن يعود قارئه أسلوب الرافعى فيسلس له صعبه وينقاد.

ذلك مجمل الرأى فى أسلوب هذا الكتاب، على أن قارئه قد يقف منه عند مواضع فيسأل نفسه: كيف تأتى للرافعى أن يعالج موضوعه على هذا الوجه؟ وكيف تهيأ له ذلك المعنى؟ وأين ومتى اجتمعت له هذه الخواطر؟ وفى أى أحواله كان يكتب؟ وعلى أى نسق كا يؤلف موضوعه ويجمع أشتاته ويحشد خواطره ويصنف عبارته؟...

... ولست أرى من حقى أن أطيل القول هنا فى هذا الكتاب وقد ذكرته فى كتاب «حياة الرافعى»، وإن موضوع هذا الكتاب لهُو التحقيق بالدرس والعناية. والكتاب كما يُشعر به عنوانه، هو مجموعة فصول ومقالات وقصص، من وحى القلم وفيض الخاطر فى ظروف متباينة، وأكثره ما كتبه لمجلة الرسالة بين سنتى ١٩٣٤م و١٩٣٧م، ولكل فصل أو مقالة أو قصة من هذه المجموعة، سببٌ أوحى إليه موضوعها وأملى عليه القول فيها، ولقد كان على أن أثبت عند رأس كل موضوع منها باعته وحادثته، لعل من ذلك نورا يكشف عن معنى مغلق أو يوضح فكرة يكتنفها بعض الغموض، ولكن بعض الضرورات قد ألزمتنى أن أقتصد فى البيان هنا اكتفاء بما بينته فى موضعه وأشارت إليه فى هامش موضوعه.

ولقد يقرأ القارئ بعض القصص فى هذا الكتاب، فيسأل عن بعضها: أهذا حق يرويه أم باطل يدّعيه؟ ويسأل عند بعضها: أهذا مما ينقل من مآثورات الأدب والتاريخ القديم، أم إنشاء مما يُبدعه الخيال وتوشيه الصنعة؟ ثم يقرأ رأى الرافعى فى القصة وكتاب القصة^(١) فيقول: أين رأيه من حقيقته؟ وأين عمله من دعواه؟

ولهذه القصص حديث طويل، ولكن حسبى أن أقول إن الرافعى - وإن هجر القصة ولم يحفل بها زمانا - كانت القصة فى أدبه وفى طبعه.

وكما قلت من قبل إن هذا الكتاب يجمع كل خصائص الرافعى الأدبية متميزة بوضوح فى أسلوبه، كذلك أقول هنا إنه يجمع كل خصائصه العقلية والنفسية متميزة بوضوح فى موضوعه، ففيه خلقه ودينه، وفيه شبابه وعاطفته، وفيه تزمته ووقاره، وفيه فكاهته ومَرَحُه، وفيه غضبه وسخطه، فمن شاء أن يعرف الرافعى عرفان الرأى والفكرة والمعاشرة فليعرفه فى هذا الكتاب.

(١) الجزء الثالث من وحى القلم.

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فقد خلفه المؤلف - رحمه الله - على مكتبه قصاصات من صحف وصفحات من كتب ومجلات، فعاد كتاباً بين دفتين، وقد رتبُ فصوله على ما بدا لي، إذ لم أجد فيما خلف المؤلف من أوراق ما يشير إلى رأيه في ترتيبه، ولكنه جمع أكثر موادّه في غلاف وأودعه درجَ مكتبه إلى ميعاد، ثم عاجلته منيته. وقد جمعت ما قدرت عليه بعد، فأضفته إلى ما جمع المؤلف، ورتبت كل ذلك وهيأته للمطبعة فإن كان قد فاتني شيء مما ينبغي إضافته إلى ذلك الجزء، أو قصر بي الجهد عن ترتيبه على الوجه الأمثل، فمعدرة إلى قارئه.

وللمؤلف في ذيل بعض الصحائف تعليقات، ولي تعليقاتٌ غيرها اقتضاها مكانها وموضوعها، فإذا رأى القارئ رمز التعليق في الصلب وفي الهامش نجماً أو نجوماً (*) (**) فهو مما علّقه، وإن كان الرمز رقماً فهو مما علّقه المؤلف - رحمه الله - لبيان معنى أو تفسير كلمة.

وإن في الكتاب لفناً وفكراً وبياناً، وإن فيه لمواضع تقتضى البسط والتطويل في الحديث، وإن فيه لمذاهب في الإنشاء حقيقة بالدرس والنظر، ولكنى أجتزئ من ذلك كله بالعرض دون البيان، لأدع لقارئه أن يقول ما يشاء ويحكم، ثم لأفسح المكان لمنشئ الكتاب أن يتحدث عن مذهبه في البيان وهو عليه أقدر.

محمد سعيد العريان



صدر الكتاب

البيان

لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعانى التى اشتملت عليها يُقيمها الكاتب على حدود ويديرها على طريقة، مُصيّباً بألفاظه مواقع الشعور، مُثيراً بها مكامن الخيال، آخذاً بوزن تاركاً بوزن لتأخذ النفس كما يشاء وتترك.

ونقل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر، هو انتزاعها من الحياة فى أسلوب وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل، لوضعه كل شىء فى خاص معناه وكشفه حقائق الدنيا كسفة تحت ظاهرها الملتبس. وتلك هى الصناعة الفنية الكاملة؛ تستدرك النقص فتتممه، وتتناول السر فتعلنه، وتلمس المقيّد فتطلقه، وتأخذ المطلق فتحدّه، وتكشف الجمال فتظهره، وترفع الحياة درجة فى المعنى وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به.

فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب؛ ولكنه أداة فى يد القوة المصورة لهذا الوجود، تصوّر به شيئاً من أعمالها فناً من التصوير، الحكمة الغامضة تريده على التفسير، تفسير الحقيقة؛ والخطأ الظاهر يريده على التبیین، تبیین الصواب؛ والفوضى المانحة تسأله الإقرار، إقرار التناسب؛ وما وراء الحياة، يتخذ من فكره صلة بالحياة؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل. ومن ذلك لا يخلق الملهم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية، وله فى قلبه الرقيق مواضع مهيأة للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانية وتتساقط منها بالمعنى.

وإذا اختير الكاتب لرسالة ما، شعر بقوة تفرض نفسها عليه؛ منها سناد رأيه، ومنها إقامة برهانه، ومنها جمال ما يأتى به، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً، له بنفسه وجود ولد بها وجود آخر؛ ومن ثمّ يصبح عالماً بعناصره للخير

أو الشر كما يُوجَّه؛ ويُلقَى فيه مثلُ السر الذى يُلقَى فى الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعى يُرى سهلاً كلَّ السهل حين يتمُّ، ولكنه صعبٌ أى صعبٌ حين يبدأ. هذه القوة هى التى تجعل اللفظة المفردة فى ذهنه معنىً تاماً، وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة، وتنتهى باللمحة السريعة إلى كشف عن حقيقة، وهى تُخرجه من حكم أشياء ليحكمُ عليها، وتدخله فى حكم أشياء غيرها لتحكم عليه؛ وهى التى تميز طريقته وأسلوبه؛ وكما خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاع فى بيانه^(١). ولابد من البيان فى الطبائع الملهمة ليتسَّع به التصرُّف، إذ الحقائق أسمى وأدقُّ من أن تُعرف بيقين الحاسة أو تنحصر فى إدراكها. فلو حُدَّت الحقيقة لما بقيت حقيقة، ولو تلبَّس الملائكة بهذا اللحم والدم أبطل أن يكونوا ملائكة؛ ومن ثمَّ فكثرة الصور البيانية الجميلة، للحقيقة الجميلة، هى كل ما يمكن أو يتسنى من طريقة تعريفها للإنسانية.

وأى بيان فى خُصرة الربيع عند الحيوان من آكل العُشب، إلا بيان الصورة الواحدة فى معدته؟ غير أن صور الربيع فى البيان الإنسانى على اختلاف الأرض والأمم، تكاد تكون بعدد أزهاره، ويكاد الندى يُنضُّرها حسناً كما ينضُّره. ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى - كالإيمان والجمال، والحب، والخير والحق - محتاجة فى كل عصر إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة.

وفى الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فناً عقلياً غايته صحة الأداء وسلامة النسق، فيكون البيان فى كلامهم على ندرة كوخز الخُصرة فى الشجرة اليابسة هنا وهنا. ولكن الفنَّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء مع الصحة، وسمو التعبير مع الدقة، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة. أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدف ولا يطير، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التى صنع منها الكون.

يظير به ويجرى. ولو كتَبَ الفريقان في معنى واحد لرأيتَ المنطقَ في أحد الأسلوبين وكأنه يقول: أنا هنا في معانٍ وألفاظٍ؛ وترى الإلهامَ في الأسلوب الآخر يُطالعُ أنه هنا في جلالٍ وجمالٍ وفي صُورٍ وألوانٍ.

ودَوْرَةُ العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورةُ خَلْقٍ وتركيبٍ، تخرج بها الألفاظُ أكبرَ مما هي، كأنها شَبَّتْ في نفسه شابًّا؛ وأقوى مما هي، كأنما كَسَبَتْ من روحه قوةً؛ وأدَلَّ مما هي، كأنما زاد فيها بصناعته زيادةً. فالكاتبُ العلميُّ تمرُّ اللغةُ منه في ذاكرةٍ وتخرج كما دخلت عليها طابعٌ واضعٍ؛ ولكنها من الكاتب البياني تمرُّ في مصنعٍ وتخرج عليها طابعه هو. أولئك أراحوا اللغةَ عن مرتبة سامية، وهؤلاء علَّوْا بها إلى أسمى مراتبها؛ وأنت مع الأولين بالفكر، ولا شيء إلا الفكرُ والنظر والحكم؛ غير أنك مع ذِي الحاسَّةِ البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأى.

وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين في خلق الناس: ففي كل الوجه تركيبٌ تامٌّ تقوم به منفعة الحياة، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخلق جمالَ الخلق، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة، وهو لذلك، وبذلك، يُرى ويؤثر ويُعشق.

وربما عابوا السموَّ الأدبيَّ بأنه قليل، ولكنَّ الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك؛ وبأنه مُحيرٌ، ولكن الحسن كذلك؛ وبأنه كثير التكليف، ولكن الحرية كذلك.

إن لم يكن البحرُ فلا تنتظر اللؤلؤ، وإن لم يكن النجمُ فلا تنتظر الشعاع، وإن لم تكن شجرةُ الورد فلا تنتظر الورد، وإن لم يكن الكاتبُ البيانيُّ فلا تنتظر الأدب.

مصطفى صادق الرافعي



اليمامتان

جاء فى تاريخ الوافدى «أن (المُقَوْسَ) عظيم القِبْط فى مصر، زَوْج بنته (أرمانوسة) من (قسططين من هرقل) وجَهَّزها بأموالها حَشَمًا لتسير إليه، حتى يَبْنَى عليها فى مدينة قَيْسَارية^(١)؛ فخرجت إلى بُلْبَيْس وأقامت بها... وجاء عمرو بن العاص إلى بلبيس فحاصرها حصارا شديدا، وقاتلَ مَنْ بها، وقتل منهم زهاء ألف فارس، وانهزم مَنْ بقى إلى المقوقس، وأخذت أرمانوسة وجميع ما لها، وأخذ كلُّ ما كان للقبط فى بلبيس. فأحبَّ عمرو ملاطفة المقوقس، فسير إليه ابنته مكرمةً فى جميع مالها، (مع قَيْس بن أبى العاص السَّهْمى)؛ فسَرَّ بقدمها...».

هذا ما أثبتته الواقدى فى روايته، ولم يكن مَعْنِيًّا إلا بأخبار المغازى والفتوح، فكان يقتصر عليها فى الرواية؛ أما ما أغفله فهو ما نَقَصُه نحن: كانت لأرمانوسة وصيفةٌ مُؤَلِّدةٌ تُسَمَّى (مارية)، ذات جمال يونانى أتمته مصرُ ومَسَحَتْه بسحرها، فزاد جمالها على أن يكون مصرىًّا، ونَقَصَ الجمالُ اليونانى أن يَكُونَه؛ فهو أجملُ منهما، ولمصر طبيعةٌ خاصة فى الحسن؛ فهى قد تُهْمَلُ شيئًا فى جمال نسائها أو تُشَعَّتْ منه، وقد لا توفيه جُهدَ محاسنها الرائعة؛ ولكن متى نشأ فيها جمالٌ يَنْزِعُ إلى أصل أجنبى أفرغت فيه سحرها إفراغا، وأبَت إلا أن تكون الغالبة عليه، وجعلته آيتها فى المقابلة بينه فى طابعه المصرى، وبين أصله فى طبيعة أرضه كائنة ما كانت؛ تغارُ على سحرها أن يكون إلا الأعلى. وكانت مارية هذه مسيحية قوية الدين والعقل، اتخذها المقوقس كنيسة حية لابنته، وهو كان واليًا وبَطْرِيْركا على مصر من قِبَلِ هرقل؛ وكان من عجائب صنْع الله

(١) بلدة بفلسطين. وبلبيس هى المدينة المعروفة بمحافظة الشرقية بمصر.

أن الفتح الإسلامي جاء في عهده، فجعل الله قلب هذا الرجل مفتاح القفل القبطي، فلم تكن أبوابهم تُدافع إلا بمقدار ما تُدفع، تُقاتل شيئاً من قتال غير كبير، أما الأبواب الرومية فبقيت مستغلقة حصينة لا تُدعّن إلا للتحطيم، ووراءها نحو مائة ألف رومي يقاتلون المعجزة الإسلامية التي جاءتهم من بلاد العرب أول ما جاءت في أربعة آلاف رجل، ثم لم يزدوا آخر ما زادوا على اثني عشر ألفاً. كان الروم مائة ألف مقاتل بأسلحتهم - ولم تكن المدافع معروفة - ولكن روح الإسلام جعلت الجيش العربي كأنه اثنا عشر ألف مدفع بقنابلها، لا يقاتلون بقوة الإنسان، بل بقوة الروح الدينية التي جعلها الإسلام مادة منفجرة تشبه الديناميت قبل أن يُعرف الديناميت!

ولما نزل عمرو بجيشه على بلبيس، جَزَعَتْ مارية جزعاً شديداً؛ إذ كان الروم قد أرجفوا أن هؤلاء العرب قومٌ جياعٌ يَنْفُضُهُم الجَدْبُ على البلاد نَفْضَ الرمال على الأعين في الريح العاصف، وأنهم جرادٌ إنساني لا يغزو إلا لبطيه؛ وأنهم غلاظ الأكباد كالإبل التي يمتطونها، وأن النساء عندهم كالذواب يَرْتَبِطْنَ على خَسَف، وأنهم لا عهد لهم ولا وفاء، ثَقُلَتْ مطامعهم وخَفَّتْ أمانتهم، وأن قائدَهم عمرو ابن العاص كان جَزَّاراً في الجاهلية، فما تدَّعه روحُ الجَزَّار ولا طبيعته، وقد جاء بأربعة آلاف سالخ من أخلاط الناس وشذاذهم، لا أربعة آلاف مقاتل من جيش له نظام الجيش!

وتوهَّمت مارية أوهامها، وكانت شاعرة قد درست هي وأرمانوسة أدب اليونان وفلسفتهم، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّدٌ يُشعرُها كلَّ عاطفة أكبر مما هي، ويضاعف الأشياء في نفسها، وينزعُ إلى طبيعته المؤنثة، فيبالغُ في تهويل الحزن خاصة، ويجعل من بعض الألفاظ وقوداً على الدم...

ومن ذلك استُطِيرَ قلبُ مارية وأفزعتها الوسوس، فجعلت تَنْدُبُ نفسها، وصنعت في ذلك شعراً هذه ترجمته:

جاءك أربعة آلاف جزَّارٍ أَيْتُها الشاة المسكينة!

ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تُذبحى!
جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة!
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت!
قَوْنِي يا إلهى، لأَعْمِدَ فى صدرى سَكِينًا يَرُدُّ عَنِ الجزارين!
يا إلهى، قُوْ هذه العذراء، لتتزوَّج الموت قبل أن يتزوجها العربى..!

وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة فى صوت حزين يتوجَّع؛ فضحكت هذه وقالت: أنت واهمة يا مارية؛ أنسييت أن أبى قد أهدى إلى نبيهم بنت (أنصنا) ^(١)، فكانت عنده فى مملكة بعضُها السماء وبعضُها القلب؟! لقد أخبرنى أبى أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبى، وأنها أنفذت إليه دَسِيسًا يُعْلِمُه أن هؤلاء المسلمين هم العقلُ الجديدُ الذى سِيضع فى العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيهم أظهر من السحابة فى سمائها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله، لا من حدود أنفسهم وشهواتها، وإذا سلَّوا السيف سلَّوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون. وقالت عن النساء: لئن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبى؛ فإنهم جميعاً فى واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامى فى الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا هم بمخالفته.

وقال أبى: إنهم لا يُغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب الملك؛ وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة، تتقدم فى الدنيا حاملة السلاح والأخلاق، قوية فى ظاهرها وباطنها، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم؛ وبذلك تكون أسلحتهم أنفسهم ذات أخلاق!

(١) هى مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى النبى ﷺ وكانت من (أنصنا) بالوجه القبلى.

وقال أبى: إن هذا الدين سيندفع بأخلاقه فى العالم اندفاع العصاره الحية فى الشجرة الجرداء، طبيعة تعمل فى طبيعة؛ فليس يمضى غير بعيد حتى تخضر الدنيا وترمى ظلالها، وهو بذلك فوق السياسات التى تشبه فى عملها الظاهر الملفق ما يعد كطاء الشجرة الميتة الجرداء بلون أخضر... شتان بين عمل وعمل، وإن كان لون يشبه لوناً...

فاستروحت مارية واطمأنت باطمئنان أرمانوسة، وقالت: فلا ضير علينا إذا فتحوا البلد، ولا يكون ما نستضر به؟

قالت أرمانوسة: لا ضير يا مارية، ولا يكون إلا ما نجب لأنفسنا؛ فالمسلمون ليسوا كهؤلاء العلوج من الروم، يفهمون متاع الدنيا بفكرة الحرص عليه، والحاجة إلى حلاله وحرامه، فهم القساة الغلاظ المستكلبون كالبهائم؛ ولكنهم يفهمون متاع الدنيا بفكرة الاستغناء عنه والتميز بين حلاله وحرامه، فهم الإنسانيون الرُحماء المتعففون.

قالت مارية: وأبيك يا أرمانوسة، إن هذا لعجيب! فقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التى كتبوها...! فلم يخرجوا للدنيا جماعة تامة الإنسانية، فضلا عن أمة كما وصفت أنت من أمر المسلمين؛ فكيف استطاع نبيهم أن يخرج هذه الأمة وهم يقولون إنه كان أمياً؟! أفتسخر الحقيقة من كبار الفلاسفة والحكماء وأهل السياسة والتدبير؛ فتدعهم يعملون عبثاً أو كالعبث، ثم تستسلم للرجل الأمي الذى لم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس ولم يتعلم؟!!

قالت أرمانوسة: إن العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب أفلakها، ليسوا هم الذين يشقون الفجر ويطلعون الشمس، وأنا أرى أنه لابد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها فى الحياة إيجاد الأفكار العملية الصحيحة التى يسير بها العالم، وقد درست المسيح وعمله وزمنه، فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة، غير أنه أوجدها مصغرة فى نفسه وحوارييه، وكان عمله كالبده فى تحقيق الشيء العسير؛ حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه.

وظهور الحقيقة من هذا الرجل الأُمِّي هو تنبيه الحقيقة إلى نفسها، وبرهانها القاطع أنها بذلك فى مظهرها الإلهي. والعجيب يا مارية، أن هذا النبى قد خذله قومه وناكروه وأجمعوا على خلافه، فكان فى ذلك كالمسيح، غير أن المسيح انتهى عند ذلك؛ أما هذا فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع، لا يرتد ولا يتغير، وهاجر من بلده، فكان ذلك أول خطأ الحقيقة التى أعلنت أنها ستمشى فى الدنيا، وقد أخذت من يومئذ تمشي^(١). ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدنيا كلها لما جرت به كذلك، فهذا فرق آخر بينهما. والفرق الثالث أن المسيح لم يأت إلا بعبادة واحدة هى عبادة القلب، أما هذا الدين فعلمت من أبى أنه ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً: إحداها للأعضاء، والثانية للقلب، والثالثة للنفس؛ فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط؛ وعبادة القلب طهارته وحب الخير؛ وعبادة النفس طهارتها وبذلها فى سبيل الإنسانية. وعند أبى أنهم بهذه الأخيرة سيملكون الدنيا؛ فلن تقهر أمة عقيدتها أن الموت أوسع الجانبين وأسعدهما.

قالت مارية: إن هذا والله ليس إلهي يدل على نفسه؛ فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعث نفسه غير مبالية الحياة والموت إلا فى أحوال قليلة، تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء: كالغضب الأعمى، والحب الأعمى، والتكبر الأعمى؛ فإذا كانت هذه الأمة الإسلامية كما قلت منبثة هذا الانبعاث، ليس فيها إلا الشعور بذاتيتها العالية فما بعد ذلك دليل على أن هذا الدين هو شعور الإنسان بسمو ذاتيته، وهذه هى نهاية النهايات فى الفلسفة والحكمة.

قالت أرمانوسة: وما بعد ذلك دليل على أنك تتهيئين أن تكونى مسلمة يا مارية! فاستضحكتا معاً، وقالت مارية: إنما ألقيت كلاماً جاريتك فيه بحسبه، فأنا وأنت فكرتان لا مسلمتان.

(١) انظر المقالات النبوية فى صدر الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراوى: وانهزم الروم عن بلبيس، وارتدوا إلى المقوقس في (منف)، وكان وحي أرمانوسة في مارية مدة الحصار - وهي نحو الشهر - كأنه فكر سكن فكراً وتمدد فيه؛ فقد مر ذلك الكلام بما في عقلها من حقائق النظر في الأدب والفلسفة، فصنع ما يصنع المؤلف بكتاب ينقحه، وأنشأ لها أخيلة تجادلها وتدفعها إلى التسليم بالصحيح لأنه صحيح، والمؤكد لأنه مؤكد.

ومن طبيعة الكلام إذا أثر في النفس، أن ينتظم في مثل الحقائق الصغيرة التي تلقى للحفظ؛ فكان كلام أرمانوسة في عقل مارية هكذا: «المسيح بدء وللبدء تكملة، ما من ذلك بدء. لا تكون خدمة الإنسانية إلا بذات عالية لا تتألى غير سموها. الأمة التي تبذل كل شيء وتستمسك بالحياة جُبناً وحرصاً لا تأخذ شيئاً، والتي تبذل أرواحها فقط تأخذ كل شيء».

وجعلت هذه الحقائق الإسلامية وأمثالها تُعرب هذا العقل اليوناني؛ فلما أراد عمرو بن العاص توجيه أرمانوسة إلى أبيها، وانتهى ذلك إلى مارية قالت لها: لا يجملُ بمن كانت مثلك في شرفها وعقلها أن تكون كالأخيدة، تتوجه حيث يسارُ بها؛ والرأى أن تبدئي هذا القائد قبل أن يبدأك؛ فأرسلني إليه فأعلميه أنك راجعة إلى أبيك، واسأليه أن يصحبك بعض رجاله؛ فتكوني الآمرة حتى في الأسر، وتصنعى صنَع بنات الملوك!

قالت أرمانوسة: فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانك ودَهانك؛ فاذهبي إليه من قبلى، وسيصحبك الراهب (شطاً)، وخُذى معك كوكبة فرساننا.

قالت مارية وهي تقصُّ على سيدها: لقد أديتُ إليه رسالتك، فقال: كيف ظنُّها بنا؟ قلت: ظنُّها بفعل رجل كريم يأمره اثنان: كرمه، ودينه. فقال: أبلغنيها أن نبينا ﷺ قال: «استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صِهرًا وِذمة» وأعلميها أننا لسنَّا على غارة نُغيرُها، بل على نفوس نُغيرُها.

قالت: فصفيه لي يا مارية.

قالت: كان آتياً فى جماعة من فرسانه على خيولهم العراب، كأنها شياطين تحمل شياطين من جنس آخر؛ فلما صار بحيث أتبيّنهُ أوماً إليه التّرجُمانُ - وهو (وردان) مولاه- فنظرتُ، فإذا هو على فرس كُميت أحْم^(١) لم يخلص للأُسود ولا للأحمر، طويل العنق مُشرف له ذُؤابةٌ أعلى ناصيته كُطرةُ المرأة، ذِيالٍ يتبختر بفارسه ويَحْمِجُ كأنه يريد أن يتكلم، مُطَهَّم..

فقطعت أرمانوسة عليها وقالت: ماسألتكِ صفة جوده...

قالت مارية: أما سلاحه...

قالت: ولا سلاحه، صفيه كيف رأيته (هو)!

قالت: رأيته قصير القامة علامة قوة وصلابة، وافر الهامة علامة عقل وإرادة،

أدعج العينين...

فضحكت أرمانوسة وقالت: علامة ماذا؟...

... أبلج يُشرقُ وجهه كأنه فيه لألاء الذهب على الضوء، أيّداً اجتمعت فيه القوّة

حتى لتكاد عيناه تأمران بنظرهما أمراً... داهيةً كتب دهاؤه على جبهته العريضة

يجعل فيها معنى يأخذ ما يراه، وكلما حاولت أن أتفرس فى وجهه رأيت وجهه

لا يُفسره إلا تكرر النظر إليه..

وتضرّجت وجنتاها، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة... وقالت هذه:

كذلك كل لذة لا يفسرها للنفس إلا تكرارها...

فغضت مارية من طرفها وقالت: هو والله ما وصفت، وإنى ما ملأت عيني منه،

وقد كدت أنكر أنه إنسان لما اعترانى من هيئته...

قالت أرمانوسة: من هيئته أم عينيهِ الدعاوين؟...

(١) الكميت الأحمر: هو الأحمر الضارب للسود، لا يخلص لأحد اللونين، فإذا كان أحمر خالصاً قيل

فيه: كميت مذمى (بتشديد الميم الثانية وفتحها).

ورجعتُ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة (قيس)، فلما كانوا في الطريق وَجَبَت الظهر، فنزل قيسُ يُصَلِّيَ بمن معه والفتاتان تنظران، فلما صاحوا: «الله أكبر...!» ارتعش قلبُ مارية، وسألت الراهبَ (شطا): ماذا يقولون؟ قال: إن هذه كلمةٌ يدخلون بها صلاتهم، كأنما يخاطبون بها الزمَنَ أنهم الساعةَ في وقت ليس منه ولا من دنياهم، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشَهَوَاتِ الوقت، فذلك هو دخولهم في الصلاة، كأنهم يَمْحُونَ الدنيا من النفس ساعةً أو بعضَ ساعة، وَمَحْوُها من أنفسهم هو ارتفاعهم بأنفسهم عليها؛ انظري، ألا تَرَيْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتْهم سِحْرًا فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء، وقد شملتهم السكينة، وَرَجَعُوا غَيْرَ مَنْ كانوا، وخشَعُوا خشوعَ أعظم الفلاسفة في تأملهم؟^(١)

قالت مارية: ما أجملَ هذه الفطرة الفلسفية! لقد تَعَبَتِ الكتُبُ لتجعلَ أهلَ الدنيا يستقرُّون ساعةً في سكينة الله عليهم فما أفلحت، وجاءت الكنيسة فَهَوَّلت على المُصَلِّين بالزخارف والصُّور والتماثيل والألوان، لتُوجِّحَ إلى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال وتقديس المعنى الديني، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوِّهم إلى جوِّها، فكانت كساقى الخمر؛ إن لم يُعطَكَ الخمرَ عَجَزَ عن إعطائك النَّشْوة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جواد أو حمار؟

قالت أرمأنوسة: نعم إن الكنيسة كالحديقة؛ هي حديقةٌ في مكانها، وقلما تُوحى شيئاً إلا في موضعها؛ فالكنيسةُ هي الجدرانُ الأربعة، أما هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع.

قال الراهب شطا: ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدنيا وافتتنوا بها وانغمسوا فيها فستكونُ هذه الصلاةُ بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذ.

قالت مارية: وهل تُفْتَحُ عليهم الدنيا، وهل لهم قُودٌ كثيرون كَعَمْرُو..؟

(١) انظر مقالة (حقيقة المسلم) في الجزء الثاني.

قال: كيف لا تُفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المدّ المرتفع؛ ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعَةٌ إلى الخارج عنها، ثم يقاتلون بهذه الطبيعة أمما ليس في الداخل منها إلا النفوسُ المستعدَّةُ أن تهربَ إلى الداخل...!

قالت مارية: والله لكأننا ثلاثتنا على دين عمرو...

وانفقت قيسٌ من الصلاة، وأقبل يترحلّ، فلما حاذى مارية كان عندها كأنما سافر ورجع، وكانت ماتزال في أحلام قلبها، وكانت من الحلم في عالم أخذ يتلاشى إلا من عمرو وما يتصل بعمرو. وفي هذه الحياة أحوالٌ «ثلاثٌ» يغيب فيها الكونُ بحقائقه: فيغيبُ عن السكران، والمخبول، والنائم؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقة واحدة تتمثل في إنسان محبوب.

وقالت مارية للراهب شطا: سلّه: ما أربُّهم من هذه الحرب، وهل في سياستهم أن يكون القائدُ الذي يفتح بلداً حاكماً على هذا البلد...؟

قال قيس: حسبك أن تعلمي أن الرجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً في تحقيق كلمة الله، أما حظُّ نفسه فهو في غير هذه الدنيا.

وترجمَ الراهبُ كلامه هكذا: أما الفاتحُ فهو في الأكثر الحاكم المقيم، الحربُ فهي عندنا الفكرةُ وأما المصلحةُ تريد أن تضربَ في الأرض وتعمل، وليس حظُّ النفس شيئاً يكون من الدنيا؛ وبهذا تكون النفسُ أكبر من غرائزها، وتنقلب معها الدنيا برعونتها وحماقاتِها وشَهَوَاتِها كالطفل بين يدي رجل، فيهما قوةٌ ضبطه وتصريفه. ولو كان في عقيدتنا أن ثواب أعمالنا في الدنيا، لانعكس الأمر.

قالت مارية: فسَلّه: كيف يصنعُ (عمرو) بهذه القِلَّةِ التي معه والروم لا يُحصي عددهم، فإذا أخفق (عمرو) فمن عسى أن يستبدلوه منه؟ وهل هو أكبرُ قُوَّادِهِم، أو فيهم أكبرُ منه؟

قال الراوى: ولكن فرس قيس تمطر وأسرع فى لحاق الخيل على المقدمة كأنه يقول: لَسْنَا فى هذا...

وفتحت مصر صلحا بين عمرو والقبط، وولى الروم مُصْعِدِينَ إلى الإسكندرية، وكانت مارية فى ذلك تستقرئ أخبار الفاتح تطوفُ منها على أطلال من شخص بعيد، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملك إلا حُبَّهُ أن يأخذها، وجعلت تذوى وشحبَ لونُها وبدأت تنظر النظرة التائهة، وبان عليها أثر الروح الظمأى، وحاطها اليأسُ بجوّه الذى يحرق الدم، وبَدَت مجروحة المعانى؛ إذ كان يتقاتل فى نفسها الشعوران العدوان: شعور أنها عاشقة، وشعور أنها يائسة! ورقّت لها أرمانوسة، وكانت هى أيضاً تتعلق فتى رومانياً، فسهرتا ليلة تديران الرأى فى رسالة تحملها مارية من قبلها إلى عمرو كى تصل إليه، فإذا وصلت بلغت بعينها رسالة نفسها...

واستقرّ الأمر أن تكون المسألة عن مارية القبطية وخبرها ونسلها وما يتعلق بها مما يطول الإخبار به إذا كان السؤال من امرأة عن امرأة. فلما أصبحتا وقع إليهما أن عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الروم، وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يفوض أصابوا يمامة قد باضت فى أعلاه، فأخبروه فقال: «قد تحرمت فى جوارنا، أقرؤا الفسطاط حتى تطير فراخها». فأقرؤه!

ولم يمض غير طويل حتى قضت مارية نحبها، وحفظت عنها أرمانوسة هذا الشعر الذى أسمته: نشيد اليمامة:

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
تركها الأمير تصنع الحياة، وذهب هو يصنع الموت!
هى كأسعد امرأة؛ ترى وتلمس أحلامها.

إن سعادة المرأة أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
لو سُئِلَتْ عن هذا البيض ل قالت: هذا كَنْزى.
هى كاهناً امرأة، مَلَكَتْ مَلِكُها من الحياة ولم تفتقر.
هل أَكَلَفَ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا كَلَّفَتْهُ رَجُلًا واحدًا أحبه!

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
الشمس والقمر والنجوم، كلها أصغرُ فى عينها من هذا البيض.
هى كَارِقَ امرأة؛ عرفت الرِّقَّةَ مرتين: فى الحب، والولادة.
هل أَكَلَفَ الوجودَ شيئاً كثيراً إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة!

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها.
تقول اليمامة: إن الوجودَ يحب أن يُرى بلونين فى عين الأنثى؛
مرةً حبيباً كبيراً فى رَجُلها، ومرةً حبيباً صغيراً فى أولادها.
كلُّ شىء خاضعٌ لقانونه؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها.

أيتها اليمامة، لم تعرفى الأميرَ وترك لك فسطاطه!
هكذا الحظُّ: عدلٌ مضاعفٌ فى ناحية، وظلمٌ مضاعفٌ فى ناحية أخرى.
أحمدى الله أيتها اليمامة، أن ليس عندكم لغاتٌ وأديان،
عندكم فقط: الحبُّ والطبيعةُ والحياة.

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحضن بيضها،
يمامة سعيدة، ستكون فى التاريخ كهدهد سليمان،
نُسب الهدد إلى سليمان، وستنسب اليمامة إلى عمرو.
وآهًا لك يا عمرو! ما ضرَّ لو عرفتَ (اليمامة الأخرى)...!



اجتلاء العيد

جاء يوم العيد؛ يومُ الخروج من الزمن إلى زمنٍ وحده لا يستمرُّ أكثر من يوم.
 زمنٌ قصيرٌ ظريفٌ ضاحكٌ، تفرُّضُهُ الأديانُ على الناسِ، ليكونَ لهم بين الحينِ
 والحينِ يومٌ طبيعِيٌّ فى هذه الحياة التى انتقلت عن طبيعتها. يومُ السلام، والبشر،
 والضَّحْك، والوفاء، والإخاء، وقول الإنسان للإنسان: وأنتم بخير.
 يومُ الثياب الجديدة على الكل إشعاراً لهم بأن الوجهَ الإنسانى جديداً فى هذا
 اليوم.
 يومُ الزينة التى لا يراد منها إلا إظهار أثرها فى النفس ليكونَ الناسُ جميعاً فى
 يوم حب.

يومُ العيد؛ يومُ تقديم الحلوى إلى كل فم لتحلوا الكلمات فيه...
 يوم تَعُمُّ فيه الناسَ ألفاظُ الدعاء والتهنئة مرتفعةً بقوةِ إلهية فوق منازعات الحياة.
 ذلك اليوم الذى ينظر فيه الإنسان إلى نفسه نظرةً تلمحُ السعادة، وإلى أهله نظرةً
 تُبصر الإعزاز، وإلى داره نظرةً تُدرك الجمال، وإلى الناسِ نظرةً ترى الصداقة.
 ومن كل هذه النظرات تستوى له النظرةُ الجميلةُ إلى الحياة والعالم؛ فتبتهِجُ نفسه
 بالعالم والحياة.

وما أسماها نظرةً تكشفُ للإنسان أن الكلَّ جماله فى الكل!

وخرجتُ أجتلى العيدَ فى مظهره الحقيقى على هؤلاء الأطفال السعداء.
 على هذه الوجوه النضرة التى كبرت فيها ابتساماتُ الرضاع فصارت ضحكات.
 وهذه العيون الحاملة التى إذا بكت بكت بدموع لا ثقلَ لها.

وهذه الأفواه الصغيرة التى تنطق بأصوات لاتزال فيها نبرات الحنان من تقليد لغة الأم.
وهذه الأجسام الغضة القريبة العهد بالضمات والثلثات فلا يزال حولها جو القلب.

على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يعرفون قياسا للزمن إلا بالسرور. وكل منهم ملك فى مملكة؛ وظرفهم هو أمرهم الملوكة.
هؤلاء المجتمعين فى ثيابهم الجديدة المصبغة اجتماع قوس قزح فى ألوانه.
ثياب عملت فيها المصانع والقلوب، فلا يتم جمالها إلا بأن يراها الأب والأم على أطفالهما.
ثياب جديدة يلبسونها فيكونون هم أنفسهم ثوباً جديداً على الدنيا.

هؤلاء السحرة الصغار الذين يخرجون لأنفسهم معنى الكنز الثمين من قرشين...
ويسحرون العيد فإذا هو يوم صغير مثلهم جاء يدعوهم إلى اللعب... وينتبهون فى هذا اليوم مع الفجر، فيبقى الفجر على قلوبهم إلى غروب الشمس.
ويُلْقُونَ أنفسهم على العالم المنظور، فيبنون كل شىء على أحد المعنيين الثابتين فى نفس الطفل: الحب الخالص، واللهو الخالص.
ويبتعدون بطبيعتهم عن أكاذيب الحياة، فيكون هذا بعينه هو قربهم من حقيقتها السعيدة.

هؤلاء الأطفال الذين هم السهولة قبل أن تتعقد.
والذين يرون العالم فى أول ما ينمو الخيال ويتجاوز ويمتد.
يُفتشون الأقدار من ظاهرها؛ ولا يستبطنون كيلا يتألموا بلا طائل.

ويأخذون من الأشياء لأنفسهم فيفرحون بها، ولا يأخذون من أنفسهم للأشياء كيلا يَوجدوا لها همّ.

قانعون يكتفون بالثمرة، ولا يحاولون اقتلاع الشجرة التي تحملها.
ويعرفون كُنْه الحقيقة، وهى أن العبرة بروح النعمة لا بمقدارها...
فيجدون من الفرح فى تغيير ثوب للجسم، أكثر مما يجده القائد الفاتح فى تغيير ثوب للمملكة.

هؤلاء الحكماء الذين يُشبه كل منهم آدم أول مجيئه إلى الدنيا، حين لم تكن بين الأرض والسماء خليقةً ثالثةً معقدةً من صنع الإنسان المتحضر.
حكمتهم العليا أن الفكر السامى هو جعل السرور فكراً وإظهاره فى العمل.
وشعرهم البديع أن الجمال والحب ليسا فى شيء لا فى تجميل النفس وإظهارها عاشقة للفرح.

هؤلاء الفلاسفة الذين تقوم فلسفتهم على قاعدة عملية، وهى أن الأشياء الكثيرة لا تكثر فى النفس المطمئنة.
وبذلك تعيش النفس هادئةً مستريحة كأن ليس فى الدنيا إلا أشياءها الميسرة.
أما النفوس المضطربة بأطماعها وشهواتها فهى التى تُبتلى بهموم الكثرة الخيالية، ومثلها فى الهمّ مثل طُفيلٍ مغفل يحزن لأنه لا يأكل فى بطنين...

وإذا لم تكثر الأشياء الكثيرة فى النفس، كثرت السعادة ولو من قلة.
فالطفل يقلب عينيه فى نساء كثيرات، ولكن أمّه هى أجملهن وإن كانت شوهاء.

فأمه وحدها هي أم قلبه، ثم لا معنى للكثرة في هذا القلب.
 هذا هو السر؛ خذوه أيها الحكماء عن الطفل الصغير!
 وتأملت الأطفال، وأثر العيد في نفوسهم التي وسعت من البشاشة فوق ملئها؛
 فإذا لسان حالهم يقول للكبار: أيتها البهائم، اخلعي أرسائك ولو يوماً...
 أيها الناس، انطلقوا في الدنيا انطلاقاً الأطفال يوجدون حقيقتهم البريئة
 الضاحكة، لا كما تصنعون إذ تنطلقون انطلاق الوحش يُوجد حقيقته المفترسة.
 أحرار حريّة نشاط الكون ينبعث كالقوّضى، ولكن في أدق النواميس.
 يُثيرون السخَط بالضحيج والحركة، فيكونون مع الناس على خلاف، لأنهم على
 وفاق مع الطبيعة.

وتحتدم بينهم المعارك، ولكن لا تتحطّم فيها إلا اللّعب...
 أما الكبار فيصنعون المدفع الضخم من الحديد، للجسم اللين من العظم.
 أيتها البهائم، اخلعي أرسائك ولو يوماً...

لا يفرح أطفال الدار كفرحهم بطفل يُولد؛ فهم يستقبلونه كأنه محتاج إلى عقولهم
 الصغيرة.

ويملأهم الشعور بالفرح الحقيقي الكامن في سر الخلق، لقربهم من هذا السر.
 وكذلك تحمل السنّة ثم تلد للأطفال يوم العيد؛ فيستقبلونه كأنه محتاج إلى لهوهم
 الطبيعي. ويملأهم الشعور بالفرح الحقيقي الكامن في سر العالم لقربهم من هذا السر.

فيا أسفنا علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن سر الخلق بآثام العمر!
 وما أبعدنا عن سر العالم، بهذه الشهوات الكافرة التي لا تؤمن إلا بالمادة!
 يا أسفاً علينا نحن الكبار! ما أبعدنا عن حقيقة الفرحة!

تكاد آثامنا والله تجعل لنا فى كل فرحة خجلة...

أيتها الرياضُ المنورةُ بأزهارها،
أيتها الطيورُ المغردةُ بألحانها،
أيتها الأشجارُ المصفقةُ بأغصانها،
أيتها النجومُ المتألئةُ بالنور الدائم،
أنتِ شَتَّى؛ ولكنكِ جميعاً فى هؤلاء الأطفال يوم العيد!

■■■

المعنى السياسى فى العيد

ما أشدَّ حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نفهم أعيادنا فهما جديدا، نتلقاها به ونأخذها من ناحيته، فتجىء أياما سعيدة عاملة، تنبّه فيها أوصافها القوية، وتجدد نفوسنا بمعانيها، لا كما تجىء الآن كالحجة عاطلة ممسوحة من المعنى، أكبر عملها تجديد الثياب، وتحديد الفراغ، وزيادة ابتسامة على النفاق...

فالعيد إنما هو المعنى الذى يكون فى اليوم لا اليوم نفسه، وكما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم، وكان العيد فى الإسلام هو عيد الفكرة العابدة، فأصبح عيد الفكرة العابثة، وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمة فى إرادة واحدة على حقيقة عملية، فأصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليدٍ بغير حقيقة؛ له مظهر المنفعة وليس له معناها.

كان العيد إثبات الأمة وجودها الروحانى فى أجمل معانيه، فأصبح إثبات الأمة وجودها الحيوانى فى أكثر معانيه، وكان يوم استرواح القوة من جدّها، فعاد يوم استراحة الضعف من ذلّه، وكان يوم المبدأ، فرجع يوم المادة!

ليس العيد إلا إشعار هذه الأمة بأن فيها قوة تغيير الأيام، لا إشعارها بأن الأيام تتغير، وليس العيد للأمة إلا يوما تعرض فيه جمال نظامها الاجتماعى، فيكون يوم الشعور الواحد فى نفوس الجميع، والكلمة الواحدة فى السنة الجميع، يوم الشعور بالقدرة على تغيير الأيام، لا القدرة على تغيير الثياب... كأنما العيد هو استراحة الأسلحة يوما فى شعبها الحربى.

وليس العيد إلا تعليم الأمة كيف تتسع روح الجوار وتمتدّ، حتى يرجع البلد العظيم وكأنه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملى، وتظهر فضيلة

الإخلاص مُسْتَعْلَنَةٌ للجميع، ويُهدى الناسُ بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبة؛ وكأنما العيدُ هو إطلاقُ روح الأسرة الواحدة في الأمة كلها.

وليس العيدُ إلا إظهارَ الذاتية الجميلة للشعب مهزوزةً من نشاط الحياة، ولا ذاتيةً للأمم الضعيفة، ولا نشاطاً للأمم المستعبدة. فالعيدُ صوتُ القوة يهتف بالأمة: أخرجي يومَ أفراحك، أخرجي يوماً كأيام النصر!

وليس العيدُ إلا إبرازَ الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي، مفصلةً من الأجانب، لابسَةً من عمل أيديها، معلنةً بعيدها استقلالين في وجودها وصناعاتها، ظاهرةً بقوتين في إيمانها وطبيعتها، مبتهاجةً بفرحين في دورها وأسواقها؛ فكأن العيدَ يومٌ يفرح الشعب كله بخصائصه.

وليس العيدُ إلا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة الناجحة المتقدمة في طريقها، وترك الصغار يلقون دَرَسَهُم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة، ويعلمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الألفاظ التي فرغت عندهم من معانيها، وببصرونهم كيف ينبغي أن تعمل الصفات الإنسانية في الجموع عمل الحليف لحليفه، لا عمل المنابذ لمنابذه؛ فالعيدُ يومٌ تسلطُ العنصر الحي على نفسية الشعب.

وليس العيدُ إلا تعليم الأمة كيف توجه بقوتها حركة الزمن إلى معنى واحد كلما شئت؛ فقد وضع لها الدين هذه القاعدة لتخرجَ عليها الأمثلة، فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصادياً تبتم فيه الدراهم بعضها إلى بعض، وتخترع للصناعة عيدها، وتوجد للعلم عيدها، وتبتدع للفن مجالَ زينته؛ وبالجملة تُنشئ لنفسها أياماً تعمل عمل القواد العسكريين في قيادة الشعب، يقوده كل يوم منها إلى معنى من معاني النصر.

هذه المعاني السياسية القوية هي التي من أجلها فرض العيدُ مिरاثاً دهرياً في الإسلام، ليستخرجَ أهل كل زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال أمثلة مما يبدعه نشاط الأمة، ويحققه خيالها، وتقتضيه مصالحها.

وما أحسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيداً أسبوعياً يُشترط فيه الخطيبُ
والمنبر والمسجدُ الجامع إلا تهيئةً لذلك المعنى وإعداداً له؛ ففي كل سبعة أيام مسلمة
يومٌ يجيء فيُشعرُ الناسَ معنى القائد الحربى للشعب كله.
ألا ليت المنابر الإسلامية لا يخطب عليها إلا رجالٌ فيهم أرواحُ المدافع، لا رجالٌ
فى أيديهم سيوف من خشب^(١)...



(١) انظر (قصة الأيدي المتوضئة) فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

الربيع

خرجتُ أشهد الطبيعة كيف تُصبح كالمعشوق الجميل، لا يقدم لعاشقه
إلا أسباب حبه!

وكيف تكون كالحبيب، يزيد في الجسم حاسة لمس المعانى الجميلة!
وكنْتُ كالقلب المهجور الحزين، وجد السماء والأرض، ولم يجد فيهما سماءه
وأرضه.

ألا كم آلاف السنين وآلافها قد مضت منذُ أخرج آدم من الجنة! ومع ذلك فالتاريخُ
يعيد نفسه في القلب؛ لا يحزنُ هذا القلبُ إلا شعر كأنه طرد من الجنة لساعته.

يقف الشاعرُ بإزاء جمال الطبيعة، فلا يملك إلا أن يتدفق ويهتز ويطرب.
لأن السر الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس.
والشاعرُ نبيُّ هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاح الناس بالجمال والخير.
وكل حُسن يلتبس النظرة الحية التي تراه جميلاً لتُعطيهِ معناه.
وبهذا تقف الطبيعة مُحْتَفِلَةً أمام الشاعر، كوقوف المرأة الحسنة أمام المصور.

لاحت لى الأزهار كأنها ألفاظ حب رقيقة مُعشاة باستعارات ومجازات.
والنسيم حولها كثوب الحسنة على الحسنة، فيه تعبير من لابسته.
وكل زهرة كابتنسامة، تحتها أسرار من معانى القلب المعقدة.
أهى لغة الضوء الملون من الشمس ذات الألوان السبعة؟
أم لغة الضوء الملون من الخد، والشفة، والصدر، والنحر، والديباج، والحلى؟

وماذا يفهم العشاق من رموز الطبيعة فى هذه الأزهار الجميلة؟

أُنشِير لهم بالزهر إلى أن عُمَرَ اللذة قصير، كأنها تقول: على مقدار هذا؟
أَتُعَلِّمُهُم أن الفرقَ بين جميل وجميل، كالفرق بين اللون واللون، وبين الرائحة
والرائحة؟

أَتُنَاجِيهِم بأن أيامَ الحب صُورَ أيام لا حقائق أيام؟
أم تقول الطبيعة: إن كلَّ هذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين إلا بكل هذا^(١)...؟

فى الربيع تظهر ألوان الأرض على الأرض، وتظهر ألوان النفس على النفس.
ويصنع الماء صنعه فى الطبيعة فتخرج تهاويل النبات، ويصنع الدم صنعه فيخرج
تهاويل الأحلام، ويكون الهواء كأنه من شفاه متحابة يتنفس بعضها على بعض،
ويعود كل شىء يلتمع لأن الحياة كلها ينبض فيها عرق النور، ويرجع كل شىء يغنى
لأن الحب يريد أن يرفع صوته.

وفى الربيع لا يضىء النور فى الأعين وحدها، ولكن فى القلوب أيضا.
ولا ينفذ الهواء إلى الصدور فقط، ولكن إلى عواطفها كذلك.
ويكون للشمس حرارتان إحداها فى الدم.
ويطغى فيضان الجمال كأنما يراد من الربيع تجرئة منظر من مناظر الجنة فى
الأرض.

والحيوان الأعجم نفسه تكون له لفات عقلية فيها إدراك فلسفة السرور والمرح.
وكانت الشمس فى الشتاء كأنها صورة معلقة فى السحاب.
وكان النهار كأنه يضىء بالقمر لا بالشمس.
وكان الهواء مع المطر كأنه مطر غير سائل.

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما فى ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كي تنقل
اللقاح من زهرة إلى زهرة.

وكانت الحياة تضع فى أشياء كثيرة معنى عبوس الجو.
فلما جاء الربيع كان فرح جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم
من السفر.

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة.
ويشعر أنه موجود فى معانى الذات أكثر مما هو موجود فى معانى العالم.
وتمتلئ له الدنيا بالأزهار، ومعانى الأزهار، ووحى الأزهار.
وتُخرج له أشعة الشمس ربيعاً وأشعة قلبه ربيعاً آخر.
ولا تنسى الحياة عجائزها، فربيعهم ضوء الشمس...

ما أعجب سر الحياة! كل شجرة فى الربيع جمال هندسى مستقل.
ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياة فى جمال هندسى جديد
كأنك أصلحتها.
ولو لم يبق منها إلا جذر حتى أسرع الحياة فجعلت له شكلاً من غصون وأوراق.
الحياة الحياة. إذا أنت لم تفسدها جاءتك دائماً هداياها.
وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ سورة الروم الآية ٥٠.
وانظر كيف يخلق فى الطبيعة هذه المعانى التى تبهج كل حي، بالطريقة التى
يفهمها كل حي.

وانظر كيف يجعل فى الأرض معنى السرور، وفى الجو معنى السعادة.
وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملؤها وتطمئن؟
انظر انظر ! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة: لا ... ؟

عرش الورد (*)

كانت جَلْوَةُ العُروس كأنها تصنيفٌ من حُلْمٍ، توافَتْ عليه أخيلة السعادة فأبدعت إبداعها فيه، حتى إذا اتَّسَقَ وتمَّ، نقلته السعادة إلى الحياة في يوم من أيامها الفردَةِ التي لا يتفق منها في العمر الطويل إلا العدد القليل، لتُحَقِّق للحَيِّ وجودَ حياته بسحرها وجمالها، وتعطيه فيما يُنسى مالا يُنسى.

خرج الحُلْمُ السعيدُ من تحت النوم إلى اليقظة، وبرز من الخيال إلى العين، وتمثَّلَ قصيدةً بارعةً جعلت كل ما في المكان يحيا حياةَ الشعر؛ فالأنوارُ نِساءً، والنساء أنوار، والأزهار أنوار ونساء، والموسيقى بين ذلك تتمم من كل شيء معناه، والمكان وما فيه، وزُن في وزن، ونَغَم في نغم، وسحرٌ في سحر.

ورأيتُ كأنما سُحِرَتْ قطعةٌ من سماء الليل، فيها دارةُ القمر، وفيها نثرَةٌ من النجوم الزُّهر، فنزلتُ فحلَّت في الدار، يتوضَّحُن ويأتلقن من الجمال والشعاع، وفي حسن كل منهن مادة فجر طالع، فكنَّ نساء الجلوة وعروسها.

ورأيتُ كأنما سُحر الربيع، فاجتمع في عرش أخضر، قد رُصَّع بالورد الأحمر، وأقيم في صدر البَهْو ليكون منَصَّةً للعروس، وقد نُسِقت الأزهارُ في سمائه وحواشيه على نظمين: منهما مُفَصَّلٌ ترى فيه بين الزَّهرتين من اللون الواحد زهرةً تخالف لونهما، ومنهما مُكَدَّسٌ بعضُه فوق بعض، من لون متشابه أو متقارب، فبدا كأنه عُشٌّ طائر ملكي من طيور الجنة أبدع في نسجه وترصيعه بأشجار سقى الكوثرُ أغصانها.

(*) يصف المؤلف في هذه القطعة زفاف ابنته «وهيبة» إلى ابن عمها وهي أول من تزوج من ولده، وانظر «عمله في الرسالة» من كتابنا (حياة الراعي).

وقامت فى أرض العرش تحت أقدام العروسين، ربّوتان من أفانين الزهر المختلفة ألوانه، يحملهما خمل من ناعم النسيج الأخضر على غصونه اللدن تتهافت من رقتها ونعومتها.

وعقد فوق هذا العرش تاج كبير من الورد النادر، كأنما نزع عن مفرق ملك الزمن الربيعى، وتنظر إليه يسطع فى النور بجماله الساحر، سطوعا يخيل إليك أن أشعة من الشمس التى ربّت هذا الورد لا تزال عالقة به، وتراه يزدهى جلالاً، كأنما أدرك أنه فى موضعه رمز مملكة إنسانية جديدة، تألفت من عروسين كريمين. ولاح لى مراراً أن التاج يضحك ويستحى ويتدلّل، كأنما عرف أنه وحده بين هذه الوجوه الحسان يمثل وجه الورد.

ونصّ على العرش كرسيان يتوهج لون الذهب فوقهما، ويكسوهما طراز أخضر تلمع نضارته بشراً، حتى لتحسب أنه هو أيضاً قد نالته من هذه القلوب الفرحة لمسة من فرحها الحيّ.

وتدلّت على العرش قلائد المصابيح، كأنها لؤلؤ تخلق فى السماء لا فى البحر، فجاء من النور لا من الدرّ، وجاء نوراً من خاصّته أنه متى استضاء فى جوّ العروس أضاء الجو والقلوب جميعاً.

وأتى العروسان إلى عرش الورد، فجلسا جلسة كوكبين حدودهما النور والصفاء، وأقبلت العذارى يتخطّرن فى الحرير الأبيض كأنه من نور الصبح، ثم وقفن حافات حول العرش، حاملات فى أيديهن طاقات من الزنبق، تراها عطرة بيضاء ناضرة حيّية، كأنها عذارى مع عذارى، وكأنما يحملن فى أيديهن من هذا الزنبق الغضّ معانى قلوبهنّ الطاهرة، هذه القلوب التى كانت مع المصابيح مصابيح أخرى فيها نورها الضاحك. واقتعدت درج العرش تحت ربّوتى الزهر ودون أقدام العروسين، طفلة صغيرة كالزهرة البيضاء تحمل طفولتها، فكانت من العرش كلّ كاماسة المدلاة من واسطة العقد، وجعلت بوجهها للزهر كلّ تماماً وجماً، حتى ليظهر من دونها كأنه غضبان منزوّ لا يريد أن يرى.

وكان ينبعث من عينيها فيما حولها تيارٌ من أحلام الطفولة جعل المكان بمن فيه
 كأن له روحَ طفلٍ بَغْتته مَسْرَةٌ جديدة.
 وكانت جالسةً جِلْسَةً شَعْرٍ تمثل الحياةَ الهنيئةَ المبتكرةَ لساعتها ليس لها ماضٍ
 فى دنياها.
 ولو أن مُبْدِعًا افْتَنَّ فى صُنْعِ تمثالٍ للنِيةِ الطاهرة، وجىء به فى مكانها، وأُخِذَتْ
 هى فى مكانه لتشابهها وتشاكل الأمر.
 وكان وجودها على العرش دعوةً للملائكة أن تحضُرَ الزفافَ وتباركه.
 وكانت بصغرِها الظريف الجميل تعطى لكل شىءٍ تماما، فيُرى أكبرَ مما هو،
 وأكثرَ مما هو فى حقيقته. كانت النقطة التى استعلنَتْ فى مركز الدائرة، ظهورُها
 على صِغَرِها هو ظهورُ الإحكام والوزن والانسجام فى المحيط كله.

لا يكون السرورُ دائما إلا جديداً على النفس، ولا سرورٌ للنفس إلا من جديد على
 حالة من أحوالها؛ فلو لم يكن فى كل دينار قوةٌ جديدةٌ غيرُ التى فى مثله لما سُرَّ
 بالمال أحد، ولا كان له الخطرُ الذى هو له، ولو لم يكن لكل طعام جوعٌ يُورِدهُ جديداً
 على المعدة لما هنا ولا مرأ، ولو لم يكن الليلُ بعد نهار، والنهارُ بعد ليل، والفصول
 كلها نقيضاً على نقيضه، وشيئاً مختلفاً على شىءٍ مختلف لما كان فى السماء والأرض
 جمال، ولا منظرٌ جمال، ولا إحساسٌ بهما؛ والطبيعةُ التى لا تُفْلح فى جعلك معها
 طفلاً تكون جديداً على نفسك لن تُفْلح فى جعلك مسروراً بها لتكون هى جديدةً عليك.
 وعرشُ الورد كان جديداً عند نفسى على نفسى، وفى عاطفتى على عاطفتى، ومن
 أيامى على أيامى؛ نزل صباحُ يومه فى قلبى بروح الشمس، وجاء مساء ليلته لقلبى
 بروح القمر، وكنتُ عنده كالسماء أتلاً بأفكارى كما تتلأأ بنجومها، وقد جعلتنى
 أمتدُّ بسرورى فى هذه الطبيعة كلها، إذ قدّرتُ على أن أعيشَ يوماً فى نفسى، ورأيتُ
 وأنا فى نفسى أن الفرح هو سر الطبيعة كلها، وأن كلَّ ما خلق الله جمالاً فى جمال،

فإنه تعالى نورُ السموات والأرض، وما يجيء الظلام مع نوره، ولا يجيء الشرُّ مع أفراح الطبيعة إلا من محاولة الفكر الإنساني خَلَقَ أوهامه في الحياة، وإخراجه النفس من طبائعها، حتى أصبح الإنسان كأنما يعيش بنفس يحاول أن يصنعها صناعة، فلا يصنع إلا أن يزيغَ بالنفس التي فطرها الله.

يا عجباً! ينفرُ الإنسان من كلمات الاستعباد، والضعة، والذلة، والبؤس، والهم، وأمثالها، وينكرها ويردّها، وهو مع ذلك لا يبحث لنفسه في الحياة إلا عن معانيها.

إن يوماً كيوم عرش الورد لا يكون من أربع وعشرين ساعة، بل من أربعة وعشرين فرحاً؛ لأنه من الأيام التي تجعل الوقت يتقدم في القلب لا في الزمن، ويكون بالعواطف لا بالساعات، ويتواتر على النفس بجديدها لا بقديمها.

كان الشباب في موكب نصره، وكانت الحياة في ساعة صلح مع القلوب، حتى اللغة نفسها لم تكن تُلقي كلماتها إلا ممتلئة بالطرب والضحك والسعادة، آتية من هذه المعاني دون غيرها، مُصَوِّرة على الوجوه إحساسها ونوازعها، وكل ذلك سحرُ عرش الورد، تلك الحديقة الساحرة المسحورة، التي كانت النسمات تأتي من الجو ترفرف حولها متحيرة كأنما تتساءل: أهذه حديقة خُلقت بطيور إنسانية؛ أم هي شجرة ورد من الجنة بمن يتفian ظلها ويتنسّم شذاها من الحور؛ أم ذاك منبع وردى عطري نوراني لحياة هذه الملكة الجالسة على العرش؟

يا نسمات الليل الصافية صفاء الخير، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج، والعطر المنعش، والضوء المحيي؛ فإن هذه العروس المعتلية عرش الورد:

هي ابنتي...

■ ■ ■

أيها البحر! (*)

إذا احتدَمَ الصيفُ، جعلتَ أنتَ أيُّها البحرُ^(١) للزمنِ فصلاً جديداً يسمى «الربيعَ المائى».

وتنتقلُ إلى أيامكِ أرواحُ الحداثق، فتنبُتُ فى الزمنِ بعضُ الساعاتِ الشهيةِ كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره.

ويوحى لونُكَ الأزرقُ إلى النفوسِ ما كان يوحيه لونُ الربيعِ الأخضرِ، إلا إنه أرقُّ وألطف.

ويرى الشعراءُ فى ساحلكِ مثلَ ما يرونَ فى أرضِ الربيعِ، أنوثةً ظاهرة، غير أنها تلدُ المعانى لا النبات.

ويحسُّ العشاقُ عندك ما يحسُّونه فى الربيعِ: أن الهواءَ يتأوّه...

فى الربيعِ، يتحركُ فى الدمِ البشرى سرُّ هذه الأرضِ، وعند «الربيعِ المائى» يتحركُ فى الدمِ سرُّ هذه السُّحب.

نوعانِ من الخمرِ فى هواءِ الربيعِ وهواءِ البحرِ، يكونُ منهما سكرٌ واحدٌ من الطربِ. وبالربيعَيْنِ الأخضرِ والأزرقِ ينفثُ بابانِ للعالمِ السحريِّ العجيبِ: عالمِ الجمالِ الأرضيِّ الذى تدخله الروحُ الإنسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُ فى شعاعِ ابتسامةٍ ومعناها.

فى «الربيعِ المائى»، يجلسُ المرءُ، وكأنه جالسٌ فى سحابةٍ لا فى الأرضِ. ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماشِ، ويجدُ الهواءَ قد تنزَّهَ عن أن يكونَ هواءَ الترابِ.

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

(١) كتبنا فى (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر.

وتخف على نفسه الأشياء، كأن بعض المعانى الأرضية انتزعت من المادة. وهنا يدرك الحقيقة: إن السرور إن هو إلا تنبُّه معانى الطبيعة فى القلب.

وللشمس هنا معنى جديد ليس لها هناك فى «دنيا الرزق». تُشرق الشمس هنا على الجسم، أما هناك فكأنما تطلع وتغرب على الأعمال التى يعمل الجسم فيها. تطلع هناك على ديوان الموظف لا الموظف، وعلى حانوت التاجر لا التاجر، وعلى مصنع العامل، ومدرسة التلميذ، ودار المرأة. تطلع الشمس هناك بالنور، ولكن الناس - وآسفاه - يكونون فى ساعاتهم المظلمة... الشمس هنا جديدة، تثبت أن الجديد فى الطبيعة هو الجديد فى كيفية شعور النفس به.

والقمر زاه رفاف من الحسن، كأنه اغتسل وخرج من البحر. أو كأنه ليس قمراً، بل هو فجر طلع فى أوائل الليل؛ فحصرته السماء فى مكانه ليستمر الليل. فجر لا يوقظ العيون من أحلامها، ولكنه يوقظ الأرواح لأحلامها. ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُستبهِمة كأنها أحلامٌ معلقة. للقمر هنا طريقة فى إبهاج النفس الشاعرة، كطريقة الوجه العشوق حين تقبله أول مرة.

و«للربيع المائى» طيوره المغردة وفراشه المتنقل: أما الطيور فنساء يتصاحكن، وأما الفراش فأطفال يتواثبون. نساء إذا انغمسن فى البحر، خيل إلى أن الأمواج تتشاحن وتتخاصم على بعضهن...

رَأَيْتُ مِنْهُمْ زَهْرَاءَ فَاتَنَةً قَدْ جَلَسَتْ عَلَى الرَّمْلِ جَلْسَةً حَوَاءَ قَبْلَ اخْتِرَاعِ الثِّيَابِ،
فَقَالَ الْبَحْرُ: يَا إِلَهِي! قَدْ انْتَقَلَ مَعْنَى الْغَرَقِ إِلَى الشَّاطِئِ...
إِنَّ الْغَرِيقَ مَنْ غَرِقَ فِي مَوْجَةِ الرَّمْلِ هَذِهِ...

وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ وَيَصْرُخُونَ وَيَضْجُونَ كَأَنَّمَا اتَّسَعَتْ لَهُمُ الْحَيَاةُ وَالْدُنْيَا.
وَحُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَقْلَقُوا الْبَحْرَ كَمَا يُقْلِقُونَ الدَّارَ، فَصَاحَ بِهِمْ: وَيَحْكُمُ يَا أَسْمَاكَ
الْتِرَابَ.....! وَرَأَيْتُ طِفْلاً مِنْهُمْ قَدْ جَاءَ فَوْكَزَ الْبَحْرِ بِرِجْلِهِ! فَضَحَكَ الْبَحْرُ وَقَالَ:
انْظُرُوا يَا بَنِي آدَمَ!!
أَعْلَى اللَّهِ أَنْ يَعْبَأَ بِالْمَغْرُورِ مِنْكُمْ إِذَا كَفَرَ بِهِ؟ أَعْلَى أَنْ أَعْبَأَ بِهَذَا الطِّفْلِ كَيْلَا يَقُولَ
إِنَّهُ رَكَلَنِي بِرِجْلِهِ....؟

أَيُّهَا الْبَحْرُ، قَدْ مَلَأْتُكَ قُوَّةَ اللَّهِ لَتُثَبِّتَ فِرَاقَ الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.
لَيْسَ فَيْكَ مَمَالِكٌ وَلَا حُدُودٌ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ سُلْطَانٌ لِهَذَا الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ.
وَتَجِيشٌ بِالنَّاسِ وَبِالسُّفُنِ الْعَظِيمَةِ، كَأَنَّكَ تَحْمِلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ قَشًّا تَرْمِي بِهِ.
وَالْاخْتِرَاعُ الْإِنْسَانِيُّ مَهْمَا عَظُمَ لَا يُغْنِي الْإِنْسَانَ فَيْكَ عَنْ إِيْمَانِهِ.
وَأَنْتَ تَمَلَأُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ بِالْعَظْمَةِ وَالْهَوْلِ، رَدًّا عَلَى عَظْمَةِ الْإِنْسَانِ وَهَوْلِهِ
فِي الرَّبْعِ الْبَاقِي؛ مَا أَعْظَمَ الْإِنْسَانَ وَأَصْغَرَهُ!

يَنْزِلُ فِي النَّاسِ مَا نَكُ فَيَتَسَاوَوْنَ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ ظَاهِرٌ عَنْ ظَاهِرٍ.
وَيُرَكِّبُونَ ظَهْرَكَ فِي السُّفُنِ فَيَحِنُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى لَا يَخْتَلِفَ بَاطِنٌ عَنْ بَاطِنٍ.
تُشْعِرُهُمْ جَمِيعًا أَنَّهُمْ خَرَجُوا مِنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَمِنْ أَحْكَامِهَا الْبَاطِلَةِ.
وَتُفْقِرُهُمْ إِلَى الْحُبِّ وَالصَّدَاقَةِ فَقَرًّا يُرِيهِمُ النُّجُومَ نَفْسَهَا كَأَنَّهَا أَصْدِقَاءُ، إِذْ عَرَفُوهَا
فِي الْأَرْضِ.

يا سحرَ الخوف، أنت أنت فى اللُّجَّة كما أنت أنت فى جهنم.

وإذا ركبك المَلْحِدُ أيها البحر، فَرَجَفْتَ من تحته، وَهَدَرْتَ عليه وَثُرْتَ به، ورَأَيْتَهُ رأى العين كأنه بين سماءين سَتَنْطَبِقُ إحداهما على الأخرى فَتَقْفَلانِ عليه، تركته يَتَطَاطَأُ ويتواضع، كأنك تهزُّ وتهزُّ أفكاره معًا، وتُدَحْرِجُهُ وتدَحْرِجُها. وأُطِرْتَ كلُّ ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل. وكشفت له عن الحقيقة: إن نسيانَ الله ليس عمَلُ العقل، ولكنه عملُ الغفلة والأمنِ وطولِ السلامة.

ألا ما أشبهَ الإنسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر! إن ارتفعت السفينة، أو انخفضت، أو مادت، فليس ذلك منها وحدها، بل مما حولها. ولن تستطيع هذه السفينة أن تملك من قانون ما حولها شيئًا، ولكن قانونها هو الثبات، والتوازن، والاهتداء إلى قصدها، ونجاتها فى قانونها. فلا يَعْتَبِنُ الإنسانُ على الدنيا وأحكامها، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه.

■ ■ ■

فى الربيع الأزرق^(١)

خواطر مرسلّة (*)

ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين البحر والسماء، يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ
نفسه مرسوماً فى صورة إلهية.

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينى طفل يتخيل أن البحر قد ملئ بالأمس، وأن
السماء كانت إناء له، فانكفاً الإناء فاندفق البحر، وتسرحتُ مع هذا الخيال الطفلى
الصغير فكأنما نالنى رشاش من الإناء....
إننا لن ندرك روعة الجمال فى الطبيعة إلا إذا كانت النفس قريبةً من طفولتها،
ومرح الطفولة، ولعبها، وهذيانها.

تبدو لك السماء على البحر أعظم مما هى، كما لو كنت تنظر إليها من سماء أخرى
لا من الأرض.

إذا أنا سافرتُ فجئتُ إلى البحر، أو نزلتُ بالصحراء، أو حللتُ بالجبل، شعرتُ
أول وهلة من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبل أو الصحراء أو البحر
قد سافرتُ هى وجاءت إلى.

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر، وقد شاع استعمالها بعد نشر هذه المقالة.

فى جمال النفس يكون كلُّ شىء جميلاً؛ إذ تلقى النفس عليه من ألوانها، فتقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها فى سعة النفس لا فى مساحتها هى، وتعرف لنور النهار عذوبة كعذوبة الماء على الظمأ، ويظهر الليلُ كأنه معرضُ جواهرٍ أقيم للحوار العين فى السماوات، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنة سابحة فى الهواء. فى جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليفة؛ وى كأن الله أمرَ العالم ألا يعبسَ للقلب المبتسم.

أيامُ المصيف هى الأيامُ التى ينطلق فيها الإنسان الطبيعى المحبوس فى الإنسان؛ فيرتدُّ إلى دهره الأول، دهر الغابات والبحار والجبال. إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى، لم يكن فيها معنى.

ليست اللذة فى الراحة ولا الفراغ، ولكنها فى التعب والكدح والمشقة حين تتحول أياماً إلى راحة وفراغ.

لا تتمُّ فائدة الانتقال من بلد إلى بلد إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور؛ فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرح.

الحياة فى المصيف تثبت للإنسان أنها إنما تكون حيث لا يحفلُ بها كثيراً.

يشعر المرء فى المَدُن أنه بين آثار الإنسان وأعماله، فهو فى رُوح العناء والكدح والنزاع، أما فى الطبيعة فيُحسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلهية، فهو هنا فى رُوح اللذة والسرور والجلال.

إذا كنتَ في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفرَّغهُ للنَّبتِ والشجر، والحجر
والمَدَر، والطير والحيوان، والزهر والعُشب، والماء والسماء، ونور النهار، وظلام
الليل، حينئذ يَفْتَحُ العالَمُ بابَه ويقول: ادخل ...

لُطْفُ الجمال صورةٌ أخرى من عَظَمَةِ الجمال؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من
الماء تلمعُ في غصن، فخيَّلَ إلى أن لها عَظَمَةَ البحر لو صَغُرَ فعُلِقَ على ورقة.

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية حين يفورُ شعْرُ الجمالِ في الدم، أَطْلُتُ
النظرَ إلى وردة في غصنها زاهية عَطرَة، متأنقة، متأنثة؛ فكدت أقول لها: أنت
أيتها المرأة، أنت يا فلانة....

أليس عجيباً أن كلَّ إنسان يرى في الأرض بعضَ الأمكنة كأنها أمكنةٌ للروح
خاصة؛ فهل يدلُّ هذا على شيءٍ إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحواء، لا يزال يعملُ
في النفس الإنسانية؟

الحياةُ في المدينة كَشْرَبِ الماء في كُوب من الخَزَف، والحياةُ في الطبيعة كَشْرَبِ
الماء في كُوب من البلُّور الساطع؛ ذاك يحتوى الماء وهذا يحتويه ويُبدي جماله للعين.

وآسفاً، هذه هي الحقيقة: إن دَقَّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها كدقة الفهم
للحب، وإن العقلَ الصغيرَ في فهمه للحب والحياة، هو العقلُ الكاملُ في التذاهِ
بهما. وآسفاً، هذه هي الحقيقة!

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلها المصيف أيام سرور ونسيان، يشعر كل إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمة هزل ودُعاة....

من لم يُرزق الفكر العاشق لم يرَ أشياء الطبيعة إلا فى أسمائها وشيأتها، دون حقائقها ومعانيها، كالرجل إذا لم يعيش رأى النساء كلهن سواء، فإذا عشق رأى فيهن نساء غير من عرف، وأصبحن عنده أدلة على صفات الجمال الذى فى قلبه.

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة، أما دنيا المصيف فقائمة بما تلذّه الحياة، وهذا هو الذى يغيّر الطبيعة ويجعل الجو نفسه هناك جو مائدة ظرفاء وظريفات....

تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً، هو إدخال بعض الشعر فى حقائق الحياة.

هذه السماء فوقنا فى كل مكان، غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء...

إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هى.

فى الساعة التاسعة أذهب إلى عملى، وفى العاشرة أعمل كيت، وفى الحادية عشرة أعمل كيت وكيت؛ وهنا فى المصيف تفقد التاسعة وأخواتها معانيها الزمنية التى كانت تضعها الأيام فيها، وتستبدل منها المعانى التى تضعها فيها النفس الحرة.

هذه هي الطريقة التي تُصنَع بها السعادة أحياناً، وهي طريقةٌ لا يقدر عليها أحدٌ في الدنيا كصغار الأطفال.

إذا تلاقى الناسُ في مكانٍ على حالةٍ متشابهةٍ من السرور وتَوْهُمِهِ والفكرةِ فيه، وكان هذا المكانُ مُعدًّا بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها، فتلك هي الروايةُ وممثلوها ومَسْرُحُهَا^(١)، أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسانِ المدينةِ ومدنيةِ الإنسانِ.

ما أصدقَ ما قالوه: إن المرئى في الرائي. مرضتُ مدةً في المصيف، فانقلبت الطبيعةُ العروسُ التي كانت تتزينُ كل يومٍ إلى طبيعةٍ عجوزٍ تذهب كلَّ يومٍ إلى الطبيب...
■ ■ ■

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح. وأن صوابها المزرع ولكن الصاحب بن عباد استعملها في قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم.

حديث قطين

جاء فى امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لهذا العام (١٩٣٤م) فى موضوع الإنشاء ما يأتى:

«تَقَابَلَ قَطَانٌ: أَحَدُهُمَا سَمِينٌ تَبَدُّو عَلَيْهِ آثَارُ النِّعْمَةِ، وَالْآخَرُ نَحِيفٌ يَدُلُّ مَنْظَرُهُ عَلَى سُوءِ حَالِهِ؛ فَمَاذَا يَقُولَانِ إِذَا حَدَّثَ كُلُّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ مَعِيشَتِهِ؟».

وقد حار التلاميذ الصغار فيما يضعون على لسان القطّين، ولم يعرفوا كيف يوجّهون الكلام بينهما، وإلى أى غاية ينصرف القول فى مُحاورتهما، وضاقوا جميعاً - وهم أطفال - أن تكون فى رءوسهم عقول السّنّانير، وأعياهم أن تنزل غرائزهم الطيبة فى هذه المنزلة من البهيمية ومن عيشها خاصّة، فيكتنوها تدبير هذه القطاط لحياتها، وينفذوا إلى طبائعها، ويندمجوا فى جلودها، ويأكلوا بأنيابها، ويمزقوا بمخالبها.

قال بعضهم: وسخطنا على أساتذتنا أشدّ السخط، وعبناهم بأقبح العيب؛ كيف لم يعلّمونا من قبل - أن نكون حميراً - وخيلاً، وبغالاً، وثيراناً، وقرّةً، وخنزير، وفئراناً، وقططةً، وما هبّ ودبّ، وما طار ودرج، وما مشى وأنساح؛ وكيف - ويحهم - لم يلقّنونا مع العربية والإنجليزية لغات النّهيق، والصّهيل، والشّحيج، والخوار، وضحك القرد، وقبّاع الخنزير، وكيف نصىء ونموء، ونلغظ لغط الطير، ونفحّ فحيح الأفعى، ونكش كشيش الذبّابات^(١)، إلى ما يتم به هذا العلم اللغوى الجليل، الذى تقوم به بلاغة البهائم والطيور والحشرات والهمج أشباهها..... ؟

وقال تلميذ خبيث لأستاذه: أما أنا فأوجزت وأعجزت. قال أستاذه: أجدت وأحسنّت، والله أنت! وتالله لقد أصبت! فماذا كتبت؟ قال: كتبت هكذا:

(١) هذه أصوات هذه الأجناس فى اللغة.

يقول السمين: ناؤ، ناؤ، ناؤ... فيقول النحيف: نؤ، ناؤ، نؤ... فيردُّ عليه السمين: نؤ، ناؤ، ناؤ... فيغضبُ النحيف، ويكشُرُ عن أسنانه، ويحرك ذيلَه ويصيح: نؤ، نؤ، نؤ... فيلطمه السمينُ فيخْدِشُه ويصرخ: ناؤ... فيثبُّ عليه النحيفُ ويضطرَّعان، وتختلط «النُّونَةُ» لا يمتاز صوتٌ من صوت، ولا يبيِّن معنى من معنى، ولا يمكنُ الفهمُ عنهما في هذه الحالة إلا بتعب شديد، بعد مراجعة قاموس القطاط... !

قال الأستاذ: يا بنى، بارك الله عليك! لقد أبدعتَ الفنَّ إبداعاً، فصنعتَ ما يصنع أكبرُ النوابع، يُظهرُ فنَّه بإظهار الطبيعة وإخفاء نفسه، وما ينطق القِطُّ بلغتنا إلا مُعْجِزَةً لنبى، ولا نبى بعد محمد ﷺ؛ فلا سبيلَ إلا ما حكيتَ ووصفتَ، وهو مذهبُ الواقع، والواقعُ هو الجديدُ فى الأدب؛ ولقد أرادوك تلميذاً هراً، فكنت فى إجابتك هراً أستاذاً، ووافقتَ السَّنَانِيرَ وخالفتَ الناسَ، وحقَّقتَ للممتحنين أرقى نظريات الفنِّ العالى، فإن هذا الفنُّ إنما هو فى طريقة الموضوع الفنية، لا فى تلفيق المواد لهذا الموضوع من هنا وهناك، ولو حفظوا حرمةَ الأدب ورعوا عهد الفن لأدركوا أن فى أسطرك القليلة كلاماً طويلاً بارعاً فى النادرة والتهكم، وغرابة العبقرية، وجمالها وصدقها، وحسن تناولها، وإحكام تأديتها لما تؤدَّى^(١)؛ ولكن ما الفرق يا بنى بين «ناؤ» بالمد، و«نؤ» بغير مد...؟ قال التلميذ: هذا عند السنانير كالإشارات التلغرافية: شَرطَةٌ ونقطة وهكذا.

قال: يا بنى، ولكن وزارة المعارف لا تُقرُّ هذا ولا تعرفه، وإنما يكون المصحح أستاذاً لا هراً... والامتحان كتابى لا شفوى.

قال الخبيث: وأنا لم أكن هراً بل كنت إنساناً، ولكن الموضوع حديث قِطِّين، والحكم فى مثل هذا لأهله القائمين به، لا المتكلِّفين له، المتطفِّلين عليه؛ فإن هم خالفونى قلتُ لهم: اسألوا القطاط؛ أو لا فليأتوا بالقِطِّين: السمين والنحيف، فليجمعوا بينهما، وليحرِّشوهما، ثم ليحضرُوا الرُّقباء هذا الامتحان، وليكتبوا

(١) هذا كلام تهكم كما هو ظاهر.

عنهما ما يسمعون، وليصفوا منهما ما يرونها، فوالذى خلقَ السنانيرَ والتلاميذَ والممتحنينَ والمصححينَ جميعاً ما يزيدُ الهرَّانَ على «نَوْ، وناوُ»، ولا يكونُ القولُ بينهما إلا من هذا، ولا يقعُ إلا ما وصفتُ، وما بُدُّ من المهارشةِ والمواثبةِ بما فى طبيعةِ القوى والضعيف، ثم فرارِ الضعيف مهزوماً، وينتهى الامتحان!

إن مثلَ هذا الموضوع يشبه تكليفَ الطالب الصغيرَ خلقَ هرَّتَيْن لا الحديثَ عنهما؛ فإن إجادةَ الإنشاء فى مثل هذا الباب ألوهيةٌ عقليةٌ نخلقُ خلقها السَّوى الجميلَ نابضاً حياً، كأنما وضعتُ فى الكلام قلبَ هرٍّ، أو جاءت بالهر له قلبٌ من الكلام، وأين هذا من الأطفال فى الحادية عشرة والثانية عشرة وما حولهما؛ وكيف لهم فى هذه السن أن يمتزجوا بدقائق الوجود، ويدخلوا أسرارَ الخليقة، ويصبحوا مع كل شيء رَهْناً بعَلِّهِ، وعند كل حقيقة موقوفين على أسبابها؟ وقد قيل لهم من قبل فى السنوات الخالية: «كن زهرةً وصف». واجعلْ نفسك حبة قَمْحٍ وقُلْ. وإنما هذا ونحوه غايةٌ من أبعد غايات النبوة أو الحكمة؛ إذ النبى تعبيرٌ إلهىٌ تتخذُه الحقيقة الكاملةُ لتتلقَى به كلمتها التى تسمى الشريعة، والحكيم وجهٌ آخرٌ من التعبير، تتخذُه تلك الحقيقة لتلقى منه الكلمة التى تسمى الفن.

وقد كان فى القديم امتحانٌ مثل هذا، لم ينجح فيه إلا واحد فقط من آلاف كثيرة، وكان الممتحن هو الله جل جلاله، والموضوع حديثُ النملة مع النمل، والناجح سليمان عليه السلام.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَكَايُهَا النَّملُ أَذْخُلُوا مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 ﴿فَنَبَسَمَ صَاحِبُهَا مِنْ قَوْلِهَا﴾ سورة النمل الآيتان ١٨، ١٩.

إن الكون كله مستقر بمعانيه الرمزية فى النفس الكاملة؛ إذ كانت الروح فى ذاتها نوراً، وكان سرُّ كل شيء هو من النور، والشعاعُ يجرى فى الشعاع كما يجرى الماء فى الماء، وفى امتزاج الأشعة من النفس والمادة تجاوبٌ روحانى هو بذاته

تعبيرٌ في البصيرة وإدراك في الذهن، وهو أساس الفن على اختلاف أنواعه: في الكلمة والصورة، والمثال والنغمة؛ أي الكتابة والشعر والتصوير والحفر والموسيقى. ومن ذلك لا يكون البيان العالى أتمَّ إشراقاً إلا بتمام النفس البليغة في فضيلتها أو رذيلتها على السواء؛ فإن من عجائب السخرية بهذا الإنسان أن يكون تمام الرذيلة في أثره في العمل الفني، هو الوجه الآخر لتمام الفضيلة في أثره في هذا العمل؛ والنقطة التي ينتهي فيها علوُّ من مُحيط الدائرة هي بعينها التي يبدأ منها الانحدارُ إلى السُّفل؛ ومن ثمَّ كانت الفنون لا تُعتبر بالأخلاق، حتى قال علماؤنا: إن الدين عن الشعر بمَعزَل. فالأصل هناك سموُّ التعبير وجماله، وبلاغةُ الأداء وروَعُها؛ ولا يكون السؤال الفني ما هي قيمة هذه النفس، ولكن ما طريقتُها الفنية؟ وأى عجب في ذلك؟ أليس لجهنم حق في كبار أهل الفن، كما للجنة حق في نوابغها؟ وإذا قالت الجنة: هذه فضائلُ البليغة. أفلا تقول الجحيمُ: وهذه بلاغةُ رذائلي؟ وكيف لعمري يستطيع إبليس أن يؤدي عمله الفني.... ويصوِّر بلاغته العالِيَّة إلا في ساقطين من أهل الفكر الجميل، وساقطات من أهل الجسم الجميل..؟

لقد بعدنا عن القطيين، وأنا أريد أن أكتب من حديثهما وخبرهما. كان القطُّ الهزيل مُرابطاً في زقاق، وقد طارد فأرةً فانْجَحَرَتْ في شِقِّ، فوقف المسكينُ يترَبَّص بها أن تخرج، ويؤامر نفسه كيف يُعالجها فيَبْتَرُها، وما عقلُ الحيوان إلا من حرفة عيشه لا من غيرها. وكان القطُّ السمينُ قد خرج من دار أصحابه يريد أن يفرِّجَ عن نفسه بأن يكون ساعةً أو بعض ساعة كالقَطْطَة بعضها مع بعض، لا كأطفال الناس مع أهليهم وذوي عنايتهم، وأبصر الهزيل من بعيد فأقبل يمشي نحوه، ورآه الهزيل وجعل يتأملُه وهو يتخلَّع تخلَّع الأسد في مشيته، وقد ملأ جلدته من كل أقطارها ونواحيها، وبَسَطَتْه النعمة من أطرافه، وانقلبت في لحمه غلظاً، وفي عَصَبه شدةً، وفي شعره بريقاً، وهو يموِّج في بدنه من قوة وعافية، ويكاد إهابه ينشقُّ سَمناً وكُدنةً. فانكسرت نفسُ الهزيل، ودخلته الحسرة، وتَضَعَّعَ لمراى هذه

النعمة مَرَحَةً مختالة. وأقبل السمين حتى وقف عليه، وأدركته الرحمة له؛ إذ رآه نحيفاً متقَبِّضاً، طاوَى البطن، بارَزَ الأضلاع، كأنما همت عظامُه أن تترك مسكنها من جلده لتجد لها مأوى آخر.

فقال له: ماذا بك، ومالى أراك مُتَيَبِّساً كالميت فى قبره غير أنك لم تمت، ومالك أعطيت الحياة غير أنك لم تحي، أو ليس الهرُّ منا صورةً مختزلةً من الأسد، فمالك - ويحك - رجعت صورةً مختزلةً من الهر؛ أفلا يسقونك اللبن، ويُطعمونك الشَّحمة واللحمة، ويأتونك بالسَّمَك، ويقطعون لك من الجبن أبيض وأصفر، ويفتنون لك الخبز فى المَرَق، ويؤثرك الطفل ببعض طعامه، وتدللك الفتاة على صدرها، وتمسحُك المرأة ببيديها، ويتناولك الرجل كما يتناول ابنه...؟ وما لجلدك هذا مُغَبَّرًا كأنك لا تَلطَّعه بلعابك، ولا تتعهده بتنظيف، وكأنك لم تر قط فتى أو فتاة يجرى الدهانُ بريقاً فى شعره أو شعرها، فتحاول أن تصنع بلعابك لشعرك صنيعهما، وأراك متزايلاً الأعضاء متفككاً حتى ضَعُفَتْ وَجَهِدَتْ، كأنه لا يركبك من حُب النوم على قَدْر من كسلك وراحتك، ولا يركبك من حب الكسل على قدر من نعيمك ورفاهتك، وكأن جنبيك لم يعرفا طِنْفَسَةً ولا حَشِيَّةً ولا وِسَادَةً ولا بِسَاطًا ولا طِرَازًا، وما أشبهك بأسد أهلكه ألا يجد إلا العُشْبَ الأخضر والهشيم اليابس، فما له لحمٌ يجىء من لحم، ولا دُمٌ يكون من دم، وانحط فيه جسمُ الأسد، وسكنت فيه روحُ الحمار!

قال الهزيل: وإن لك لحمَةً وشَحمةً، ولَبَنًا وسمكًا، وجُبْنًا وفتاتًا، وإنك لتَقْضى يومك تَلطُّعَ جِلْدِكَ ماسِحًا وغاسلاً، أو تَتَطَرَّحَ على الوسائد والطنافس نائمًا ومتمددًا؟ أما والله لقد جاءتك النعمة والبلادة معاً، وصلحت لك الحياة وفسدت منك الغريزة، وأحكمت طبعاً ونَقَضَتْ طِبَاعاً، ورَبَحْتَ شَبَعاً وخَسِرْتَ لَذَّةً، عطفوا عليك وأفقدوك أن تعطفَ على نفسك، وحملوك وأعجزوك أن تستقلَّ، وقد صرت معهم كالدَّجاجة تُسَمَّنُ لَتُذْبَحَ، غير أنهم يذبحونك دَلاًلاً ومَلالاً.

إنك لتأكلُ من خِوانِ أصحابك، وتنظرُ إليهم يأكلون، وتطمع فى مؤاكلتهم، فتشبع بالعين والبطن والرغبة ثم لا شىء غير هذا، وكأنك مُرتَبِّطٌ بحبالٍ من اللحم تأكل منها وتحتبِسُ فيها.

إن كان أول ما فى الحياة أن تأكل فأهون ما فى الحياة أن تأكل، وما يقتلك شىء كاستواء الحال، ولا يُحييك شىء كتفاوتها، والبطن لا يتجاوز البطن ولذته لذته وحدها، ولكن أين أنت عن إرثك من أسلافك، وعن العِلل الباطنة التى تحرّكنا إلى لذات أعضائنا، ومتاع أرواحنا، وتهبنا من كل ذلك وجودنا الأكبر، وتجعلنا نعيش من قبل الجسم كله، لا من قبل المعدة وحدها؟

قال السمين: تالله لقد أكسبك الفقرُ حكمةً وحياةً، وأرانى بإزائك معدوماً بزوال أسلافي منى، وأراك بإزائى موجوداً بوجود أسلافك منك. ناشدتك الله إلا ما وصفت لى هذه اللذات التى تعلو بالحياة عن مرتبة الوجود الأصغر من الشَّبع، وتستطيل بها إلى مرتبة الوجود الأكبر من الرضى؟

فقال الهزيل: إنك ضخم ولكنك أبله، أما علمت - ويحك - أن المِحنةَ فى العيش هى فكرة وقوة، وأن الفكرة والقوة هما لذة ومنفعة، وأن لهفة الحرمان هى التى تضع فى الكسب لذة الكسب، وسُعار الجوع هو الذى يجعل فى الطعام من المادة طعاماً آخر من الروح، وأن ما عدل به عنك من الدنيا لا تعوّضك منه الشَّحمة واللحمة، فإن رغباتنا لا بد لها أن تجوع وتغتنذى كما لا بد من مثل ذلك لبطوننا، ليوجد كل منهما حياته فى الحياة، والأمور المطمئنة كهذه التى أنت فيها هى للحياة أمراض مطمئنة، فإن لم تنقص من لذتها فهى لن تزيد فى لذتها، ولكن مكابدة الحياة زيادة فى الحياة نفسها.

وسر السعادة أن تكون فيك القوى الداخلية التى تجعل الأحسن أحسن مما يكون، وتمنع الأسوأ أن يكون أسوأ مما هو، وكيف لك بهذه القوة وأنت وادع قار محصور من الدنيا بين الأيدي والأرجل؟ إنك كالأسد فى القفص، صُغرت أجمته ولم تزل تصغر حتى رجعت قفصاً يحده ويحبسه، فصغر هو ولم يزل يصغر حتى أصبح حركة فى جلد؛ أما أنا فأسد على مَخالبي ووراء أنيابى، وغِيضتى أبداً تتسع ولا تزال تتسع أبداً، وإن الحرية لتجعلنى أتشمم من الهواء لذة مثل لذة الطعام، وأستروح من التراب لذة كلذة اللحم، وما الشقاء إلا خلّتان من خلال النفس: أما واحدة فأن يكون فى شرهك

ما يجعل الكثير قليلاً، وهذه ليست لمثلي مادمتُ على حدِّ الكَفَاف من العيش؛ وأما الثانية فأن يكونَ في طمعك ما يجعلُ القليلَ غيرَ قليلٍ، وهذه ليس لها مثلي مادمتُ على ذلك الحد من الكفاف. والسعادةُ والشقاءُ كالحق والباطل، كُلُّها من قِبَلِ الذات، لا من قِبَلِ الأسباب والعلل، فمن جاراها سَعِدَ بها، ومن عكسها عن مجراها فبها يشقى. ولقد كنتُ الساعةَ أختلُّ فأرةً أنجحرتُ في هذا الشق، فطَعِمْتُ منها لذةً وإن لم أطمع لحماً، وبالأمس رمانى طفل خبيث بحجر يريد عقرى فأحدث لى وجعاً، ولكن الوجعَ أحدث لى الاحتراس، وسأغشى الآن هذه الدار التى بإزائنا، فأيةُ لذة في السَّلَّة والخُطْفَةِ والاستِراقِ والانتهاج ثم الوثبُ شديداً بعد ذلك؟ هل ذقت أنت برُوحك لذةَ الفُرصة والنهزة، أو وجدتَ فى قلبك راحة المخالسة واستراق الغفلة من فأرة أو جُرْد، أو أدركت يوماً فرحةَ النجاة بعد الرُّوَغان من عابثٍ أو باغٍ أو ظالمٍ؟ وهل نالتك لذةُ الظفر حين هَوَّلَكَ طفلٌ بالضرب، فهوَلَّتَه أنت بالعضِّ والعقر، ففرَّ عنك منهزماً لا يلوى؟

قال السمين: وفي الدنيا هذه اللذات كلها وأنا لا أدري؟ هلمَّ أتوحشْ معك، ليكونَ لى مثل نُكْرِكَ وهائِكَ واحتياكَ، فيكونَ لى مثلُ راحتك المكدودة، ولذتك المتعبية، وعُمُرم المحكوم عليه منك وحدك. وسأتصدى معك للرزق أطاردُه وأوثبه، وأغاديه وأراوَحُه... فقطع عليه الهزِيل وقال:

يا صاحِبى، إن عليك من لحمك ونعمتك علامةً أسرك، فلا يلقانا أولُ طفل إلا أهوى لك فأخذك أسيراً، وأهوى علىَّ بالضرب لأنطلق حُرّاً، فأنت على نفسك بلاء، وأنت بنفسك بلاء علىَّ.

وكانت الفأرةُ التى انجحرتُ قد رأت ما وقع بينهما، فسرها اشتغالُ الشر بالشر... وطالت مراقبتها لهما حتى ظننت الفرصةَ ممكنةً، فوثبت وثبةً من ينجو بحياته ودخلت فى باب مفتوح، ولمحها الهزِيلُ، كما تلمح العينُ برقاً أو مض وانطفأ، فقال للسمين: اذهب راشداً، فحسبُك الآن من المعرفة بنفسك وموضعها من الحياة، إن الوقوفَ معك ساعةً هو ضياعُ رزق، وكذلك أمثالك فى الدنيا، هم بألفاظهم فى الأعلى وبمعانيهم فى الأسفل...

بين خروفين

«اجتمع ليلة الأضحى خروفان من أضحى العيد، فتكلّما؛ فماذا يقولان؟».

هذا هو الموضوع الذى استخرجه أصغر أولادى (الأستاذ) عبد الرحمن، وسألنى أن أكتب فيه للرسالة، وهو أصغر قرائها سنًا، تَرَفُّ عليه النّسمةُ الثالثة عشرة من ربيع حياته^(*) بارك الله له فيها حاضرةً ومُقبلةً.

ولأستاذنا هذا كلمة هي شعاره الخاصُّ به في الحياة، يحفظها لتحفظه، فلا يميلُ عن مدَرَجَتِها، ولا يَخْرُجُ من معناها، وهي هذه الكلمة العربية: «كالفَرَسِ الكريمِ في مَيِّعةِ حضره^(١)»، كلما ذهب منه شَوَطٌ جاء شَوَطٌ.. فهو يعلم من هذا أن كَرَمَ الأصلِ في كرمِ الفعل، ولا يُغْنِي شَيْءٌ منهما عن شَيْءٍ، وأن الدَمَ الحرَّ الكريمَ يكون مُضاعَفَ القوّةِ بطبيعته، عظيمَ الأملِ بهذه القوة المضاعفة، نزاعًا إلى السبق بمقدار أمله العظيم، مترفعًا عن الضعف والهويّنا بهذا النُّزوع، متميزًا في نبوغ عمله وإبداعه باجتماع هذه الخصال فيه على أتمّها وأحسنِها. فمن ثمَّ لا يرمى الحرُّ الكريم إلا أن يبلغ الأمدَ الأبعدَ في كل ما يحاوله، فلا يألُو أن يبذلَ جهده إلى غاية الطاقة ومبلغ القدرة، مستمدًّا قوّةً بعد قوّة، محقّقًا السحرَ القادرَ الذى فى نفسه، متلقّيًا منه وسائلَ الإعجاز فى أعماله، مُرسِلًا فى نبوغه من توهّج دمه أضواء كأضواء النجم، تُثَبَّتُ لكل ذى عينين أنه النجمُ لا شَيْءٌ آخر.

ولما قدّم إلى (الأستاذ) موضوعه فى هذا الوزن المدرسى - وأظنه قد نَزَعَتْه حاجةٌ مدرسيةٌ إليه - قلتُ: حُبًّا وكرامة. وهأنذا أكتبه منبعثًا فيه «كالفَرَسِ الكريمِ فى مِيعَةِ حضره»... ولعل الأستاذ حين يقرؤه لا يثوّرُ فيه علامات كثيرةً بقلمه الأحمر...!

(*) كان ذلك فى عام ١٩٣٤م.

(١) هذا كما يقال العامية: فى عز جريه.

اجتمع ليلة الأضحى خروفان من الأضاحي في دارنا: أما أحدهما فكَبَشُ أَقْرُنْ، يَحْمَلُ على رأسه من قرنيه العظيمين شجرةَ السنين، وقد انتهى سِمْنُهُ حتى ضاق جِلْدُهُ بلحمه، وَسَحَّ بدنه بالشحم سَحًّا، فإذا تحرَّك خِلْتَهُ سحابةٌ يضطربُ بعضها في بعض، ويهتَزُّ شيءٌ منها في شيء، وله وافرٌ^(١) يجرُّها خلفه جرًّا، فإذا رأيتها من بعيد حسبتها حَمَلًا يتبعُ أباه، وهو أَصَوْفٌ، قد سَبَغَ صُوفُهُ واستكثفَ وتراكم عليه؛ فإذا مشى تَبَخَّرَ فيه تبخَّرَ الغانية في حُلَّتِها، كأنما يشعر مثل شعورها أنه يلبسُ مَسَرَّاتِ جسمه لا ثوبَ جسمه، وهو من اجتماع قُوَّته وجبروته أشبه بالقلعة، يعلوها من هامته كالبرج الحربي فيه مدفعان بارزان. وتراه أبدأً مُصْعَرًا خَدَّ كأنه أمير من الأبطال، إذا جلس حيث كان شعر أنه جالسٌ في أمره ونهيه، لا يخرج أحدٌ من نهيه ولا أمره.

وأما الآخر فهو جَذَعٌ في رأس الحَوْلِ الأول من مولده، لم يدرك بعد أن يُضْحَى، ولكن جيء به للقرم إلى لحمه الغَضِّ؛ فالأول أضحى وهذا أَكُولَةٌ، وذاك يُتَصَدَّقُ بلحمه كله على الفقراء، وهذا يُتَصَدَّقُ بثُلثيه ويبقى الثلث طعامًا لأهل الدار. وكان في لينه وترجُّجه وظرفِ تكوينه ومَرَحِ طبعه، كأنما يُصوِّرُ لك المرأة أنسة رقيقةً مُتَوَدِّدة. أما ذاك الضخْمُ العاتى المتجبر الشامخ، فهو صورة الرجل الوحشي أخرجته الغابة التي تخرج الأسد والحية وجذوع الدَّوْحَةِ الضخمة، وجعلت فيه من كل شيء منها شيئًا يُخَافُ ويَتَّقَى.

وكان الجذعُ يَتَغَوَّى لا ينقطع ثَغَاؤُهُ، فقد أخذ من قطيعه انتزاعًا فأحسَّ الوحشة، وتنبهت فيه غريزة الخوف من الذئب، فزادته إلى الوحشة قَلَقًا واضطرابًا، وكان لا يستطيع أن يَنفُلتَ، فهو كأنما يهربُ في الصوت ويعدو فيه عدوا. أما الكبشُ فيرى مثل هذا مَسَبَّةً لقرنيه العظيمين، وهو إذا كان في القطيع كان كبشَه وحاميه والمُقَدَّمُ فيه، فيكون القطيعُ معه وفي كَنَفِهِ ولا يكون هو عند نفسه

(١) ألية عظيمة ويقال كبش أليان إذا كان عظيم الألية.

مع القطيع؛ فإذا فقد جماعته لم يكن في منزلة المنتظر أن يلحق بغيره ليحتمي به فيقلق ويضطرب، ولكنه في منزلة المرتقب أن يلحق به غيره طلباً لحمايته وذماره، فهو ساكن رابط الجأش مغتبط النفس، كأنما يتصدق بالانتظار..

فلما أدير النهار وأقبل الليل، جىء للخروفين بالكأ من هذا البرسيم يعتلفانه، فأحس الكبش أن في الكأ شيئاً لم يدرك ما هو، وانقبضت نفسه لما كانت تنبسط إليه من قبل، وعزته كآبة من روحه، كأنما أدركت هذه الروح أنه آخر رزقه على الأرض، فانكسر وظهر على وجهه معنى الذبح قبل أن يذبح، وعاف أن يطعم، ورجع كأول فطامه عن أمه لا يعرف كيف يأكل، ولا يتناول من أكله إلا أدنى تناول. وكأنما جثم الظلام على شحمه ولحمه؛ فإنه متى ثقل الهم على نفسه من الأنفس، ثقل على ساعتها التي تكون فيها، فتطول كآبتها ويطول وقتها جميعاً. فأراد الكبش أن يتفرج مما به، ويُنفس عن صدره شيئاً، وكان الصغير قد أنس إلى المكان والظلمة، وأقبل يعتلف ويخضم الكأ، فقال له الكبش: أراك فارهاً يا بن أخي، كأنك لا تجد ما أجد؛ إنى والله أعلم علماً لا تعلمه، وإنى لأحس أن القدر طريقه علينا في هذه الليلة، فهو مضبحنا ما من ذلك بد.

قال الصغير: أتعنى الذئب؟

قال: ليته هو، فأنا لك به لو أنه الذئب؛ إن صوفى هذا درع من أظافره، وهو كالشبكة ينشب فيها الظفر ولا يتخلص، ومن قرنى هذين ترس ورمح، فأنا واثق من إحراز نفسى فى قتله، ومن أحرز نفسه من عدوه فذاك قتل عدوه، فإن لم يقتله فقد غاظه بالهزيمة، وذاك عند الأبطال فن من القتل. وهذا القرن الملتف الأعقد المذرب كالسنان، لا يكاد يراه الذئب حتى يعلم أنه حاطمة عظامه، فيحدث له من الفزع ما تنحل به قوته، فما يواثبني إلا متخاذلاً، ولا يقدم على إلا توهم الذبيبة للخروفيّة، فإن أساس القوة والضعف كليهما فى السوس والطبيعة، غير أنه لا يعلم أنى خرجت

من الخروفية إلى الجاموسية...! فما يُعلمه ذلك إلا بقرُّ بطنه أو التطويح به من فوق هذا القرن، أقذفه قذفةً عاليةً تلقّيه من حالق، فتدقُّ عظامه وتحطم قوائمه!
قال الصغير: فماذا تخشى بعد الذنب؟ إن كانت العصا فهي إنما تضرب منك الصوف لا الظهر.

قال الكبش: ويحك! وأيّ خروف يخشى العصا؟ وهي إنما تكون عصا من يعلفها ويرعاه، فهي تنزل عليه كما تنزل على ابن آدم أقدارُ ربه، لا حطماً ولكن تأديباً أو إرشاداً أو تهويلاً؛ ومن قبلها النعمة، وتكون معها النعمة، وتجيء بعدها النعمة؛ أفبلغ الكفر ما يبلغ كفر الإنسان بنعمة ربه: إذا أنعم عليه أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسّه الشر انطلق ذا صُراخ عريض؟

وكيف تراني (ويحك) أخشى الذنب أو العصا، وأنا من سلالة الكبش الأسدي؟
قال الصغير: وما الكبش الأسدي، وكيف علمت أنك من نجله، ولا علم لي أنا إلا هذا الكلاً والعلف والماء والمراح والمغدى؟

قال الكبش: لقد أدركت أُمى وهي نعجةٌ قَحْمَةٌ كبيرة، وأدركت معها جدتي وقد أفرطَ عليها الكبرُ حتى ذهبَ فَمُها، وأدركت معهما جدى وهو كبشٌ هَرَمٌ مُتَقَدِّدٌ أعجفُ كأنه عظام مُغطاة، فعن هؤلاء أخذتُ ورويتُ وحفظتُ:

حدثتني أُمى، عن أبيها، عن أبيه، قالت: إن فخر جنسنا من الغنم يرجع إلى كبش الفداء الذى فدى الله به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان كبشاً أبيضاً أقرنَ أعين، اسمه حرير.

(قال): واعلم يا بن أخى أن مما انفردتُ أنا به من العلم فلم يدركه غيرى، أن جدنا هذا كان مكسوًّا بالحرير لا بالصوف، فلذلك سُمى حريراً...

(قالت أُمى): والمحفوظُ عند علمائنا أن ذاك هو الكبش الذى قرَّبه هابيل حين قتل أخاه، لتتمَّ البلية على هذه الأرض بدم الإنسان والحيوان معاً.

(قالوا): فتقبَّل منه وأرسل الكبش إلى الجنة فبقى يرعى فيها حتى كان اليوم الذى هم فيه إبراهيم أن يذبح ابنه تحقيقاً لرؤيا النبوة، وطاعة لما ابتلى به من ذلك

الامتحان، وليُثَبِّتَ أن المؤمن بالله إذا قوى إيمانه لم يجزع من أمر الله ولو جرَّ السكَّين على عُنُقِ ابنه، وهو إنما يجرها على ابنه وعلى قلبه!
(قالت) فهذا هو فخر جنسنا كله.

أما فخر سُلالتي أنا، فذاك ما حدثتني به جدتي، ترويه عن أبيها، عن جدّها، وذلك حين توسَّمتُ في مَخايلِ البُطولة، وَرَجْتُ أن أحفظَ التاريخ.
قالت: إن أصلنا من دِمَشق، وإنه كان في هذه المدينة رجل سَبَّاع، قد اتخذ شِبْلَ أسد فربَّاه وراضه حتى كبر، وصار يطلب الخيل، وتأذَّى به الناس، فقبل للأمير^(١): هذا السَّبُعُ قد آذى الناس، والخيلُ تنفرُ منه وتجد من ريحه ريحَ الموت، وهو ما يزال رابضاً ليلاً ونهاره على سُدَّةٍ بالقرب من دارك. فأمر فجاء به السَّبَّاعُ وأدخله إلى القصر، ثم أمر بخروف مما اتَّخَذَ في مطبخه للذبح، وأدخلوه إلى قاعة، وجاء السَّبَّاعُ فأطلق الأسدَ عليه، واجتمعوا يرون كيف يَسْطُو به ويفترسه.

قالت جدتي: فحدثني أبي، قال: حدثني جدك: أن السَّبَّاعَ أطلق الأسدَ من ساجوره^(٢) وأرسله، فكانت المعجزةُ التي لم يَفُزْ بها خروف ولم تؤثر قط إلا عن جدنا، فإنه حسب الأسدَ خروفاً أجَمَ لا قُرونَ له، ورأى دِقَّةَ خصره، وضمُورَ جنبه، ورأى له ذيلًا كالألية المُفْرِغَةِ الميته، فظنه من مَهَازيل الغنم التي قتلها الجَدَبُ، وكان هو شَبَّعان رِيَّان، فما كَذَبَ أن حَمَلَ على الأسد ونطحه، فانهزم السَّبُعُ مما أذهله من هذه المفاجأة وحسب جدُّنا سَبْعًا قد زاده الله أسلحةً من قرنيه، فاعتراه الخوفُ وأدبر لا يُلَوِي. وطمع جدُّنا فيه فاتبعه، وما زال يُطارِدُه وينطحه، والأسدُ يفرُّ من وجهه ويدورُ حول البركة، والقومُ قد غلبهم الضحك، والأمير ما يملك نفسه إعجاباً وفخراً بجدُّنا. فقال: هذا سَبُعٌ لئيم، خذوه فأخرجوه، ثم اذبحوه، ثم اسلُخوه. فأخذ

(١) هذه القصة شهدها الأمير الأديب (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة ٥٨٤ للهجرة، وقصها في كتابه (الاعتبار)، والأمير المذكور في القصة هو (معين الدين أنر) وزير شهاب الدين محمود. وقد تصرفنا في عبارة القصة.

(٢) الساجور: سلسلة الأسد والكلب ونحوهما.

الأسد وذبح، وأعتق جدنا من الذبح، وكان لنا فى تاريخ الدنيا: إنسانها وحيوانها
أثران عظيمان؛ فجدنا الأول كان فداء لابن نبى، وجدنا الثانى كان الأسد فداءه!

قال الصغير للكبش: قلت: الذبح، والفداء من الذبح؛ فما الذبح؟
قال الكبش: هذه السنّة الجارية بعد جدنا الأعظم، وهى الباقية آخر الدهر؛
فينبغى لكل منا أن يكون فداء لابن آدم!
قال الصغير: ابن آدم هذا الذى يخدمنا ويجتزئ لنا الكلاً، ويقدم لنا العلف،
ويمشى وراءنا فنسحبّه إلى هنا وهنا...؟ تالله ما أظن الدنيا إلا قد انقلبت، أولاً،
فأنت يا أبا جدى ... قد كبرت وخرفت!
قال الكبش: ويحك يا أبله! متى تتحلّل هذه العقدة التى فى عقلك؟ إنك لو علمت
ما أعلم لما اطمأنت بك الأرض، ولرجعت من القلق والاضطراب كحبة القمح فى
غربال يهتز وينتفض!

قال الصغير: أتعنى ذلك الغربال وذلك القمح وما كان فى القرية، إذ تناولت ربة
الدار غربالها تنفض به قمحها، فغافلتها ونطحت الغربال فانقلب عن يدها وانتثر
الحب، فأسرعت فيه التقاطاً حتى ملأت فمى قبل أن تزيحنى المرأة عنه؟
فهز الكبش رأسه فعلم من يريد الابتسام ولا يستطيعه، وقال: رأيت حانوت
القصاب، ونحن نمر اليوم فى السوق؟

قال: وما حانوت القصاب؟

قال: رأيت ذلك السليخ من الغنم البيض المعلقة فى تلك المعاليق، لا جلد عليها
ولا صوف، وليس لها رؤس ولا قوائم؟

قال الصغير: وما ذاك السليخ؟ إنه إن صح ما حدثتني به عن أمك، فهذه غنم
الجنة، تببت ترعى هناك ثم تجيء إلى الأرض مع الصبح، وإنى لمتربقب شمس
الغد، لأذهب فأراها وأملأ عيني منها.

قال: اسمع أيها الأبله! إن شمس الغد ستشعر بها من تحتك لا من فوقك.. لقد رأيت أخى مذ كنت جدًا مثلك، ورأيت صاحبنا الذى كان يعلفه ويُسمنه قد أخذه، فأضجعه، فجثم على صدره شرًا من الذئب، وجاء بشفرة بيضاء لامعة، فجرها على حلقة، فإذا دمه يشخب ويتفجر، وجعل المسكين ينتفض ويدّخس برجله، ثم سکن وبرد؛ فقام الرجل ففصل عنقه، ثم نحس في جلده ونفخه حتى تطبل ورجع كالقربة التى رأيتها فى القرية مملوءة ماء فحسبتها أمك، ثم شقّ فيه شقًا طويلاً. ثم أدخل يده بين الجلد والصفاق، ثم كشطه وسحف الشحم عن جنبه، فعاد المسكين أبيض لا جلد له ولا صوف عليه، ثم بقر بطنه وأخرج ما فيه، ثم حطم قوائمه، ثم شده فعلقه فصار سليخًا كغذم الجنة التى زعمت! وهذا - أيها الأبله - هو الذبح والسلخ!

قال الصغير: وما الذى أحدث هذا كله؟

قال: الشفرة البيضاء التى يسمونها السكين!

قال الصغير: فقد كانت الشفرة عند حلقة حيال فمه؛ فلماذا لم ينتزعها فيأكلها؟

قال الكبش: أيها الأبله الذى لا يعلم شيئًا ولا يحفظ شيئًا، لو كانت خضراء لأكلها!

قال: وما خطب أن تجيء الشفرة على العنق، أفلم يكن الحبل فى عنقك أنت فجعلت تجاذب فيه الرجل حتى أعيبته، ولولا أنى مشيت أمامك لما انقذت له؟

قال الكبش: ما أدرى والله كيف أفهمك أن هذا كله سيجرى عليك، فسترى أمورًا تذكرها، فتعرف ما الذبح والسلخ، ثم تصير أشلاء فى القُدور نُضرم عليها النار، فيأكلك ابن آدم كما تأكل أنت هذا الكلاً...!

قال الصغير: وماذا على أن يأكلنى ابن آدم، ألا ترانى آكل العُشب، فهل سمعت عودًا منه يقول: الرجل والسكين، والذبح والسلخ...؟

قال الكبش فى نفسه: لعمري إن قوة الشباب فى الشباب أقوى من حكمة الشيوخ فى الشيوخ، وما نفع الحكمة إذا لم تكن إلا رأيًا ليس له ما يَمْضيه، كراى الشيخ الفانى؛ يرى بعقله الصواب حين يكون جسمه هو الخطأ مركبًا فى ضعفه غلطة على

غلطة لا عضوًا على عضو...؟ وهل الرأي الصحيح للعالم الذي نعيش فيه إلا بالجسم الذي نعيش فيه، وما جدوى أن يعرف الكبير حكمة الموت، وهو من الضعف بحيث تنكسر نفسه للمرض الهين، فضلاً عن المرض المعضل، فضلاً عن المرض المزمن، فضلاً عن الموت نفسه، وما خطر أن يجهل الشباب تلك الحكمة، وهو من قوة النفس بحيث لا يبالى الموت، فضلاً عن المرض؟

لو أذن الشاب من الفتیان بيوم انقطاع أجله، وعلم أنه مضيحه أو ممسيه، لأمدته نفسه بأرواح السنين الطويلة، حتى يرى أن صبح الغد كأنما يأتي من وراء ثلاثين أو أربعين سنة، فما يتبينه إلا كالفكر المنسي مضي عليه ثلاثون سنة أو أربعون. ولو أذن الشيخ بيوم مضرعه، وأيقن أن له مهلة إلى تمام الحول، لطار به الذعر واستفرغه الوجل من ساعته، ورأى يومه البعيد أقرب إليه من الصبح، وابتلته طبيعة جسمه المختل بالوساوس الكثيرة، تجتلبها كما تجتلب الرياح صُدوع المنزل الخرب. فذاك بالشباب يقبض على الزمن؛ فيعيش في اليوم القصير مثل العام رخيًّا ممدودًا؛ فهو رابط جلد، وهذا بالكبر يقبض الزمن عليه فيعيش في العام الطويل مثل اليوم متلاحقًا آخره بأوله، فهو قلق طائر. ولا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشعور به، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفس في الأيام.

ثم إن الكبش نظر فرأى الصغير قد أخذته عينه واستثقل نومًا، فقال: هنيئًا لمن كان فيه سرُّ الأيام الممدودة. إن هذا السرُّ هو كسر النبات الأخضر، لا يُقطع من ناحية إلا ظهر من غيرها ساخرًا هازئًا، قائلاً على المصائب: هأنذا... فهذا الصغير ينام ملء عينيه والشفرة محدودة له، والذبح بعد ساعات قليلة، كأنما هو في زمنين، أحدهما من نفسه، فبه ينام، وبه يلهو، وبه يسخر من الزمن الآخر وما فيه وما يجلبه.

إن الألم هو فهم الألم لا غير. فما أقبح علم العقل إذا لم يكن معه جهل النفس به وإنكارها إياه. حسب العلم والعلماء في السخرية بهم وبه هذه الحقيقة من النفس.

أنا لو ناطحتُ كبشاً من قُرومِ الكِبَاشِ، ووقفتُ أفكر وأدبّر وأتأمل، وأعتبرُ شيئاً بشيءٍ ذهب فكرى بقوتى، واسترخى عَصَبِي، وتحلّل غضبي كُلّه، وكان العلمُ وبالا على؛ فإن حاجتى حينئذٍ إلى الروح وقواها وأسبابها أضعاف حاجتى إلى العلم، والروح لا تعرف شيئاً اسمه الموتُ، ولا شيئاً اسمه الوجعُ؛ وإنما تعرف حظّها من اليقين، وهدوءها بهذا الحظ، واستقرارها مؤمنةً ما دامت هادئةً مستيقنةً.

وقد والله صدّقَ هذا الجذعُ الصغير؛ فما على أحدنا أن يأكله الإنسان؟ وهل أكلنا نحن هذا العُشبَ، وأكل الإنسان إيانا، وأكل الموت الإنسان - هل كلُّ ذلك إلا وضعٌ للخاتمة في شكل من أشكالها؟

يُشبهه والله إن أنا احتججتُ على الذبح واغتممتُ له، أن أكونَ كخروف أحرق لا عقل له، فظنَّ إطعامَ الإنسان إياه من باب إطعامه ابنه وابنته وامرأته ومن تجب عليه نفقته! وهل أوجبَ نفقتى على الإنسان إلا لحمي؟ فإذا استحقَّ له فلعمري ما ينبغي لى أن أزعم أنه ظلمنى اللحم إلا إذا أقررتُ على نفسى بدياً أنى أنا ظلمتُ العلفَ وسرقته منه.

كلُّ حىٍّ فإنما هو شيءٌ للحياة أعطيتها على شرطها، وشرطها أن تنتهى؛ فسعادته فى أن يعرفَ هذا ويقرّرَ نفسه عليه حتى يستيقنه، كما يستيقنُ أن المطرَ أول فصل الكَلأ الأخضر. فإذا فعل ذلك وأيقن واطمأن، جاءت النهايةُ متممةً له لا ناقصةً إياه، وجرتْ مع العمر مجرى واحداً وكان قد عرفها وأعدَّ لها. أما إذا حسب الحىُّ أنه شيءٌ فى الحياة، وقد أعطيتها على شرطه هو، من تَوْهُم الطمع فى البقاء والنعيم، فكلُّ شقاء الحى فى وهمه ذاك، وفى عمله على هذا الوهم؛ إذ لا تكون النهايةُ حينئذٍ فى مجيئها إلا كالعقوبة أنزلتْ بالعمر كُلّه، وتجيء هادمةً منغصةً، ويبلغ من تنكيدها أن تسبقها آلامها؛ فتؤلم قبل أن تجيء، شرّاً مما تؤلم حين تجيء!

لقد كان جدّى والله حكيماً يوم قال لى: إن الذى يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعِدّاً لها؛ فإن كان مُعِدّاً لها عاش راضياً بها، فإن عاش راضياً بها كان عمره فى حاضر مستمر، كأنه فى ساعة واحدة يشهد أولها ويحس آخرها، فلا يستطيع الزمن

أن يَنْغَصَّ عليه ما دام ينقاد معه وينسجم فيه، غيرَ محاول في الليل أن يُبْعَدَ الصبح، ولا في الصبح أن يُبْعَدَ الليل. قال لى جدى: والإنسان وحده هو التَّعَس الذى يحاول طردَ نهايته، فيشقى شقاء الكبش الأخرق الذى يريد أن يطرد الليل، فيبيت ينطح الظلمة المُتَدَجِيَّة على الأرض، وهو لحمقه يظن أنه ينطح الليل بقرنيه ويزحزحه...!

وكم قال لى ذلك الجد الحكيم وهو يعطى: إن الحيوان منا إذا جمع على نفسه همًّا واحدًا، صار بهذا الهم إنسانًا تَعِسًا شقيًّا، يُعطى الحياة فيقلبُها بنفسه على نفسه شيئًا كالموت، أو موتًا بلا شيء...!

* * *

وتحرك الصغير من نومه، فقال له الكبش: إنه ليقع فى قلبى أنك الساعة كنت فى شأن عظيم، فما بالك منتفخًا وأنت ههنا فى المنخر لا فى المرعى!
قال الصغير: يا أخا جدى.... لقد تحققت أنك هَرِمْتَ وخَرِفْتَ، وأصبحت تَمُجُّ اللَّعَابَ والرأى....!
قال الكبش: فما ذاك ويلك؟

قال: إنك قلت: إن هذا الإنسان غاد علينا بالشفرة البيضاء، ووصفت الذبح والسلخ والأكل، وأنا الساعة قد نمتُ فرأيت فيما أرى، أننى نطحتُ ذاك الرجل الذى جاء بنا إلى هنا، وهجُتُ به حتى صرعتُه، ثم إنى أخذتُ الشفرة بأسنانى، فثلمته فى نحره حتى ذبحته، ثم افتلذتُ منه مُضْغَةً فلكُتُها فى فمى، فما عرفتُ والله فيما عرفتُ لَخْنَا ولا عَفْنَا فى الكلا هو أقبحُ مذاقًا منه!

إن الإنسان يستطيعُ لحمنا، ويتغذى بنا، ويعيش علينا: فما أسعدنا أن نكون لغيرنا فائدةً وحياة، وإذا كان الفناء سعادةً نعطيها من أنفسنا، فهذا الفناء هو سعادةٌ نأخذها لأنفسنا. وما هلاكُ الحى لقاء منفعة له أو منفعة منه إلا انطلاق الحقيقة التى جعلته حيًّا، صارت حرةً فانطلقت تعملُ أفضلَ أعمالها.

قال الكبير: لقد صدقتَ والله، ونحن بهذا أعقلُ وأشرفُ من الإنسان؛ فإنه يقضى
العمرَ آخذًا لنفسه، متكالبًا على حظها، ولا يُعطي منها إلا بالقهر والغلبة والخوف.
تعال أيها الذابح، تعال خذ هذا اللحم وهذا الشحم؛ تعال أيها الإنسانُ لنعطيك؛
تعال أيها الشحاذ....!



الطفولتان

(عصمت) ابن فلان باشا طفلٌ مُتَرَفٌّ يكادُ ينعصرُ ليناً، وتراه يَرِفُ رَفِيفاً مما نشأ في ظلال العزّ، كأن لروحه من الرقّة مثل ظلّ الشجرة حول الشجرة. وهو بين لداته من الصّبيان كالشوكّة الخضراء في أُمْلُوْدِها الرِيّان، لها منظرُ الشوكّة، على مجسّة لينة ناعمة تُكْذِّبُ أنها شوكّة إلا أن تيبّسَ وتَوَقَّحَ.

وأبوه «فلان» مديرٌ لمديرية كذا، إذا سُئِلَ عنه ابنه قال: إنه مدير المديرية. لا يكاد يعدو هذا التركيب، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعل أباه مديراً مرّتين.... وكثيراً ما تكون النعمة بذيئةً وقاحاً سيئةً الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيراً ما يكون الغنى في أهله غنى من السيئات لا غير!

وفى رأى (عصمت) أن أباه من علوّ المنزلة كأنه على جناح النّسر الطائر في مَسْبَحِهِ إلى النجم، أما آباء الأطفال من الناس فهم عنده من سُقُوطِ المنزلة على أجنحة الذباب والبعوض!

ولا يغدو ابن المدير إلى مدرسته ولا يَتَرَوَّحَ منها إلا وراءه جُنْدَى يمشى على أثره في الغدوة والروحة إذ كان ابن المدير، أى ابن القوة الحاكمة، فيكون هذا الجندى وراء هذا الطفل كالمُنْبَهَةِ له عند الناس، تُفْصِحُ شارته العسكرية بلغات السابلة جمعاء أن هذا هو ابن المدير. فإذا رآه العربى أو اليونانى، أو الطليانى أو الفرنسى، أو الإنجليزى أو كائنٌ من كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يفهم لسان منها عن لسان فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابن المدير، وأنه من الجندى الذى يتبّعهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح....!

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرف الصّبيانى. لو أنه يوم وُلِدَ لم يولد ابن ساعته كأطفال الناس، بل وُلِدَ ابنَ عشر سنين كاملة لتشهد له الطبيعة أنه كبيرٌ قد انصدعت به مُعْجِزة! وإلا فكيف يمشى الجندى من جنود الدولة وراء طفل

فيتبعه ويخدمه وينصاع لأمره، وهذا الجندي لو كان طريد هزيمة قد فرّ في معركة من معارك الوطن، وأريد تخليده في هزيمته وتخليدها عليه بالتصوير لما صوّر إلا جندياً في شارته العسكرية منقاداً لمثل هذا الطفل الصغير كالخادم، في صورة يُكتب تحتها: «نُفَايَةُ عَسْكَرِيَّة!».

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه في مصر إلا تأويل واحد: هو أن مكان الشخصيات فوق المعاني، وإن صغرت تلك وجلّت هذه؛ ومن هنا يكذب الرجل ذو المنصب، فيُرفع شخصه فوق الفضائل كلها، فيكبر عن أن يكذب فيكون كذبه هو الصدق، فلا يُنكر عليه كذبه أي صدقه....! ويخرج من ذلك أن يتقرر في الأمة أن كذب القوة صدق بالقوة!

وعلى هذه القاعدة يُقاس غيرها من كل ما يُخذل فيه الحق. ومتى كانت الشخصيات فوق المعاني السامية طِفقت هذه المعاني تموج موجهها محاولة أن تعلو، مُكرهة على أن تنزل؛ فلا تستقيم على وجهة ولا تنتظم على طريقة، وتُقبل بالشيء على موضعه، ثم تَكُرّ كرها فتدبر به إلى غير موضعه، فتضل كل طبقة من الأمة بكبرائها، ولا تكون الأمة على هذه الحالة في كل طبقاتها إلا صغاراً فوقهم كبارهم، وتلك هي تهيئة الأمة للاستعباد متى ابتليت بالذي هو أكبر من كبارها؛ ومن تلك تنشأ في الأمة طبيعة النفاق يحتمي به الصغر من الكبر، وتنتظم به ألفة الحياة بين الذلة والصولة!

وتخلف الجندي ذات يوم عن موعد الرواح من المدرسة، فخرج (عصمت) فلم يجده، فبدا له أن يتسكع في بعض طرق المدينة لينطلق فيه ابن آدم لا ابن المدير، وحنّ حنينه إلى المغامرة في الطبيعة، ولبست الطرق في خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويتهوّشون ويتعابثون ويتشاحنون، وهم شتّى وكأنهم أبناء بيت واحد مسّت بكل من كل رحم، إذ لا ينتسبون في اللهو إلا إلى الطفولة وحدها.

وانساق (عصمت) وراء خياله، وهرب على وجهه من تلك الصورة التي يمشى فيه الجندي وراء ابن المدير، وتغلغل في الأزقة لا يبالي ما يعرفه منها وما لا يعرفه إذ كان يسير في طرق جديدة على عينه كأنما يحلم بها في مدينة من مدن النوم. وانتهى إلى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى، فانتبذ ناحية ووقف يصغى إليهم متهيّباً أن يُقدّم، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان، وتسمّع فإذا خبيثٌ منهم يعلم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو اعتدى عليه، فيقول له: اضرب أينما ضربت، من رأسه، من وجهه، من الحلقوم، من مرقّ البطن، قال الآخر: وإذا مات؟ فقال الخبيث: وإذا مات فلا تقل إنى أنا علمتُك....!

وسمع طفلاً يقول لصاحبه: أما قلت لك: إنه تعلم السرقة من رؤيته للصوص فى السيما؟ فأجابه صاحبه: وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السيما كن لَصاً واعمل مثلنا؟

وقام منهم شيطان فقال: يا أولاد البلد، أنا المدير! تعالوا وقلوا لى: «يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات..» فقال الأولاد فى صوت واحد: «يا سعادة الباشا، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات» فردّ عليهم (سعادته): اشترؤا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة، وأنا أدفع لهم المصروفات. فنظر إليه خبيث منهم وقال: يا سعادة المدير، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء؟ وقال طفل صغير: أنا ابنك يا سعادة المدير، فأرسلنى إلى المدرسة وقت الظهر فقط...!

وكان (عصمت) يسمع ونفسه تهتز وترف بإحساسها، كالورقة الخضراء عليها طلّ الندى، وأخذ قلبه يتفتح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس، وسكر بما يسكر به الأطفال حين تقدّم لهم الطبيعة مكان اللهو معداً مهياً كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة، وتماّم لذتها أن الزمن فيها منسى، وأن العقل فيها مُهمَل...

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيّتهم وسجيّتها إنما هي المدرسة التي لا جدران لها، وهي تربية الوجود للطفل تربيةً تتناول له من أدقّ أعصابه فتبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت، وتفرّغه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد وبذلك تكسبه نمو نشاطه، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط، فتهدّيه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له، وتجعل خطاه دائماً وراء أشياء جديدة، فتسدّده من هذا كله إلى سر الإبداع والابتكار، وتلّيه العلم الأعظم فى هذه الحياة، علم نضرة نفسه وسرورها ومرحها، وتطبعه على المزاج المتطلق المتهلّل المتفائل، وتتدفّق به على دنياه كالفيضان فى النهر، تفور الحياة فيه وتفور به، لا كأطفال المدارس الخامدين، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولا عالمه، فيكون المسكين فى الحياة ولا يجدها، ثم تراه طفلاً صغيراً، وقد جمعوا له هموم رجل كامل!

ودبت روح الأرض دبيبها فى (عصمت)، وأوحت إلى قلبه بأسرارها، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأعمار الأغبياء من أولاد الفقراء والمساكين، هم السعداء بطفولتهم، وأنه هو وأمثاله هم الفقراء والمساكين فى الطفولة، وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن، وأن الألعاب خير من العلوم، إن كانت هى طفليّة الطفل فى وقتها، أما العلوم فرجولة مُلزقة به قبل وقتها تُقرّه وتحوّله عن طباعه، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساس الرجولة، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه، ويكون فى الأول طفلاً رجلاً، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً.

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيته الواسع الذى لا يتحرّج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعى، ويتحرك حركته الطبيعية، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبّة، ولا حاملو العصي من الضباط؛ بل حق البيت الواسع أن تكون فيه الأبوة الواسعة، والأخوة التى تنفسح للمئات؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزل إلى منزل إلى منزل، على تدريج فى التوسّع شيئاً فشيئاً، من البيت، إلى المدرسة، إلى العالم.

وكان (عصمت) يحلم بهذه الأحلام الفلسفية، وطفولته تشبّ وتسترجل، ورخاوته تشتدّ وتتماسك، وكانت حركات الأطفال كأنها تحرّكه من داخله، فهو منهم كالطفل في السيمة حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين، يستطيّره الفرّح، ويتوثب فيه الطفل الطبيعي بمراحه وعنفوانه، وتتقلّص عضلاته، ويتكشّف جلده، وتجتمع قوته؛ حتى كأنه سيُظهر أحد الخصمين ويلكم الآخر فيكوره ويصرعه، ويفض معركة الضرب الحديديّ بضرِبته اللينة الحريرية..!

فما لبث صاحبنا الغريّر الناعم أن تخشّن، وما كذب أن اقتحم، وكأنما أقبل على روحه الشارع والأطفال ولهوهم وعبثهم، إقبال الجوّ على الطير الحبّيس المعلق في مسمار إذا انفرج عنه القفص، وإقبال الغابة على الوحش القنّيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها، وإقبال الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوص فأفلت من الحباله. وتقدم فادغم في الجماعة وقال لهم: أنا ابن المدير. فنظروا إليه جميعاً، ثم نظر بعضهم إلى بعض، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم، وقال منهم قائل: إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير.

فقال آخر: ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير....

فقال الثالث: ليست كأملك يا بعطيطي ولا كأم جُعَلص^(١)!

فقال الرابع: يا ويلك لو سمع جُعَلص، فإن لكَماتِه حينئذ لا تترك أمك تعرف وجهك من القفا!

قال الخامس: ومن جُعَلص هذا؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه، فأجذبّه فأعصره بين يديّ، فأعتقل رجله برجليّ، فأدفعه، فيتخاذل، فأعركه، فيخرّ على وجهه؛ فأسمّره في الأرض بمسمار!

فقال السادس: هاها! إنك تصف بأدق الوصف ما يفعله جُعَلص لو تناولك في

يده...!

(١) للعامة أسماء ونسب غريبة منها هذه.

فصاح السابع: ويلكم! ها هو ذا. جُعلص، جُعلص، جُعلص!
فتطَّير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر ضربته الريح العاصف.
وقهقه الصبى من ورائهم، فتابوا إلى أنفسهم وتراجعوا. وقال المُستَظِيل منهم: أما
إنى كنت أريد أن يعدو جعلص ورائى، فأستطردُّ إليه قليلاً أطمعه فى نفسى، ثم أرتدُّ
عليه فأخذه كما فعل «ماشيست الجبار»^(١) فى ذلك المنظر الذى شاهدناه.

وقهقه الصبيان جميعاً....! ثم أحاطوا (بعصمت) إحاطة العشاق بمعشوقة
جميلة، يحاول كلُّ منهم أن يكون المقرب المخصوص بالخطوة، لا من أجل أنه ابنُ
المدير فحسب، ولكن من أجل أن ابنَ المدير تكون معه القروش... فلو وجدت القروش
مع ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم إلى أن تنفد قروشهُ فيعود
ابن زبال...!

وتنافسوا فى (عصمت) وملاعبته والاختصاص به، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع
آبائهم ويركبهم ويركبونه، وهم بين نجار وحداد، وبنّاء وحمّال، وحوذى وطباخ؛
وأمثالهم من ذى المهنة المكسبة الضئيلة لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير،
أكبر من مطامع الآباء فى المدير.

وجرت المنافسة بينهم مجراها، فانقلبت إلى مُلاحاة، ورجعت هذه الملاحاة إلى
مشاحنة، وعاد ابنُ المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه، إن لا يقصد
أحدٌ منهم أحداً بالغيظ إلا تعتمد غيظ حبيبه، ليكون أنكأ له وأشد عليه!
وتظاهروا بعضهم على بعض، ونشأت بينهم الطوائف، وأفسدهم هذا الغنى المتمثل
بينهم. وياما أعجب إدراك الطفولة وإلهامها! فقد اجتمعت نفوسهم على رأى واحد،
فتحولوا جميعاً إلى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير، فخاطرهُ أحدُهم فى اللعب
فَقَمَرَهُ، فأبى إلا أن يعلو ظهره ويركبه، وأبى عليه ابنُ المدير ودافعه، يرى ذلك ثلماً

(١) بحار إيطالى كالمارد؛ عريض الألواح، وثيق التراكيب، يعجب الأطفال به أشد الإعجاب، وإذا
شهوده فى السیما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال إلى سن الرجولة فى ساعة واحدة.

فى شرفه ونسبه وسَطوة أبيه ، فلم يكد يعتلّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرفهم آباءهم... هاجت حتى كبرياؤهم ، وثارت دفائنهم ، ورقصت شياطين رءوسهم ؛ وبذلك وضع الغبى حقد الفقر بإزاء سُخرية الغنى ؛ فألقى بينهم مسألة المسائل الكبرى فى هذا العالم ، وطرحها للحلّ.... !

وتنفّشوا للصّولة عليه ، فسخر منه أحدهم ، ثم هزأ به الآخر ، وأخرج الثالث لسانه ، وصدمه الرابع بمنكبه ، وأفحش عليه الخامس ، ولكزه السادس ، وحثا السابع فى وجهه التراب !

وجهد المسكين أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جُدران فبطل إقدامه وإحجامه ، ووقف بينهم كما كتب الله... ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض ، فتجاذبوه يُمِرّغونه فى التراب !

وهم كذلك إذا انقلب كبيرهم على وجهه ، وانكفا الذى يليه ، وأزبح الثالث ، ولطم الرابع ، فنظروا فصاحوا جميعاً : «جُعِلْص ، جُعِلْص !» وتواثبوا يشتدّون هرباً. وقام (عصمت) يَنْتَخِلُ التراب من ثيابه وهو يبكى بدمعه ، وثيابه تبكى بترابها... ! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشردتهم صَوْلته ، فإذا جُعِلْص وعليه رَجَفَانٌ من الغضب ، وقد تَبَرَّطَمَتْ شفتُهُ ، وتَقَبَّضَ وجهه ، كما يكون «ماشيست» فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء.

وهو طفل فى العاشرة من لدات (عصمت) ، غير أنه مُحْتَنِكٌ فى سن رجل صغير ، غليظٌ عَبلٌ شديد الجبلة متراكبٌ بعضه على بعض^(١) ، كأنه جنى مُتْقاصرٌ يَهُمُّ أن يطول منه المارد ، فأَنَسَ به (عصمت) ، واطمأن إلى قوّته ، وأقبل يشكو له ويبكى !

قال جعِلْص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير... !

(١) أى شديد قتل العضل مكتنز اللحم.

قال جعلص: لَا تَبْكُ يا بن المدير. تعلَّم أن تكون جَلَدًا، فإن الضرب ليس بذل ولا عار، ولكن الدموع هي تجعله ذلاً وعارًا؛ إن الدموعَ لتجعل الرجل أنثى. نحن يا بن المدير نعيش طول حياتنا إما في ضرب الفقير أو ضرب الناس، هذا من هذا، ولكنك غنى يا بن المدير، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخمٌ مُنتفخٌ، ولكنه ينكسر بلمسة، وحشوه مثل القطن!

ماذا تتعلم في المدرسة يا بن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكل من يريد أكله، وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر، وكيف تصبر للخير يوم الخير، فتكون دائماً على الحالتين في خير؟

قال عصمت: آه لو كان معى العسكرى!

قال جعلص: ويحك، لو ضربوا عنزاً لما قالت: آه لو كان معى العسكرى!

قال عصمت: فمن أين لك هذه القوة؟

قال جعلص: من أنى أَعْتَمِلُ بيدي فأنا أَشَدُّ وإذا جعتُ أَكَلْتُ طعامى، أما أنت

فتستريحى، فإذا جعتَ أَكَلَك طعامُك، ثم من أنى ليس لى عسكرى..!

قال عصمت: بل القوة من أنك لست مثلنا في المدرسة؟

قال جعلص: نعم، فأنت يا بن المدرسة كأنك طفلٌ من ورقٍ وكراسات لا من لحم،

وكأن عظامك من طباشير! أنت يا بن المدرسة هو أنت الذى سيكون بعد عشرين سنة،

ولا يعلم إلا الله كيف يكون، وأما أنا ابن الحياة، فأنا من الآن، وعلى أن أكون «أنا»

من الآن!

أنت...

وهنا أدركهما العسكرى المسخر لابن المدير، وكان كالمجنون يطير على وجهه

فى الطرق يبحث عن (عصمت)، لا حباً فيه، ولكن خوفاً من أبيه، فما كاد يرى هذا

العَفَرَ على أثوابه حتى رنَّت صفعته على وجه المسكين جعلص.

فصعّر هذا خده، ورشق عصمت بنظره، وانطلق يعدو عدو الظّليم!
يا للعدالة! كانت الصّفة على وجه ابن الفقير، وكان الباكي منها ابن الغنى..!

* * *

وأنتم أيها الفقراء، حسبكم البطولة؛ فليس غنى بطل الحرب فى المال والنعيم،
ولكن بالجراح والمشقات فى جسمه وتاريخه.

■ ■ ■

أحلام فى الشارع (*) (١)

على عتبة (البنك) نام الغلام وأخته يفترشان الرخام البارد، ويلتحفان جوار رخامياً فى برده وصلابته على جسميهما.
الطفل مُتَكَبِّبٌ فى ثوبه كأنه جسمٌ قُطِعَ ورُكِّمَتْ أعضاؤه بعضها على بعض،
وسُجِّيتْ بثوب، ورُمى الرأس من فوقها فمال على خده.
والفتاة كأنها من الهزال رَسْمٌ مُخَطَّطٌ لامرأة، بدأها المصور ثم أغفلها إذ لم تُعجبه.
كتب الفقر عليها للأعين ما يكتبُ الذبُولُ على الزهرة: إنها صارت قشاً...
نائمةً فى صورة ميّنة، أو كميّنة فى صورة نائمة، وقد انسكب ضوء القمر على
وجهها، وبقي وجه أخوها فى الظل، كأن فى السماء ملكاً وجّه المصباح إليها
وحدها؛ إذ عرف أن الطفل ليس فى وجهه علامة هم، وأن فى وجهها هى كل همها
وهم أخوها.

من أجل أنها أنثى قد خلقت لتلد خلق لها قلبٌ يحمل الهموم ويلدها ويربّيها.
من أجل أنها أعدت للأمومة، تتألم دائماً فى الحياة آلاماً فيها معنى انفجار الدم.
من أجل أنها هى التى تزيد الوجود، يزيد هذا الوجود دائماً فى أحزانها.
وإذا كانت بطبيعتها تُقاسى الألم لا يُطاق حين تلد فرحها، فكيف بها فى الحزن...!

وكان رأس الطفل إلى صدر أخته، وقد نام مطمئناً إلى هذا الوجود النسوى، الذى
لا بد منه لكل طفل مثله، ما دام الطفل إذا خرج من بطن أمه خرج إلى الدنيا وإلى
صدرها معاً.

(*) اقرأ قصة هذه المقالة فى (عمله فى الرسالة) من كتاب حياة الراعى.

(١) منظر طفل متشرد كان هو وأخته نائمين على عتبة (البنك).

ونامت هى ويدها مُرسلةً على أخيها كيد الأم على طفلها. يا إلهى! نامت ويدها مستيقظة!

أهما طفلان؟ أم كلاهما تمثالٌ للإنسانية التى شقيت بالسعداء فعوضها الله من رحمته ألا تجد شقياً مثلها إلا تضاعفت سعادتها به؟

تمثالان يصوران كيف يسرى قلب أحد الحبيين فى الجسم الآخر، فيجعل له وجوداً فوق الدنيا، لا تصل الدنيا إليه بفقرها وغناها، ولا سعادتها وشقاها، لأنه وجود الحب لا وجود العمر، وجود سحرى ليس فيه معنى للكلمات، فلا فرق بين المال والتراب، والأمير والصعلوك؛ إذ اللغة هناك إحساس الدم، وإذ المعنى ليس فى أشياء المادة ولكن فى أشياء الإرادة.

وهل تحيا الألفاظ مع الموت، فيكون بعده للمال معنى والتراب معنى....؟ هى كذلك فى الحب الذى يفعل شبيهاً بما يفعله الموت فى نقله الحياة إلى عالم آخر، بيد أن أحد العالمين وراء الدنيا، والآخر وراء النفس.

تحت يد الأخت الممدودة ينام الطفل المسكين، ومن شعوره بهذه اليد، خف ثقل الدنيا على قلبه.

لم يبال أن نبذه العالم كله، ما دام يجد فى أخته عالم قلبه الصغير وكأنه فرخ من فراخ الطير فى عشه المعلق، وقد جمع لحمه الغض الأحمر تحت جناح أمه، فأحس أنها السعادة حين ضيق فى نفسه الكون العظيم، وجعله وجوداً من الريش.

وكذلك يسعد كل من يملك قوة تغيير الحقائق وتبديلها، وفى هذا تفعل الطفولة فى نشأة عمرها ما لا تفعل بعضه معجزات الفلسفة العليا فى جملة أعمار الفلاسفة. وما صنع الذين جُنوا بالذهب، ولا الذين فتنوا بالسلطة، ولا الذين هلكوا بالحب، ولا الذين تحطموا بالشهوات إلا إنهم حاولوا عبثاً أن يرشوا رحمة الله لتعطيهم فى الذهب والسلطة والحب والشهوات ما نولته هذا الطفل المسكين النائم فى أشعة الكواكب تحت ذراع كوكب روجه الأرضى.

ألا أن أعظم الملوك لن يستطيع بكل ملكه أن يشتري الطريقة الهنيئة التي ينبض بها الساعة قلب هذا الطفل.

وقفتُ أشهد الطفلين وأنا مستيقن أن حولهما ملائكة تصعد وملائكة تنزل؛ وقلت هذا موضع من مواضع الرحمة، فإن الله مع المنكسرة قلوبهم، ولعلّي أن أتعرض لنفحة من نفحاتها، ولعل ملكاً كريماً يقول: وهذا بائس آخر، فيرفني بجناحه رفةً ما أحوج نفسي إليها، تجدُّ بها في الأرض لمسةً من ذلك النور المتلألئ فوق الشمس والقمر. وظهر لي بناء (البنك) في ظلمة الليل من مرأى الغلامين أسود كالحا، كأنه سجن أقفل على شيطان يمسكه إلى الصبح، ثم يُفتح له لينطلق مُعمرًا، أى مخربًا.... أو هو جسمٌ جبار كفر بالله وبالإنسانية ولم يؤمن إلا بنفسه وحظوظ نفسه فمسخه الله بناءً، وأحاطه من هذا الظلام الأسود بمعانى آثامه وكفره...

يا عجباً! بطنان جائعان في أطمار بالية يبيتان على الطوى والهم، ثم لا يكون وسادهما إلا عتبة البنك! ترى من الذى لَعَن (البنك) بهذه اللعنة الحية؟ ومن الذى وضع هذين القلبين الفارغين موضعهما ذلك ليثبت للناس أن ليس البنك خزائن حديدية يملؤها الذهب، ولكنه خزائن قلبية يملؤها الحب...؟

وقفتُ أرى الطفلين رؤية فكر ورؤية شعر معاً، فإذا الفكر والشعر يمتدان بيني وبين أحلامهما، ودخلت في نفسيين مضمهما الهم واشتد عليهما الفقر، وما من شيء في الحياة إلا كادتهما وعاسرهما؛ ونمت نومتي الشعرية...

قال الطفل لأخته: هلمى فلنذهب من هنا فنقف على باب (السيما) نتفرج مما بنا، فنرى أولاد الأغنياء الذين لهم أب وأم.

انظري ها هم أولاء يرى عليهم أثر الغنى، وتعرف فيهم روح النعمة؛ وقد شبعوا... إنهم يلبسون لحماً على عظامهم؛ أما نحن فنلبس على عظامنا جلداً كجلد

الحذاء؛ إنهم أولادُ أهلِيهم، أما نحن فأولادُ الأرض، هم أطفال، ونحن حطَبُ إنسانِي
يابِس؛ يعيشون فى الحياة ثم يموتون؛ أما نحن فعيشُنَا هو سَكَرات الموت، إلى أن
نموت؛ لهم عيشٌ وموتٌ، ولنا الموتُ مكرراً.

ويَلَى على ذلكَ الطفلُ الأبيض السمين، الحَسَن البَزَّة، الأنيقِ الشاردة، ذاك الذى
يأكل الحلوى أكلَ لصٍ قد سرق طعاماً فأسرع يَحْدِرُ فى جوفه ما سرق؛ هو الغِنَى
الذى جعله يبتلعُ بهذه الشراهة، كأنما يشربُ ما يأكل، أو له حلقٌ غيرُ الحُلوق؛
ونحن - إذا أكلنا - نَغصُّ بالخبز لا أَدَمَ معه، وإذا ارتفعنا عن هذه الحالة لم نجدُ
إلا البَشِيعَ من الطعام، وأصبناه عَفِناً أو فاسداً لا يَسُوغُ فى الحلق، فإذا انخفضنا فليس
إلا ما نَتَقَمَّمُ من قُشور الأرض ومن حُتَاتِ الخبز كالدوابِّ والكلاب؛ وإن لم نجدُ ومسناً
العُدْمَ وقفنا نَتَحَيَّنُ طعامَ قوم فى دار أو نُزِّل، فنراهم يأكلون فنأكل معهم بأعيننا،
ولا نطمع أن نستطعمهم وإلا أطعمونا ضَرْباً فنكونُ قد جئناهم بألمٍ واحد فردُّونا
بألمين، ونفقد بالضرب ما كان يُمسك رَمَقْنَا من الاحتمال والصبر.

هؤلاء الأطفال يتصورون شهوةً كلما أكلوا، ليعودوا فيأكلوا؛ ونحن نتصور جوعاً
ولا نأكل، لنعود فنجوع ولا نأكل؛ وهم بين سمع أهلِيهم وبصرهم؛ ما من أنةٍ إلا وقعت
فى قلب، وما من كلمةٍ إلا وجدتُ إجابة؛ ونحن بين سمع الشوارع وبصرها، أنينٌ
ضائع، ودموعٌ غيرُ مرحومة!

آه لو كبرتُ فصرتُ رجلاً عريضاً؟ أتدريين ماذا أصنع؟

- ماذا تصنع يا أحمد؟

- إننى أخنق بيديَّ كلَّ هؤلاء الأطفال!

- سَوَاةُ لك يا أحمد، كلُّ طفل من هؤلاء له أُمٌ مثلُ أمنا التى ماتت، وله أختُ

مثلى؛ فما عسى ينزل بى لو تَكَلَّتْكَ إذا خنقك رجلٌ طويل عريض؟

- لا، لا أخنقهم، بل سأرضيهم من نفسى، أنا أريد أن أصير رجلاً مثل (المدير)

الذى رأيناه فى سيارته اليوم على حال من السطوة تعلن أنه المدير... أتدريين ماذا أصنع؟

- ماذا تصنع يا أحمد؟

- أرايتِ عربةَ الإسعافِ التى جاءت عند الظهر فانقلبت نَعْشًا للرجل الهرم المحطَّم الذى أغمى عليه فى الطريق؟ سمعتهم يقولون: إن المدير هو الذى أمر باتخاذ هذه العربة، ولكنه رجل غُفْلٌ لم يتعلم من الحياة مثلنا، ولم تُحْكَمْ تجاربُ الدنيا؛ فالذى يموت بالفُجاءة أو غيرها لا يُحييه المدير ولا غير المدير، والذى يقع فى الطريق يجدُ من الناس من يبتدرونه لنجدته وإسعافه بقلوب إنسانية رحيمة، لا بقلب سَوَاق عربة ينتظر المصيبة على أنها رزقٌ وعيش.

إن عربات الإسعاف هذه يجب أن يكونَ فيها أكل... ويجب أن تحمل أمثالنا من الطرق والشوارع إلى البيوت والمدارس؛ وإن لم يكن للطفل أم تطعمه وتؤويه فلتُصنَع له أم.

كلُّ شىء أراه لا أراه إلا على الغلط، كأن الدنيا منقلبة أو مدبرة إدارها، وما قُط رأيتُ الأمور فى بلادنا جاريةً على مجاريها؛ فهؤلاء الحكام لا ينبغي أن يكونوا إلا من أولاد صالحى الفقراء، ليحكموا بقانون الفقر والرحمة، لا بقانون الغنى والقسوة، وليتقحموا الأمور العظيمة المشتبهة بنفوس عظيمة صريحة قد نبتت على صلابة وبأس، وخُلِقَ ودين ورحمة؛ فإنه لا ينهزم فى معركة الحوادث إلا روح النعمة فى أهل النعمة، وأخلاق اللين فى أهل اللين؛ وبهؤلاء لم يبرح الشرق من هزيمة سياسية فى كل حادثة سياسية.

إن للحكم لحماً ودمًا هم لحم الحاكم ودمه فإن كان صلبًا خَشِنًا فيه رُوح الأرض ورُوح السماء فذاك، وإلا قَتَلَ اللينُ والترَفُ الحُكْمَ والحاكَمَ جميعًا. وهؤلاء الحكام من أولاد الأغنياء لا يكون لهم هم إلا أن يرفعوا من شأن أنفسهم، إذ السلطة درجة فوق الغنى، ومن نال هذه استَشَرَفَ لتلك، فإذا جمعوهما كان منهما الخُلُقُ الظالم الذى يصوّر لهم الاعتداء قوةً وسطوةً وعلوًّا، من حيث عَدَمُوا الخُلُقَ الرحيم الذى يصوّر لهم هذه القوة ضعفًا وجُبْنًا ونذالة. إن أحدهم إذا حكم وتسلط أراد أن يضرب، ثم لم تكن ضربته الأولى إلا فى المبدأ الاجتماعى للأمة، أو فى الأصل الأدبى للإنسانية.

يحرصون على ما به تمامهم، أى على السلطة، أى على الحكم؛ فيحملهم ذلك على أن يتكلفوا للحرص أخلاقه، وأن يجمعوا فى أنفسهم أسبابه؛ من المداواة والمصانعة والمهاونة، نازلاً فنازلاً إلى دركٍ بعيد، فينشرون أسوأ الأخلاق بقوة القانون ما داموا هم القوة.

— وماذا تريد أن يصنع أولاد الأغنياء يا أحمد؟

— أما أولاد الأغنياء فيجب أن يباشروا الصناعة والتجارة، ليجدوا عملاً شريفاً يُصيبون منه رزقهم بأيديهم لا بأيدي آبائهم، فإنه والله لولا العمى الاجتماعى لما كان فرق بين ابن أمير متبطل فى أملاك أبيه من القصور والضياع، وابن فقير متبطل فى أملاك المجلس البلدى من الأزقة والشوارع.

وابن الأمير إذا كان نجاراً أو حداداً أصلح السوق والشارع بأخلاقه الطيبة اللينة، وتعففه وكرمه، فيتعلم سواد الناس منه الأمانة والصدق، إذ هو لا يكذب ولا يسرق ما دام فوق الاضطرار، ولا كذلك ابن الفقير الذى يضطره العيش أن يكون تاجراً أو صانعاً، فتكون حرفته التجارة وهى السرقة، أو الصناعة وهى الغش، ويكون فى الناس أكثر عمره مادة كذب وإثم ولصوصية.

آه لو صرتُ مديراً! أتدريين ماذا أصنع؟

— ماذا تصنع يا أحمد؟

— أعمدُ إلى الأغنياء فأردُّهم بالقوة إلى الإنسانية، وأحملهم عليها حملاً، أصلح فيهم صفاتها التى أفسدها الترف واللين والنعمة، ثم أصلح ما أدخل به الفقر من صفات الإنسانية بالفقراء، وأحملهم على ذلك حملاً، فيستوى هؤلاء وهؤلاء، ويتقاربون على أصل فى الدم إن لم يلده آبائهم ولده القانون. ألا إن سقوط أمتنا هذه لم يأت إلا من تعادى الصفات الإنسانية فى أفرادها، فتقطع ما بينهم، فهم أعداء فى وطنهم، وإن كان اسمهم أهل وطنهم.

ومتى أحكمت الصفات الإنسانية فى الأمة كلها ودانى بعضها بعضاً صار قانون كل فرد كلمتين، لا كلمة واحدة كما هو الآن. القانون الآن (حقى) ونحن نريد أن يكون

(حَقَّى وواجبى) وما أهلك الفقراء بالأغنياء، ولا الأغنياء بالفقراء ولا المحكومين بالحكام إلا قانونُ الكلمة الواحدة.

أنا أحمد المدير.... لستُ المديرَ بما فى نفس أحمد، ولا بمعدته وبطنه، ولا بما يريد أحمد لنفسه وأولاده.... كلا، أنا عملُ اجتماعيٍّ منظمٌ يحكم أعمال الناس بالعدل، أنا خُلِقْتُ ثابت يوجّه أخلاقهم بالقوة، أنا الحياة الأمُّ مع الحياة الأطفال الأخوة فى هذا البيت الذى يسمى الوطن، أنا الرحمة، عندى الجنة ولكن عندى جهنم أيضاً ما دام فى الناس من يعصى، أنا بكل ذلك لست أحمد، لكنى الإصلاح.

هأنذا قد صرتُ مديراً أعسُ فى الطريق بالليل وأتفقد الناس ونوابئهم. من أرى؟ هذا طفلٌ وأختُه على عتبة البنك فى حياة كأهدامهما المرقعة، فى دُنيا تمزقتَ عليهما، قم يا بنى، لا تُرْعَ إنما أنا كأبيك، تقول: اسمك أحمد، واسم أختك أمينة؟

تقول إنك ما نمتَ من الجوع، ولكن مَضُمْتَ عينَكَ بشعاع النوم؟ يا ولدى المسكينين، بأى ذنب من ذنوبكما دَقَّتْكما الأيامُ دَقًّا وطحنتكما طحناً، وبأى فضيلة من الفضائل يكون ابنُ فلانَ باشا، وبنْتُ فلانَ باشا فى هذا العيش اللين يختاران منه ويتأنَّقان فيه، ما الذى ضرَّ الوطنَ منكما فتموتا، وما الذى نفع الوطنَ منهما فيعيشا؟ إن كنتَ يا بنى لا تملك لنفسك الانتصار من هذه الظليمة فأنا أملكها لك، وإنما أنا المظلومُ إلى أن تنتصر، وإنما أنا الضعيفُ إلى أن آخذَ لك الحق.

إلى يا بن فلان باشا وبنْتُ فلان باشا.

يا هذا عليك أخاك أحمد ولتكن به حَفِيًّا، ويا هذه، عليك أختك الآنسة أمينة.... أتأبيان، أنفَرَةً من الإنسانية، وتمردًا على الفضيلة، أحقًّا بلا واجب، دائماً قانون الكلمة الواحدة؟! خُلِقْتما أبيضين سخريةً من القدر وأنتما فى النفس من أحبوبة الزنج ومناكيد العبيد. ورفع أحمد يده....

وكان الشرطى الذى يقوم على هذا الشارع، وإليه حراسة البنك، قد تَوَسَّنَهُمَا^(١) ودخلته الرّيبة، فانتهى إليهما فى تلك اللحظة، وقبل أن تنزل يدُ سعادة المدير بالصفعة على وجه ابن الباشا وبنت الباشا كان هذا الشرطى قد ركّله برجله، فوثب قائماً واجتذب أخته وانطلقا عَدَوَا الخيل من ألْهُوبِ السَّوْطِ. وتمجّدت الفضيلة كعادتها...!.. أن مسكيناً حَلِمَ بها..



(١) توسنهما: أتاها نائمين.

أحلام فى قصر(*)

كان فلانُ ابنُ الأميرِ فلانٍ يتنَبَّلُ فى نفسه بأنه مُشْتَقٌّ ممَّن يضع القوانين لا ممَّن يخضع لها، فكان تِيَّاهًا صَلَفًا يَشْمَخُ على قومه بأنه ابنُ أميرٍ، ويختالُ فى الناس بأن له جَدًّا من الأمراء، ويرى من تَجَبُّره أن ثِيَابِيَّه على أعطافه كحدود الملكة على المملكة لأن له أصلًا فى الملوك.

وكان أبوه من الأمراء الذين وُلِدوا وفى دمهم شعاعُ السيف، وبريقُ التاج، ونخوةُ الظفر، وعزُّ القهر والغلبة؛ ولكنَّ زَمَنَه الحصار ضربَ عليه، وأفضت الدولة إلى غيره، فتراجعت فيه ملكاتُ الحرب من فتح الأرض إلى شراء الأرض، ومن تشييد الإمارات إلى تشييد العمارات، ومن إدارة معركة الأبطال إلى إدارة معركة المال، وغَبَرَ دهره يملك ويجمع حتى أصبحت دفاترُ حسابه كأنها (خريطة) مملكة صغيرة. وبعضُ أولاد الأمراء يعرفون أنهم أولادُ أمراء، فيكونون من التكبر والغرور كأنما رَضُوا من الله أن يرسلهم إلى هذه الدنيا ولكن بشروط...

وانتقل الأميرُ البخيلُ إلى رحمة الله، وترك المالَ وأخذ معه الأرقام وحدها يُحاسب عنها، فورثه ابنه وأمرَّ يده فى ذلك المال يبعثه، وكانت الأقدارُ قد كتبت عليه هذه الكلمة: غير قابل للإحسان. فمحتها بعد موت أبيه، وكتبت فى مكانها هذه الكلمة: جُمع للشيطان.

أما الشيطانُ فكان له عملٌ خاص فى خدمة هذا الشاب، كعمل خازن الثياب لسيده، غير أنه لا يُلْبِسُه ثيابًا بل أفكارًا وآراءً وأخيلةً. وكان يجهدُ أن يُدْخِلَ الدنيا كلها إلى أعصابه ليخرِجَ منها دنيا جديدةً مصنوعة لهذه الأعصاب خاصة، وهى

(*) انبعثت خواطر هذه المقالة فى نفس الراعى على أثر كتابته مقالة «أحلام فى الشارع» السابقة، ولكنه لم يكتبها إلا بعد زمان.

أعصاب مريضة ثائرة متلهبة لا يكفيها ما يكفى غيرها فلا تَبْرَحُ تسأل الشيطان بين الحين والحين: ألا توجد لذة جديدة غير معروفة؟ ألا يستطيع إبليس القرن العشرين أن يخترع لذة مبتكرة؟ ألا تكون الحياة إلا على هذه الوتيرة من صُبْحها لصُبْحها؟ كان الشاب كالذى يريد من إبليس أن يخترع كأساً تسع نهرًا من الخمر، أو يجد له امرأة واحدة وفيها كل فنون النساء واختلافهن. وكان يريد من الشيطان أن يُعِينَهُ فى اللذة على الاستغراق الروحاني ويغمره بمثل التجليات القدسية التى تنتهى إليها النفس من حدة الطرب وحدة الشوق؛ وذلك فوق طاقة إبليس، ومن ثم كان معه فى جهد عظيم حتى ضجر منه ذات مرة فهم أن يرفع يده عنه ويدعه يدخل إلى المسجد فيصلّى مع بعض الأمراء الصالحين.

وهؤلاء الفساق الكثير والمال إنما يعيشون بالاستطراف من هذه الدنيا؛ فهمهم دائماً الألد والأجمل والأعلى، ومتى انتهت فيهم اللذة منتهاها ولم تجد عاطفتهم من اللذات الجديدة ما يسعدّها، ضاقت بهم فظهرت مظهر الذى يحاول أن ينتحر، وذلك هو الملل الذى يُبْتَلون به. والفساق الغنى حين يمل من لذاته يُصبح شأنه مع نفسه كالذى يكون فى نفق تحت الأرض ويريد هناك سماء وجوًا يطير فيهما بالطيارة...

قالوا: واعترض ابن الأمير ذات يوم شحاذ مريض قد أسنَّ وعجز يتحامل بعضه على بعض، فسأله أن يحسن إليه وذكر عوّزه واختلاله، وجعل يبثّه من دُمُوعه وألفاظه. وكان إبليس فى تلك الساعة قد صرّف خواطر الشاب إلى إحدى الغانيات الممتنعات عليه، وقد ابتاع لها حلية ثمينة اشتطّ بائعها فى الثمن حتى بلغ به عشرة آلاف دينار، فهو يريد أن يهديها إليها كأنها قدر من قادر... وقطع عليه الشحاذ المسكين أفكاره المضيئة فى الشخص المضى، فكان إهانةً لخياله السامى... ووجد فى نفسه غصاصة من رؤية وجهه، واشماز فى عروقه دمُ الإمارة، وتحركت الوراثة الحربية فى هذا الدم...

ثم ألقى الشيطانُ إلقاءه عليه، فإذا هو يرى صاحبَ الوجه القَدِر كأنما يتهمك به يقول له: أنت أميرٌ يبحثُ الناسُ عن الأمير الذى فيه فلا يجدون إلا الشيطان الذى فيه، وليس فيك من الإمارة إلا مثلُ ما يكون من التاريخ فى الموضع الأثرى الخرب، ولن تكون أميراً بشهادة عشرة آلاف دينار عند مؤمس، ولكن بشهادة هذا المال عند عشرة آلاف فقير. أنت أمير، فهل تثبتُ الحياة أنك أمير أو لهذا معنى فى كلمة من اللغة؟ إن كانت الحياة فأين أعمالك، وإن اللغة فهذه لفظةٌ بائدة تدل فى عصور الانحطاط على قسطٍ حاملها من الاستبداد والطغيان والجبروت، كأن الاستبداد بالشعب غنيمةٌ يتناهبها عظماءه، فقسّم منها فى الحاكم وقسّم فى شبه الحاكم يترجم عنه فى اللغة بلقب أمير.

ألا قل للناس أيها الأمير: إن لقبى هذا إنما هو تعبيرُ الزمن عما كان لأجدادى من الحق فى قتل الناس وامتهانهم...

وكان هذا كلاماً بين وجه الشحاذ وبين نفس ابن الأمير فى حالة بخصوصها من أحوال النفس، فلا جرم أهين الشحاذ وطُرد ومضى يدعو بما يدعو.

ونام ابنُ الأمير تلك الليلة فكانت خياله^(١) من دنيا ضميره وضمير الشحاذ: فرأى فيما يرى النائم أن ملكاً من الملائكة يهتف به:

ويلك! لقد طردت المسكين تخشى أن تنالك منه جراثيمُ تمرضُ بها، وما علمت أن فى كل سائل فقير جراثيمَ أخرى تمرضُ بها النعمة؛ فإن أكرمته بقيت فيه، وإن أهنته نفّضها عليك. لقد هلك اليوم نعمتك أيها الأمير، واسترد العارية صاحبها، وأكلت الحوادث مالك فأصبحت فقيراً محتاجاً تروم الكسرة من الخبز فلا تتهيأ لك إلا بجهد وعمل ومشقة؛ فاذهب فأكدح لعيشك فى هذه الدنيا، فما لأبيك حق على الله أن تكون عند الله أميراً.

(١) الخيالة: ما يتراءى للنائم من الأشباح فى نومه.

قالوا: وينظر ابنُ الأمير فإذا كلُّ ما كان لنفسه قد تركه حين تركه المال، وإذا الإمارة كانت وهماً فرضه على الناس قانونُ العادة، وإذا التعاضم والكبرياء والتجبر ونحوها إنما كانت مَكْرًا من المَكْرِ لإثبات هذا الظاهر والتعزُّز به. وينظر ابنُ الأمير، فإذا هو بعد ذلك صُعلوكُ أبتَر مُعْدِم رَثُ الهيئة كذلك الشحاذ، فيصيح مغتاضاً: كيف أهملتني الأقدار وأنا ابنُ الأمير؟

قالوا: ويهتفُ به ذلك الملك: ويحك إن الأقدار لا تُدَلُّ أحداً، لا ملكاً ولا ابنَ ملك، ولا سُوقياً ولا ابنَ سُوقى، ومتى صرتم جميعاً إلى التراب فليس فى التراب عظمٌ يقول لعظم آخر: أيها الأمير....

قالوا: وفكّر الشاب المسكينُ فى صواحيه من النساء، وعندهن شبابهُ وإسرافهُ، ونفقاته الواسعة، فقال فى نفسه: أذهب لإحداهن؛ وأخذ سَمْتَهُ إليها، فما كادت تعرفه عيناها فى أسماله وبذائته وفقره أمرتْ به فجراً بيديه ودُفع فى قفاه. ولكن دمُ الإمارة نزا فى وجهه غضباً، وتحركت فيه الوراثة الحربية، فصاح وأجلب واجتمع الناس عليه واضطربوا، وماج بعضهم فى بعض. فبينما هو فى شأنه حانت منه التفاتة فأبصر غلاماً قد دخل فى عُمارِ الناس، فدسَّ يده فى جيب أحدهم فنشل كيسه ومضى.

قالوا: وجرى فى وهم ابنِ الأمير أن يلحق بالغلام فيكبسه كبسة الشرطى وينتزع منه الكيس وينتفع بما فيه، فتسلَّل من الزحام وتبع الصبى حتى أدركه ثم كبسه وأخذ الكيس منه وأخرج الكنز، فإذا ليس فيه إلا خاتمٌ وحجابٌ وبعضُ خرزات مما يتبرك العامة بحمله، ومفتاح صغير...

فامتلاً غيظاً وفار دمُ الإمارة وتحركت الوراثة الحربية التى فيه. وألم الصبى بما فى نفسه، وحدسَ على أنه رجل أفاقٌ مُتَبَطِّل، لانفادَ له فى صناعة يرتزق منها، فرثى لفقره وجهله ودعاه إلى أن يعلمه السرقة وأن يأخذه إلى مدرستها. وقال: إن لنا

مدرسة، فإذا دخلت القسم الإعدادي منها تعلمت كيف تحمل المِكتَل^(١) فتذهب كأنك تجمع فيه الخِرْقَ البالية من الدور حتى إذا سَنَحَتْ لك غَفلة انسلت إلى دار منها، فسرقت ما تناله يَدُك من ثوب أو متاع، ولا تزال في هذا الباب من الصنعة حتى تُحْكِمَه، ومتى حذقته ومَهَرْتَ فيه انتقلت إلى القسم الثانوى...

فصاح ابن الأمير: اُغْرُبْ عني، عليك وعليك، أخزأك الله! ولعن الله الإعدادي والثانوى معًا.

ثم إنه رمى الكيس فى وجه الغلام وانطلق، فبينما هو يمشى وقد توزَّعتْه الهمومُ، أنشأ يفكر فيما كان يراه من المُكَدِّين، وتلك العلل التي ينتحلونها للكُدِيَّة كالذى يتعامى والذي يتعارج والذي يُحَدِّث فى جسمه الآفة؛ ولكن دَمَ الإمارة اشمأز فى عروقه وتحركت فيه الوراثة الحربية! وبَصُرَ بشاب من أبناء الأغنياء تنطق عليه النعمة فتعرَّضَ لمعروفه، وأفضى إليه بهمه، وشكا ما نزل به ثم قال: وإنى قد أَمَلْتُكَ وظننى بك أن تصطفينى لمنادمتك أو تُلَحِّقْنى بخدمتك، وما أريد إلا الكفَّاف من العيش، فإن لم تبلغ بى، فالقليل الذى يعيش به المُقَلَّ. وصعد فيه الشاب وصوب ثم قال له: أتحسن أن تلطف فى حاجتى؟ قال: سأبلغ فى حاجتك ما تحب. قال الشاب: ألك سابقة فى هذا؟ أكنت قوَّادًا؟ أتعرف كثيرات منهن...؟

فانتفض غضبًا وهم أن يبطش بالفتى لولا خوفه عاقبة الجريمة، فاستخذى ومضى لوجهه، وكان قد بلغ سوقًا فأمل أن يجد عملاً فى بعض الحوانيت، غير أن أصحابها جعلوا يزجرونه مرةً ويطرده مرةً، إذ وقعت به ظنَّةُ التلصُّص، وكادوا يُسَلِّمونه إلى الشرطى فمضى هاربًا، وقد أجمع أن ينتحر ليقتل نفسه ودهره وإمارته وبؤسه جميعًا.

قالوا: ومَر فى طريقه إلى مَصْرعه بامرأة تبيع الفُجْلَ والبصلَ والكراث، وهى بادنَّةٌ وضيئةٌ ممتلئةٌ الأعلى والأسفل، وعلى وجهها مَسْحَةٌ إغراء، فذكر غزله

(١) هو كالقفة يعمل من الخوص.

وفتنته واستغواءه للنساء، ونازعته النفس، وحسب المرأة تكون له معاشاً ولهواً، وظنّها لا تُعجزه ولا تفوته وهو فى هذا الباب خراجٌ ولاجٌ منذ نشأ.. غير أن ما كاد يراودها حتى ابتدرته بلطة أظلم لها الجو فى عينه ثم هرت فى وجهه هريراً منكراً واستعدت عليه السابلة فأطافوا به وأخذ الصفع بما قدّم وما حدث، وما زالوا يتعاورونه حتى وقع مغشياً عليه.

ورأى فى غشيته ما رأى من تمام هذا الكرب، فضرب وحبس وابتلى بالجنون وأرسل إلى المارستان، وساح فى مصائب العالم، وطاف على نكبات الأمراء والسوقة بما يعى وما لا يعى، ثم رأى أنه أفاق من الإغماء فإذا هو قد استيقظ من نومه على فراشه الوثير.

ويا ليت من يدرى بعد هذا! أغدا ابن الأمير على المسجد وأقبل على الفقراء يُحسن إليهم، أم غدا على صاحبه التى امتنعت عليه فابتاع لها الحلية بعشرة آلاف دينار؟ ياليت من يدرى! فإن الكتاب الذى نقلنا القصة عنه لم يذكر من هذا شيئاً بل قطع الخبرَ عندما انقطع الصفع....

■ ■ ■

بنت الباشا...(*)

كانت هذه المرأة وضّاحة الوجه، زهراء اللون كالقمر الطالع، تحسبها لجمالها غدتّها الملائكة بنور النهار، وروّتها من ضوء الكواكب.

وكانت بضّة مُقسّمةً أبدع التقسيم، يلتفّ جسّمها شيئاً على شيء التفافاً هندسياً بديعاً، يرتفع عن أجسام الغيد الحسن؛ أفرغ فيها الجمال بقدر ما يمكن إلى أجسام الدُمى العبقريّة التي أفرغ فيها الجمال والفنُّ بقدر ما يستحيل.

وكانت باسمّةً أبداً ما يتلأل الفجر، حتى كأن دمها الغزلىّ الشاعر يصنع لثغرها ابتسامتها، كما يصنع لخديها حُمرتها.

ما لها جلست الآن تحت الليل مُطرقةً كاسفةً ذابلة، تأخذها العينُ فما تشكُّ أن هذا الوجه قد كان فيه منبُع نور وفاض! وأن هذا الجسم الظمآن المعروق هو بُقعة من الحياة أقيم فيها ماتم!

ما لهذه العين الكحيلة تُذرى الدمع وتسترسلُ في البكاء وتلجُ فيه، كأن الغادة المسكينة تبصر بين الدموع طريقاً تُفضى منه نفسها إلى الحبيب الذى لم يعد فى الدنيا؛ إلى وحيدها الذى أصبحت تراه ولا تلمسه، وتكلّمه ولا يردُّ عليها؛ إلى طفلها الناعم الظريف الذى انتقل إلى القبر ولن يرجع، وتتمثله أبداً يريد أن يجىء إليها ولا يستطيع، وتتخيله أبداً يصيح فى القبر يناديها: «يا أمى، يا أمى...».

قلْبُها الحزين يُقَطّع فيها ويُمزّق فى كل لحظة؛ لأنه فى كل لحظة يُريد منها أن تضمّ الطفل إلى صدرها، ليستشعره القلب فيفرح ويتهنأ إذ يمسُّ الحياة الخارجة منه، ولكن أين الطفل؟ أين حياة القلب الخارجة من القلب؟

(*) انظر خبر هذه القصة وحديث «الزبال الفيلسوف» فى «عود على بدء» من كتابنا «حياة الراعى».

لا طاقة للمسكينة أن تُجيب قلبها إلى ما يطلب، ولا طاقة لقلبها أن يهدأ عما يطلب؛ فهو من الغيظ والقهر يحاول أن يفجر صدرها، ويريد أن يدق ضلوعها، ليخرج فيبحث بنفسه عن حبيبه!

مسكينة تترنح وتتلوى تحت ضربات مُهلكة من قلبها، وضربات أخرى من خيالها، وقد باتت من هذه وتلك تعيش في مثل اللحظة التي تكون فيها الذبيحة تحت السكين، ولكنها لحظة امتدت إلى يوم، ويوم امتد إلى شهر. يا ويلها من طول حياة لم تعد في آلامها وأوجاعها إلا طول مدة الذبح للمذبوح.

ولو كان للموت قطار يقف على محطة في الدنيا، ليحمل الأحباب إلى الأحباب، ويسافر من وجود إلى وجود، وكانت هذه الأم جالسة في تلك المحطة منتظرة تتربص، وقد ذهلت عن كل شيء، وتجردت من كل معاني الحياة، وجمدت جمود الانتقال إلى الموت لما كانت إلا بهذه الهيئة في مجلسها الآن في شرفتها من قصرها، تطل على الليل المظلم وعلى أحزانها...!

هي فلانة بنت فلان باشا وزوجة فلان بك، ترادفت النعم على أبيها فيما يطلب وما لا يطلب، وكأنما فرغ من اقتراحه على الزمان واكتفى من المال والجاه، فلم يعجب الزمان ذلك، فأخذ يقترح له ويصنع ما يقترح، ويزيده على رغمه نعمًا تتوالى! وكان قد تقدم إلى خطبة ابنته شاب مهذب، يملك من نفسه الشباب والهمة والعلم، ومن أسلافه العنصر الكريم والشرف الموروث، ومن أخلاقه وشمائله ما يكثر به الرجال ويُفاخر. بيد أنه لا يملك من عيشه إلا الكفاف والقلة، وأملًا بعيدًا كالفجر وراء ليل لا بد من مُصابرته إلى حين ينبثق النور.

وتقدم صاحبنا إلى الباشا فجاءه كالنجم عاريا؛ أي في أزهى نورانيته وأضوائها، وكان قد علق الفتاة وعلقته، فظن عند نفسه أن الحب هو مال الحب، وأن الرجولة هي مال الأنوثة، وأن القلوب تتعامل بالمسرّات لا بالأموال، ونسى أنه يتقدم إلى رجل مالى جعلته حقايرة الاجتماع رتبة، أو إلى رتبة مالية جعلتها حقايرة الاجتماع رجلاً..

وأن كلمة «باشا» وأمثالها إنما تخلّفت عن ذلك المذهب القديم: مذهب الألوهية الكاذبة التى انتحلها فرعون وأمثاله، ليتعبدوا الناس منها بألفاظ قلوبهم المؤمنة؛ فإذا قيل «إله» كان جواب القلب: «عز وجل»، «سبحانه».....

ولما ارتقى الناس عن عبادة الناس، تلطف تلك الألوهية ونزلت إلى درجات إنسانية، لتتعبد الناس بألفاظ عقولهم الساذجة؛ فإن قيل «باشا» كان جواب العقل الصغير: «سعادتلو أفندم!»^(١).

نسبى الشاب أنه «أفندى» سيتقدم إلى «باشا» وأعماه الحب عن فرق بينهما؛ وكان سامى النفس، فلم يدرك أن صغائر الأمم الصغيرة لابد لها أن تنتحل السمو انتحالا، وأن الشعب الذى لا يجد أعمالا كبيرة يتمجد بها، هو الذى تخرع له الألفاظ الكبيرة لينتلهى بها؛ وأنه متى ضعف إدراك الأمة، لم يكن التفاوت بين الرجال بفضائل الرجولة ومعانيها، بل بموضع الرجولة من تلك الألفاظ؛ فإن قيل «باشا»، فهذه الكلمة هى الاختراع الاجتماعى العظيم فى أمم الألفاظ، ومعناها العلمى: قوة ألف فدان أو أكثر أو أقل، ويقابلها مثلاً فى أمم الأعمال الكبيرة لفظ «آلة البخارية»، ومعناها العلمى قوة كذا وكذا حصاناً أو أقل أو أكثر^(٢)!

نسبى هذا الشاب أن «أمم الأكل والشرب» فى هذا المشرق المسكين، لا تتم عظمتها إلا بأن تضع لأصحاب المال الكثير ألقاباً هى فى الواقع أوصاف اجتماعية للمعدة التى تأكل الأكثر والأطيب والألذ، وتملك أسباب القدرة على الألد والأطيب والأكثر. وتقدم (الأفندى) يتوّد إلى (الباشا) ما استطاع، ويتواضع وينكمش، ولا يألوه تمجيذاً وتعظيمًا؛ ولكن أين هو من الحقيقة؟ إنه لم يكن عند الباشا إلا أحق؛ إن لم يعرف أن تقدّمه إلى ذلك العظيم كان أول معانيه أن كلمة «أفندى» تطاولت إلى كلمة «باشا» بالسب علناً....!

(١) هذه ألقاب وضعتها الدولة العثمانية البائدة. فأفسدت الناس بكبرياء الألفاظ الفارغة وقد أرادت بها رفع الأعلى، فانتهى أمرها إلى سقوط الأعلى والأسفل.
(٢) انظر مقالة (البك والباشا) فى الجزء الثانى.

وانقبضوا عن (الأفندى) وأعرضوا عنه إعراضاً كان معناه الطرد، ثم جاء (البك) يخطب الفتاة.

و«بك» مَنبَهَةٌ للاسم الخاطب، وشَرَفٌ وَقَدْرٌ وثناء اجتماعي، وذِكْرٌ شهير، وإِرْغَامٌ على التعظيم بقوة الكلمة، ودليلٌ على الحُرُمَاتِ اللازمة للاسم لزوم السواد للعين، ولو لم يكن تحت (بك) رجلٌ، فإن تحتها على كل حال (بك)...! وأنعم له الباشا، ووصل يده بيد ابنته فألبسها وألبسته، وأعلمها أبوها أنه قد فحَصَ عن البك فإذا هو (بك) قوة مائتي فدان... أما الأفندى فظهر من الفحص الهندسى الاجتماعى أنه (أفندى) قوة خمسة عشر جنيهاً فى الشهر...!

وَحَنَسَ الأفندى وتراجع مُنْخَزِلًا، وقد علم أن (الباشا) إنما زَوَّجَ لِقَبِّهِ قبل أن يزوج ابنته، وأنه هو لن يملك مهرَ هذا اللقب إلا إذا ملك أن يُبدِّلَ أسباب التاريخ الاجتماعى فى الأمم الضعيفة، فينقل إلى العقل أو النفس ما جعلته «أُمُّ الأكل والشرب» من حق المعدة، فلا يكون (باشا) إلا مخترعٌ شرقيٌّ مُفْلِسٌ أو أديبٌ عظيمٌ فقير، أو مَنْ جرى هذا المجرى فى سمو المعنى لا فى سمو المال.

وقدّمت مائتا الفدان مهرها «الطينى» العظيم بما تعبّيره فى اللغة الطينية: ثمنُ عشرين ثوراً، ومثلها جاموساً، ومثلها بغالاً وأحمرة، وفوقها مائة قنطار قطناً، ومائة إردب قمحاً؛ ثم ذرة، ثم شعيراً. والمجموع الطينى لذلك ألف جنيه، وعزى الباشا أنه مستطيع أن يقول للناس: إنها خمسة آلاف، اختزلتها الأزمة قَبَّحَهَا الله....!

ثم زُفَّت «بنت الباشا» زفافاً طينياً بهذا المعنى أيضاً، كان تعبّيره: أنه أنفق عليه ثمنُ ألف قنطار بصلاً، ومائة غرارة من السَّمَادِ الكيماوى، كأنما فرش بها الطريق...! وطفق الباشا يُفاخر ويتمدّح، ويتبذّخ على الأفندى وأمثال الأفندى بالطين ومعانى الطين؛ فردّت الأقدارُ كلامه، وجعلت مَرَجَعَهُ فى قلبه، وهيأت لبنت الباشا معيشةً «طينية» بمعنى غير ذلك المعنى...

ومات الطفل؛ فردّت هذه النكبة بنتَ الباشا إلى معانى انفرادها بنفسها قبل الزواج، وزادتها على انفرادها الحزن والألم، وألقت الأقدارُ بذلك فى أيامها ولياليها الترابَ والطين.

ولجّ الحزنُ ببنت الباشا فجعلت لا ترى إلا القبرَ، ولا تتمنى إلا القبرَ، تلحق فيه بولدها؛ فوضعت الأقدارُ من ذلك فى رُوحها معنى الطين والتراب. وأسقم الهمُّ بنتَ الباشا وأذابها؛ فنقلت الأقدارُ إلى لحمها عملَ الطين، فى تحليله الأجسامَ وإذابتها تحت البلى.

وكان وراء قصرها حواء^(١) يأوى إليه قوم من «طين الناس» بنسائهم وعيالهم، وفيهم رجلٌ «زَبَّالٌ» له ثلاثة أولاد، يراهم أعظمَ مفاخره وأجملَ آثاره، ولا يزال يرفع صوته متمدّحاً بهم، ويخترع لذلك أسباباً كثيرة لكى يسمعه جيرانه كل ليلة مُفاخرًا، مرةً بأحمد، ومرةً بحسن، ومرةً بعلى، وأعجبُ أمره أنه يرى أولاده هؤلاء متمّمين فى الطبيعة لأولاد «الباشوات»... وهو يحبهم حبّ الحيوان المفترس لصغاره؛ يرى الأسدُ أشباله هم صنعة قوته، فلا يزال يحوطهم ويتمّمهم ويرعاهم، حتى إنه ليقاتل الوجود من أجلهم؛ إن يشعر بالفطرة الصادقة أنه هو وجودهم، وأن الطبيعة وهبت له منهم مسرّات قلبه، ذلك القلب الذى انحصرت مسرّاته فى النسل وحده، فصار الشعورُ بالنسل عنده هو الحبُّ إلى نهاية الحب. وكذلك الزبّالُ الأسد^(٢).

ومن سخرية القدر أن زبّالنا هذا لم يسكن الحواء إلا فى تلك الليلة التى جلست فيها بنت الباشا على ما وصفنا، وفى ضلوعها قلبٌ يُفتّت من كبدها، ويُمزّق من أحشائها.

(١) الحواء: جماعة من البيوت كهذه العشش التى يسكنها الصاعدة فى بعض الأحياء.

(٢) هذا الزبال شخصية حقيقية، لو قلنا بمذهب الرجعة لكان «أرسطو» رجع زبالا ليتّم فلسفته. والكتّاب يعرف الرجل ويبره أحياناً وكان (حضرتة) قد طلب إلينا أن نصنع له (موالا) يتغنى به فى (أوقات الصفاء) فوضعنا له الأغنية التى يراها القارئ بعد وهو يصدق بها فى لياليه. وسنفرد لزبّالنا هذا مقالا خاصا إن شاء الله.

وبينما تُناجى نفسها وتَعْجَبُ من سخرية الأقدار بالباشا والبك، وتَسْتَحْمِقُ أباهَا
فيما أقدم عليه من نبيذ كُفَّتها لعجزه عن مهرِ باشا، وإيثار هذا المهر الطينى، وتَبَاهيه
به أمام الناس، وأنْذِرَائه بالطعن على من ليس له لقبٌ من ألقاب الطين - بَيْنَمَا هِيَ
كذلك إذا بالزبال، كَانِسِ التراب والطين يهتِفُ فى جوف الليل ويتغنَّى:

يا لَيْلُ، يا لَيْلُ، يا لَيْلُ ما تَنْجِلِي يا لَيْلُ

القلب^(١) أهو راضى لكَ حَمْدِي يا رَبِّى
من الهموم فاضى افرحْ لى يا قلبى

يا دُوبُ كِدا يا دُوبُ زَيِّ الحِمَامِ عَايشُ
ما يَمْتَلِكُ غَيْرُ تُوْبُ طُولُ عمره فِيهِ نَافِشُ...
يا لَيْلُ، يا لَيْلُ، يا لَيْلُ ما تَنْجِلِي يا لَيْلُ

إن قلت أنا فَرَحَانُ دا مِينْ يَكْذِبْنِى
وأكثر من السلطان فرحان أنا بابْنِى

بين السيوف يا ناسْ لَمْ انْكَسَرْ سِيفِى
وابْنُ الغنى مُحْتَاسْ وأنا عل كِيفِى...
يا لَيْلُ، يا لَيْلُ، يا لَيْلُ ما تَنْجِلِي يا لَيْلُ

وابْنُ الغنى فِ هُموم والخالى خالى البال

(١) انظر هامش الصفحة السابقة رقم (٢).

والفقر ما بِيَدُومَ وتَدُومَ همومِ المالِ

يا طَيْرُ يا طَيْرُ، يا طَيْرُ الحُرِّ فَوْقَ اللُّومِ
والخَيْرُ، جميعِ الخَيْرِ لُقْمَه، وعافِيَه، ونُومِ
يا ليل، يا ليل، يا ليل ما تَنْجِلِي يا ليل

ولم تختَرِ الأقدارُ إلا زبالاً تُرْسِلُ فى لسانه سخريتها بذلك الباشا وبنت ذلك
الباشا....!

وكسُرُ قلب بكَسَرِ قلبِ وحَطَمُ نَفْسٍ بِحَطَمِ نَفْسٍ
ورُبَّ عَزٍّ تَراهِ أَمسى كُنَاسَةً هِيئَتُ لِكُنَسٍ..

■ ■ ■

ورقة ورد (*)

«وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبنا بها، فى المعانى التى أفردناه لها؛ وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب. وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له، يصف من أمره وأمر صاحبتة، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه. وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب، فرأينا ألا ننفرد بها، وهى هذه:»

... كانت لها نفسٌ شاعرة، من هذه النفوس العجيبة التى تأخذ الضَّدين بمعنى واحد أحياناً؛ فيُسَرُّها مرةً أن تُحْزِنَها وتستدعى غضبها، ويحْزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغ رضاها، كأن ليس فى السرور ولا فى الحزن معانٍ من الأشياء ولكن من نفسها ومشيتها.

وكان خيالها مشبوباً، يُلقَى فى كلِّ شىء لَمَعَانِ النور وانطفاءه؛ فالدنيا فى خيالها كالسما الذى ألبسها الليل، مُلِيتْ بأشياءها مبعثرة مضيئة خافتة كالنجوم. ولها شعورٌ دقيق، يجعلها أحياناً من بلاغة حسِّها وإرهاقه كأن فيها أكثر من عقلها، ويجعلها فى بعض الأحيان من دقة هذا الحسِّ واحتياجه كأنها بغير عقل... وهى ترى أسمى الفكر فى بعض أحوالها ألا يكون لها فكر؛ فتترك من أمورها أشياء للمصادفة، كأنها واثقة أن الحظَّ بعضُ عشاقها. على أن لها ثلاثة أنواع من الذكاء، فى عقلها وروحها وجسمها: فالذكاء فى عقلها فهم، وفى روحها فتنة، وفى جسمها... خلاعة.

(*) انظر سبب إنشاء هذا الفصل فى «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعى.

وكننت أراها مَرَحَةً مستطارة مما تَطَرَّبُ وتتفأل، حتى لأحسبها تودُّ أن يخرج الكون من قوانينه ويطيش...، ثم أراها بعد متضوّرةً مهمومة تحزن وتتشاءم، حتى لأظنها ستزيد الكون هماً ليس فيه!

وكانت على كل أحوالها المتنافرة.. جميلةً ظريفة، قد تمّت لها الصورة التي تخلق الحب، والأسرار التي تبعث الفتنة، والسحر الذي يميّز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميز هي بوجهها الفاتن.

وكان حبي إياها حريقاً من الحب. فمثل لعينيك جسمًا تناوَل جِلْدُهُ مَس من لَهَب، فتسلّع هذا الجلد^(١) هنا وهناك من سلخ النار، وظهر فيه من آثار الحروق لَهَبٌ يابسٌ أحمرُّ كأنه عُروْق من الجمر انتشرت في هذا الجسم، إنك إن تمثّلت هذا الوصف ثم نقلّته من الجلد إلى الدم كان هو حريق ذلك الحب في دمي!

والحبُّ - إن كان حبًّا - لم يكن إلا عذاباً؛ فما هو إلا تقديم البرهان من العاشق على قوة فعل الحقيقة التي في المعشوق، ليس حال منه في عذابه، إلا وهي دليل على شيء منها في جبروتها.

ولقد أيقنت أن الغرام إنما هو جنونٌ شخصية المحب بشخصية محبوبه، فيسقط العالم وأحكامه ومذاهبه مما بين الشخصيتين؛ وينتفى الواقع الذي يجرى الناس عليه، وتعود الحقائق لا تأتي من شيء في هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجىء منه، ويصبح هذا الكون العظيم كأنه إطارٌ في عين مجنونٍ لا يحمل شيئاً إلا الصورة التي جُن بها!

وتالله لكان قانون الطبيعة يقضى ألا تحب المرأة رجلاً يسمى رجلاً، وألا تكون جديرةً بمحبها، إلا إذا جرت بينهما أهوال من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذة في

(١) أى تشقق وتسلخ.

الحرب... تلك الأهوال يُمثلها الحيوانُ المتوحّش عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى،
ثم ترقُّ فى الإنسانِ المتحضر فيمثلها عملاً قلبياً بالحبّ...

أحببتُها جهدَ الهوى حتى لا مزيدَ فيه ولا مطمعَ فى مزيد، ولكن أسرارَ فتنها
استمرت تتعدّد فتدفعنى أن يكون حبى أشدّ من هذا؛ ولا أعرف كيف يمكن فى
الحبّ أشدّ من هذا؟

ولقد كنتُ فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسه فى طريق السيل ففرّ إلى
ربوة عالية فى رأسها عقلٌ لهذا السيل الأحمق، أو كالذى فاجأه البركانُ بجنونه
وغلظته فهرب فى رقةِ الماء وحلمه؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حرقى بالهوى وارتماضى
من الحبّ.

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق، ولكن هى الطبيعة، هى الطبيعة فى العاشق.
هى الطبيعة، بجبروتها، وعسفها، وتعنتها. إذا استراح الناسُ جميعاً قالت
للعاشق: إلا أنت...!

إذا عقل الناس جميعاً قالت فى العاشق: إلا هذا...
إذا برأت جراحُ الحياة كلها قالت: إلا جرحَ الحبّ...!
إذا تشابهتِ الهومُ كالدمعة والدمعة، قالت: إلا همَّ العشق...!
إذا تغيّر الناس فى الحالة بعد الحالة، قالت فى الحبيب: إلا هو...!
إذا انكشف سرُّ كل شيء، قالت: إلا المعشوق؛ إلا هذا المحجّب بأسرار القلب...!

ولما رأيتهَا أوّل مرة، ولمسنى الحبُّ لمسةً ساحر، جلستُ إليها أتأملُها وأحتسى
من جمالها ذلك الضياء المُسكر، الذى تُعربدُ له الروحُ عَرَبدةً كلّها وقارٌ ظاهر...
فرايتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى، فوقها الآدمية ساكنة، وتحتها تيارُ
الملائكة يعبُّ ويجرى.

وكنْتُ ألقى خواطر كثيرة، جَعَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا وَمِمَّا حَوْلَهَا يَتَكَلَّمُ فِي نَفْسِي،
 كَأَنَّ الْحَيَاةَ قَدْ فَاضَتْ وَازْدَحَمَتْ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ تَجْلِسُ فِيهِ، فَمَا شَيْءٌ يَمُرُّ بِهِ إِلَّا
 مَسَّتْهُ فَجَعَلَتْهُ حَيًّا يَرْتَعَشُ، حَتَّى الْكَلِمَاتِ.
 وَشَعَرْتُ أَوَّلَ مَا شَعَرْتُ أَنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي تَتَنَفَّسُ فِيهِ يَرِقُّ رِقَّةَ نَسِيمِ السَّحَرِ، كَأَنَّمَا
 انْخَدَعَ فِيهَا فَحَسِبَ وَجْهَهَا نَوْرَ الْفَجْرِ!
 وَأَحْسَسْتُ فِي الْمَكَانِ قُوَّةً عَجِيبَةً فِي قُدْرَتِهَا عَلَى الْجَذْبِ، جَعَلَتْني مُبْعَثَرًا حَوْلَ
 هَذِهِ الْفَتَانَةِ، كَأَنَّهَا مَحْدُودَةٌ بِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.
 وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ النِّوَامِيسَ الطَّبِيعِيَّةَ قَدْ اخْتَلَّتْ فِي جِسْمِي إِمَّا بِزِيَادَةٍ وَإِمَّا بِنَقْصٍ؛ فَأَنَا
 لِذَلِكَ أَعْظَمُ أَمَامَهَا مَرَّةً، وَأَصْغَرُ مَرَّةً.
 وَظَنَنْتُ أَنَّ هَذِهِ الْجَمِيلَةَ إِنَّ هِيَ إِلَّا صُورَةٌ مِنَ الْوُجُودِ النَّسَائِيِّ الشَّاذِّ، وَقَعَ فِيهَا
 تَنْقِيحُ إِلَهِي لِتُظْهِرَ لِلدُّنْيَا كَيْفَ كَانَ جَمَالُ حَوَاءَ فِي الْجَنَّةِ.
 وَرَأَيْتُ هَذَا الْحُسْنَ الْفَاتِنَ يُشْعِرُنِي بِأَنَّهُ فَوْقَ الْحَسَنِ، لِأَنَّهُ فِيهَا هِيَ، وَأَنَّهُ فَوْقَ
 الْجَمَالِ وَالنَّصْرَةِ وَالْمَرَحِ، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَهُ فِي هَذَا السَّرُورِ الْحَيِّ الْمَخْلُوقِ امْرَأَةً.
 وَالتَّمَسْتُ فِي مُحَاسِنِهَا عَيْبًا، فَبَعْدَ الْجَهْدِ قَلْتُ مَعَ الشَّاعِرِ:
 * إِذَا عِبْتُهَا شَبَّهْتُهَا الْبَدْرَ طَالَعًا...! *

وَرَأَيْتُهَا تَضْحَكُ الضَّحْكَ الْمُسْتَحْيَ: فَيُخْرِجُ مِنْ فَمِهَا الْجَمِيلَ كَأَنَّمَا هُوَ شَاعِرٌ أَنَّهُ
 تَجَرَّأَ عَلَى قَانُونٍ..
 وَتَبَسُّمُ ابْتِسَامَاتٍ تَقُولُ كُلُّ مَنْهَا لِلْجَالِسِينَ: انْظُرُوهَا! انْظُرُوهَا...!
 وَيَغْمُرُهَا ضَحْكُ الْعَيْنِ وَالْوَجْهِ وَالْفَمِ وَضَحْكُ الْجِسْمِ أَيْضًا بِاهْتِزَازِهِ وَتَرَجُّرْجِهِ فِي
 حَرَكَاتٍ كَأَنَّمَا يَبْسُمُ بَعْضُهَا وَيُقَهِّقُهُ بَعْضُهَا...
 وَتَلْقَى نَظَرَاتٍ جَعَلَ اللَّهُ مَعَهَا ذَلِكَ الْإِغْضَاءَ وَذَلِكَ الْحَيَاءَ لِيُضَعَ شَيْئًا مِنَ الْوَقَايَةِ فِي
 هَذِهِ الْقُوَّةِ النَّسُوبِيَّةِ، قُوَّةَ تَدْمِيرِ الْقَلْبِ.

وهى على ذلك متساميةً فى جمالها حتى لا يتكلم جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم، وكأنه جسمٌ ملائكيّ ليس له إلا الجلال طوعاً أو كرهاً؛ جسم كالمعبد، لا يعرف من جاءه أنه جاءه إلا ليبتهل ويخشع.

وتطالعك من حيث تأملت فكرة المنسجمة على هذا الجسم، تطلب منك الفهم وهى لا تفهم أبداً: أى تريد الفهم الذى لا ينتهى؛ أى تطلب الحب الذى لا ينقطع.

وهى أبداً فى زينة حسننها كأنها عروس فى معرض جلوتها؛ غير أن للعروس ساعة، ولها هى كل ساعة.

أما ظرفُها فيكاد يصيح تحت النظرات: أنا خائف، أنا خائف!

ووجهها تتغالب عليه الرزانة والخفة، لتقرأ فيه العين عقلها وقلبها.

وهى مثل الشعر، تطرب القلب بالألم يوجد فى بعض السرور، وبالسرور الذى يحس فى بعض الألم.

وهى مثل الخمر، تحسب الشيطان مترقفاً فيها بكل إغرائه!

وكلما تناولت أمامى شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً؛ أشياءها لا تزيد بها الطبيعة، ولكن تزيد بها النفس.

فيا كبداً طارت صدوعاً من الأسى...

ورأيتنى يومئذ فى حالة كغشية الوحى، فوقها الآدمية ساكنة، وتحتها تيار الملائكة يعب ويجرى.

يا سحر الحب! تركتني أرى وجهها من بعد هو الوجه الذى تضحك به الدنيا، وتعبس وتتغيط وتتحامق أيضاً...

وجعلتني أرى الابتسامة الجميلة هى أقوى حكومة فى الأرض...

وجعلتني يا سحر الحب؛ وجعلتني يا سحر الحب محنونا...

سُمُّ الْحَبِّ (*)

صاح المنادى فى موسم الحج: «لا يُفْتَى النَّاسَ إِلَّا عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ»^(١) وكذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية؛ يأمرّون صائحيهم فى الموسم، أن يدلّ الناس على مفتى مكة وإمامها وعالمها، ليلقّوه بمسائلهم فى الدين، ثم ليُمسِكْ غيره عن الفتوى، إن هو الحجة القاطعة لا ينبغى أن يكون معها غيرها مما يختلف عليها أو يعارضها، وليس للحجج إلا أن تُظَاهِرَهَا وتتردأف على معناها.

وجلس عطاء يتحين الصلاة فى المسجد الحرام، فوقف عليه رجلٌ وقال: يا أبا محمد، أنت أفتيت كما قال الشاعر:

سَلِ الْمُفْتَى الْمَكِّيَّ: هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَاكِ الْفَوَادِ جُنَاحُ؟
فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ النَّقَى تَلَاَصُقُ أَكْبَادُ بَهْنِ جِرَاحُ!

فرفع الشيخُ رأسه وقال: والله ما قلتُ شيئاً من هذا، ولكن الشاعر هو نحلنى هذا الرأى الذى نفثه الشيطان على لسانه، وإنى لأخاف أن تشيع القالة فى الناس، فإذا كان غدٌ وجلستُ فى حلقتى فاعُدْ على، فإنى قائلٌ شيئاً.

وذهب الخبرُ يؤجُّ كما تؤجُّ النار، وتعالَمَ الناسُ أن عطاءً سيتكلّم فى الحبّ، وعجبوا كيف يدرى الحب أو يُحسُن أن يقول فيه من غبرَ عشرين سنة فراشه المسجد، وقد سمع من عائشة أم المؤمنين، وأبى هريرة صاحب رسول الله ﷺ. وابن عباس بحر العلم!

وقال جماعة منهم: هذا رجلٌ صامتٌ أكثرَ وقته، وما تكلم إلا خيّل إلى الناس أنه يؤيّد بمثل الوحي، فكأنما هو نَجِيٌّ ملائكة يسمع ويقول، فلعل السماء مؤحية إلى الأرض بلسانه وحياً فى هذه الضلالة التى عمّت الناس وفتنتهم بالنساء والغناء.

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب حياة الراعى.

(١) ولد هذا الإمام سنة ٢٧هـ وتوفى سنة ١١٥هـ قالوا: ومات يوم مات وهو عند الناس أَرْضَى أَهْلَ

الدنيا.

ولما كان غُدَّ جاء الناسُ أرسالاً إلى المسجد، حتى اجتمع منهم الجمعُ الكثير. قال عبدُ الرحمن بنُ عبد الله أبي عمار: وكنتُ رجلاً شاباً من فتيان المدينة، وفي نفسي ومن الدنيا ومن هوى الشباب، فغدوتُ مع الناس، وجئتُ وقد تكلم أبو محمد وأفاض، ولم أكن رأيتُه من قبل، فنظرتُ إليه فإذا هو في مجلسه كأنه غرابٌ أسود؛ إذ كان ابنُ أمة سوداء تسمى «بركة» ورأيتُه مع سواده أعورَ أفطسٍ أشلَّ أعرجٍ مُفلَّ الشَّعر، لا يتأمل المرءُ منه طائلاً، ولكنك تسمعه يتكلم فتظن منه ومن سواده - والله - أن هذه قطعة ليل تسطعُ فيها النجوم، وتصعدُ من حولها الملائكةُ وتنزل.

قال: وكان مجلسه في قصة يوسف عليه السلام، ووافقتُه وهو يتكلم في تأويل قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴿سورة يوسف الآيتان ٢٣، ٢٤.

قال عبد الرحمن: فسمعتُ كلاماً قُدسياً تَضَعُ له الملائكةُ أجنحتها من رضى وإعجابٍ بفقهاء الحجاز. حَفِظْتُ منه قوله:

عَجَباً للحب! هذه ملكة تعشق فتاها الذى ابتاعه زوجها بثمن بَخْس؛ ولكن أين مُلكُها وسطوة مُلكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي﴾ و«التي» هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت؛ فلم يَبْقَ على الحب مُلك ولا مَنزلة؛ وزالتِ الملكةُ من الأنثى!

وأعجبُ من هذا كلمة «راودته» وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لَوْن بعد لون؛ ذاهبة إلى فن، راجعة من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رَفَق. وهذا يَصَوِّرُ حَيَرَةَ المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها؛ كما يصورُ كبرياء الأنثى إذ تختال وتترقق في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعتها، فمهما تتهاك على من تحبَّ وَجَبَ أن يكون

لهذا «الشيء الآخر» مظهرٌ امتناعٍ أو مظهرٌ تحيُّرٍ أو مظهرٌ اضطرابٍ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعَةٌ ماضيةٌ مصممةٌ.

ثم قال: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ ليدلَّ على أنها لا تطمع فيه. ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحةٌ في أدب سام كلِّ السمو، منزَّه غاية التنزيه بما معناه: «إن المرأة بذلت كلَّ ما تستطيع في إغرائه وتصيبينه، مقبلةً عليه ومتدلةً ومتبدلةً ومُنصَّبةً من كلِّ جهة، بما جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضةٌ كل ذلك عَرَضُ امرأةٍ خلعت - أول ما خلعت - أمام عينيه ثوب الملك».

ثم قال: ﴿وَعَلَقَتْ الْأُتْرُوبَ﴾ ولم يقل «أغلقت» وهذا يشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعَتْ في ثورة نفسها مهتاجةٌ تتخيَّل القفل الواحد أقفالاً عدةً، وتجرى من باب إلى باب، وتضطربُ يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكةً ولا امرأةً، بل أنوثه حيوانيةٌ صرفةٌ، متكشفةٌ مصرحةٌ، كما تكون أنثى الحيوان في أشد احتياجاتها وغليانها.

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها. فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يبق وراء ذلك شيء تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثمَّ عظمة الرجولة السامية المتمكنة في معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذه أسمى طريقة إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساس ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكراهة الظلم. ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرات لم يكسر من نزوتها، ولم يفتأ تلك الحدة، فإن حبها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمنٍ في مكانٍ في رجلٍ، فهي فكرةٌ محتبسةٌ كأن الأبواب

مغلقةً عليها أيضًا؛ ولذا بقيت المرأة ثائرةً ثورةً نفسها. وهنا يعود الأدبُ الإلهي السامى إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ كأنما يؤمى بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهى لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة فى الهشيم..!

جاءت العاشقة فى قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به آخر محاولته. وهنا يقع ليوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها برهان شيطانها. فلولا برهان ربه لكان رجلاً من البشر فى ضعفه الطبيعى.

قال أبو محمد: وههنا ههنا المعجزة الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفى عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة، حتى لا يُظنَّ به، ثم هى تريد من ذلك أن يتعلم الرجال، وخاصة الشبان منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى فى الحالة التى هى نهاية قدرة الطبيعة؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مُختَلِية متعرضة متكشفة متهاكة. هنا لا ينبغى أن يياس الرجل، فإن الوسيلة التى تجعله لا يرى شيئاً من هذا - هى أن يرى برهان ربه.

وهذا البرهان يؤوله كل إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذى يوضع فى الأقفال كلها فيفضها كلها؛ فإذا مثل الرجل لنفسه فى تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما، وأن أمانى القلب التى تهجس فيه ويظنها خافية إنما هى صوت عالٍ يسمعه الله، وإذا تذكر أنه سيموت ويُقبر، وفكر فيما يصنع الثرى فى جسمه هذا، أو فكر فى موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل، أو فكر فى أن هذا الإثم الذى يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه فى أخته أو بيته - إذا فكر فى هذا ونحوه رأى برهان ربه يُطالعه فجأة، كما يكون السائر فى الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فىرى برهان عينه؛ أترونه يتردى فى الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التى فيها أكثر الكلام، وأكثر الموعظة، وأكثر التربية، والتى هى كالدرع فى المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة «رأى برهان به».

قال عبد الرحمن بن عبد الله وهو يتحدث إلى صاحبة سُهَيْل بن عبد الرحمن: وَلَزِمْتُ الْإِمَامَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَتَشَبَّهُ بِهِ، وَأَسْلَكَ فِي طَرِيقَةِ مِنَ الزَّهْدِ وَالْمَعْرِفَةِ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَدْ حَفِظْتُ الرَّجُلَ فِي نَفْسِي كَمَا أَحْفَظُ الْكَلَامَ، وَجَعَلْتُ شِعَارِي فِي كُلِّ نَزْعَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ النَّفْسِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ: ﴿رَبِّهِمْ رَحْمَةً﴾، فَمَا أَلَمْتُ بِإِثْمٍ قَطُّ، وَلَا دَانِيْتُ مَعْصِيَةً، وَلَا رَهَقْنِي مَطْلَبٌ مِنْ مَطَالِبِ النَّفْسِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا، وَأَرْجُو أَنْ يَعْصِمَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لَيْسَتْ كَلِمَةً، وَإِنَّمَا هِيَ كَأَمْرٍ مِنَ السَّمَاءِ تَحْمِلُهُ، تَمُرُّ بِهِ آمِنًا عَلَى كُلِّ مَعَاصِي الْأَرْضِ، فَمَا يَعْزِرُكَ شَيْءٌ مِنْهَا، كَأَنَّ مَعَكَ خَاتَمَ الْمَلِكِ تَجُوزُ بِهِ.

قال سُهَيْل: لِهَذَا لَقِبَكَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ «بِالْقَسِّ» لِعِبَادَتِكَ وَزَهْدِكَ وَعُزُوفِكَ عَنِ النِّسَاءِ، وَقَلِيلُ لَكَ - وَاللَّهِ - يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَلَوْ قَالُوا: مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ، لَصَدَقُوا.

قَالَتْ سَلَامَةُ جَارِيَةُ سُهَيْلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُغَنِّيِّ، الْحَاذِقَةُ الظَّرِيفَةُ، الْجَمِيلَةُ الْفَاتِنَةُ، الشَّاعِرَةُ الْقَارِئَةُ، الْمُورَخَةُ الْمُتَحَدِّثَةُ، الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ فِي امْرَأَةٍ مِثْلُهَا حُسْنُ وَجْهِهَا، وَحُسْنُ غَنَائِهَا، وَحُسْنُ شِعْرِهَا - قَالَتْ: وَاشْتَرَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ ابْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ «عَشْرَةَ آلَافٍ جَنْيَةً» وَكَانَ يَقُولُ: مَا يُقَرُّ عَيْنِي مَا أُوتِيتُ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَشْتَرِيَ سَلَامَةَ، ثُمَّ قَالَ حِينَ مَلَكَتْنِي: مَا شَاءَ بَعْدُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَلْيَفْتِنْنِي! قَالَتْ: فَلَمَّا عُرِضْتُ عَلَيْهِ أَمَرَنِي أَنْ أَغْنِيَهُ، وَكُنْتُ كَالْمَخْبُولَةِ مِنْ حُبِّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَسِّ، حُبًّا أَرَاهُ فَالِقًا كَبِدِي، آتِيَا عَلَى حَشَاشَتِي: فَذَهَبَ عَنِّي وَاللَّهُ كُلُّ مَا أَحْفَظُهُ مِنْ أَصْوَاتِ الْغَنَاءِ، كَمَا يُمَسِّحُ اللَّوْحُ مِمَّا كُتِبَ فِيهِ، وَأَنْسِيْتُ الْخَلِيفَةَ وَأَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ أَرِ إِلَّا عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَمَجْلِسَهُ مَنَى يَوْمَ سَأَلَنِي أَنْ أَغْنِيَهُ بِشِعْرِهِ فَنِيَّ، وَقَوْلِي لَهُ يَوْمَئِذٍ: حُبًّا وَكَرَامَةً وَعِزًّا لَوْجْهِكَ الْجَمِيلِ. وَتَنَاولْتُ الْعُودَ وَجَسَسْتَهُ بِقَلْبِي قَبْلَ يَدِي، وَضَرَبْتُ عَلَيْهِ كَأَنِّي أَضْرِبُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، بَيِّدَ أَرَى فِيهَا عَقْلًا يَحْتَالُ حِيلَةً امْرَأَةً عَاشِقَةً. ثُمَّ انْدَفَعْتُ أَغْنِي بِشِعْرِ حَبِيبِي:

إِنَّ الَّتِي طَرَقَتْكَ بَيْنَ رِكَائِبٍ تَمْشِي بِمِزْهَرِهَا وَأَنْتَ حَرَامٌ

لِتَصِيدَ قَلْبَكَ، أَوْ جِزَاءَ مَوَدَّةٍ إِنْ الرِّفِيقَ لَهُ عَلَيْكَ ذِمَامٌ
بَاتَتْ تُعَلِّلُنَا وَتَحْسِبُ أَنَّنَا فِي ذَاكَ أَيْقَاطٌ. وَنَحْنُ نِيَامُ

وغنيته والله غناء والهة ذاهبة العقل كاسفة البال، وردته كما رددته
لعبد الرحمن، وأنا إذ ذاك بين يديه كالوردة أول ما تفتتح. وأنا أنظر إليه وأتبين
لصوتى فى مسمعيه صوتاً آخر... وقطعته ذلك التقطيع، ومددته ذلك التمديد،
وصحت فيه صيحة قلبى وجوارحى كلها كما غنيت عبد الرحمن لكىما أودى إلى قلبه
المعنى الذى فى اللفظ والمعنى الذى فى النفس جميعاً. ولكيما أسكرة - وهو الزاهد
العابد - سكر الخمر بشيء غير الخمر!

وما أفقت من هذه إلا حين قطعت الصوت. فإذا الخليفة كأنما يسمع من قلبى لا من
فمى وقد زلزلته الطرب، وما خفى على أنه رجل قد ألم بشأن امرأة، وخشيت أن أكون
قد افتضحت عنده، ولكن غلبته شهوته، وكان جسداً بما فيه يريد جسداً لما فيه،
فمن ثم لم ينكر ولم يتغير.

واشترانى وصرت إليه، فلما خلونا سألتنى أن أغنى فلم أشعر إلا وأنا أغنيته بشعر
عبد الرحمن:

أَلَا قُلْ لِهَذَا الْقَلْبِ: هَلْ أَنْتَ مُبْصِرٌ وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مَقْصُرٌ
إِذَا أَخَذْتَ فِي الصَّوْتِ كَادَ جَلِيسُهَا يَطِيرُ إِلَيْهَا قَلْبُهُ حِينَ تَنْظُرُ
وَأَدَيْتَهُ عَلَى مَا كَانَ يَسْتَحْسِنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَيَطْرُبُ لَهُ؛ إِذْ يَسْمَعُ فِيهِ هَمْسًا
مِنْ بَكَائِي، وَلَهْفَةً مِمَّا أَجْدُ بِهِ، وَحَسْرَةً عَلَى أَنَّهُ يَنْسَكِبُ فِي قَلْبِي وَهُوَ يَصْدُّ عَنِّي
وَيَتَحَامَنِي، وَمَا غَنَيْتُ: «وَهَلْ أَنْتَ عَنْ سَلَامَةِ الْيَوْمِ مَقْصُرٌ» إِلَّا فِي صَوْتِ تَنُوحٍ بِهِ
سَلَامَةٌ عَلَى نَفْسِهَا وَتَنْدُبٌ وَتَتَفَجَّعُ!

فقال لى يزيد وقد فضحت نفسى عنده فضيحة مكشوفة: يا حبيبتي من قائل هذا
الشعر؟

قلت: أحدثك بالقصة يا أمير المؤمنين؟

قال: حدثيني.

قلت: هو عبد الرحمن بن أبي عمار الذى يلقبونه بالقس لعبادته ونسكه، وهو فى المدينة يشبه عطاء بن أبى رباح، وكان صديقاً لمولاي سُهَيْل، فمرَّ بدارنا يوماً وأنا أغنى فوقف يسمع، ودخل علينا «الأحوص»^(١)، فقال: ويحكم؟ لكان الملائكة والله تتلو مزاميرها بحلق سلامة، فهذا عبد الرحمن القس قد شغل بما يسمع منها، وهو واقف خارج الدار، فتسارع مولاي فخرج إليه ودعاه إلى أن يدخل فيسمع منى، فأبى! فقال له: أما علمت أن عبد الله بن جعفر، وهو من هو فى محله وبيته وعلمه قد مشى إلى جميلة أستاذة سلامة حين علم أنها آلت إليه ألا تغنى أحداً إلا فى منزلها؛ فجاءها فسمع منها، وقد هيأت له مجلسها، وجعلت على رعوس جواربها شعوراً مُسدلةً كالعناقيد، وألبستهن أنواع الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان، وزينتهن بأنواع الحلى، وقامت هى على رأسه، وقام الجوارى صفين بين يديه، حتى أقسم عليها فجلست غير بعيد، وأمرت الجوارى فجلسن، ومع كل جارية عودها، ثم ضربن جميعاً وغنن عليهن، وغنى الجوارى على غنائها، فقال عبد الله: ما ظننت أن مثل هذا يكون! وأنا أقعدك فى مكان تسمع من سلامة ولا تراها، إن كنت عند نفسك بالمنزلة التى لم يبلغها عبد الله بن جعفر!

قالت سلامة: وكانت هذه والله - يا أمير المؤمنين - رقية من رقى إبليس؛ فقال عبد الرحمن: أما هذا فنعم. ودخل الدار وجلس حيث يسمع، ثم أمرنى مولاي فخرجت إليه خروج القمر مشبوباً من سحابة كانت تغطيه؛ فأما هو فما رآنى حتى علقت بقلبه، وسبح طويلاً طويلاً، وأما أنا فما رأيته حتى رأيت الجنة والملائكة، ومُتُّ عن الدنيا وانتقلت إليه وحده...

قالت سلامة: واقتضت مرة أخرى، فتَنَحَّحَ يزيد... فضحكت وقلت: يا أمير المؤمنين، أحدثك أم حسبك؟ قال: حدثينى ويحك! فوالله لو كنت فى الجنة كما أنت

(١) هو الأحوص الشاعر المعروف.

لأعدت قصة آدم مع واحد واحد من أهلها حتى يُطردوا جميعاً من حُسنها إلى حسنك!
فما فعل القسُّ ويحك؟

قلت: يا أمير المؤمنين، إنه يُدعى القسُّ قبل أن يهوانى.
فقال يزيد: وهل عَجَبٌ وقد فَتَنَتْهُ أن يَطْرُدَهُ «البَطْرِيْق»؟
قلت: بل العجب وقد فَتَنَتْهُ أن يصير هو البطرِيْق...!

فضحك يزيد وقال: إيه، ما أحسب الرَّجُلَ إلا قد دُهِىَ منك بداهية! فحدثيني
فقد رفعتُ الغيرة؛ إني والله أرى هذا الرجل في أمره وأمرِك إلا كالْفَحْل من الإبل، قد
تُرِكَ من الركوب والعمل، ونُعْمَ وَسُنَّ للْفَحْلَةِ فَنَدَّ يوماً، فذهب على وجهه، فأقْحَمَ
في مَفَازَةٍ، وأصاب مَرْتَعاً فَتَوَحَّشَ واستأسد، وتبيَّن عليه أثر وحشيتِه، وأقبلَ قبالَ
الجن من قوة ونشاط وبأس شديد، فلما طال انفراده وتأبَّده عَرَضَتْ له في البرِّ ناقةٌ
كانت قد نَدَتْ من عطنها، وكانت فارهة جسيمة قد انتهت سَمناً، وغطاها الشحم
واللحم، فرآها البازلُ الصَّوْلُ، فهاجَ وصالَ وَهْدَرٍ، يخبطُ بيده ورجله، ويسمعُ
لجَوْفِهِ دَوًى من الغليان، وإذا هي قد أَلْقَتْ نفسها بين يديه!

أما والله لو جعل الشيطان في يمينه رجلاً فحلاً قوياً جميلاً، وفي شماله امرأةً
جميلةً عاشقةً تهواه، ثم تمطى متدافعاً ومدَّ ذراعيه فابتعدا، ثم تراجعَ متداخلاً وضمَّ
ذراعيه فالتقيا؛ لكان هذا شأن ما بينك وبين القس!

قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما كان صاحبي في الرجال خلاً ولا خمراً، وما كان
الفحل إلا الناقة...! وما أحسبُ الشيطان يعرف هذا الرجل، وهل كان للشيطان عمل
مع رجل يقول: إني أعرف دائماً فكرتى وهى دائماً فكرتى لا تتغير. ذاك رجل
أساسه كما يقول: ﴿بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ ولقد تصنَّعتُ له مرةً يا أمير المؤمنين، وتشكَّلتُ
وتحلَّيتُ وتبرَّجتُ، وحدثتُ نفسى منه بكثير، وقلتُ إنه رجلٌ قد غَبَرَ شبابه فى
وجود فارغ من المرأة، ثم وجد المرأة فى وحدى. وغنيته يا أمير المؤمنين غناءً جوارحى
كلِّها، وكنت له كَأْنى حَرِيرٌ ناعم يترَجَّرُجُ وينشُرُ أمامَه ويُطَوِّى.... وجلست كالنائمة

فى فراشها وقد خلا المجلس، وكنت من كل ذلك بين يديه كالفكهة الناضجة الحلوة
تقول لمن يراها: «كلنى...!»

قال يزيد: ويحك ويحك! وبعد هذا؟

قلت: بعد هذا يا أمير المؤمنين، وهو يهوانى الهوى البرح، ويعشقنى العشق
المُضنى لم ير فى جمالى وفتنتى واستسلامى إلا أن الشيطان قد جاء يرشوه بالذهب..
الذى يتعامل به!

فضحك يزيد وقال: لا والله، لقد عرّض الشيطان منك ذهباً ولؤلؤه وجواهره كلّها،
فكيف لعمرى لم يُفلح، وهو لو رشانى من هذا كلّه بدرهم لوجد أمير المؤمنين شاهد
زور...!

قلت: ولكنى لم أياس يا أمير المؤمنين، وقد أردت أن أظهر امرأة فلم أفلح،
وعملت أن أظهر شيطانةً فانخذلت، وجهدت أن يرى طبيعتى فلم يرنى إلا بغير
طبيعة، ولكما حاولت أن أنزل به عن سكينته ووقاره رأيت فى عينيه مالا يتغير
كنور النجم، وكانت بعض نظراته والله كأنها عصا المؤدب، وكأنه يرى فى جمالى
حقيقة من العبادة، ويرى فى جسمى خرافة الصنم، فهم مقبل على جميلة، ولكنه
منصرف عنى امرأة.

لم أياس على كل ذلك يا أمير المؤمنين، فإن أول الحب يطلب آخره أبداً إلى أن
يموت. وكان يُكثر من زيارتى، بل كانت إلى الغدوة والروحة، من حبه إياى وتعلقه
بى؛ فواعدته يوماً أن يجىء متى وارى الليل أهله لأغنيّه: «ألا قل لهذا القلب...»
وكنت لحنته ولم يسمعه بعد، ولبثت نهارى كله أستروح فى الهواء رائحة هذا الرجل
مما أتلّهف عليه، وأتمثل ظلام الليل كالطريق الممتد إلى شىء مخبوء أعلل النفس به،
وبلغت ما أقدر عليه فى زينة نفسى وإصلاح شأنى، وتشكلت فى صنوف من الزهر،
وقلت لأجملهن وهى الوردة التى وضعتها بين نهدي: يا أختى، اجذبى عينه إليك،
حتى إذا وقف نظره عليك فانزلى به قليلاً أو اصعدى به قليلاً...

قال يزيد وهو كالمحموم: ثمّ ثمّ ثمّ؟

قلت: يا أمير المؤمنين، ثم جاء مع الليل، وإنّ المجلس لخال ما فيه غيرى وغيره، بما أكابد منه وما يعانى منى فغنيتها أحرّ غناء وأشجاء، وكان العاشق فيه يطرب لصوتى، ثم يطرب الزاهد فيه من أنه استطاع أن يطرب، كما يطيش الطفل ساعة ينطلق من حبس المؤدّب.

وما كان يسوءنى إلا إنه يُمارس فى الزهد مِمَارَسَةً، كأنما أنا صُعوبَةٌ إنسانية فهو يريد أن يغلبها، وهو يُجرب قوى نفسه وطبيعته عليها؛ أو كأنه يرانى خيال امرأة فى مرآة، لا امرأة ماثلة له بهواها وشبابها وحسنها وفتنتها، أو أنا عنده كالحورية من حور الجنة فى خيال من هى ثوابه، تكون معه، وإن بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة؛ فأجمعت أن أحطم المرأة ليرانى أنا نفسى لا خيالى، واستنجدت كلّ فتنتى أن تجعله يفرّ إلىّ كلما حاول أن يفرّ منى.

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه وانصببت إليه من كل جوارحه، وهجّت التيّار الذى فى دمه ودفعته دفعا - قلت له: «أنت يا خيلى شىء لا يعرف، أنت شىء متلفّ بإنسان، ومن التى تعشق ثوب رجل ليس فيه لابسُهُ؟»

ورأيتَه والله يطوف عند ذلك بفكره، كما أطوف أنا بفكرى حول المعنى الذى أردته. فملت إليه وقلت^(١): «أنا والله أحبك!»

فقال: «وأنا والله الذى لا إله إلا هو...»

قلت: «وأشتهى أن أعانقك وأقبلك!»

قال: «وأنا والله!»

قلت: «فما يمنحك؟ فوالله إن الموضع لخال!»

قال: يمنعنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

سورة الزخرف الآية ٦٧. فأكره أن تحوّل مودتى لك عداوة يوم القيامة.

(١) هذا نص كلامهما كما رواه صاحب الأغانى - إلى قوله: (يوم القيامة)؛ وهو كل القصة فى كتابه.

إنى أرى [برهانَ ربى] يا حبيبتى ، وهو يمنعنى أن أكون من سيئاتك وأن تكونى من سيئاتى ، ولو أحببتُ الأنثى لوجدتُك فى كل أنثى ، ولكنى أحب ما فىك أنت بخاصتك ، وهو الذى لا أعرفه ولا أنتِ تعرفينه ، هو معنك يا سلامة لا شخصك .
ثم قام وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين ما عاد بعد ذلك ، وترك لى ندامتى وكلامَ دموعه؟ وليتنى لم أفعل ، ليتنى لم أفعل ، فقد رأى أن المرأة – فى بعض حالاتها – تكشف وجهها للرجل ، وكأنها لم تُلَق حجابها بل أَلَقَتْ ثيابها .



قصة زواج(*) وفلسفة المهر

قال رسولُ عبد الملك: ويحك (يا أبا محمد) لَكُنْ دَمَكُ والله من عَدُوِّكَ؛ فهو يفور بك لتَلَجَّ في العناد فتُقْتَل، وكأني بك والله بين سَبْعَيْنِ قد فَعَرَا عليك؛ هذا عن يمينك وهذا عن يسارك، ما تفرُّ من حَتَفٍ إلا إلى حَتَفٍ، ولا ترحمك الأنبياءُ إلا بمخاليبها. ههنا هِشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلٍ عامل أمير المؤمنين، إن دَخَلَتْه الرحمةُ لك استوثق منك في الحديد، ورَمَى بك إلى دمشق، وهناك أمير المؤمنين، وما هو والله إلا أن يُطعم لحمك السيفَ يعض بك عض الحية في أنيابها السمِّ؛ وكأني بهذا الجنب مصروعاً لمضجعه، وبهذا الوجه مضرجاً بدمائه، وبهذه اللحية مُعَفَّرَةً بترابها، وبهذا الرأس مُحْتَرَّزاً في يد (أبي الزُّعَيْرَةِ) جَلَادٍ أمير المؤمنين، يليقه من سيفه رَمَى الغُصن بالثمرة قد ثقلت عليه.

وأنت (يا سعيد) فقيهُ أهل المدينة وعالمها وزاهدُها، وقد علم أمير المؤمنين أن عبد الله بن عمر قال فيك لأصحابه: «لو رأى هذا رسولُ الله ﷺ لَسَرَهُ» فإن لم تَكْرَمْ عليك نفسك فَلْيَكْرَمْ على نفسك المسلمون؛ إنك إن هلكت رَجَعَ الفقه في جميع الأمصار إلى الموالى؛ ففقيه مَكَّةَ عطاء، وفقيه اليمن طاووس، وفقيه اليمامة يحيى بن أبي كثير، وفقيه البصرة الحسن، وفقيه الكوفة إبراهيم النخعي، وفقيه الشام مكحول، وفقيه خراسان عطاء الخراساني. وإنما يتحدث الناس أن المدينة من دون الأمصار قد حرسها الله بفقيها القرشي العربي (أبي محمد بن المسيب) كرامة لرسول الله ﷺ. وقد علم أهل الأرض أنك حَجَّجْتَ نِيْفاً وثلاثين حَجَّةً، وما فاتتك التكبيرَةُ الأولى في المسجد منذ أربعين سنة، وما قمت إلا في موضعك من الصفِّ الأول، فلم تنظر قط إلى قفا رجل في الصلاة، ولا وجد الشيطان ما يعرض لك من قبله في صلاتك

(*) انظر «قصص الرافعي» في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

ولا قفًا رجل؛ فالله الله يا أبا محمد، إني والله ما أغشك في النصيحة؛ ولا أخدعك عن الرأي، ولا أنظر لك إلا خيرًا ما أنظر لنفسي؛ وإن عبد الملك بن مروان من علمت؛ رجل قد عمّ الناس ترغيبه وترهيبه، فهو آخذك على ما تكره إن لم تأخذه أنت على ما يحب؛ وإنه والله يا أبا محمد، ما طلب إليك أمير المؤمنين إلا وأنت عنده الأعلى، ولا بعثني إليك إلا وكأنه يسعى بين يديك، رعاية لمنزلتك عنده، وإكبارًا لحقك عليه، وما أرسلني أخطب إليك ابنتك لوليّ عهده إلا وهو يبتذل نفسه ابتذالًا ليصل بك رحمه، ويوثق أسرته؛ وإن يكن الله قد أغناك أن تنتفع به وبملكه ورعًا وزهاده، فما أحوج أهل مدينة رسول الله ﷺ أن ينتفعوا بك عنده، وأن يكونوا أصهار (الوليد) فيستدفعوا شرًا ما به عنهم غنى، ويجتلبوا خيرًا ما بهم غنى عنه، ولست تدري ما يكون من مصادر الأمور ومواردها. وإنك والله إن لججت في عنادك وأصررت أن تردني إليه خائبًا، لتتهيجن قرم سيوف الشام إلى هذه اللحوم ولحمك يومئذ من أطيبها، ولأmir المؤمنين تارتان: لين وشدة؛ وأنا إليك رسول الأولى، فلا تجعلني رسول الثانية...

وكان أبو محمد يسمع هذا الكلام وكان الكلام لا يخلص إلى نفسه إلا بعد أن تتساقط معانيه في الأرض، هيبة منه وفرقًا من إقدامها عليه؛ وقد لان رسول عبد الملك في دهائه حتى ظن عند نفسه أنه ساع من الرجل مساع الماء العذب في الحلق الظام، واشتد في وعيده حتى ما يشك أنه قد سقاه ماء حميما فقطع أمعاءه؛ والرجل في كل ذلك من فوقه كالسما فوق الأرض، لو تحوّل الناس جميعًا كناسين يثيرون من غبار هذه على تلك لما كان مرجع الغبار إلا عليهم، وبقيت السماء ضاحكة صافية تتلأأ. وقلب الرسول نظره في وجه الشيخ، فإذا هو ليس فيه معنى رغبة ولا رهبة، كأن لم يجعل له الأرض ذهبًا تحت قدميه في حالة، ولم يملأ الجو سيوفًا على رأسه في الحالة الأخرى؛ وأيقن أنه من الشيخ العظيم كالصبي الغرق قد رأى الطائر في أعلى الشجرة فطمع فيه، فجاء من تحتها يناديه: أن انزل إلى حتى آخذك وألعب بك...

وبعد قليل تكلم أبو محمد فقال:

يا هذا، أما أنا فقد سمعتُ، وأما أنت فقد رأيتَ، وقد روينَا أن هذه الدنيا لا تعدلُ عند الله جناح بعوضة، فانظر ما جئتني أنت به، وقسّه إلى هذه الدنيا كلّها، فكم - رحمك الله - تكون قد قَسَمْتَ لى من جناح البعوضة. . ؟ ولقد دُعيتُ من قبلُ إلى نيّف وثلاثين ألفاً لأخذها، فقلت: لأحاجة لى فيها ولا فى بنى مروان، حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم «وهأنذا اليوم أدعى إلى أضعافها وإلى المزيد معها؛ أفأقبض يدى عن جُمرة ثم أمدّها لأملأها جمرًا؟ لا والله ما رغب عبدُ الملك لابنه فى ابنتى، ولكنه رجلٌ من سياسته إلصاقُ الحاجة بالناس ليجعلها مقادّة لهم فيصِرّ فهمُ بها؛ وقد أعجزه أن أبايعه، لأن رسول الله ﷺ نهى عن بيعتين، وما عبدُ الملك عندنا إلا باطل كابن الزُبَيْر، ولا ابن الزُبَيْر إلا باطل كعبد الملك، فانظر فإنك ما جئت لابنتى وابنه، ولكن جئت تخطينى أنا لبيعته. . .

قال الرسول: أيها الشيخ، دع عنك البيعة وحديثها، ولكن مَنْ عسى أن تجد لكريمتك خيرًا من هذا الذى ساقه الله إليك؟ إنك لراع وإنها لرعيةٌ وستُسأل عنها، وما كان الظنُّ بك أن تُسّىء رِغبتَها وتبخسَ حقّها، وأن تُعْضِلَها وقد خطبها فارسُ بنى مروان، وإن لم يكن فارسهم فهو ولّى عهد المسلمين، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو الوليدُ ابن أمير المؤمنين؛ وأدنى الثلاث أرفعُ الشرف فكيف بهنّ جميعًا، وهنّ جميعًا فى الوليد؟

قال الشيخ: أمّا إنى مسئول عن ابنتى، فما رغبْتُ عن صاحبك إلا لأنى مسئول عن ابنتى. وقد علمتَ أنت أن الله يسألنى عنها فى يوم لعل أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين وألفافهما لا يكونون فيه إلا وراء عبيدها وأوباشها ودُعَارِها وفجّارها^(١). يخرجون من حساب الفَجْرةِ إلى حساب القَتلةِ، ومن حساب هؤلاء إلى الحساب على السرقة والغضب، إلى حساب أهل البغى، إلى حساب التفريط فى حقوق المسلمين.

(١) الضمير راجع إلى الدنيا.

ويخف يومئذ عبیدها وأوباشها ودعارها وفجارها فى زحام الحشر، ويمشى أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين ومن اتصل بهما، وعليهم أمثال الجبال من أثقال الذنوب وحقوق العباد.

فهذا ما نظرت فى حسن الرعاية لابنتى، لو لم أضن بها على أمير المؤمنين وابن أمير المؤمنين لأوبقت. لا والله ما بينى وبينكم عمل، وقد فرغت مما على الأرض فلا يمر السيف منى فى لحم حى.

ولما كان غداة غدٍ جلس الشيخ فى حلقته فى مسجد رسول الله ﷺ للحديث والتأويل، فسأل رجلٌ من عرض المجلس، فقال: يا أبا محمد، إن رجلاً يلاحينى فى صداق بنته ويكلفنى مالا أطيق. فما أكثر ما بلغ إليه صداق أزواج رسول الله ﷺ وصداق بناته؟

قال الشيخ: رَوَيْنَا أن عمر (رضى الله عنه) كان ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول: «ما تزوج رسول الله ﷺ، ولا زوج بناته بأكثر من أربعمئة درهم»^(١). ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمةً لسبق إليها رسول الله ﷺ.

ورَوَيْنَا عنه ﷺ أنه قال: «خير النساء أحسنهن وجوهاً وأرخصهن مهوراً». فصاح السائل: يرحمك الله يا أبا محمد، كيف يأتى أن يكون المرأة الحسناء رخيصة المهر، وحسنها هو يغليها على الناس؛ تكثر رغبتهم فيها فيتنافسون عليها؟

قال الشيخ: انظر كيف قلت. أهم يساومون فى بهيمة لا تعقل، وليس لها من أمرها شىء إلا إنها بضاعة من مطامع صاحبها يغليها على مطامع الناس؟ إنما أراد رسول الله ﷺ أن خير النساء من كانت على جمال وجهها، فى أخلاق كجمال وجهها، وكان عقلها جمالاً ثالثاً؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء، يسرت عليه، ثم

(١) الدرهم: خمسة قروش.

يَسَّرَتْ، ثم يَسَّرَتْ؛ إذ تعتبر نفسها إنساناً، لامتاعاً يطلب شاربياً، وهذه لا يكون رخصُ القيمة في مهرها، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها، أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها، أئى لحُمُقها؟ وهى بهذا المعنى من شرار النساء وليست من خيارهن.

ولقد تزوج رسول الله ﷺ بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث: رحي يد، وجرة ماء، ووسادة من آدم حشوها ليف. وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير، وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق. وما كان به ﷺ الفقر، ولكنه يشرع بسنته ليُعلم الناس من عمله أن المرأة للرجل نفس لنفس لا متاع لشاربه؛ والمتاع يُقَوِّم بما بُذل فيه إن غالياً وإن رخيصاً، ولكن الرجل يُقَوِّم عند المرأة بما يكون منه؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذى تأخذه قبل أن تُحْمَلَ إلى داره، ولكنه الذى تجده منه بعد أن تُحْمَلَ إلى داره؛ مهرها معاملتها، تأخذ منه يوماً فيوماً، فلا تزال بذلك عروساً على نفس رجلها ما دامت فى معاشرته. أما ذلك الصداق من الذهب والفضة، فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس؛ أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى، أفلا ترى هذه الغالية - إن لم تجد النفس فى رجلها - قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد؟!

وما الصداق فى قليله وكثيره، إلا كالإيماء إلى الرجولة وقدرتها، فهو إيماء، ولكن الرجل قبل. إن كل امرئ يستطيع أن يحمل سيفاً، والسيف إيماء إلى القوة، غير أنه ليس كل ذوى السيوف سواء، وقد يحمل الجبان فى كل يد سيفاً، ويملك فى داره مائة سيف؛ فهو إيماء، ولكن البطل قبل، ولكن البطل قبل.

مائة سيف يمهر بها الجبان قوته الخائبة، لا تغنى قوته شيئاً، ولكنها كالتدليس على من كان جباناً مثله. ويوشك أن يكون المهر الغالى كالتدليس على الناس وعلى المرأة، كى لا تعلم ولا يعلم الناس أنه ثمن خيبتها؛ فلو عقلت المرأة لباغت النساء بئسر مهرها، فإنها بذلك تكون قد تركت عقلها يعمل عمله، وكففت حماقتها أن تُفسد عليه.

فصاح رجلٌ فى المجلس أيها الشيخ، أفى هذا من دليل أو أثر؟
قال الشيخ: نعم؛ أمّا من كتاب الله فقد قال الله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ سورة الأعراف الآية ١٨٩. فهى زَوْجُهُ حين تجده هو لا حين تجد ماله؛ وهى زوجه حين تُتَمَّمُهُ لآحين تنقصه، وحين تلائمه لا حين تختلف عليه؛ فمصلحة المرأة زوجةً ما يجعلها من زوجها، فيكونان معاً كالنفس الواحدة، على ما ترى للعضو من جسمه؛ يريد من جسمه الحياةً لا غيرها.
وأما من كلام رسول الله ﷺ فقد رويانا: «إذا أتاكم من ترَضُون دينه وأمانته فزوّجوه؛ إلا تفعلوا تكن فتنةً فى الأرض وفساد كبير».

فقد اشترط الدين، على أن يكون مَرْضِيّاً لا أى الدين كان، ثم اشترط الأمانة، وهى مظهر الدين كله بجميع حسناته، وأيسرها أن يكون الرجل للمرأة أميناً، وعلى حقوقها أميناً، وفى معاملتها أميناً؛ فلا يبخلها ولا يُعَنِّتُها، ولا يُسِيءُ إليها؛ لأن كل ذلك ثَلُمٌ فى أمانته؛ فإن رَدَّت المرأة مَنْ هذه حاله وصفته من أجل المهر - تقدّم إليها بالمهر من ليست هذه حاله وصفته، ف وقعت الفتنة، وفسدت المرأة بالرجل، وفسد هو بها، وفسد النسل بهما جميعاً، وأهمِلَ من لا يملك، وتعَنَّسَتْ من لا تجد، ويرجع المهر الذى هو سبب الزواج سبباً فى منعه، ويتقارب النساء والرجال على رغم المهر والدين والأمانة؛ فيقع معنى الزواج، ويبقى المعطل منه هو اللفظ والشرع. هل علمت المرأة أنها لا تدخل بيت رجلها إلا لتجاهد فيه جهادها، وتبلو فيه بلاءها؟ وهل يقوم مال الدنيا بحقّها فيما تعمل وما تجاهد، وهى أم الحياة ومُنَشِّئُها وحافظُها؟ فأين يكون موضع المال ومكان التفرقة فى كثيره وقليله، والمال كله دون حقّها؟

ولن يتفاوت الناس بالمال تختلف درجاتهم به، وتكون مراتبهم على مقداره، تكثر به مرة وتقل مرة إلا إذا فسد الزمان، وبطلت قضية العقل، وتعطل موجب الشرع، وأصبحت السجاياء تتحوّل، يملكها من يملك المال، ويخسرهما من يخسره؛ فيكون الدين على النفوس كالدّخيل المزاحم لموضعه، والمتدلى فى غير حقه، وبهذا يرجع باطل الغنى ديناً يتعامل الناس عليه، ودين الفقير بهرجاً لا يروج عند أحد؛

وليس هذا من ديننا، دين النفس والخلق، وإن ألف بغير يقنوها الرجل خالصةً عليه، ثابتةً له، لا تزيد في منزلة دينه قدر نملة ولا ما دونها. والحجران: الذهب والفضة قد يكون شعاعهما في هذه الدنيا أضوأ من شمسها وقمرها، ولكنهما في نور النفس المؤمنة كحصاتين يأخذهما من تحت قدميه، ويذهب يزعم لك أنهما في قدر الشمس والقمر.

وهلاك الناس إنما يُقضى بمحاولتهم أن يكونوا أناساً بعيوبهم وذنوبهم؛ فهذا هو الإنسان المدبر عن الله وعن نفسه وعن جنسه؛ لا يكون أبوه أباً في عطفه، ولا أمه أماً في محبتها، ولا ابنه ابناً في بره، ولا زوجته زوجة في وفائها؛ وإنما يكونون له مَهَالِكٌ، كما روينا عن رسول الله ﷺ: «يأتى على الناس زمانٌ يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده؛ يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق؛ فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك».

وصاح المؤذن، فقطع الشيخ مجلسه وقام إلى الصلاة، ثم خرج إلى داره، فتلقته ابنته وعلى وجهها مثل نوره، قالت: يا أبت كنت أتلو الساعة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ سورة البقرة الآية ٢٠١. فما حسنة الدنيا قال: يا بُنَيَّةُ، هي التي تصلح أن تُذكر مع حسنة الآخرة، وما أراها للرجل إلا الزوجة الصالحة، ولا للمرأة...

وطرق الباب، فذهب الشيخ يفتح، فإذا الطارق (عبدالله بن أبي وداعة)؛ وكان يجالسه ويأخذ عنه ويلزم حلقتَه، ولكنه فقده أياماً؛ فدخل فجلس. قال الشيخ: «أين كنت؟»

قال: «توفيت أهلي فاشتغلتُ بها».

قال الشيخ: «هلاً أخبرتنا فشهدناها». ثم أخذ يُفيض في الكلام عن الدنيا والآخرة؛ وشعر ابن أبي وداعة أن القبر ما يزال في قلبه حتى في مجلس الشيخ، فأراد أن يقوم، فقال (سعيد):

«هل استحدثت امرأة غيرها؟»

قال: «يرحمك الله، أين نحن من الدنيا اليوم، ومن يُزَوِّجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟»
قال الشيخ: «أنا.....»

أنا، أنا، أنا... دوى الجوّ بهذه الكلمة فى أذن طالب العلم الفقير، فحسب كأن الملائكة تنشد نشيداً فى تسبيح الله يَطْنُ لحنه: «أنا، أنا، أنا...».
وخرجت الكلمة من فم الشيخ ومن السماء لهذا المسكين فى وقت واحد، وكأنها كلمة زوّجته إحدى الحور العين.
فلما أفاق من غشية أذنيه . قال: «وَتَفَعَّل؟»
قال (سعيد): «نعم» وفسر (نعم) بأحسن تفسيرها وأبلغه؛ فقال: قم فادع لى نفراً من الأنصار فلما جاءوا حمد الله وصلى على النبى ﷺ، وزوجه على ثلاثة دراهم (خمسة عشر قرشاً).

ثلاثة دراهم مهر الزوجة التى أرسل يخطبها الخليفة العظيم لولى عهده بثقلها ذهباً لو شاءت.
وغشى الفرح هذه المرة عيني الرجل وأذنيه، فإذا هو يسمع نشيد الملائكة يطن لحنه: «أنا، أنا، أنا...».
ولم يشعر أنه على الأرض، فقام يطير، وليس يدرى من فرحه ما يصنع، وكأنه فى يوم جاءه من غير هذه الدنيا يتعرّف إليها بهذه الصوت الذى لا يزال يطن فى أذنيه «أنا، أنا، أنا...».

وصار إلى منزله وجعل يفكر: ممّن يأخذ، ممن يستدين؟ فظهرت له الأرض خلاءً من الإنسان، وليس فيها إلا الرجل الواحد الذى يضطرب صوته فى أذنيه: «أنا، أنا، أنا...».

وصلى المغرب وكان صائماً، ثم قام فأسرج، فإذا سراجُه الخافت الضئيل يسطع لعينه سطوع القمر، وكأنه فى نوره وجه عروسٍ تقول له: «أنا، أنا، أنا...».

وقدّم عشاءه ليُفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا الباب يقرع؛ قال: من هذا، قال الطارق: سعيد....

سعيد؟ سعيد! من سعيد؟ أهو أبو عثمان؛ أبو علي؛ أبو الحسن؟ فكّر الرجل في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيّب؛ إلا الذى قال له: «أنا...». لم يخالجه أن يكون هو الطارق، فإن هذا الإمام لم يَطرُق بابَ أحد قطّ، ولم ير منذ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد.

ثم خرج إليه، فإذا به سعيد بن المسيّب، فلم تأخذه عينه حتى رَجَعَ القبرُ فَهَبَطَ فجأةً بظلامه وأمواته فى قلب المسكين. وظن أن الشيخ قد بدا له، فندم، فجاءه للطلاق قبل أن يشيع الخبر، ويتعذّر إصلاح الغلطة! فقال: «يا أبا محمد، لو... لو.. لو - لو أرسلت إلى لأتيتك!».

قال الشيخ: «لأنت أحق أن تؤتى».

فما صكّت الكلمة سمع المسكين حتى أبلس الوجود فى نظره، وغشى الدنيا صمتٌ كصمت الموت، وأحس كأن القبر يتمدد فى قلبه بعروق الأرض كلها! ثم فاء لنفسه، وقدر أن ليس محلّ شيخه إلا أن يأمر، وليس محله هو إلا أن يطيع، وأن من الرجولة ألا يكون مَعْرَةً على الرجولة، ثم نكس وتَنكسَ وقال بذلةً ومسكنة: «ما تأمرنى؟». تفتحت السماء مرةً ثالثة، وقال الشيخ: «إنك كنت رجلاً عزباً، فتزوجت، فكرهت أن تبين الليلة وحدك؛ وهذه امرأتك!».

وانحرف شيئاً، فإذا العروس قائمة خلفه مستترّة به، ودفعها إلى الباب وسلم وانصرف.

وانبعث الوجود فجأة، وطنّ لحن الملائكة فى أذن أبى وداعة: «أنا، أنا، أنا...»

دخلت العروس الباب وسقطت من الحياء، فتركها الرجل مكانها، واستوثق من بابها، ثم خطا إلى القصعة التى فيها الخبز والزيت، فوضعها فى ظل السراج كى لا تراها؛ وأغمض السراج عينه ونشر الظل...

ثم صعد إلى السطح ورمى الجيران بحُصَيَّاتٍ؛ ليعلموا أن له شأنًا اعتراه، وأن قد وَجَبَ حقُّ الجار على الجار (وكانت هذه الحُصَيَّات يومئذ كأجراس التليفون اليوم) فجاءوه على سَطوحهم وقالوا: «ما شأنك؟».

قال: «وَيَحْكُمُ! زَوَّجَنِي سَعِيدُ بنِ المَسِيَّبِ ابنتَه اليوم؛ وقد جاء بها الليلة على غفلة».

قالوا: «وسعيد زَوَّجَكَ! أهو سعيد الذى زَوَّجَكَ! أَرَزَّجَكَ سعيد؟»

قال: «نعم».

قالوا: «وهى فى الدار؟ أتقول إنها فى الدار؟»

قال: «نعم».

فانتال النساء عليه من هنا وههنا حتى امتلأت بهن الدار. وغشيت الرجل غشيةً أخرى، فحسب داره تتيه على قصر عبد الملك بن مروان، وكأنما يسمعها تقول: «أنا، أنا، أنا...»

قال عبد الله بن أبى وداعة: «ثم دخلتُ بها، فإذا هى من أجمل الناس وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأَعْلَمُهُمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وأَعْرَفُهُمْ بِحَقِّ الزَّوْجِ. لقد كانت المسألة المعضلة تُعَى الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علمًا».

قال: ومكثت شهرًا لا يأتينى سعيد ولا آتيه، فلما كان بعد الشهر أتيتُه وهو فى حلقتِه فسَلَّمْتُ، فردُّ على السلام، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس وخلا وجهه، فنظر إلى وقال:

«ما حال ذلك الإنسان...؟».

أما ذلك (الإنسان) فلم يعرف من الفرق بين قصر ولّى العهد ابن أمير المؤمنين، وبين حجرة ابن أبى وداعة التى تُسَمَّى دارًا...! إلا أن هناك مضاعفة الهم، وهنا مضاعفة الحب.

وما بين (هناك) إلى القبر مدة الحياة - سَتَخِفْتُ الرُّوحَ من نورٍ بعد نورٍ، إلى أن تنطفئ في السماء من فضائلها.

وما بين (هنا) إلى القبر مدة الحياة - تسطع الروح بنور على نور، إلى أن تشتعل في السماء بفضائلها.

وما عند أمير المؤمنين لا يبقى، وما عند الله خير وأبقى.

ولم يزل عبد الملك يحتال (لسعيد) وَيَرْصُدُ غَوَائِلَهُ حتى وقعت به المحنة، فضربه عامله على المدينة خمسين سوطاً في يوم بارد، وصبّ عليه جرّة ماء، وعرضه على السيف، وطاف به الأسواق عارياً في تَبَّانٍ^(١) من الشعر، ومنع الناس أن يجالسوه أو يخاطبوه. وبهذه الوقاحة، وبهذه الرذيلة، وبهذه المخزاة، قال عبد الملك بن مروان: «أنا...؟»

■ ■ ■

(١) التبان: ما يسمى اليوم (المايوه) أو لباس البحر. ذكره الجاحظ وقال: هو سروال قصير يلبسه الملاحون.

ذيل القصة وفلسفة المال

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد بن المسيّب وتزويجه ابنته من طالب علم فقير، بعد إذ ضنّ بها أن تكون زوجاً لولّى عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساءِ العصريّات المتعلّقات تصيح وتؤلّول... وحدثنا أديبٌ ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان...!

فقرأها ستكتبُ إليه أنها تقبل الزواج من ولي عهده؟

على أن للقصة ذيلًا، فإن الطبيعة الآدمية لا عصر لها، بل هي طبيعة كل عصر؛ والفضيلة الإنسانية يبدأ تاريخها من الجنة، فهي هي لا تتجدد ولا تزال تلوح وتختفي؛ أما الرذيلة فأول تاريخها من الطبيعة نفسها، فهي هي لا تتغير ولا تزال تظهر وتستسر.

زوج الإمام ابنته من ابن أبي وداعة، أخذها بنفسه إليه في يوم زوّجها منه، ومشى بها في طريق حصاه عنده أفضل من الدرّ، وترأبه أكرم من الذهب، طارت الحادثة في الناس، واستفاض لهم قول كثير ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) سورة التوبة الآية ١٢٤. وقد قال جماعة منهم: تالله لئن انقطع الوحي، إن في معانيه بقيّة ما تزال تنزل على بعض القلوب التي تُشبه في عظمتها قلوب الأنبياء، وما هذه الحادثة على الدنيا إلا في معنى سورة من السور قد انشقت لها السماء، ونزل بها جبريل يخفّق على أفئدة المؤمنين خفقة إيمان.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ (سورة التوبة الآية ١٢٥). وقال أناسٌ منهم: أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصا يسرق أمير المؤمنين، أو ابن أمير المؤمنين، لركب رأسه في ذلك، ما يرّده عن السرقة شيء، فكيف بمن

تهيأ له الصَّهْرُ وَالْحَسَبُ، وجاءه الغنى يَطْرُقُ بابه، ما باله يردُّ كل ذلك ويُخزى ابنته برجل فقير تعيش في داره بأسوأ حال، وكيف تَثْقُلُ همته وتَبْطُؤُ وتموت، إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة؛ ثم ينبعث ويمضى لا يتلکأ عزمه، إذا كان العلم والفقرُ والدينُ والتقوى؟

وانتهى كلام الناس إلى الإمام العظيم، فلم يَجْئُهُ إلا من الظن خَفِيًّا خَفِيًّا، كأنما هي أقوال حَسَبُها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة (في زمننا هذا) حين يكون هو في معاني السماء، ويكون القائلون في معاني التراب النجس الذي نَفَضْتُهُ على الشرق نعال الأوربيين . . . ؟

قال الراوى: ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يواجه الإمام بشفة أو بنت شفة، لا مُضِيْقًا عليه من قلبه ولا مُوسِّعًا، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة، وقد مال الناس بعد الصلاة إلى حلقة الشيخ، وتَقَصَّفُوا بعضُهم على بعض، فغص بهم المسجد، وكان إمامنا يفسر قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَنْصَبِرْ عَلَى مَا أَذَيْتُمْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ سورة إبراهيم الآية ١٢.

قال الراوى: فكان فيما قاله الشيخ: إذا هدى المرء سبيله كانت السُّبُلُ الأخرى في الحياة إما عداء له، وإما معارضةً، وإما ردًّا، فهو منها في الأذى، أو فى معنى الأذى، أو عُرْضةٌ للأذى. لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضًا، وهذه حالة لا يَمْضى فيها المَوْفَّقُ إلى غايته، إلا إذا أعانه الله بطبيعتين: أولاهما العزمُ الثابت، وهذا هو المتوكل على الله، والأخرى اليقينُ المستبصر، وهذا هو الصبرُ على الأذى.

ومتى عزم الإنسان ذلك العزم، وأيقن ذلك اليقين تحولت العقبات التى تصده عن غايته، فآل معناها أن تكون زيادةً فى عزمه ويقينه، بعد أن وُضِعَ لِيَكُنْ نَقْصًا منهما؛ فترجع العقبات بعد ذلك وإنها لوسائل تعين على الغاية. وبهذا يبسط المؤمن رُوحه على الطريق، فما بُدُّ أن يغلب على الطريق وما فيها. ينظر إلى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً - على سَعَتِها وتَنَاقُضِها - إلا سبيله وما حَوْلَ سبيله، فهو ماضٍ قُدِّمًا لا يترادُّ ولا يَفْتَرُّ ولا يكلُّ، وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً.

ومن ثمَّ لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلبت واختلفت إلا نفاذاً من طريق واحدة دون التَّخبط في الطرق الأخرى، ثم لا يكون العمرُ مهما طال إلا مدةً صبر في رأى المؤمن.

وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر، هما الضوء الروحاني القوي، الذي يكتسح ظلمات النفس، مما يسميه الناس خمولاً ودعةً وتهاونً وغفلةً وضجراً ونحوها.

قال: ولكن كيف يُعان المؤمن على هذه المعجزة النفسية؟ هنا يتبين إعجاز الآية الكريمة؛ فقد ذكر فيها التوكُّلُ ثلاث مرات، وافتتحت به وختمت، والتوكُّل هو العزمُ الثابت كما أوضحنا. وذكُرَتْ في الآية بين ذلك هدايةُ المرء سبيله، وهذه الإضافة (سُبُلنا) تُعين أنها هدايةُ الإنسان إلى سبيل نفسه؛ أي سبيله الباطني الذي هو مناطُ سعادته في الشعور بالسعادة^(١). ثم ذُكر الصبرُ على أذى الناس، والأذى لا يقع إلا في حيوانية الإنسان، ولا يؤثر إلا فيها. فكان الآية مُصرحةً أن نجاح المؤمن ونفاذه في الحياة لا يكونان أول الأشياء وآخرها إلا بثلاث: العزم الثابت، ثم العزم الثابت، ثم العزم الثابت. وأن الصبر ليس شيئاً يُذكر، أو شيئاً يُجدي، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية في أفطع وحشيتها؛ فالروح لا تؤذى الروح، ولكنَّ الحيوان يؤذى الحيوان. وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيُسمى اعتداءً من غيرك، ويسمى أذى لك، هو شيء ينبغي أن يجعله العزم فخراً لقوة الاحتمال فيك، كما جعله البطشُ فخراً للقدرَة عند المعتدى.

وبهذا يكون العزم قد فصل بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيواني، وهَبَكَ حقيقة الشعور، وصَحَّ بمعاني رُوحيتك معاني حيوانيتك؛ وحينئذ ترى السعادة حق السعادة ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها، ولو انقلب في الشخص الحيواني منك أذى وألمًا. ذلك صبرٌ أولى العزم من الرسل.

(١) سيأتي في كلام الإمام بسط لهذا المعنى.

قال الراوى: وعند ذلك صاح رجل كان فى المجلس دسهً عاملُ الخليفة، ليسألَ الشيخَ سؤالاً على مَلَأَ الناسَ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به؛ وقد مَكَرَ العاملُ فاختاره شيخاً كبيراً أعْقَفَ، ليرحم الناسَ رِقَّةَ عظمه وكبر سنِّه فلا يعرضون له بأذى، ثم ليكونُ صوتهُ كأنه صوتُ الدهر من بعيد. قال الصائح: ذلك أيها الشيخُ صبرٌ أولى العزم من الرسل، أو صبرٌ ابنتك على مَكَاره العيش مع ابن أبى وداعة، لا يجد إلا رُمَقَةً يُمْسِكُ بها الرَّمَقَ عليها، وقد كانت النعمة لها مُعْرَضَةً، فدفعتها إليه - زعمت - لتُهْلِكَ به شخصها الحيوانى، وتوكلت على الله وألقيت ابنتك فى اليمِّ...؟ فتربَّدَ وجهُ الشيخ وأطرق هُنَيَاتٍ، ثم رفع رأسه وقال: أين المتكلم أنفاً؟ فارتفع الصوت: هانذا. قال: ادنِ مِنِّى. فتقاعَسَ الرجلُ كأنما تهيبُ ما فَرَطَ منه. فاستدناه الثانية؛ فقام يتخطى الناسَ حتى وقف بإزائه ثم جلس؛ فقرأ الشيخُ قوله تعالى: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ هَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِرٍ﴾ سورة إبراهيم الآية ٢١.

ثم قال: أيها الرجل، لا تَسْمَعْنِى بأذُنِكَ وحدها. أَرَأَيْتَكَ^(١) لو سمعتَ خبراً ليس فى نفسك أصلٌ من معناه، أو وَرَدَ عليك الخبرُ ونفسُك عنه فى شُغْلٍ قد أَهْمَهَا؛ أَفَكُنْتَ تَنْشُطُ له نشاطك للخبر احتفلتَ له نفسك أو أَصابَ هَوَى منك أو رأيتَه موضعَ اعتبار؟ قال: لا.

قال الشيخ: فإذا سمعتَ بأذُنِكَ وحدها فإنما سمعتَ كلاماً يمرُّ بأذُنِكَ مرّاً، وإذا أردتَ الكلامَ لنفسك سمعتَ بأذُنِكَ ونفسك معاً؟ قال: نعم.

قال الشيخ: فكلُّ ما لا تنفرد به حاسةٌ واحدة، بل تشارك فيه الحواسُ كلها أو أكثرها - لا يكون إلا موضعَ اهتمام للنفس؟

(١) أَرَأَيْتَكَ: بمعنى أخبرنى، تبقى تاؤه على حالها فى الإفراد والتثنية والجمع ويسلُط التغير على الكاف: أَرَأَيْتَكَ أَرَأَيْتَكُمَا، أَرَأَيْتَكُمُ إلخ.

قال: نعم.

قال الشيخ: فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركتَ فيهما الحواس، فيأتى كل منهما كثيراً مهما قلَّ، وتزيد كلُّ حاسة في اللذة لذةً وفي الألم ألماً، فتعمل النفس في ذلك أعمالاً تَسَحَّرُ بها، فيكون الشيء لصاحبه غير ما هو للناس، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك، تسمعه أنت منه بكلِّ حواسك، فإذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير ذاك أكذلك هو؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفيكون السرور بالغاً عجيباً أكثر ما هو بالغ، حين يجد المال والغنى في الإنسان، أم حين يجد القوة النفسية وطبيعة المرح والرضى؟

قال: بل حين يجد في النفس . . .

قال الشيخ: أرايتَ الإنسان يكون سعيداً بما يتوهم الناس أنه به غنى سعيد، أم بشعوره هو وإن كان بعدُ فيما لا يتوهم الناس فيه الغنى والسعادة؟

قال: بل بشعوره.

قال الشيخ: أفلا توجد في الدنيا أشياء من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع؛ كالطفل عند أمه، كلُّ ما تعلَّق به من شيء وزُن به هو لا بغيره، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه، أتعرف أمَّا ترضى أن يُذَبَّح ابنُها في حجرها لقاء أن يُملأَ حجرُها ذهباً وإن كانت فقيرة مُعدمة؟

قال: لا.

قال الشيخ: فإذا كانت النفسُ تشعرُ أكثر مما ترى؛ أفيذهب ما تراه فيما تشعر به، ويكون شعورها هو وحده الذي يلبس ما حولها ويصوّره ويصرفه؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفتعرف أن لكل نفس قوة من هذا العالم الذي نعيش فيه عالماً آخر هو عالم أفكارها، وإحساسها، وفيه وحده لذاتُ إحساسها وأفكارها؟

قال: نعم.

قال الشيخ: أفرأيت المرأة إذا صحَّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها، أُرأيتها تكون إلا في عالم أفكارها؟ أُرأيت كل ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا؟ أُرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط؟
قال: نعم هو ذاك.

قال الشيخ: أُرأيت إذا كان الإيمان قد وُلِد ونشأ وترعرع في قلب المرأة، إلا يكون هو طفل قلبها؟
قال: نعم.

قال الشيخ: أُرأيت إذا كانت الخمر عند مُدْمِنها شيئاً عظيماً، وكانت ضرورة من ضرورات وجوده الضعيف المختل، فلا يستقيم وجوده ولا سَفَه وجوده إلا بها؛ أفيلزم من ذلك أن تكون الخمر من ضرورات صاحب الوجود القوى المنتظم؟
قال: لا.

قال الشيخ: أفموقن أنت لا بد من آخر لأيام الإنسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش؟
قال: نعم.

قال الشيخ: أفَيُورَخ الإنسان يومئذ بتاريخ معدته وما حولها، أم بتاريخ نفسه وما فيها؟
قال: بل بتاريخ نفسه.

قال الشيخ: فإذا كنت صاحب حرب، وكنت بطلاً من الأبطال، ومُسْعِراً من المساعير، وأيقنت الموت في المعركة؛ أَيْكونُ الحقيقى عندك في هذه الساعة هو الموت أم الحياة؟

قال: بل الحياة عندئذ وهم وباطل.
قال الشيخ: فتقر في تلك الساعة إلى الحياة ولذاتها في خيالك، أم تفر منها ومن لذاتها؟

قال: بل الفراغ منها، فإن خيالها يكون خَبَلاً.

قال الشيخ: ففي تلك الساعة التي هي عُمرُ نفسك، وعَمَلُ نفسك، ورجاءُ نفسك؛ تستشعر اللذة في موتك بطلاً، أم تُحسُّ الكُربَ، والمَقَتَّ من ذلك؟
قال: بل أَسْتشعرُ اللذة.

قال الشيخ: إذن فهي كبرياء الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أي أشكالها ولو في الذهب.
قال: هي تلك.

قال الشيخ: إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلَّ أشياء الدنيا، أو الأشياء الكثيرة من الدنيا.
قال: نعم.

قال الإمام: يرحمك الله؛ كذلك مُحِىَ عندنا أميرُ المؤمنين وابنُ أمير المؤمنين، ومُحِىَ المال والغنى، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة؛ ومن رحمة الله أن كل مَنْ هُدِيَ سبيله بالدين أو الحكمة، استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا، ولو لم يكن له إلا لُقيَمَات؛ فإن السَّعة سعة الخلق لا المال، وإن الفقر فقر الخلق لا العيش.

قال الراوى: ثم إن الإمام العظيم التفت إلى الناس وقال: أما إنى - عَلمَ الله - ما زَوَّجْتُ ابنتى رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة، يملك أقوى أسلحته من الدين والفضيلة. وقد أيقنْتُ حين زَوَّجْتُها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلة نفسه، فيتجانسُ الطبع والطبع؛ ولا مَنَهْنَأَ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعه طبعها، وقد علمتُ وعلم الناس أن ليس في مال الدنيا ما يشتري هذه المجانسة، وأنها لا تكون إلا هدية قلبٍ لقلبٍ ياتلفان ويتحابان.

ثم قال الإمام: وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله ﷺ^(١). ورأيتُهنَّ في دُورهنَّ يَقيَسينَ الحياةَ، ويُعانينَ من الرزق ما شَحَّ دَرَّه فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة، وهنَّ على ذلك، ما واحدة منهنَّ إلا هي ملكة من ملكات الآدمية كلها، وما فقَرُهنَّ إلا كبرياء الجنة نظرتُ إلى الأرض فقالت: لا....! ^(٢) يجاهدنَّ مجاهدةً كل شريف عظيم النفس، همه أن يكونَ الشرفُ أو لا يكونَ شيء، ويرى الغافلُ أن مثلهنَّ هالكاتُ في تعب الجهاد، ويعلمنَّ من أنفسهنَّ غيرَ ما يرى ذلك المسكين، يعلمنَّ أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها.

كانت أنوثتُهنَّ أبداً صاعدةً متساميةً فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى، ولا تزال متساميةً صاعدةً، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها، ولا تزال أنوثتها تنحدر ما بقيتُ المرأةُ تطمع، ورُبَّ ملكة جعلتها مطامعُ الحياة في الدرك الأسفل، وهي باسمها في الوهم الأعلى...!

وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «أُطْلِعْتُ في الجنةِ فإذا أَقْلُ أهلها النساءُ، فقلتُ أين النساءُ؟ قال: شَغَلَهُنَّ الأحمران: الذهب والزعفران»^(٣)، أي الطمعُ في الغنى والعملُ له، والميلُ إلى التبرج والحرصُ عليه.

ونفسُ الأنثى ليست أنثى، ولكن شَغَلها بذلك التبرج وذلك الحرصُ وذلك الطمع، هو يُخصِّصُها بخصائص الجسد، ويُعطيها من حكمه، ويُنزِلها على إرادته، وهذه

(١) توفي سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها، وكان قد لقي جماعة من الصحابة وسمع منهم، ودخل على أزواج النبي ﷺ وأخذ عنهن، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل، وعنه أكثر روايته.

(٢) انظر مقالة: (درس من النبوة) في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) هذان هما فتنة النساء في كل دهر، وهذا الحديث من المعجزات، فالذهب كناية عن المال والحلى وما كان من بابهما، أما الزعفران ففيها المعجزة، لأنها كناية مطلقة فهما العرب دلالة على الثياب المصبغة، وتفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء، من المساحيق والعمود، إلى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب. وقد كان العرب يقولون: غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها. ويقولون من ذلك: امرأة مغمرة، وتغمرت، أي فعلت ذلك. (فالزعفران) كما ترى، كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية..

هي المرأة، فتَهبط المرأة أكثر مما تَعلو، وتضعف أكثر مما تقوى، وتفسد أكثر مما تصلح. إن نفس الأنثى لرجل واحد، لزوجها وحده.

رأيت أزواج النبي ﷺ فقيرات مقتورات عليهن الرزق، غير أن كلاً منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوي، في دار صغيرة فرشتها الأرض ولكنها من معاني ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران. إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعدن عن حماقة الدنيا التي لا تكون إلا في الغنى.

أف أف! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيها الله على يدي، وأدفعها إلى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كل أقدار النفس ودنس الأيام الليالي، أزوجها رجلاً تعرف من فضيلة نفسها سقوط نفسه، فتكون زوجة جسمه ومطلقة روحه في وقت معاً؟

ألا كم من قصر هو في معناه مقبرة، ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالهم ونسائهم إلا جيف يبلى بعضها بعضاً!

قال الروای: وضع الناس لحمامة صغيرة قد جَنَحَتْ من الهواء، فوقعت في حجر الشيخ لائذة به من مخافة، وجعلت تدف بجناحيها وتضطرب من الفزع، ومر الصقر على أثرها وقد أهوى لها، غير أنه تمطر ومرق في الهواء إذ رأى الناس...

وتناولها الإمام في يده وهى فى رجفتها من زلزلة الهواء، وكانت كالعروس مسرولة قد غابت ساقاها فى الريش، وعلى جسمها من الألوان نممة وتحبير، ولها روح العروس الشابة يهدونها إلى من تكره ويزفونها على قاتلها الذى يسمى زوجها. وأدناها الشيخ من قلبه، ومسح عليها بيده، ونظر فى الهواء نظرة... وهو يقول: نجوت نجوت يا مسكينة!

■ ■ ■

زوجة إمام

جلس جماعة أصحاب الحديث في مسجد الكوفة، يَتَنَظَّرُونَ قُدُومَ شَيْخِهِمُ الْإِمَامِ «أبي محمد سليمان الأعمش»^(١) ليسمعوا منع الحديث، فأبطأ عليهم، فقال منهم قائل: هَلُمُّوا نَتَحَدَّثْ عَنِ الشَّيْخِ فَنَكُونُ مَعَهُ وَلَيْسَ مَعَنَا، فَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ: إِلَى أَنْ يَكُونَ مَعَنَا وَلِسْنَا مَعَهُ! فَخَطَرَتْ ابْتِسَامَةً ضَعِيفَةً تَهْتَزُّ عَلَى أَفْوَاهِ الْجَمَاعَةِ، لَمْ تَبْلُغِ الضَّحْكَ، وَمَرَّتْ لَمْ تُسْمَعْ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَرَ، وَانْطَلَقَتْ مِنَ الْمَبَاحِ الْمَعْفُوقِ عَنْهُ. وَلَكِنْ أَكْبَرَهَا أَبُو عَتَّابٍ مَنْصُورُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ. فَقَالَ: وَيْلَكَ يَا أبا مُعَاوِيَةَ! أَتَتَذَدَّرُ بِالشَّيْخِ وَهُوَ مِنْذُ السَّتِينَ سَنَةً لَمْ تَفْتَهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فِي هَذَا الْمَسْجِدِ، وَعَلَى أَنَّهُ مُحَدَّثُ الْكُوفَةِ وَعَالِمُهَا، وَأَقْرَأُ النَّاسَ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَعْلَمُهُمُ بِالْفَرَائِضِ، وَمَا عَرَفَتْ الْكُوفَةُ أَعْبَدَ مِنْهُ وَلَا أَفْقَهَ فِي الْعِبَادَةِ؟

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُحَادَةَ^(٢): أَنْتَ يَا أبا عَتَّابٍ، رَجُلٌ وَحْدَكَ، تُوَاصِلُ الصُّومَ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَقَدْ يَبْسُتُ عَلَى الدَّهْرِ، وَأَصْبَحَ الدَّهْرُ جَائِعًا مِنْكَ، وَمَا بَرَحْتَ تَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، كَأَنَّمَا اطَّلَعْتَ عَلَى سُوءِ الْجَحِيمِ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَتَوَاقَعُونَ فِيهَا وَهِيَ لَهَبٌ أَحْمَرٌ يَلْتَفُّ عَلَى لَهَبٍ أَحْمَرٍ، تَحْتَ دُخَانٍ أَسْوَدَ يَتَضَرَّبُ فِي دُخَانٍ أَسْوَدَ، يَتَغَامَسُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَهِيَ مِلْءُ السَّمَوَاتِ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا كَالذُّبَابَةِ أَوْ قُدُوا لَهَا جِبَلًا مَمْتَدًّا مِنَ النَّارِ، يَنْطَادُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَقَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا جَمْرًا وَشُعْلًا وَدُخَانًا، حَتَّى لَتَتَهَارَبُ السُّحُبُ فِي أَعْلَى السَّمَاءِ مِنْ حَرِّهِ، وَهُوَ عَلَى هَوْلِهِ وَجَسَامَتِهِ لِحَرِّ ذُبَابَةٍ لَا غَيْرَهَا، بَيِّدَ أَنَّهَا ذُبَابَةٌ تُحَرِّقُ أَبَدًا وَلَا تَمُوتُ أَبَدًا، فَلَا تَزَالُ وَلَا يَزَالُ الْجَبَلُ!

فَصَاحَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ: وَيْحَكَ يَا مُحَمَّدُ! دَعِ الرَّجُلَ وَشَأْنَهُ، إِنَّ اللَّهَ عِبَادًا مَتَاعُهُمْ مِمَّا لَا نَعْرِفُ، كَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فِي النَّوْمِ، فَحَيَاتُهُمْ، مِنْ وَارِءِ حَيَاتِنَا،

(١) ولد هذا الإمام العظيم سنة ٦١ للهجرة، وتوفي سنة ١٤٨هـ.

(٢) الجحادة هي الغرارة الممتلئة، فكانت أمه تشبه بها لضخامتها.

وأبو عتاب في دنيانا هذه ليس هو الرجل الذي اسمه «منصور»، ولكنه العمل الذي يعمله «منصور». هل أتاكم خبر قارئ المدينة «أبي جعفر الزاهد»؟

قال الجماعة: ما خبره يا أبا معاوية؟ قال: لقد توفى من قريب، فرئى بعد موته على ظهر الكعبة، وسترون أبا عتاب - إذا مات - على منارة هذا المسجد!

فصاح أبو عتاب: تَخَلَّلْ يا أبا معاوية، أما حفظت خبر ابن مسعود: «كنا عند النبي ﷺ فقام رجل، فوقع فيه رجل من بعده، فقال النبي ﷺ: «تخلَّل» قال: «مَمَّ أتخلَّل؟ ما أكلت لحمًا؟» قال: «إنك أكلت لحم أخيك!»

فتقلل الضير في مجلسه، وتخنح، وهمهم أصواتًا بينه وبين نفسه، وأحس الجماعة شأنه، وقد عرفوا أن له شرًا مبصرًا، كالذي كان فيه من المزح والدعابة، وشرًا أعمى هذه بؤادره، فاستلب ابن جحادة الحديث مما بينهما وقال: يا أبا معاوية أنت شيخنا وبركتنا وحافظنا، وأقربنا إلى الإمام، وأمسنًا به، فحدثنا حديث الشيخ كيف صنع في ردة على هشام بن عبد الملك^(١)، وما كان بينك وبين الشيخ في ذلك، فإن هذا مما انفردت أنت به دون الناس جميعًا، إذ لم يسمعه غير أذنك، فلم يحفظه غيرك وغير الملائكة.

فأسفر وجه أبي معاوية، وسرى عنه، واهتز عطفاه، وأقبل عليهم بعفو القادر... وأنشأ يحدثهم. قال؟

إن هشامًا - قاتله الله - بعث إلى الشيخ: أن اكتب لي مناقب عثمان ومساوي علي. فلما قرأ كتابه كانت داجنة إلى جانبه، فأخذ القرطاس وألقمه الشاة، فلاكته حتى ذهب في جوفها، ثم قال لرسول الخليفة: قل له: هذا جوابك! فخشى الرسول أن يرجع خائبًا فيقتله هشام، فما زال يتحمل بنا، فقلنا: يا أبا محمد، نجه من القتل. فلما ألحنا عليه كتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد يا أمير المؤمنين، فلو

(١) بويح هشام سنة ١٠٥ للهجرة، وتوفي سنة ١٢٥هـ.

كانت لعثمان رضي الله عنه مناقبُ أهل الأرض ما نفعتك، ولو كانت لعلی رضي الله عنه مساوي أهل الأرض ما ضرتك فعليك بخويصة نفسك، والسلام.

فلما فصل الرسول قال لى الشيخ: إنه كان فى خراسان مُحَدِّثُ اسمه «الضحَّاكُ ابن مزاحم الهاللى» وكان فقيهَ مكتبٍ عظيمٍ فيه ثلاثة آلاف صبى يتعلمون، فكان هذا الرجلُ إذا تعب ركب حماراً ودارَ به فى المكتب عليهم، فيكونُ إقبال الحمار على الصبى همّاً وإدبارهُ عنه سروراً. وما أرى الشيطانَ إلا قد تعب فى مكتبه وأعياء، فركب أمير المؤمنين... ليدورَ علينا نحن يسألنا: ماذا حفظنا من مساوي عليّ؟

قلت: فلماذا ألقيت كتابه الشاة؟ ولو غسلته أو أحرقتَه كان أفهمَ له وكان هذا أشبه بك. فقال: ويحك يا أبله! لقد شابت البلاهة فى عارضيك، إن هشاماً سَيَقَطُّعُ منها غيظاً، فما يخفى عنه رسوله أنى أطعمتُ كتابه الشاة، وما يُخفى عنه دهاؤه أن الشاة ستبعرُهُ من بعد...

قلت: ألا تخشى أمير المؤمنين؟

قال: ويحك! هذا الأحوالُ عندك أمير المؤمنين؟ أبماً ولدته أمه من عبد الملك؟ فهبها ولدته من حائك أو حجام! إن إمارة المؤمنين يا أبا معاوية، هى ارتفاعُ نفس من النفوس العظيمة إلى أثر النبوة، كأنَّ القرآنَ عَرَضَ المؤمنين جميعاً ثم رضى منهم رجلاً للزمن الذى هو فيه، ومتى أصيبَ هذا الرجلُ القرأنى، فذاك وارثُ النبىِّ فى أمتِه وخليفته عليها، وهو يومئذ أمير المؤمنين، لامن إمارة الملوك والتُرف، بل من إمارة الشرع والتدبير والعمل والسياسة.

هذا الأحوالُ الذى التفَّ كدودة الحرير فى الحرير، وأقبل على الخيل لا للجهاد والحرب، ولكن للهو والحلبة، حتى اجتمع له من جِياد الخيل أربعة آلاف فرس لم يجتمع مثلها لأحد فى جاهلية ولا إسلام، وعَمِلَ الخَزْ وَقُطِفَ الحَزْ، واستجَادَ الفرش والكُسوة، وبالغ فى ذلك وأنفقَ فيه النفقات الواسعة، وأفسد الرجولة بالنعيم والتُرف، حتى سلك الناسُ فى ذلك سُنَّتَه، فأقبلوا بأنفسهم على لهو أنفسهم، وصنعوا

الخيرَ صنعةً جديدةً بصرفه إلى حظوظهم، وتركوا الشرَّ على ما هو في الناس، فزادوا الشرَّ وأفسدوا الخير، ولم يعد الفقراء والمساكين عندهم هم الفقراء والمساكين من الناس، بل بطونهم وشهواتهم...! ولقد كان الرجل من أغنياء المسلمين يقتصد في حفظ نفسه ليسع ببره مائة أو مائتين أو أكثر من أخوانه وذوى حاجته، فعاد هذا الغنى يتسع لنفسه ثم يتسع، حتى لا يكفيهِ أن يأكل رزقه مائة أو مائتين أو أكثر! إن هذا الإسلام يجعل أحسنَ المسرات أحسنها في بذلها للمحتاجين، لا في أخذها والاستئثار بها، فهي لا تضيع على صاحبها إلا لتكون له عند الله، وكأن الفقر والحاجة والمسكنة والإنفاق في سبيل الله - كأن هذه أرضون يُغرس فيها الذهب والفضة غرساً لا يؤتى ثمره إلا في اليوم الذي ينقلب فيه أغنى الأغنياء على الأرض، وإنه لأفقر الناس إلى درهم من رحمة الله وإلى ما دون الدرهم، فيقال له حينئذ: خذ من ثمار عملك، وخذ ملء يديك!

والسلطان في الإسلام هو الشرع مرئياً يتابعه، متكلماً يفهمه الناس، أمراً ناهياً يطعونه الناس. ولقد رأى المسلمون هذا الأحوال، وتابعوه وسمعوا له وأطاعوا، فمنعوا ما في أيديهم، فانقطع الرّفْد، وقل الخير، وشحّت الأنفس، وأصبح خيرهم خيراًهم لبطنه وشهواته، وصار الزمان أشبه بناسه، والناس أشبه بملكهم وشهواته «فقير المؤمنين» لا أمير المؤمنين!

إن هذه الإمارة يا أبا معاوية، إنما تكون في قرب الشبه بين النبي ومن يختاره المؤمنون للبيعة. وللنبيّ جهران: إحداهما إلى ربه، وهذه لا يطمع أحد أن يبلغ مبلّغه، والأخرى إلى الناس، وهذه هي التي يقاس عليها «وهي كلها رفق ورحمة وعمل، وتدبير وحياطة وقوه، إلى غيرها مما يقوم به أمر الناس، وهي حقوق وتبعات ثقيلة تنصرف بصاحبها عن حظ نفسه، وبهذا الانصراف تجذب الناس إلى صاحبها. فإمارة المؤمنين هي بقاء مادة النور النبوي في المصباح الذي يضيء للإسلام، بإمداده بالقدر بعد القدر من هذه النفوس المضيئة. فإن صلح التراب أو الماء مكان الزيت في الاستضاءة، صلح هشام وأمثاله لإمارة المؤمنين!

ويلٌ للمسلمين حين ينظرون فيجدون السلطانَ عليهم بينه وبين النبي مثل ما بين دينين مختلفين. ويلٌ يومئذ للمسلمين!

فلما أتمّ الضريّر حديثه قال ابن جُحادة: إن شيخنا على هذا الجدّ ليمزح، وسأحدثكم غير حديث أبي معاوية، فقد رأيت الدنيا كأنما عرفت الشيخ ووقفت على حقيقته السماوية فقالت له: اضحك مني ومن أهلي. ولكن وقاره ودينه ارتفعاً به أن يضحك بفمه ضحك الجهلاء والفارغين فضحك بالكلمة بعد الكلمة من نوادره. لقد كنتُ عنده في مَرْضَتِهِ، فعاده «أبو حنيفة» صاحبُ الرأى، وهو جبلٌ علمٌ شامخ، فطَوَّلَ القعودَ مما يُحِبُّه ويأنسُ به، إذ كانت الأرواحُ لا تعرف مع أحبابها زمناً يطول أو يقصر. فلما أراد القيامَ قال له: ما كَأْنِي إِلَّا ثَقَلْتُ عَلَيْكَ. فقال الشيخ: إنك لثَقِيلٌ عَلَيَّ وأنت في بيتك...! وضحك أبو حنيفة كأنه طفل يُلاغيه أبوه بكلمة ليس فيها معناها، أو أبٌ دأبه طفله بكلمة فيها غير معناها. وجاء في الغداة قومٌ يعودونه، فلما أطالوا الجلوسَ عنده أخذ الشيخ وسادته وقام منصرفاً وقال لهم: قد شفى الله مريضكم...!

فقال الضريّر: تلك رُوحَةٌ من هواء دُنْبَاوَنَد^(١)، فإن أبا الشيخ كان من تلك الجبال، وقدم إلى الكوفة وأُمُّه حاملٌ، فوُلِدَ هنا، فكأن في دمه ذلك النسيم تهبُّ منه النفحة بعد النفحة في مثل هذه الكلمات المُنْتَسِمة، ثم هي رُوحُه الظريفة الطيِّبة تلمس بعض كلامه أحياناً، كما تلمس روح الشاعر بعضَ كلام الشاعر، وما رأيت أدقَّ النوادر الساخرة وأبلغها وأعجبها يجيء إلا من نوى الأرواح الشاعرة الكبيرة البعيدة الغور، كأنما النادرة من رؤية النفس حقيقتين في الشيء الواحد. والإمام في ذلك لا يسخر من أحد، إلا إذا كانت الأرض حين تخرج الثمرة الحلوة تسخر بها من الثمرة المرة.

(١) ناحية من رستاق الرى في الجبال الثلجية وهي بلاد العجم.

والعجيبُ أن النادرة البارقة التي لا تتفق إلا لأقوى الأرواح، يتفق مثلها لأضعف الأرواح، كأنها تسخر من الناس كما يسخرون بها؛ فهذا «أبو حسن» مُعَلِّمُ الكُتَّاب، جاءه غلامان من صبيته قد تعلق أحدهما بالآخر، فقال: يا مُعَلِّم، هذا عضُّ أذنى. فقال الآخر: ما عضتها، وإنما عضُّ أذن نفسه... فقال المعلم: وتمكُّرُ بى يا بن الخبيثة؟ أهو جملٌ طويل العُنق حتى ينالَ أذنَ نفسه فيعضُّها...!

وطلع الشيخُ عليهم وكأنما قرأ نفسَ أبى معاوية فى وجهه المتفتِّح. ومن عجائب الحكمة أن الذى يُلمَحُ فى عينى المبصرِ من خوالج نفسه، يُلمَحُ على وجه الضرير مُكَبَّرًا مجسَّمًا. وكان الشيخ لا يأنس بأحد أنسه بأبى معاوية، لذكائه وحِفْظه وضبطه، ولمشاكلة الظرف الروحى بينهما، فقال له:

— «فيم كان أبو معاوية؟»

— «كان أبو معاوية فى الذى كان فيه!»

— «وما الذى كان فيه؟»

— «هو ما تسأل عنه!»

— «فأجبني عما أسأل عنه»

— «قد أجبتك!»

— «بماذا أجبت؟»

— «بما سمعت!»

فقَبَّضَ وجه الشيخ وقال: «أههنا وهناك معاً؟ لو أن هذا من امرأة غضبى على زوجها لكان له معنى، بل لا معنى له ولا من امرأة غضبى على زوجها. أَحْسَبُ لولا أن فى منزلى من هو أبغضُ إلَى منكم ما خرجت؟» فقال الضرير: «يا أبا محمد، كأننا زوجاتُ العلم، فأيتنا التى حظيت وبظيت...»

فغطى الجماعةُ أفواههم يضحكون، وتبسمَ الشيخ، ثم شرع يحدث فأفضى من خبر إلى خبر، وتسرح فى الرواية حتى مرَّ به هذا الحديث:
عن رسول الله ﷺ قال: «إن هلاك الرجال طاعتهم لنسائهم».

قال الشيخ : كان الحديث بهذا اللفظ، ولم يقل النبي ﷺ : «هالك الرجل طاعته لامرأته»، فإن هذا لا يستقيم؛ إذا يكون بعض النساء أحياناً أكمل من بعض الرجال، أوفر عقلاً وأسد رأياً، وقد تكون المرأة هي الرجل في الحقيقة عزماً وتديباً وقوة نفس، ويتلین الرجل معها كأنه امرأة. وكثير من النساء يكن نساءً بالحليّة والشكل دون ما وراءهما، كأنما هيئتن رجالاً في الأصل ثم خلِقن نساء بعد، لإحداث ما يريد الله أن يحدث بهنّ، مما يكون في مثل هذه العجيبة عملاً ذا حقيقتين في الخير أو الشر. وإنما عمّ الحديث ليدلّ على أن الأصل في هذه الدنيا أن تستقيم أمور التدبير بالرجال، فإن البأس والعقل يكونان فيهم خلقة وطبيعة أكثر مما يكونان في النساء: كما أن الرقة والرحمة في خلقة النساء وطبيعتهن أكثر مما هما في الرجال، فإذا غلبت طاعة النساء في أمة من الأمم، فتلك حياة معناها هلاك الرجال، وليس المراد هلاك أنفسهم، بل هلاك ما هم رجال به، والحديد حديد بقوته وصلابته، والحجر جبر بشدّته واجتماعه، فإن ذاب الأول أو تغلّل، وتناثر الآخر أو تفتت، فذاك هلاكهما في الحقيقة، وهما بعد لا يزالان من الحجر والحديد.

والمرأة ضعيفة بفطرتها وتركيبها، وهي على ذلك تأبى أن تكون ضعيفة أو تُقرّر بالضعف، إلا إذا وجدت رجلها الكامل، رجلها الذي يكون معها بقوته وعقله وفنّنته لها وحبّها إياه، كما يكون مثال مع مثال. ضَع مائة دينار بجانب عشرة دنانير، ثم اترك للعشرة أن تتكلم وتدعى وتستطيل، قد تقول: إنها أكثر إشراقاً، أو أظرف شكلاً، أو أحسن وضعاً وتصفيفاً، ولكن الكلمة المحرّمة هنا أن تزعم أنها أكبر قيمة في السوق...!

قال الشيخ: ومَنْ مِنَ النساء تُصيب رجلها الكامل أو القريب من كماله عندها، أي طبيعته بالقياس إلى طبيعتها، كمال جسم مفصل لجسم، تفصيل الثوب الذي يلبسه ويختال فيه؟ أما إن هذا من عمل الله وحده، كما يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، يبسط مثل ذلك للنساء في رجالهن ويقدر.

فإذا لم تُصب المرأة رجلها القوى - وهو الأعم الأغلب - لم تستطع أن تكون معه فى حقيقة ضعفها الجميل، وعَمِلَتْ على أن يكون الرجل هو الضعيف، لتكونَ معه فى تزوير القوة عليه وعلى حياته، وبهذا تخرج من حيزها، وما أول خروج النساء إلى الطرقات إلا هذا المعنى، فإن كثر خروجهن فى الطريق، وتَسَكَّنَ ههنا وههنا. فإنما تلك صورة من فساد الطبيعة فيهن ومن إملاقها أيضًا..

قال الشيخ: وكأن فى الحديث الشريف إيماء إلى أن من بعض الحق على النساء أن ينزلن عن بعض الحق الذى لهن إبقاء على نظام الأمة، وتيسيرًا للحياة فى مجراها، كما ينزل الرجل عن حقه فى حياته كلها إذا حارب فى سبيل أمته، إبقاءً عليها وتيسيرًا لحياتها فى مجراها. فصبرُ المرأة على مثل هذه الحالة هو نفسه جهادها وحربها فى سبيل الأمة، ولها عليه من ثواب الله مثل ما للرجل يقتل أو يجرح فى جهاده.

ألا وإن حياة بعض النساء مع بعض الرجال تكون أحيانًا مثل القتل، أو مثل الجرح، وقد تكون مثل الموت صبرًا على العذاب! ولهذا قال رسول الله ﷺ لمُزَوَّجَةٍ يسألها عن حالها وطاعتها وصبرها مع رجلها: «فأين أنت منه؟» قالت ما آلوه إلا ما عَجَزْتُ عنه! قال: «فكيف أنتِ له؟ فإنه جَنَّتْكِ ونارُكِ».

آه! آه! حتى زواج المرأة بالرجل هو فى معناه مُرُورُ المرأة المسكينة فى دنيا أخرى إلى موت آخر، ستُحَاسَبُ عنده بالجنة والنار، فحسابها عند الله نوعان: ماذا صنعت بدنياك ونعيمها وبؤسها عليك، ثم ماذا صنعت بزوجك ونعيمه وبؤسه فيك؟ وقد روينا أن امرأة جاءت النبی ﷺ، فقالت: يارسول الله، إني وافدة النساء إليك، ثم ذكرت ما للرجال فى الجهاد من الأجر والغنيمة، ثم قالت فما لنا من ذلك؟ فقال ﷺ: «أبلغى من لقيت من النساء أن طاعةً للزوج، واعترافًا بحقه - يعدل ذلك، وقليل منك من يفعله!»

وقال الشيخ: تأملوا اعجبوا من حكمة النبوة ودقَّتْها وبلاغتها، أيقال فى المرأة المحبة لزوجها المفتتنة به المعجبة بكماله: إنها أطاعته واعترفت بحقه؟ أو ليس

ذلك طبيعة الحب إذا كان حبًّا؟ فلم يبق إذن إلا المعنى الآخر، حين لا تصيب المرأة رجلها المفصل لها، بل رجلاً يُسمى زوجاً، وهنا يظهر كرم المرأة الكريمة، وههنا جهاد المرأة وصبرها، وههنا بذلها لا أخذها، ومن كل ذلك ههنا عملها لجننتها أو نارها. فإذا لم يكن الرجل كاملاً بما فيه للمرأة، فلتبقي هي رجلاً بنزولها عن بعض حقها له، وتركها الحياة تجري في مجراها، وإيثارها الآخرة على الدنيا، وقيامها بفريضة كمالها ورحمتها، فيبقى الرجل رجلاً في عمله للدنيا، ولا يُمسح طبعه ولا ينتكس بها ولا يذل، فإن هي بذأت وتسلطت وغلبت وصرفت الرجل في يدها، فأكثر ما يظهر حينئذ في أعمال الرجال من طاعتهم لنسائهم إنما هو طيش ذلك العقل الصغير وجُرأته، وأحياناً وقاحتها، وفي كل ذلك هلاك معاني الرجولة، وفي هلاك معاني الرجولة هلاك الأمة؟!!

قال الشيخ: والقلوب في الرجال ليست حقيقةً أبداً، بطبيعة أعمالهم في الحياة وأمكنتهم منها، ولكن القلب الحقيقي هو في المرأة، ولذا ينبغي أن يكون فيه السمو فوق كل شيء إلا واجب الرحمة، ذلك الواجب الذي يتجه إلى القوى فيكون حباً، ويتجه إلى الضعيف فيكون حناناً ورقة، ذلك الواجب هو اللطف، ذلك اللطف هو الذي يُثبت أنها امرأة.

قال أبو معاوية: وانفض المجلس، ومنعني الشيخ أن أقوم مع الناس، وصرف قائدي، فلما خلا وجهه قال يا أبا معاوية، قم معي إلى الدار. قلت: ما شأن في الدار يا أبا محمد؟ قال: إن (تلك) غاضبة عليّ، وقد ضاقت الحال بيني وبينها، وأخشى أن تتباعد، فأريد أن تصلح بيننا صلحاً.

قلت: فمِمَّ غضبها؟ قال: لا تسأل المرأة مِمَّ تغضب، فكثيراً ما يكون هذا الغضب حركة في طباعها، كما تكون جالسة وتريد أن تقوم فتقوم، وتريد أن تمشي فتمشي!

قلت: يا أبا محمد، هذا آخر أربع مرات^(١) تغضبُ عليك غضبَ الطلاق، فما يحبسُك عليها والنساء غيرها كثير.

قال: ويحك يارجل! أبائعُ نساءً أنا، أما علمتَ أن الذى يطلق امرأةً لغير ضرورة مُلجئة، هو كالذى يبيعها لمن لا يدري كيف يكون معها وكيف تكون معه؟ إن عمرَ الزوجة لو كان رقبةً وضربت بسيف قاطع لكان هذا السيف هو الطلاق! وهل تعيش المطلقة إلا فى أيام ميتة؟ وهل قاتل أيامها إلا مطلقها؟ قال أبو معاوية: وقمنا إلى الدار، واستأذنت ودخلت على (تلك)...



(١) هذا هو التعبير الصحيح لمثل قول الناس «هذه رابع مرة».

زوجة إمام

بقية الخير

قال أبو معاوية الضرير: وكنت في الطريق إلى دار الشيخ، أروى في الأمر، وأمتحن مذاهب الرأي، وأقلبها على وجوهها، وأنظر كيف أحتال في تأليف ما تنافر من الشيخ وزوجته؛ فإن الذي يسفر بين رجل وامرأته إنما يمشى بفكرة بين قلبين، فهو مطفئ نائرة^(١) أو مسعرها، إذ لا يضع بين القلبين إلا حمقه أو كياسته، وهو لن يرد المرأة إلى الرأي إلا إذا طاف على وجهها بالضحك، وعلى قلبها بالخجل، وعلى نفسها بالركة، وكان حكيماً في كل ذلك، فإن عقل المرأة مع الرجل عقل بعيد، يجيء من وراء نفسها، من وراء قلبها.

وجعلت أنظر ما الذي يفسد منحل الشيخ من زوجته، ومثلت بينه وبينها، فما أخرج لي التفكير، إلا أن حسن خلقه معها دائماً هو الذي يستدعي منها سوء الخلق أحياناً، فإن الشيخ كما ورد في وصف المؤمن: «هين لين كالجمل الأنف^(٢)»، إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ»، والمرأة لا تكون امرأة حتى تطلب في الرجل أشياء: منها أن تحبه بأسباب كثيرة من أسباب الحب، ومنها أن تخافه بأسباب يسيرة من أسباب الخوف. فإذا هي أحبته الحب كله ولم تخف منه شيئاً، وطال سكونه وسكونها، نفرت طبيعتها نفرة كأنها تنخيه وتدمره ليكون معها رجلاً فيخيفها الخوف الذي تستكمل به لذة حبها، إذا كان ضعفها يحب فيما يحبه من الرجل، أن يقسو عليه الرجل في الوقت بعد الوقت، لا ليؤذيه ولكن ليخضعه، والامر الذي لا يخاف إذا عصي أمره، هو الذي لا يعبأ به إذا أطيع أمره.

(١) النائرة: الغضب.

(٢) أي المأنوف، ويسميه العامة (المخزوم) وهو الذي عقر نفسه بالخشاش فيقاد منه فيكون ذلولا سحماً.

وكان المرأة تحتاح طبيعتها أحياناً إلى مصائب خفيفة تؤذى برقة أو تمر بالأذى من غير أن تلمسها به، لتحرك في طبيعتها معاني دموعها من غير دموعها، فإن طال ركود هذه الطبيعة، أوجدت هي لنفسها مصائبها الخفيفة، فكان الزوج إحداها... وهذا كله غير الجرأة و البذاء فيمن يبغيض أزواجهن، فإن المرأة إذا فركت زوجها لمنافرة الطبيعة بينها وبينه، مات ضعفها الأنثوى الذى يتم به جمالها واستمتاعها والاستمتاع بها، وتعقد بذلك لينها أو تصلب أو استحجر، فتكون مع الرجل بخلاف طبيعتها، فينقلب سكرها النسائي بأنوثتها الجميلة عريضة وخلافاً وشراً وصخباً، ويخرج كلامها للرجل وهو من البغض كأنه فى صوتين لا فى صوت واحد. ولعل هذا هو الذى أحسه الشاعر العربى بفطرته من تلك المرأة الصخابة الشديدة الصوت البادية الغيظ، فضاعف لها فى تركيب اللفظ حين وصفها بقوله:

صُلْبَةُ الصَّيْحَةِ صَهْصَلِيْقْهَا^(١)

قال أبو معاوية: واستأذنت على (تلك)، ودخلت بعد أن استوثقت أن عندها بعض محارمها، فقلت: أنعم الله مساءك يا أم محمد. قالت: وأنت فأنعم الله مساءك. فأصغيت للصوت، فإذا هو كالنائم قد انتبه يتمطى فى استرخاء، وكأنها تقبلنى به وتردنى معاً، لا هو خالص للغضب ولا هو خالص للرضى. فقلت: يا أم محمد، إنى جائع لم أَلَم اليوم بمنزلى. فقامت فقربت ماحضر، وقالت معذرة يا أبا معاوية، فإنما هو جهد المقل، وليس يعدو إمساك الرَّمق. فقلت: إن الجوعان غير الشَّهوان، والمؤمن يأكل فى معى واحد^(٢) ولم يخلق الله قمحاً للملوك وقمحاً غيره للفقراء.

(١) هذا من عجائب اللغة العربية، إذا زاد المعنى زادوا له فى اللفظ. ورواية لسان العرب: «(شديدة الصيحة) وليست بشيء، فليصححها من يقتنى اللسان من القراء.

(٢) فى بعض الأثر: المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء. هذا الحديث رمز عجيب لبهيمية من لا يرى الدنيا إلا الدنيا فقط.

ثم سَمَّيْتُ ومددتُ يدي أتحسُّسُ ما على الطبق، فإذا كَسَرُ من الخبز، معها شيء من الجَزَرِ المسلوق، فيه قليلٌ من الخل والزيت، فقلتُ في نفسي: هذا بعضُ أسباب الشر، وما كان بى الجوع ولا سَدُّه، غير أنى أردتُ أن أعرفَ حاضِرَ الرزقِ فى دار الشيخ، فإن مثلَ هذه القلة فى طعام الرجل هى عند المرأة قِلَّةٌ من الرجل نفسه، وكلُّ ما تَفَقَّدُه من حاجاتها وشهواتِ نفسها، فهو عندها فَقْرٌ بمعنيين: أحدهما من الأشياء، والآخر من الرجل: كلما أكثر الرجلُ من إتحافها كثرَ عندها، وإن أقلَّ قلَّ. وإنما خُلقت المرأة بطناً يلدُ، فبطنُها هو أكبرُ حقيقتها، وهذه غايَتها وغايةُ الحكمة فيها، لا جَرَمَ كان لها فى عقلها مَعِدَّةٌ معنوية، وليس حبُّها للحلى والثياب والزينة والمال، وطماحُها إليها، واستهلاكُها فى الحرص والاستشراف لها - إلا مظهرًا من حكم البطنِ وسُلطانِه، فذلك كله إذا حَقَّقْتَه فى الرجل لم تجده عنده إلا من أسباب القوة والسلطة، وكان فقده من ذرائع الضعف والقِلَّة، فإذا حَقَّقْتَه فى المرأة أَلْفَيْتَه عندها من معانى الشبَعِ والبطر، وكان فقده عندها كأنه فُقْرٌ من الجوع، وكانت شهوتُها له كالقَرَمِ إلى اللحم عند من حُرِمَ اللحم، وهذا بعضُ الفرق بين الرجال والنساء، فلن يكون عقلُ المرأة كعقل الرجل لِمكان الزيادة فى معانيها «البطنية» فحُسِبَتْ لها الزيادة ههنا بالنقص هناك، فهن ناقصاتُ عقل ودين كما ورد فى الحديث: أما نقصُ العقل فهذه علتُه، وأما الدين فُلُغْلَبَةُ تلك المعانى على طبيعتها كما تَغلب على عقلها، فليس نقصُ الدين فى المرأة نقصًا فى اليقين أو الإيمان، فإنها فى هذين أقوى من الرجل، وإنما ذلك هو النقصُ فى المعانى الشديدة التى لا يكمل الدينُ إلا بها، معانى الجوع من نعيم الدنيا وزينتها، وامتدادِ العين إليها، واستشرافِ النفس لها، فإن المرأة فى هذا أقلُّ من الرجل، وهى لهذه العلة ما برحتُ تُؤثِّرُ دائماً جمالَ الظاهر وزينته فى الرجال والأشياء، دون النظر إلى ما وراء ذلك من حقيقة المنفعة.

قال أبو معاوية: وأريْتُها أنى جائع، فَنَهَشَتْ نهشَ الأعرابى، كيلا تفتن إلى ما أردتُ من زعم الجوع، ثم أحببت أن أستدعى كلامها وأستميلها لأن تضحك وتسر،

فأغَيَّرَ بذلك ما فى نفسها، فوجدَ كلامى إلى نفسها مذهبًا، فقلت: يا أم محمد، قد تحرَّمتُ بطعامكِ ووجَّبَ حقى عليك، فأشيرى على برأيك فيما أستصلح به زوجتى، فإنها غاضبة علىّ، وهى تقول لى: والله ما يقيم الفأر فى بيتك إلا لحبِّ الوطن... وإلا فهو يَستَرزق من بيوت الجيران.

قالت: وقد أعدمتُ حتى من كَسَرَ الخبز والجزر المسلوق؟ الله منك! لقد استأصلتُها من جذورها، إن فى أمراض النساء الحمى التى اسمها الحمى، والحمى التى اسمها الزوج...

فقلت: الله الله يا أم محمد؛ لقد أيسرتُ بعدنا، حتى كأن، الخبز والجزر المسلوق شىء قليل عندك من فرط ما يتيسر، أو ما علمت أن رزق الصالحين كالصالحين أنفسهم، يصوم عن أصحابه اليوم واليومين... وكأنك سمعت شيئاً من أخبار أمهات المؤمنين، أزواج رسول الله ﷺ ونساء أصحابه (رضوان الله عليهم)، فما خير امرأة مسلمة لا تكون بأدبها وخُلُقها الإسلامى كأنها بنت إحدى أمهات المؤمنين؟ أفرأيت لو كنت فاطمة بنت محمد ﷺ، أفكان ينقلك هذا إلى أحسن مما أنت فيه من العيش، وهل كانت فاطمة بنت ملكٍ تعيش فى أحلام نفسها، أو بنت نبي تعيش فى حقائق نفسها العظيمة؟

تقولين: إننى استأصلت أم معاوية من جذورها، فما أم معاوية وما جذورها؟ أهى خير من أسماء بنت أبى بكر صاحب رسول الله ﷺ، وقد قالت عن زوجها البطل العظيم: تزوجنى وماله فى الأرض من مال ولا مملوك، ولا شىء غير فرسه وناضحه^(١)، فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأُسوسه، وأدقُّ النوى لناضحه وأعلفه، واستقى الماء وأخرزُ غربه^(٢) وأعجن، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ، حتى أرسل إلى أبو بكر بجارية، فكفتنى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى.

(١) النواضح: الإبل يستقى عليها، واحدها ناضح وسائقها النضاح.

(٢) الغرب: الدلو العظيمة تتخذ من جلد الثور.

هكذا ينبغي لنساء المسلمين فى الصبر والإباء والقوة، والكبرياء بالنفس على الحياة كائنة ما كانت، والرضا والقناعة ومؤازرة الزوج وطاعته، واعتبار مآلهن عند الله لا مآلهن عند الرجل، وبذلك يرتفعن على نساء الملوك فى أنفسهن، تكون المرأة منهن وما فى دارها شىء، وعندها أن فى دارها الجنة. وهل الإسلام إلا هذه الروح السماوية لتى لا تهزمها الأرض أبداً، ولا تذللها أبداً، ما دام يأسها وطمعها معلقين بأعمال النفس فى الدنيا، لا بشهوات الجسم من الدنيا؟

هل الرجل المسلم الصحيح الإسلام، إلا مثل الحرب يثور حولها غبارها، ويكون معها الشظف والبأس والقوة والاحتمال والصبر؛ إذ كان مفروضاً على المسلم أن يكون القوة الإنسانية لا الضعف، وأن يكون اليقين الإنسانى لا الشك، وأن يكون الحق فى هذه الحياة لا الباطل؟

وهل امرأة المسلم إلا تلك المفروض عليها أن تمد هذه الحرب بأبطالها، وعتاد أبطالها وأخلاق أبطالها، ثم ألا تكون دائماً إلا من وراء أبطالها؟ وكيف تلد البطل إذا كان فى أخلاقها الضعة والمطامع الذليلة، والضجر والكسل والبلادة؟ ألا إن المرأة كالدار المبنية، لا يسهل تغيير حدودها إلا إذا كانت خراباً.

فاعترضته امرأة الشيخ وقالت: وهل بأس بالدار إذا وسعت حدودها من ضيق؟ أتكون الدار فى هذا إلى نقصها أو تمامها؟

قال أبو معاوية: فكدت أنقطع فى يدها، وأحببت أن أمضى فى استمالتها، فتركته هنيئة ظافرة بى، وأريتها أنها شدتنى وثاقاً، وأطرقت كالمفكر، ثم قلت لها إنما أحدثك عن أم معاوية لأبى معاوية، وتلك دار لا تملك أحجارها وأرضها فبأى شىء تتسع؟

زعموا أنه كان رجل عامل يملك دويرة قد التصقت بها مساكن جيرانه، وكانت له زوجة حمقاء، ما تزال ضيقة النفس بالدار وصغرها، كأن فى البناء بناءً حول قلبها، وكانا فقيرين، كأم معاوية وأبى معاوية، فقالت له يوماً: أيها الرجل، ألا توسع دارك هذه، ليعلم الناس أنك أيسرت وذهب عنك الضر والفقر؟ قال:

فبماذا أوسعّها وما أملك شيئاً، أأمسك بيميني حائطاً وبشمالى حائطاً فأمدّهما أباعد بينهما...؟ وهبيني ملكة التوسعة ونفقتها، فكيف لى بدور الجيران وهى ملاصقة لنا بيّت بيت؟

قالت الحمقاء: فإننا لا نريد إلا أن يتعلّم الناس أننا أيسرنا، فاهدم أنت الدار، فإنهم سيقولون: لو أنهم وجدوا واتسعوا وأصبح المال فى يدهم لما هدموا...! قال أبو معاوية: وغاظتني زوجة الشيخ فلم أسمع لها همسة من الضحك لمثل الحمقاء. وما اخترعته إلا من أجلها تريد أن يذهب عملى باطلاً، فقلت: وهل تتسع أم معاوية من فقرها إلا كما اتسع ذلك الأعرابى فى صلاحه؟ قالت: وما خبر الأعرابى؟

قلت: دخل علينا المسجد يوماً أعرابى جاء من البادية، وقام يصلى فأطال القيام والناس يرمقونه، ثم جعلوا يتعجبون منه، ثم رفعوا أصواتهم يمدحونه ويصفونه بالصلاح، فقطع الأعرابى صلاته وقال لهم: مع هذا إنى صائم... قال أبو معاوية: فما تمالكت أن ضحكت، وسمعت صوت نفسها، وميزت فيه الرضى مقبلاً على الصلح الذى أتسبّب له. ثم قلت:

وإذا ضاقت الدار فلم لا تتسع النفس التى فيها؟ المرأة وحدها هى الجوّ الإنسانى لدار زوجها، فواحدة تدخل الدار فتجعل فيها الروضة ناضرة متروحة باسمّة، وإن كانت الدار قحطة مسحوتة ليس فيها كبير شىء، وامرأة تدخل الدار فتجعل فيها مثل الصحراء برمالها وقبظها وعواصفها، وإن كانت الدار فى رياشها ومتاعها كالجنة السندسية، وواحدة تجعل الدار هى القبر. والمرأة حق المرأة هى التى تترك قلبها فى جميع أحواله على طبيعته الإنسانية، فلا تجعل هذا القلب لزوجها من جنس ما هى فيه من عيشة: مرة ذهباً، ومرة فضة، ومرة نحاساً أو خشباً أو تراباً، فإنما تكون المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معاً، فعليها حقان لا حق واحد، أصغرهما كبير؛ ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها، فإن أغضبها الرجل بهفوة منه، تجافّت له عنها، وصفحت

من أجل نظام الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئذ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها، وهي طبيعة تأبى التفرق والانفراد، وتقوم على الواجب، وتضاعف هذا الواجب على المرأة بخاصة.

والإسلام يضع الأمة ممثلة في النسل بين كل رجل وامرأته، ويوجب هذا المعنى إيجاباً، ليكون في الرجل وامرأته شيء غير الذكورة والأنوثة، ويجمعهما ويقيّد أحدهما بالآخر، ويضع في بهيميتهما التي من طبيعتهما أن تتفق وتختلف، إنسانية من طبيعتهما أن تتفق ولا تختلف.

ومتى كانت الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما، فإن كل عقدة لا تجيء إلا ومعها طريقة حلّها، ولن يُشاد الدين أحد إلا غلبه، وهو اليسر والمساهلة، والرحمة والمغفرة، ولين القلب وخشية الله، وهو العهد والوفاء، والكرم والمؤاخاة والإنسانية، وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيقة.

قال أبو معاوية: فحق الرجل المسلم على امرأته المسلمة، هو حق من الله، ثم من الأمة، ثم من الرجل نفسه، ثم من لطف المرأة وكرمها، ثم مما بينهما معاً. وليس عجيباً بعد هذا ما رويانا عن النبي ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق».

وهذه عائشة أم المؤمنين قالت: يا معشر النساء، لو تعلمن بحق أزواجهن عليكن، لجعلت المرأة منكن تمسح الغبار عن قدمي زوجها بحرّ وجهها.

قال أبو معاوية: وكان الشيخ قد استبطأني وقد تركته في فناء الدار، وكنت زوّرت في نفسي كلاماً طويلاً عن فروته الحفيرة التي يلبسها، فيكون فيها من بذاة الهيئة كالأجير الذي لم يجد من يستأجره، فظهر الجوع حتى على ثيابه... وقد مرّ

بالشيخ رجل من المسوودة^(١) وكان الشيخ فى فروته هذه جالساً فى موضع فيه خليج من المطر، فجاءه المسود فقال: قم فاعبرى هذا الخليج. وجذبه بيده فأقامه وركبه والشيخ يضحك.

وكننت أريد أن أقول لأم محمد: إن الصحو فى السماء لا يكون فقراً فى السماء، وإن فروة الشيخ تعرف الشيخ أكثر من زوجته، وإن المؤمن فى لذات الدنيا، كالرجل الذى يضع قدميه فى الطين ليمشى، أكبر همه ألا يجاوز الطين قدميه.

ولكن صوت الشيخ ارتفع: هل عليكم إن؟

قال معاوية: فبدرت وقلت: بسم الله ادخل، كأنى أنا الزوجة...

وسمعت همساً من الضحك، ودخل أبو محمد فجلس إلى جانبى، وغمزنى فى ظهرى غمزة، فقلت: يا أم محمد إن شيخك فى ورعه وزهده ليُشبعه ما يُشبع الهدد، ويرويه ما يروى العصفور، ولئن كان متهدماً فإنه جبل علم، «ولا تنظرى إلى عمش عينيه وحُموشة ساقيه، فإنه إمام وله قدر»^(٢).

فصاح الشيخ: قم أخزأك الله، ما أردت إلا أن تعرفها عيوبى!

قال أبو معاوية: ولكنى لم أقم، بل قامت زوجة الشيخ فقبلت يده..



(١) اللذين يلبسون السواد، وهم شيعة العباسيين.

(٢) ما بين القوسين هو الوارد فى التاريخ، وعليه بنينا هذه القصة.

قبح جميل

دخل أحمد بن أيمن (كاتب ابن طولون) البصرة، فصنع له مسلم بن عمران التاجر المتأدب صنيعاً دعا إليه جماعة من وجوه التجار وأعيان الأدباء، فجاء ابنا صاحب الدعوة، وهما غلامان، فوقفا بين يدي أبيهما وجعل ابن أيمن يطيل النظر إليهما، ويُعجب من حسنهما، وبزئتهما ورؤائهما، حتى كأنما أفرغا في الجمال وزينته إ فراغا، أو كأنما جاء من شمس وقمر لا من أبوين من الناس، أو هما نبتا في مثل تهاويل الزهر من زينته التي تُبدعها الشمس، ويصقلها الفجر، ويتندى بها رُوح الماء العذب، وكان لا يصرف نظره عنهما إلا رجع به النظر، كأنه جمالهما لا ينتهى فما ينتهى الإعجاب به.

وجعل أبوهما يُسارقهُ النظر مُسارقةً، ويبدو كالمتشاغل عنه، ليدع له أن يتوسم ويتأمل ما شاء، وأن يملأ عينيه مما أعجبه من لؤلؤتيه ومخايلهما، بيد أن الحسن الفاتن يأبى دائماً إلا أن يسمع من ناظره كلمة الإعجاب به، حتى لينطق المرء بهذه الكلمة أحياناً، وكأنها مأخوذة من لسان أخداً، وحتى ليحس أن غريزةً في داخله كلمها الحسن من كلامه فردت عليه من كلامها.

قال ابن أيمن، سبحان الله، ما رأيت كاليوم قط دميّتين لا تفتح الأعين على أجمل منهما، ولو نزلا من السماء والبستهما الملائكة ثياباً من الجنة، ما حسبت أن تصنع الملائكة أظرف ولا أحسن مما صنعت أمهما.

فالتفت إليه مسلم وقال: أحب أن تعوذهما. فمد الرجل يده ومسح عليهما، وعوذهما بالحديث المأثور، ودعاهما، ثم قال: ما أراك إلا استجذت الأم فحسن نسلك، وجاء كاللؤلؤ يشبه بعضه بعضاً، صغاره من كباره، وما عليك ألا تكون قد تزوجت ابنة قيصر فأولدتها هذين، وأخرجتهما هي لك في صيغتها الملوكية^(١) من الحسن والأدب

(١) تجيء هذه الكلمة في كتب الأدب والتاريخ على غير قاعدة النسب، وهو الأفصح في رأينا، ومن ذلك تسمية الإمام ابن جني كتابه: «التصريف الملوكي».

والرؤنق، وما أرى مثلهما يكونان فى موضع إلا كان حولهما جلال الملك ووقاره، مما يكون حولهما من نور تلك الأم.

فقال مسلم: وأنت على ذلك غير مصدق إذا قلت لك إنى لا أحب المرأة الجميلة التى تصف، وليس بى هوى إلا فى امرأة دميمة هى بدمامتها أحب النساء إلى، وأخفهن على قلبى، وأصلحهن لى، ما أعدل بها ابنة قيصر ولا ابنة كسرى.

فبقى ابن أئمن كالمشده من غرابة ما يسمع، ثم ذكر أن من الناس من يأكل الطين ويستطيبه لفساد فى طبعه، فلا يحلو السكر فى فمه وإن كان مكرراً خالص الحلاوة، ورثى أشد الرثاء لأم الغلامين أن يكون هذا الرجل الجلف قد ضارها^(١) بتلك الدميمة أو تسرى بها عليها، فقال وما يملك نفسه: أما والله لقد كفرت النعمة، وغدرت وحدثت وبالغت فى الضر، وإن أم هذين الغلامين لامرأة فوق النساء، إذ لم يتبين فى ولديها أثر من تغير طبعها وكدور نفسها، وقد كان يسعها العذر لو جعلتها سخنة عين لك وأخرجتهما للناس فى مساوئك لا فى محاسنك، وما أدرى كيف لا تند عليك، ولا كيف صلحت بمقدار ما فسدت أنت، واستقامت بمقدار ما التويت، وعجيب والله شأنكما! إنها لتغلو فى كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق، كما تغلو أنت فى البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافاة.

قال مسلم: فهو والله ما قلت لك، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبت بى كل مذهب، وأنستنى كل جميلة فى النساء، ولئن أخذت أصفها لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشوهة والدمامة، غير أنها مع ذلك لا تجىء إلا دالة على أجمل معانى المرأة عند رجلها فى الحظوة والرضى وجمال الطبع، وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة فى القبح هى زيادة فى الحسن وزيادة فى الحب، وكيف يكون اللفظ الشائى، وما فيه لنفسى إلا المعنى الجميل، وإلا الحس الصادق بهذا المعنى، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحس؟

(١) المضارة: اتخاذ الضرة على الزوجة.

قال ابنُ أيمن : والله إن أراك إلا شيطاناً من الشياطين، وقد عجلَّ الله لك من هذه الدميمة زوجتك التى كانت لك فى الجحيم، لتجتمعاً معاً على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين، وما أدري كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذى أدخلت من القبح والدِّمامة فى معاشرتها ومُعاششتها، وبعد أن جعلتها لا تنظر إليك إلا بنظرتها إلى تلك. أفَبَهِيمَةٌ هى لا تعقل، أم أنت رجل ساحر، أم فيك ما ليس فى الناس، أم أن لا أفقه شيئاً؟

فضحك مسلم وقال: إن لى خبراً عجيباً: كنت أنزل «الأبلَّة» وأنا مُتَعَيِّشٌ^(١) فحملت منها تجارةً إلى البصرة فربحت، ولم أزل أحمل من هذه إلى هذه فأربح ولا أخسر، حتى كثر مالى، ثم بدا لى أن أتسع فى الآفاق البعيدة لأجمع التجارة من أطرافها، وأبسط يدي للمال حيث يكثر وحيث يقل، وكنت فى مِيعَةِ الشباب وغلوائه، وأول هَجْمِهِ الفتوة على الدنيا، وقلت: إن فى ذلك خلافاً؛ فأرى الأمم فى بلادها ومُعَاشِشِها، وأتقلَّب فى التجارة، وأجمع المال والطرائف، وأفيدُ عِظَةً وعبرة، وأعلم علماً جديداً، ولعلنى أصيبُ الزوجة التى أشتيهيها وأصور لها فى نفسى التصاوير، فإن أمرى من أوله كان إلى علوٍّ فلا أريد إلا الغاية، ولا أرمى إلا للسَّبق، ولا أَرْضَى أن أتخلف فى جماعة الناس. وكأنى لم أر فى الأبلَّة ولا فى البصرة امرأةً بتلك التصاوير التى فى نفسى، فتأخذها عيني، فتعجبني، فتصلح لى، فأتزوج بها، وطمعتُ أن أستنزل نجماً من تلك الآفاق أحرِّزه فى دارى؛ فما زلتُ أرمى من بلد إلى بلد حتى دخلت «بلخ»^(٢) من أجل مدن خراسان وأوسعها غلَّةً؛ تُحْمَلُ غَلَّتْهَا إلى جميع خراسان وإلى خوارزم؛ وفيها يومئذ - كان - عالمها وإمامها «أبو عبد الله البلخي» وكنا نعرف اسمه فى البصرة؛ إذ كان قد نزلها فى رحلته وأكثر الكتابة بها عن الرواة والعلماء؛ فاستخففتنى إليه نزيَّةٌ من شوقى إلى الوطن، كأن فيه بلدى وأهلى؛ فذهبت

(١) أى متكسب ليعيش لا ليغتنى؛ وهذا يسميه العامة (المتسبب).

(٢) موقعها اليوم فى بلاد الأفغان.

إلى حلّقه، وسمعتُه يفسر قولَ النبي ﷺ : «سوداءٌ ولوٌ خيرٌ من حسناء لا تلد». فما كان الشيخ إلا في سحابة، وما كان كلامه إلا وحيًا يوحى إليه. سمعت والله كلامًا لا عهد لي بمثله، وأنا من أول نشأتى أجلس إلى العلماء والأدباء، وأداخلهم فى فنون من المذاكرة، فما سمعت ولا قرأت مثل كلام البلخى، ولقد حفظته حتى ما تفوتنى لفظة منه، وبقي هذا الكلام يعمل فى نفسى عمله، ويدفعنى إلى معانيه دفعًا، حتى أتى على ما سأحدثك به، إن الكلمة فى الذهن لتوجد الحادثة فى الدنيا. قال ابن أيمى: اطو خبرك إن شئت، ولكن اذكر لى كلام البلخى، فقد تعلقت نفسى به.

قال: سمعت أبا عبد الله يقول فى تأويل ذلك الحديث: أمّا فى لفظ الحديث فهو من معجزات بلاغة نبينا ﷺ، وهو من أعجب الأدب وأبرعه، ما علمت أحدًا تنبّه إليه؛ فإنه ﷺ لا يريد السوداء بخصوصها، ولكنه كنى بها عما تحت السوداء، وما فوق السوداء، وما هو إلى السوداء، من الصفات التى يتقبّحها الرجال فى خلقة النساء وصورهنّ؛ فألطف التعبير ورقّ به، رفعا لأن النساء أن يصف امرأة منهم بالقبح والدمامة، وتنزيها لهذا الجنس الكريم، وتنزيهاً للسان النبوى؛ كأنه ﷺ يقول: إن ذكر قبح المرأة هو فى نفسه قبيح فى الأدب، فإن المرأة أم أو فى سبيل الأمومة؛ والجنة تحت أقدام الأمهات؛ فكيف تكون الجنة التى هى أحسن ما يتخيّل فى الحسن تحت قدمى امرأة، ثم يجوز أدبًا أو عقلاً أن توصف هذه المرأة بالقبح. أمّا إن الحديث كالتنص على أن من كمال أدب الرجل إذا كان رجلاً ألا يصف امرأة بقبح الصورة ألبتّه، وألا يجرى فى لسانه لفظ القبح وما فى معناه، موصوفاً به هذا الجنس الذى منه أمه: أيودّ أحدكم أن يمزق وجه أمه بهذه الكلمة الجارحة؟

وقد كان العرب يَفْصَلون لمعانى الدمامة فى النساء ألفاظًا كثيرة؛ إن كانوا لا يرفعون المرأة عن السائمة والماشية؛ أما أكمل الخلق ﷺ، فما زال يوصى بالنساء ويرفع شأنهن حتى كان آخر ما وصى به ثلاث كلمات، كان يتكلم بهن إلى أن تلجّج

لسأته وخَفَى كلامه؛ جعل يقول: «الصلاة... الصلاة. وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون؛ الله الله فى النساء».

قال الشيخ: كأن المرأة من حيث هى إنما هى صلاةٌ تتعبدُ بها الفضائل، فوجبت رعايتها وتلقاها بحقها؛ وقد ذكرها بعد الرقيق، لأن الزواج بطبيعته نوع رِقٌّ؛ ولكنه ختمَ بها وقد بدأ بالصلاة، لأن الزواج فى حقيقته نوعُ عبادة.

قال الشيخ: ولو أن أماً كانت دميمةً شوهاء فى أعين الناس، لكانت مع ذلك فى عين أطفالها أجملَ من ملكة على عرشها؛ ففى الدنيا من يصفها بالجمال صادقاً فى حسِّه ولفظه، لم يكذب فى أحدهما؛ فقد انتفى القبحُ إذن، وصار وصفها به فى رأى العين تكذيباً لوصفها فى رأى النفس، ولا أقلَّ من أن يكون الوصفان قد تعارضا فلا جمال ولا دمامة.

قال الشيخ: وأما فى معنى الحديث، فهو ﷺ يقرر للناس أن كرم المرأة بأموعتها، فإذا قيل: إن فى صورتها قبحاً، فالحسنة التى لا تلد أقبح منها فى المعنى. وانظر أنت كيف يكون القبح الذى يقال إن الحسن أقبح منه...!

فمن أين تناولت الحديث رأيته دائراً على تقدير أن لا قبح فى صورة المرأة، وأنها منزهة فى لسان المؤمن أن توصف بهذا الوصف، فإن كلمات القبح والحسن لغةٌ بهيمية تجعل حبَّ المرأة حباً على طريقة البهائم، من حيث تفضلها طريقة البهائم بأن الحيوان على احتباسه فى غرائزه وشهواته، لا يتكذب فى الغريزة ولا فى الشهوة بتلوينهما ألواناً من خياله، ووضعهما مرةً فوق الحد، ومرةً دون الحد^(١).

فأكبر الشأن هو للمرأة التى تجعل الإنسان كبيراً فى إنسانيته، لا التى تجعله كبيراً فى حيوانيته، فلو كانت هذه الثانية هى التى يصطلح الناس على وصفها بالجمال فهى القبيحة لا الجميلة؛ إذ يجب على المؤمن الصحيح الإيمان أن يعيش فيما يصلح به الناس، لا فيما يصطلح عليه الناس؛ فإن الخروج من الحدود الضيقة

(١) بسطنا هذا المعنى فى كتابنا (السحاب الأحمر).

للألفاظ، إلى الحقائق الشاملة، هو الاستقامة بالحياة على طريقها المؤدى إلى نعيم الآخرة وثوابها.

وهناك ذاتان لكل مؤمن: إحداهما غائبة عنه، والأخرى حاضرة فيه، وهو إنما يصل من هذه إلى تلك، فلا ينبغي أن يَحْصُرَ السماوية الواسعة في هذه الترابية الضيقة؛ والقبح إنما هو لفظ ترابى يشار به إلى صورة وقع فيها من التشويه مثل معانى التراب، والصورة فانية زائلة، ولكن عملها باق؛ فالنظر يجب أن يكون إلى العمل؛ فالعمل هو لا غيره الذى تتعاوره ألفاظ الحسن والقبح.

وبهذا الكمال فى النفس، وهذا الأدب، قد ينظر الرجل الفاضل من وجه زوجته الشوهاء الفاضلة، لا إلى الشوهاء، ولكن إلى الحُور العين. إنهما فى رأى العين رجل وامرأة فى صورتين متنافرتين جمالا وقبحا؛ أما فى الحقيقة والعمل وكمال الإيمان الروحى، فهما إرادتان متحدتان تجذب إحداهما الأخرى جاذبية عشق، وتلتقيان معاً فى النفسين الواسعتين، المراج بهما الفضيلة وثواب الله والإنسانية؛ ولذلك اختار الإمام أحمد بن حنبل عوراء على أختها، وكانت أختها جميلة، فسأل: مَنْ أَعْلَهُمَا؟ ف قيل: العوراء: زَوْجُونِي إِيَّاهَا. فكانت العوراء فى رأى الإمام وإرادته هى ذاتَ العينين الكحيلتين، لوفور عقله وكمال إيمانه.

قال أبو عبد الله: والحديث الشريف بعد كل هذا الذى حكيناه يدل على أن الحب متى كان إنسانياً جارياً على قواعد الإنسانية العامة، متسعاً لها غير محصور فى الخصوص منها، كان بذلك علاجاً من أمراض الخيال فى النفس، واستطاع الإنسان أن يجعل حبه يتناول الأشياء المختلفة، ويرد على نفسه من لذاتها، فإن لم يسعده شىء بخصوصه، وجد أشياء كثيرة تُسَعِدُهُ بين السماء والأرض، وإن وقع فى صورة امرأته ما لا يُعَدُّ جمالاً، رأى الجمال فى أشياء منها غير الصورة، وتعرّف إلى ما لا يَخْفَى، فظهر له ما يَخْفَى.

وليست العين وحدها هى التى تُؤَمِّرُ فى أى الشئيين أجمل، بل هناك العقل والقلب، فجواب العين وحدها إنما هو ثلث الحق. ومتى قيل: «ثلث الحق» فضياع الثلثين يجعله فى الأقل حقاً غير كامل.

فما نكرهه من وجه، قد يكون هو الذى نحبه من وجه آخر، إذا نحن تركنا الإرادة السليمة تعمل عملها الإنسانى بالعقل والقلب، وبأوسع النظرين دون أن أضيقيهما ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿١٩﴾ سورة النساء الآية ١٩.

فوثب ابن أيمن، وأقبل يدور فى المجلس مما دخله من طرب الحديث ويقول: ما هذا إلا كلام الملائكة سمعناه منك يا بن عمران. قال مسلم: فكيف بك لو سمعته من أبى عبد الله؛ إنه والله قد حَبَّبَ إلى السوداء والقبيحة والدميمة، ونظرتُ لنفسى بخير النظرين، وقلت: إن تزوّجتُ يوماً فما أبالى جمالاً ولا قبحاً، إنما أريد إنسانيةً كاملة منى ومنها ومن أولادنا، والمرأة فى كل امرأة، ولكن ليس العقل فى كل امرأة. قال: ثم إنى رجعتُ إلى البصرة، وآثرتُ السكنى بها، وتعلّمتُ الناسُ إقبالى، وعلمتُ أنه لا يَحْسُنُ بى المقامُ بغير زوجة، ولم يكن بها أجلُّ قدرًا من جدّ هذين الغلامين، وكانت له بنت قد عَضَلَهَا وتعرَّضَ بذلك لعداوة خطَّابها؛ فقلت: ما لهذه البنت بدُّ من شأن، ولو لم تكن أكملَ النساء وأجملهن، ما ضنَّ بها أبوها رجاوة أن يأتية من هو أعلى. فحدثتني نفسى بلاقائه فيها، فجنَّته على خلوة..

فقطع عليه ابن أيمن وقال: قد علمنا خبرها من منظر هذين الغلامين، وإنما نريد من خبر تلك الدميمة التى تعشَّقتها.

قال: مهلاً فستنتهى القصة إليها. ثم إنى قلت: يا عمّ، أنا فلانُ ابن فلان التاجر. قال ما خفى عني محلك ومحلُّ أبيك. فقلت: جنَّتك خاطباً لابنتك. قال: والله ما بى عنك رغبة، ولقد خطبها إلى جماعة من وجوه البصرة وما أجبتهم، وإنى لكارهٌ إخراجها عن حِصْنى إلى من يُقَوِّمُها تقويمَ العبيد فقلت: قد رفعها الله عن هذا الموضع، وأنا أسألك أن تدخلنى فى عَدَبِكَ، وتخلِطنى بِشَمْلِكَ.

فقال: ولا بدّ من هذا؟ قلت: لا بدّ. قال: اغدُ عَلىّ برجالك.

فانصرف عنه إلى مَلَأ من التجار ذوى أخطار، فسألتهم الحضور فى غد؛ فقالوا: هذا رجل قد ردّ من هو أشرى منك، وإنك لتحرَّكنا إلى سَعْيِ ضائع.

قلت: لابد من ركوبكم معي. فركبوا على ثقة من أنه سيردّهم.

فصاح ابن أيمن وقد كادت روحه تخرج: فذهبت، فزوّجك بالجميلة الرائعة أم هذين؛ فما خبر تلك الدميمة؟

قال مسلم: يا سيدي قد صبرت إلى الآن، أفلا تصبر على كلمات تُنبئك من أين يبدأ خبر الدميمة، فإني ما عرفتُها إلا في العُرس...!

قال: وغدونا عليه فأحسن الإجابة وزوّجني، وأطعم القوم ونحر لهم، ثم قال: إن شئت أن تبئت بأهلك فافعل، فليس لها ما يُحتاج إلى التلّوم عليه وانتظاره.

فقلت: هذا يا سيدي ما أحبه. فلم يزل يُحدّثني بكل حسن حتى كانت المغرب، فصلاها بي، ثم سبّح وسبّحت، ودعا ودعوت، وبقي مقبلاً على دعائه وتسبيحه ما يلتفت لغير ذلك، فأمضني - علم الله - كأنه يرى أن ابنته مُقبلة مني على مصيبة، فهو يتضرّع ويدعو...!

ثم كانت العتمة فصلاها بي، وأخذ بيدي فأدخلني إلى دار قد فرشت بأحسن فرش، وبها خدم وجوار في نهاية من النظافة؛ فما استقرّ بي الجلوس حتى نهض وقال: أَسْتُوْدَعُ الله، وقَدَّم الله لكما الخير وأحرزَ التوفيق.

واكتنفتني عجائز من شمله، ليس فيهنّ شابة إلا من كانت في الستين.. فنظرت فإذا وجوه كوجوه الموتى، وإذا أجسام بالية يتضام بعضها إلى بعض، كأنها أطلال زمن قد انقضّ بين يدي.

فصاح ابن أيمن: وإن دميّمتك لعجوز أيضاً...؟ ما أراك يا بن عمران إلا قتلت أم الغلامين...!

قال مسلم: ثم جَلَوْنَ ابنته عَلَيَّ وقد ملأني عينيَّ هرماً وموتاً وأخيلة شياطين وظلال قُرود؛ فما كدت أستفيق لأرى زوجتي، حتى أسرع فأرخين الستور علينا؛ فحمدتُ الله لذهابهن، ونظرت...

وصاح ابن أيمن وقد أكله الغيظ: لقد أطلت علينا، فَسَتَحَكِي لنا قصتك إلى الصباح، قد علمناها ويليكَ، فما خبر الدميمة الشوهاة؟

قال مسلم: لم تكن الدميمة الشوهاة إلا العروس....

فزاغت أعين الجماعة، وأطرق ابنُ أيمن إطراقةً مَنْ وَرَدَ عليه ما حَيَّرَه؛ ولكن الرجل مَضَى يقول:

ولما نظرْتُها لم أَرَ إلا ما كنتُ حفظُته عن أبي عبد الله البلخي، وقلتُ: هي نفسى جاءت بى إليها، وكأن كلام الشيخ إنما كان عملاً يعمل فى ويديرنى ويصرفنى؛ وما أسرع ما قامت المسكنة فأكبَّت على يدى وقالت:

«يا سيدى إنى سرُّ من أسرار والدى، كتمه عن الناس وأفضى به إليك، إذ رآكَ أهلاً لستره عليه، فلا تخفِرْ ظَنَّهُ فيك، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسنَ صورتها دون حُسْنِ تدبيرها وعفافِها لعظمتُ محنتى، وأرجو أن يكون معى منهما أكثر مما قَصَرَ بى فى حُسْنِ الصورة؛ وسأبلغ محبتك فى كل ما تأمرنى؛ ولو أنك أذيتنى لعددتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إن وسعنى كرمك وسترك؟ إنك لا تعامل الله بأفضل من أن تكون سبباً فى سعادة بائسة مثلى. أفلا تحرصُ يا سيدى، على أن تكون هذا السبب الشريف....».

ثم إنها وثبتت فجاءت بمالٍ فى كيس، وقالت: يا سيدى، قد أحلَّ الله لك معى ثلاثَ حرائر، وما آثرته من الإمام؛ وقد سَوَّغْتُكَ تزويجَ الثلاثِ وابتياحَ الجوارى من مال هذا الكيس، فقد وقفته على شهواتك، ولستُ أطلب منك إلا ستري فقط!

قال أحمد بن أيمن: فحلف لى التاجر: أنها ملكتُ قلبى ملكاً لا تصلُ إليه حسناءً بحسناها؛ فقلت لها: إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه منى: «والله لأجعلنك حظى فى دنياى فيما يؤثره الرجلُ من المرأة، ولأضربنَّ على نفسى الحجاب، ما تنظر نفسى إلى أنثى غيرك أبداً». ثم أتممتُ سرورها، فحدثتها بما حفظته عن أبى عبد الله

البلخيّ. فأيقننت - والله يا أحمد - أنها نزلت مني في أرفع منازلها وجعلت تحسّن وتحسّن، كالغصن الذي كان مجروداً، ثم وخزته الخُصرة من هنا ومن هنا. وعاشرتُها، فإذا هي أضبطُ النساء، وأحسنهن تدبيراً، وأشفقهن علىّ، وأحبهنّ لى؛ وإذا راحتي وطاعتي أوّل أمرها وآخره؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لى من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر، فجعل القبح يقلّ ويقلّ، وزال القبح باعتيادي رؤيته، وبقيت المعاني على جمالها؛ وصارت لى هذه الزوجة هي المرأة وفوق المرأة.

ولما ولدت لى، جاء ابنها رائع الصورة؛ فحدثتني أنها كانت لا تزال تتمنى على كرم الله وقدرته أن تتزوَّج وتلد أجمل الأولاد، ولم تدع ذلك من فكرها قط، وألف لها عقلها صورة غلام تتمثله وما برحت تتمثله؛ فإذا هي أيضاً كان لها شأن كشأني، وكان فكرها عملاً يعمل في نفسها، ويديرها ويصرفها.

ورزقني الله منها هذين الابنَيْن الرائعين لك، فانظر؛ أيّ معجزتين من معجزات الإيمان...!



الطائشة

(١)

قال صاحبها وهو يُحدّثني من حديثها:
كانت فتاةً متعلّمةً، حُلوةَ المنظر، حُلوةَ الكلام، رقيقةَ العاطفة، مُرَهِّفةَ الحسّ،
فى لسانها بيانٌ ولوجها بيانٌ غيرُ الذى فى لسانها، تعرّف فيه الكلام الذى
لا تتكلم به...

ولها طبعٌ شديدُ الطرب للحياة، مُسترسِلٌ فى مَرَحِهِ، خفيفٌ طَيَّاشٌ، لو أثقلتَه
بجبلٍ لخفّ بالجبل؛ تحسبها دائماً سَكْرَى تتمايلُ من طربها، كأن أفكارها المرحّة
هى فى رأسها أفكارٌ وفى دَمِها خمرٌ...

وكان هذا الطبعُ السكْرانُ بالشباب والجمال والطرب يعملُ عملين متناقضين؛ فهو
دلالٌ مُتراجِعٌ منهزمٌ، وهو أيضاً جُرْأةٌ مُندفِعةٌ متهجّمةٌ.
وهزيمةُ الدلال فى المرأة إنْ هى إلا عَمَلٌ حَرْبِيٌّ، مُضْمَرَةٌ فيه الكَرَّةُ والهجومُ؛
وكثيراً ما ترى فيها النظرةَ ذاتِ المعنيتين: نظرةٌ واحدةٌ؛ بها تُؤنّبك المرأة على
جَراءَتِك معها، وبها أيضاً تَعْذَلُكَ على أنك لستَ معها أجراً مما أنت...!

قلت: ويحك يا هذا! أتعرف ما تقول؟
قال: فمنْ يعرفُ ما يقول إذا أنا لم أعرف؟ لقد أحببتُ خمسَ عشرةَ فتاةً؛ بل هُنَّ
أحببَنَنى وفرَّغنَ قلوبهن لى، ما اعتزّتْ علىّ منهن واحدة، وقد ذهبن بى مذهباً،
ولكننى ذهبتُ بهن خمسةَ عَشَرَ!

قلت: فلا ريبَ أنك تحملُ الوَسَامَ الإِبليسَى الأوّلَ من رُتْبةِ الجَمْرَةِ... فكيف
استَهمَ بك خمسَ عشرةَ فتاةً؛ أَجاهلاتُ هنّ، أعمىاواتُ هنّ....؟

قال: بل متعلّمت مُبصّرات يَرَيْنَ وَيُدْرِكْنَ، ولا تُخْطِئُ واحدةٌ منهن في فهم أن رجلاً وامرأةً قصةٌ حُبٍّ.... وما خمس عشرة فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن الحائر البائر، الذي كَسَدَ فيه الزواجُ، ورقَّ فيه الدين، وسقط الحياء، والتهبت العاطفة، وانتشر اللّهُو، وكثُرَت فنونُ الإغراء، واصطلح فيه إبليسُ والعلمُ يعملان معاً..؛ وأُطلِقَت الحرّيةُ للمرأة، وتوسّعت المدارسُ فيما تقدّم للفتيات، وأظهرت من الحفاوة بهن أمراً مُفْرِطاً حتى أخذن منها رُبْعَ العلم..؟

قلت: وثلاثة أرباع العلم الباقية.

قال: يأخذنها من الروايات والسيما.

علمُ المدارس، ما علمُ المدارس؟ إنهن لا يصنّعن به شيئاً إلا شهاداتٍ هي مكافأةُ الحفظ وإجازةُ النسيان من بعد؛ أما علمُ السيما والروايات فيصنّعن به تاريخهن... وربّ منظر يشهده في السيما ألف فتاة بمرّة واحدة، فإذا استقرّ في وغيهن، وظافت به الخواطر والأحلام سلبهنّ القرار والوقار فمثّلنه ألف مرّة بألف طريقة في ألف حادثة!

يظنون أننا في زمن إزاحة العقبات واحدةً بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يُوجدان إلا العقبات النسائية عَقَبَةً بعد عَقَبَةٍ. وقد كان عيبُ الجاهلة المقصورة في دارها أن الرجل يحتال عليها، فصار عيبُ المتعلّمة المفتوح لها الباب أنها هي تحتال على الرجل؛ فمرّة بإبداع الحيلة عليه، ومرّة بتلقينه الحيلة عليها. والغريب في أمر هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهولَ بجَهْلٍ...!

قلت: وما الطريق المجهول؟

قال: الطريقُ المجهولُ هو الرجل، إطلاقُ الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريّات: حرية الفتاة، وحرية الحبّ؛ والأخرى حرّية الزواج، ولما انطلق ثلاثتهن معاً تغيّر ثلاثتهن جميعاً إلى فسادٍ واختلال.

أما الفتاة فكانت فى الأكثر للزواج، فعاتت للزواج فى الأقل وفى الأكثر للهو والغزل؛ وكان لها فى النفوس وقار الأم وحُرمة الزوجة، فاجترأ عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة، وكانت مقصورة لا تنال بعيب ولا يتوجه عليها ذم، فمشت إلى عيوبها بقدَميها، ومشت إليها العيوب بأقدام كثيرة... وكانت بجملتها امرأة واحدة، فعاتت مما ترى وتعرف وتكابد كأن جسمها امرأة، وقلبها امرأة أخرى، وأعصابها امرأة ثالثة...

وأما الحب، فكان حباً تتعرف به الرجولة إلى الأنوثة فى قيود وشروط، فلما صار حراً بين الرجولة والأنوثة، انقلب حيلة تغتر بها إحداهما الأخرى؛ ومتى صار الأمر إلى قانون الحيلة، فقد خرج من قانون الشرف، ويرجع هذا الشرف نفسه كما نراه، ليس إلا كلمة يحتال بها.

وأما الزواج، فلما صار حراً جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج... وضعت منزلته، وقل اتفاقه، وطال ارتقَابُ الفتيات له، فضعف أثره فى النفس المؤنثة؛ وكانت من قبل لفظتاً (الشاب، الزوج) شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد، فأصبحتا كلمتين متميزتين: فى إحداهما القوة والكثرة والسهولة، وفى الأخرى الضعف والقلّة والتعذر؛ فالكل شبان وقليل منهم الأزواج؛ وبهذا أصبح تأثير الشاب فى الفتاة أقوى من تأثير الشرف، وعاد يقنعها منه أخس برهاناته، لا بأنه هو مُقنع، ولكن بأنها هى مهيأة للاقتناع...

وفى تلك الأحوال لا يكون الرجل إلا مغفلاً فى رأى المرأة إذا هو أحبها ولم يكن محتالاً حيلة مثله على مثلها، ويظل فى رأيها مغفلاً حتى يخدعها ويستزلها؛ فإذا فعل كان عندها ندلاً لأنه فعل... وهذه حرية رابعة فى لغة المرأة الحرة والزواج الحر والحب الحر!

وانظر - بعيشك - ما فعلت الحرية بكلمة (التقاليد)، وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية من مبدوء الكلام ومكروهه حتى صارت غير طبيعية فى هذه الحضارة، ثم كيف أحالتها فجعلتها فى هذا العصر أشهر كلمة فى الألسنة، يتهمكم بها على الدين

والشرف وقانون العُرف الاجتماعيّ في خوف المعرّة والدينئة والتّصاؤن من الرذائل والمبالاة بالفضائل؛ فكل ذلك (تقاليد)...

وقد أخذت الفتيات المتعلّقات هذه الكلمة بمعانيها تلك، وأجريّنها في اعتبارهن مكروهةً وحشيّةً، وأضفن إليها من المعاني حواشي أخرى، حتى ليكاد الأب والأم يكونان عند أكثر المتعلّقات من «التقاليد»... أهي كلمة أبدعتها الحرية، أم أبدعها جهلُ العصر وحماقته، وفجوره وإلحاده؟ أهي كلمة تعلّقها الفتيات المتعلّقات لأنها لغة من اللغة، أم لأنها من لغة ما يُحبين...؟

«تقاليد»...؟ فما هي المرأة بدون تقاليد...؟ إنها البلاد الجميلة بغير جيش، إنها الكنز المخبوء مُعرّضاً لأعين اللصوص، تحوطه الغفلة لا المراقبة. هبّ الناس جميعاً شرفاء متعفّفين متصاوين؛ فإن معنى كلمة «كنز» متى تركت له الحرية وأغفل من تقاليد الحراسة، أوجدت حريته هذه بنفسها معنى كلمة «لص».

قال صاحبنا: أما الفتاة المحرّرة من (التقاليد).. كما عرفتها فهي هذه التي أقصّ عليك قصتها، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رُشدين: يثبّت أحدهما بالسنن، ويثبّت الآخر بالزواج. ولو أن عانساً ماتت في سن الخمسين أو الستين لوجب أن يقال: إنها ماتت نصف قاصر! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأة نصف الرجل، إذا تمام شرفها الاجتماعيّ أن يكون الرجل مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه؛ فالزوج على هذا هو تمام رُشد الفتاة باللغة مابلغت.

وأساس المرأة في الطبيعة أساس بدني لا عقليّ، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنع فيه الحياة، وكانت دائماً ناقصةً لاتتم إلا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شأن عقله وشأن قوته...

واعتبر ذلك بالمرأة تدرّس وتتعلم وتنبّخ، فلو أنك ذهبت تمدحها بوفور عقلها وذكاؤها، وتقرّظها بنبوغها وعبقريتها، ثم رأتك لم تلق كلمة ولا إشارة ولا نظرة

على جسمها ومحاسنها لتحوّل عندها كل مدحك ذمًا، وكل ثنائك سُخرية؛ فإن النبوغ هاهنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرف مع أسرار الكون كونها هي، هذا الكون البدنيّ الفاتن، أو الذي تزعمه هي فاتنًا، أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبتَه إلا إذا وجدت من يزعم لها أنه كونُ فاتنٍ بديعٍ، مزيّنٌ بشمسِه وقمرِه وطبيعته المتنصّرة التي تجعلُ مسّه ورقَ الزّهر.

مثلُ هذه إنما يكونُ الثناء عندها حينما يكونُ أقلُّه باللسان العلميّ ولغته، وأكثرُه بالنظر الفني ولغته. وهذا على أنها عالمةُ الجنسِ ونابغته، ودليلُ شذوذه العقليّ، والواحدة التي تجيء كالفَلْتة المفردة بين الملايين من النساء؛ فكيف بمن دونها، وكيف بالنساء فيما هنّ نساء به؟

دع جماعةً من العلماء يمتحنون هذا الذي بينتُ لك، فيأتون بامرأة جميلة نابغة، فيضعونها بين رجال لا تسمعُ من جميعهم إلا: ما أعقلها، ما أعقلها، ما أعقلها! ولا ترى في عيني كلّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلمة في سنّ جدّته... فهذه لن تكونَ بعد قريب إلا في حالة من اثنتين: إما أن يخرجَ عقلها من رأسها، أو... أو تخرجَ في وجهها لحية...!

(ما أعقلها!) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يابّينها ولا يذمّمنها، غير أن الكلمة البليغة العبقريّة الساحرة، هي عندهن كلمةٌ أخرى، هي: (ما أجملها!)؛ إن تلك تُشبه الخبزَ القفار لاشيء معه على الخوان، أما هذه فهي المائدة مزيّنة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاقتها وضحكها أيضًا.

وكأن العقلَ الإنساني قد غضبَ لمهانة كلمته وما عرّها به النساء، فأراد أن يثبت أنه عقلٌ، فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعلَ لكلمة: (ما أعقلها) كلَّ الشأن والخطر، وكلَّ البلاغة والسحر، عند... عند الطفلة... تفرحُ الطفلة أشدَّ الفرح، إذا قيل: ما أعقلها...!

فقلت لمحدثي: كأنك صادقٌ يافتي! لقد جلستُ أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظرفٌ وجمال، وجاءت كبريائي فجلست معنا... وكانت (التقاليدُ) كالحاشية لي؛

فعلمتُ بعدُ أنها قالت لصاحبةٍ لها: «لا أدري كيف استطاع أن ينسى جسمي وأنا إلى جانبه، أذكرُه أني إلى جانبه! لكنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتحُ ماشاء منها ويغلق». قال محدثي: فهذا هذا؛ إن إحساسَ المرأةَ بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور، إنما هو في إحساسها بالرجل الذي اختارته لقلبها، أو تهُمُّ أن تختاره، أو تودُّ أن تختاره؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصُّور الأخرى من رجلها في أولادها. وحياءُ المرأة لا أسرارَ فيها ألبتَّه، حتى إذا دخلها الرجلُ عرفت بذلك أن فيها أسراراً، وتبينت أن هذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ لجسمها وعقلها. قال: وقد جلستُ مرةً مع صاحبةِ القصة، وأنا مُغضبٌ أو كالمغضب... ثم تَلَحَّينا وطال بيننا التلاحي؛ فقالت لي: أنت بجانبى وأنا أسأل: أين أنت؟ فإنك لست كلك الذى بجانبى!

قال: ومذهبي في الحب، الكبرياء، كما قلت أنت، غير أنها الكبرياء التى تدرك المرأة منها أنى قوى لا أنى متكبر؛ كبرياء الرجل إمَّا مهيبٌ مَرَح يملك أفرار قلبها، وإما حزينٌ مهيبٌ يملك أحزان هذا القلب. إن المرأة لا تحب إلا رجلاً يكون أولُ الحسن فيه حُسْن فهمها له، وأولُ القوَّة فيه قوَّة إعجابها به، وأولُ الكبرياء فيه كبرياءها هى بحبِّه وكبرياءها بأنه رجل. هذا هو الذى يجتمع فيه للمرأة أثنان: إنسانها الظريف، ووَحْشُها الظريف!

قلت: لقد بُعدنا عن القصة فما كان خَبَرُ صاحبتك تلك؟ قال: كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوج، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب، ووصفتنى بها صفةَ الإحساس لا وصف الكلام؛ فكأنما تنبَّهتُ فيها طبيعة زهو الفتاة بأنها فتاة، وغريزةُ افتتانِ الأنثى بأن تكون فاتنة؛ فرأت فى إخضاعى لجمالها عملاً تعملُه بجمالها. ومتى كانت الفتاة مستخفةً «بالتقاليد» كهذه الأدبية المتعلِّمة - رأت كلمة (الزوج) لفظاً على رجلٍ كلفظ الحب عليه، فهما سواءٌ عندها فى المعنى. ولا يختلفان إلا فى (التقاليد)...

وعَرَضْتُ لى كما يَعْرِضُ المصارعُ للمصارع؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات، اللواتى يحسبن أن فى قوتهن العلمىَّة تيّارًا زاحراً لنهرنا الاجتماعى الراكد؛ فتاة تخرجت فى مدرسة أو كلية، أو جاءت من أوربا بالعالمىة... أفتدري أية معجزة مصرية فى هذا تُباهى بها مصر؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرسة، أو مفتشة، أو ناظرة فى وزارة المعارف؛ أو مؤلفة كتب وروايات، أو محررة فى صحيفة من الصحف. ولا يصغرَنَّ عندك شأن هذه المعجزة، فهى والله معجزةٌ مادام يتحقق بها خروج الفتاة من حكم الطبيعة عليها، وبقاؤها فى الاجتماع المصرى امرأةً بلا تأنيث، أو انقلابها فيه رجلاً بلا تذكير!

وكيف لا يكون من المعجزات أن تأليفَ رواية قد أغنى عن تأليف أسرة؛ وأن فتاة تعيش وتموت وما ولدت للأمة إلا مقالات....؟

فقلت: يا صاحبى، دع هؤلاء وخذ الآن فى حديث الطائشة الخارجة على التقاليد، وقد قلت إنها عَرَضَتْ لك كما يعرض المصارع للمصارع.

قال: عَرَضْتُ لى تريد أن تُصرفنى كيف شاءت، فَنَبَوْتُ فى يدها؛ فزادت إلى رغبتها إصرارها على هذه الرغبة، فالتويتُ عليها؛ فزادت إليهما خشية اليأس والخيبة، فتعسَّرتُ معها؛ فزادت إلى هذه كلُّها ثورة كبريائها، فلم أَسْهَلْ؛ فانتَهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التى هى أول العبث والدلال، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أول الحب والهوى: رغبة تعذيبى بها لأنها مُتَعَذِّبَةٌ بى.

ثم رَدَّتْها الطبيعة صاغرةً إلى حقائقها السَّلبىَّة، فإذا الكبرياء فيها إنما كان خضوعاً يتراءى بالعِصيان، وإذا الرغبة فى تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تنعمَ به، وإذا الإصرار على إخضاع الرجل وإذلاله إنما كان إصراراً على تجربته ودفعه أن يستبد ويملك؛ وردتها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النَّسوية الصريحة، التى بُنيت المرأة عليها شاءت أم أبَتْ، وهى أن تُعانى وتُصبرَ على ما تُعانى!

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً، وكان هذا يشتدُّ عليها، لأنه إشفاقٌ لا حُب؛ وكانت إذا سألتني عن أمر ترتاب فيه، قالت: أجبني بلسان الصدق لا بلسان الشفقة. وكانت تقول: إن في عينيها بكاءً لا تستطيع أن تُذيله مع الدمع، وسيقتلها هذا البكاء الذي لا يُبكي، وقد اتخذت لها في دراها خلوةً سمّتها: (محراب الدمع!)، قالت: لأنها تبكي فيها بكاء صلاةٍ وحبٍّ، لا بكاء حب فقط! ثم طاشت الطيشة الكبرى....!

قلت: وما الطيشة الكبرى؟
قال: إنها كتبت إليّ هذه الرسالة:
«عزيزي برغم أنفي...»

«لقد أذلتني بشيئين: أحدهما أنك لم تَذَلَّ لي، وجعلتني - على تعليمي - أشدَّ جهلاً من الجهالة، وقد نسيت أن المرأة المتعلّمة تعرف ثم تعرف مرتين: تعرف كيف تُخطئ إذا وجب أن تخطئ، وهذه هي المعرفة الأولى؛ أما المعرفة الثانية فتوهمها أنت، فكأنى قلتها لك...»
«اعلم - يا عزيزي برغم أنفي - أني لم أكن عزيزتك برغم أنفك، فسأتى ما يجعلك سلفاً ومثلاً، وستكتب الصحف عنك أول حادث يقع في مصر عن أول رجل اختطفته فتاة...!»

«وبعد، فقد أرسلتُ رُوحى تُعانق رُوحك، فهل تشعر بها؟»
قال: فوجئتُ ساعةً وتبينتُ لي خفتها، وظهر لي سَفَاهُها وطيشُها، فأسرعت إليها فجننتها فأجدها كالقاضي في محكمته، لا عقل له إلا عقل الحكم القانوني الذي لا يتغير، ولا إنسان فيه إلا الإنسان المقيّد بمادة كذا إذا حدث كذا، والمادة كذا حين يكون وصف المجرم كذا...!
فقلت لها: أهذا هو العلم الذي تعلمته؟ ألا يكون علم المرأة خليقاً أن يجعل صاحبه ذات عقليْن إذا كانت الجاهلة بعقل واحد؟

قالت: العلم؟

قلت: نعم، العلم.

قالت: يا حبيبى، إن هذا العلم هو الذى وَضَعَ المسدّس فى يد المرأة الأوربية لعاشقها، أو معشوقها! ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت: العلم هو الذى جعل الفتاة هناك تتزوج بإرشاد الرواية التى تقرأها ولو انقلب الزواج رواية... والعلم هو الذى كشف حجاب الفتاة عن وجهها، ثم عاد فكشف حياء وجهها، وأوجب عليها أن تواجه حقائق الجنس الآخر وتعرفها معرفةً علمية... والعلم هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسى مَعْفُوًّا عنه مادام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهرب منها... والعلم هو الذى جعل المرأة مُساوية للرجل، وأكد لها أن واحداً وواحداً هما واحدٌ وكلاهما أوّل...

والعلم هو الذى عرى أجسام الرجال والنساء ببرهان أشعة الشمس... والعلم يا عزيزى هو العلم الذى مَحَا من العالم لفظة (أمس) لا يعرفها وإن كانت فيها الأديان والتقاليد...

قال صاحبها: فقلتُ لها: كأن العلم إفسادٌ للمرأة! وكأنه تعليم مَعَرَّاتِها ونقائصها، لاتعليم فضائلها ومحاسنها....

قالت: لا، ولكن عقل المرأة هو عقل أنثى دائماً، ودائماً عقل أنثى؛ وفى رأسها دائماً جو قلبها، وجو قلبها دائماً فى رأسها؛ فإذا لم تكن مدرستها متممة لدارها وما فى دارها، تَمَمَّتْ فيها الشارع وما فى الشارع.

العلم للمرأة؛ ولكن بشرط أن يكون الأب وهيبته الأب أمراً مَقَرّاً فى العلم، والأخ وطاعة الأخ حقيقة من حقائق العلم؛ والزوج وسيادة الزوج شيئاً ثابتاً فى العلم، والاجتماع وزواجه الدينية والاجتماعية قضايا لا يَنْسُخُها العلم. بهذا وحده يكون النساء فى كل أمة مَصْنَع علمية للفضيلة والكمال والإنسانية، ويبدأ تاريخ الطفل بأسباب الرجولة التامة، لأنه يبدأ من المرأة التامة.

أما بغير هذا الشرط، فالمرأة الفلاحه في حجرها طفلٌ قدر، هي خير للأمة من أكبر أديبة تخرج ذرية من الكتب...

انظري يا عزيزي برغم أنفي، هذه رسالة جاءتني اليوم من صديقتي فلانة الأديبة! ... فاسمع قولها:

«... وأنا أعيش اليوم في الجمال، لأنني أعيش في بعض خفايا الحبيب..
«وفي الحياة موتٌ حلوٌ لذيق؛ عرفت ذلك حينما نسيتُ نفسي على صدره القوي،
وحينما نسيتُ على صدره القوي صدري...».

أسمعت يا عزيزي؟ إن كنت لما تعلم أن هذا هو علمُ أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسد الزواج، فاعلمه. ومتى عمى الشعب والحكومة هذا العمى، فإن حرية المرأة لا تكون أبدًا إلا حرية الفكرة المحرمة!

قلت لصاحبنا: ثم ماذا؟
قال: ثم هذا... ودسَّ يده في جيبه فأخرج أوراقًا كتبت فيها رواية صغيرة أسماها:
(الطائشة).

■ ■ ■

الطائشة

(٢)

وهذا مُحصَّلُ رواية «الطائشة»، نقلناه من خط الكاتب على مَسَاقٍ ما دَوَّنَه في أوراقه، وعلى سَرْدِهِ الذى قَصَّ به الخبر، وقد أعطانا من البرهان ما نطمئن إليه أن هذه «الطائشة» هى من تأليف الحياة لا من تأليفه، وأنه لم يَخْتَرع منها حادثة، ولم يَأْتَفِكُ حديثاً، ولم يَزِدْها بفضيلة، ولم يَتَنَقَّضْها بمَعْرَةٍ، ثم أَشْهَدَ على قوله كُتِبَ صاحبته الأديبة المستهترّة التى لا تبالى ما قالت ولا ما قيل فيها؛ وهذه الكتب رسائل: منها الموجز ومنها المستفيض، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلة الشروح المفنّنة، وتنزل الرواية منها منزلة اللمع المقتضبة وكل ذلك يشبه بعضه بعضاً، فكل ذلك بعضه شاهد على بعض.

قال كاتب (الطائشة):

كنت رجلاً غَزِلاً ولم أكن فاسِقاً، ولست كهؤلاء الشبان أصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضلية، وذهبوا يُحَقِّقُونَ المدنيةَ فحقّقوا كل شيء إلا المدنية. ترى أحدهم شريفاً يأنف أن يكون لصاً وأن يسمى لصاً، ثم لا يعمل إلا عمل اللص فى استلاب العفاف وسرقة الفتيات من تاريخهنّ الاجتماعى؛ وتراه نجداً يستنكف أن يكون فى أوصاف قاطع الطريق، ثم يأبى إلا أن يقطع الطريق فى حياة العذارى وشرف النساء.

أكثر أولئك الشبان المتعلمين يعرضون للفتيات المتعلّقات بوجوه مصقولة تحتمل شيئين: الحب والصفع... ولكن أكثر هؤلاء المتعلّقات يضعن القبلة فى مكان الصفعة؛ إذ كان العلم قد حلَّ الغريزة التى فيهنّ فعادت بقايا لا تستمسك، وبصرهنّ بأشياء تزيد قوّة الحياة فيهنّ خطراً، وتُوحى إليهنّ وحيها من حيث يَشْعُرْنَ ولا يشعرون،

وصور في أوهامهن صوراً محت الصور التي كانت في عقائدهن، وأخرجهن من السلب الطبيعي الذي حماهن الله به، فلهن العفة والحياء؛ ولكن ليس لهن ذلك العقل الغريزي الذي يجيء من الحياء والعفة؛ وكثيرات منهن يَخْشَيْنَ العار وسمته الاجتماعية ولكن خشيةً فقهاء الحيل الشرعية، قد أرصدوا لكل وجه من التحريم وجهاً من التحليل، فأصبح امتناع الإثم هو ألا تكون إليه حاجة...

والعقل الذي به التفكير يكون أحياناً غير العقل الذي به العمل؛ ففي بعض الجاهلات يكون عقل الحياء والعفة والشرف والدين غريزةً كغرائز الوحش، هي الفكرة وهي العمل جميعاً، وهي أبداً الفكرة والعمل جميعاً لا تتغير ولا تتبدل، ولا يقع فيها التنقيح الشعري ولا الفلسفي... وما غريزة الوحش إلا إيمانه بمن خلقه وحشاً؛ وكذلك غريزة الشرف في الأنثى هي عندي حقيقة إيمانها بمن خلقها أنثى. وشرف المرأة رأس مال للمرأة، ومن ذلك كان له في أوهام العلم اشتراكية بحسبه تنظر فيه نظرها وتزيغ زيغتها وتقضى حكمها، وأكثر من عرفت من المتعلمين والمتعلمات قد انتھوا بطبيعتهم العلمية إلى الرضى بهذا الاشتراكية، وإلى التسامح في كثير، وإلى وضع الاعتذار فيما لا يقبل عذراً، ومن ههنا كانت بعض الجاهلات كالحصن المغلق في قمة الجبل الوعر، وكانت بعض المتعلمات دون الحصن، ودون القمة، ودون الجبل، حتى تنزل إلى السهل فتراهن ثمة.

لقد غفلت الحكومات عن معنى الدين وحقيقته، فلو عرفت لعرفت أن الإنسانية لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما؛ فإن في الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصاً مذكراً، وفي المرأة إنساناً عامً كذلك، ونوعاً خاصاً مؤنث. والدين وحده هو الذي يصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الغابة الأخلاقية، وهو الذي يُحاجز بين الغريزتين، وهو الذي يضع القوة الروحية في طبيعة المتعلم؛ فإن كانت طبيعة التعليم قوية، كانت الروحية زيادة في القوة؛ وإن كانت ضعيفة كما هي الحال في هذه المدنية، لم تجمع الروحية على المتعلم ضعفين يبتلى كلاهما الآخر ويزيده.

فلانٌ وفلانٌ تعلَّقا فتاتين جاهلة ومتعلمة ؛ وكلتاها قد صدَّت صاحبها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلة فيقول (فلانها) إنها كالوحش ، وإن صدودها ليس صدودًا حَسْبُ ، بل هو ثورة من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربى مجاهدًا متحفزًا للقتل... وأما المتعلمة فيقول (فلانها) أنها ككل امرأة ، وإن صدودها ثورة ، ولكن من دلالتها تُرضى به أول ماترضى وآخر ما تُرضى ، كبرياء الجمال فيها لا الإيمان ولا الفضيلة ، فكأنها إحياء للطامع أن يزيد طمعًا أو يزيد احتيالًا... وفلانٌ هذا يقول لى : إن ضعفاء الإيمان من الشبان المتعلمين - وأكثرهم ضعفاء الإيمان - لو حقَّقت أمرهم وبلَّوت سرائرهم ، لتبينت أنهم جميعًا لا يرون قلب الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كتب عليها : (للإيجار)!!

يقول كاتب «الطائشة» :

أما أنا فقد صحَّ عندى أن سياسة أكثر المتعلمات هى سياسة فتح العينِ حذرًا من الشبان جميعًا ؛ وإغماض العين لواحد فقط...

وهذا الواحد هو البلاء كله على الفتاة ، فإنها بطبيعتها تتقيَّد ولا تنفصل إلا مُكرهة ، وهو بطبيعته قيده لذته ، فيتصل وينفصل ؛ غير أنها لا بد لها من الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لا يجعل فى ذلك موضعًا للنكير عندها ، والحياة نصف معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثة بغيره مُظلمة فى حياتها ، راكدة فى طباعها ، ثقيلة على نفسها ، مادام «الشعاع» لا يلمسها...

والدينُ يأبى أن يكون ذلك الصديق إلا الزوج فى شروطه وعهوده ، كيلا تتقيد المرأة إلا بمن يتقيد بها ، والعلم لا يأبى أن يكون الصديق هو الحب ، والفن يوجب أن يكون هو الحب ، وليس فى الحب شروط ولا عهود ، إلا وسائل تُختلق لوقتها ، وأكثرها من الكذب والنفاق والخديعة ، ولفظ الحب نفسه لَصٌّ لُغوى خبيثٌ ، يسرق المعانى التى ليست له ويُنفق مما يسرق. وليس من امرأة يخدعها عاشقٌ إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص حين يُمسك.

يقول كاتب «الطائشة» :

تلك فلسفةٌ لأبد منها فى التوطئة للكتابة عن (عزيزتى برغم أنفى).
ومن كانت مثلها فى أفكارها واستدلالاتها وحججها وطريقتها كان خليقاً بمن
يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلّحة...

لقد تَكَارَهَتْ على بعض ما أرادت منى مادام الحب (برغم أنفى)، وما دامت
السياسة أن أداريها وأتبع محبتها؛ غير أنى صارحتها بكلمة شمسية تلمع تحت
الشمس، أنها الصداقة لا الحب، وإنما هو اللهو البريء لا غيره، وأن ذلك جهد ما
أنا قوى عليه وفئ به.

قالت: فليكن، ولكن صداقةً أعلى قليلاً من الصداقة... ولو من هذا الحب المتكبر
الذى لا يصدق كيلاً يكذب... إن هذا النوع من الحب يطيش بعقل المرأة، ولكنه هو
أول ما يستهيمها ويعجبها ويورثها النياح الحنين والشوق.

كتبت لى: «أنا لا أتألم فى هواك بالألم، ولكن بأشياء منك أقلها الألم، ولا أحزن
بالحزن، ولكن بهموم بعضها الحزن.

«إنك صنعت لى بكاء ودموعاً وتنهدات، وجعلت لى ظلاماً منك ونوراً منك
يانهارى وليلي. ترى ما اسمُ هذا النوع من الصداقة؟

«اسمُ الحب؟ لا.

«اسمُ الكبرياء؟ لا.

«اسمُ الحنان؟ لا.

«اسمهُ حُبك أنت، أنت أيها الغامض المتقلب. ألا ترى ألفاظي تبكى، ألا تسمع
قلبي يصرخ، بأى عدلك أو بأى عدل الناس تريد أن أحيى فى عالم شمسهِ باردة...
هذا قتلٌ، هذا قتل».

فكتبت إليها: «إن لم يكن هذا جنوناً فإنه لقريبٌ منه».

فردت على هذ الرسالة:

«أتكتأبني بأسلوب التلغراف...؟ لو أهديتَ إليَّ عقدًا من الزمرد حباته بعدد هذه الكلمات لكنك بخيلاً، فكيف وهى ألفاظ؟ إنى لأبكى فى غَمضة، واحدة بدموع أكثر عددًا من كلماتك، وهى دموع من آلامى وأحزاني، وتلك ألفاظ من لهوك وعَبَثك! «ما كان ضُرَّك لو كتبت لى بضعة أسطر تنسخها من تلغرافات رُوتر... ما دمتَ تَسْخَرُ منى؟ أنتَ الشابُّ وأنا الكُهولة، فليس لك بالطبيعة إلا الانصراف عني؛ وليس لى بالطبيعة إلا الحنينُ إليك؟»

لا أدرى كيف أحببتها، ولا كيف دَعَنى إليها نفسى، ولكن الذى أعلمه أنى تَخَادَعْتُ لها وقلتُ: إن المستحيل هو منع الشر، والممكن هو تخفيفه، ثم أقبلت أرثى لها، وأخففتُ عنها، وأقبلتُ هى تُضاعف لى مكرها وخديعتها وكأن الأمر بيننا كما قالت: «فى الحب والحرب لا يكونُ الهجوم هجوماً وفيه رفق أو تراجع». إن المرأة وحدها هى التى تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة؛ ولا يشبهها فى ذلك إلا دُعاةُ المستبدين.

سألتنى أن أهدى إليها رسمى، فاعتللتُ عليها بأن قلت لها: إن هذا الرسمَ سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم مُتَّهم. وظننتنى أبلَّغتُ فى الحجة وَقَطَعْتُها عني؛ فجاءتنى من الغد بالرد المفحم، جاءتنى بإحدى صديقاتها لتظهر فى الرسم إلى جانبى كأننى من ذوى قرابتها... سيكون الرسم رسم صديقتها، ويكون مهدى منها لى، وكأننى فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة.. وأصررتُ على الإباء، ونافرتنى القول فى ذلك، تردُّ علىَّ وأردُّ عليها، وتغاضبنا وانكسرت حزناً وذهبتُ باكية؛ ثم تسببت لى رضى فرضيت.

حدثتني أن صديقتها فلانة الأدبية استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً في مخدعها، في دارها، بين أهلها، مُنتصف الليل. قلت: وكيف كان ذلك؟ قالت: إنها تحمل شهادة... وهي تلتمس عملاً وقد طال عليها، فزعمت لذويها أنها عثرت في كتاب كذا على رُقِيَّةٍ من رقى السحر، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا مُحِقَ القمر، وأنها ستُطْلَقَ البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تهمهم بالآسماء والكلمات...

ثم أنها اتعدت وصاحبها ليوم، وأجافت باب دارها ولم تغلقه، وأطلقت البخور في مجمر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطر، وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم؛ وبقي صاحبها تحت الضبابة يهْمهم وتهمهم... ثم خرج في أغباش السحر.

هكذا قالت، وما أدري أهو خبرٌ عن تلك الصديقة وفلانها، أم هو اقتراحٌ على أنا من «فلانتي» لأكون لها عفريت الضبابة...؟

لم يخفَ عليها أن لدعة حبها وقعت في قلبي، وأن صبرها قد غلب كبريائي، وأن كثرة التلاقى بين رجل وامرأة يطمع أحدهما في الآخر، لا بد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثاني، ويجعل في التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق.. وإلحاح امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها، إنما هو تعرضها للتعقيد الذي في طبيعته الإنسانية؛ فإن هي صابرت وأمعنت، فقلماً يدعها هذا التعقيد من حل لمعضلتها. وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غير مفهوم ولا واضح، وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب، وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس ما لا يعمل السحر، وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فنبت عن مودته فعرض للتعقيد الذي في طبيعتها وأمعن وثبت وصابر.

رأت الجمرة الأولى في قلبي فأضمرت فيه الثانية، حين جاءتني اليوم بكتاب زعمت أن فلاناً أرسله إليها يطارحها الهوى ويبيئها وله الحنين والتياغ الحب.

ويقول لها في هذا الكتاب: «أنا لم أشرب خمراً قط، ولكني لا أراني أنظر إلى مَفَاتِنِكَ ومحاسنك إلا وفي عيني الخمر، وفي عقلي السُّكر، وفي قلبي العَرَبْدَة جعلت لي ويحك نظرة سكير فيها نسيانُ الدنيا وما في الدنيا ما عدا الزجاجة...» ويختمه بهذه العبارة:

«آه لو استطعتُ أن أجعل كلامي في نفسك ناعماً، ساحراً، مُسكرًا، مثل كلام الشَّفَّة للشَّفَّة حين تُقبلها...!»
عند هذا وقع الشيء المنتظر في الفصل الثاني من الرواية، وخُتِمَ هذا الفصل بأول قُبلة على شفتي (الممثلة).

قالت: هذه القُبلة كانت (غلطةً مطبعية)، ومضت تسمِّيها كذلك، واستمرت المطبعة تغلط... وماعلمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتاب الذي اسْتُوقِدَتْ به غيرتي، إنما كان من عملها ومكرها.

وجاءتني اليوم بآبِدة من أوابدها، قالت: أنت رَجَعْتُ محافِظٌ على التقاليد. قلتُ: لأنى أرى هذه التقاليد كالصباح الذي يتكرر في كل يوم، وهو في كل يوم ضياءٌ ونور.

قالت: أو كالمساء الذي يتكرر وهو في كل يوم ظلام وسواد!
قلت: ليس هذا إلّا ولا إليك، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر.
قالت: بل هو الحياة، والحياة اليوم علمية أوربية، والزمن حَثِيثٌ في تقدمه، وأصحابُ «التقاليد» جامدون في موضعهم قد فاتهم الزمن، ولذلك يسمونهم (متأخرين)، أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت في أوربا زِيًّا قديمًا، فأخذ المقص يعمل في تهذيبها، يقطع من هنا ويشقُّ من هنا...؟!؟

اسمع أيها «المتأخر»، وتأمل هذا البرهان الأوربيّ العصريّ:
أخبرتني صديقتي فلانة حاملة شهادة... أنها كانت في القطار بين الإسكندرية
والقاهرة، وكانت معها فتاة من جيرتها تحمل الشهادة الابتدائية؛ فجمعتهما السفّر
بشباب وسيم ظريف يُشارك في الأدب، غير أنه رجّعى (متأخر)، وصديقتي تعرفُ
من كل شيء شيئاً، وتأخذ من كل فن بطرف؛ فجرى الحديث بينهما مجراه، وترك
الصديقة نفسها لدواعيها، وانطلقت على سجيّتها الظريفة، ووضعت فنّ لسانها في
الكلام فجعلت فيه روح التقبيل...!

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه،
ودفعته إلى الزمن الذي هو فيه. فلما همّت بدواعه سألهما: أين تذهبان؟ فأغضت
صاحبة الشهادة الابتدائية، وأطرقت حياءً، ورأت في السؤال تهمةً وريبةً، فأنبّتها
الصديقة وأيقظتها من حيائها، وقالت لها: ألا تزالين شرقية متأخرة؟ إن لم يسعدنا
الخط أن تكون لنا حرية المرأة الأوربية في المجتمع وفي أنفسنا؛ أفلا يسعدنا أن
تكون لنا هذه الحرية ولو في أنفسنا؟

ثم ردت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها، فأطمعه رُدّها، فسألها أن تنتزعه
معه في بعض الحداثق، فأبت صاحبة الابتدائية ولجّت عمايتُها الشرقية المتأخرة،
ورأت في ذلك مسقطاً لها، فلوت إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لا فتى وفتاة،
وتنزهاً معاً، وعرف الشاب الرجعى الحبّ، والخمر التي هي تحية الحب! ولم تستطع الفتاة الماكرة أن ترجع إلى دارها وهي سكرى كما زعمت للشا، فأوت
إلى فندق، وختمت روايتهما بإعراض من الشاب أجابت هي عليه بقولها: ألازلت
(متأخراً)؟.....؟

قالت «الطائشة»:

نعم يا عزيزي (المتأخر)، إن مذهب المرأة الحرة... في الفرق بين الزوج وغير
الزوج، أن الأول رجلٌ ثابتٌ، والآخر رجل طارئ. والثابت ثابت معها بحقه هو؛
والطارئ طارئ عليها بحقها هي... فإن كانت حرةً فلها حقها...

قال كاتب الطائشة: وهنا، هنا، هنا، كاد الشيطانُ يرفع الستار عن فصل ثالث
فى هذه الرواية، رواية «الطائشة»...

* * *

نقول نحن: وإلى هنا ينتهى نصف الرواية؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة
أخرى اسمها: (الطائش والطائشة)...

■ ■ ■

دموع

من رسائل الطائشة^(١)

ورسائل هذه الطائشة إلى صاحبها، تُقرأ في ظاهرها على أنها رسائل حب، قد كُتبت في الفنون التي يترسل بها العشاق؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر، تُقرأ به على أنها تاريخ نفس مُلتاعة لاتزال شُعلة النار فيها تتنمى وترتفع؛ وقد فدحتها بظلمها الحياة إذ حصرتها في فن واحد لا يتغير، وأوقعتها تحت شرط واحد لا يتحقق، وصرفتُها بفكرة واحدة لا تزال تخيب.

وأشدُّ سجون الحياة فكرةً خائبةً يُسجن الحى فيها، لا هو مُستطيع أن يدعها، ولا هو قادر أن يحققها؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدُّ ولايزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهاية؛ ويتألم ما يتألم ولا تزال تشعره الحياة أن كلَّ ما فات من العذاب إنما هو بدء العذاب.

والسعادة في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكرٌ غيرٌ مقيّد بمعنى تتألم منه، ولا بمعنى تخاف منه، ولا بمعنى تحذر منه؛ والشقاء في تفصيله وجملته انحباس الفكر في معانى الألم والخوف والاضطراب.

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصورة التي يبرق شعاعها وتكاد تقوم بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه؛ وهى فيها عذبة الكلام من أنها مرة الشعور، متسقة الفكر من أنها مختلة القلب، مُسددة المنطق من أنها طائشة النفس؛ تلك إحدى عجائب الحب، كلما كان قفراً مُحلاً اخضرت فيه البلاغة وتفننت والتفت؛

(١) نحن لم نخترع الطائشة، فهى فتاة متعلمة أديبة، وقد أحبت رجلاً متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت. وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة، فكانت تقول: إنها منهن كالعائبات المحكوم عليه، لاهو يملك دفاع الذنب، ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب.

وعلى قلة المُتعة من لذاته تزيد فيه المتعة من أوصافه؛ وَلَكِنَّ هذا الحبَّ طبيعةً غريبةً تُروى بالنار فتُخصبُ عليها وتَتَقَنَّقُ بمعانيها، كما تُروى الأرض بالماء فتُخصبُ وتتغطى بنباتها؛ فإن روى الحبُّ من لذاته وبرَدَ عليها، لم يُنبِت من البلاغة إلا أخفَّها وزناً وأقلها معانى، كأول ما يبدو النبات حين يتفطر الثرى عنه، تراه فتحسبه على الأرض مسحةً لون أخضر، أو لم يُنبِت إلا القليل القليل كالتعاشيب^(١) فى الأرض السَّبخة...

إن قصة الحب كالرواية التمثيلية، أبلغ ما فيها وأحسنه وأعجبه ما كان قبل «العقدة»، فإذا انحلت هذه العقدة فأنت فى بقايا مفسَّرة مشروحة تُريد أن تنتهى، ولا تحتل من الفن إلا ذلك القليل الذى بينها وبين النهاية.

وهذه هى رسالة الطائشة إلى صاحبها:

....»

«ماذا أكتب لك غير ألفاظ حقيقتى وحقيقتك؟

«يُخِيلُ إلى أن ألفاظ خضوعى وتضرعى متى انتهت إليك انقلبت إلى ألفاظ شجار

ونزاع!

«أنى عدل أن تلمسك حياتى لَمَسَةَ الزَّهرة الناعمة بأطراف البنان، وتقذفنى أنت

قذفَ الحجر بملء اليد الصُّلبة مُتَمَطِّية فيها قوة الجسم؟

«جعلتنى فى الحب كآلة خاضعة تدار فتدور، ثم عبثت بها فصارت متمردة

تُوقِف ولا تتقف؛ والنهاية - لاريب فيها - اختلال أو تحطيم!

«وجعلت لى عالمًا؛ أما ليله فأنت والظلام والبكاء، وأما نهاره فأنت والضياء

والأمل الخائب. هذا هو عالمى: أنت أنت...!

«سمائى كأنها رُقعة أُطبقت عليها كل غيوم السماء، وأرضى كأنها بُقعة اجتمعت

فيها كل زلازل الأرض! لأنك غَيَمَةٌ فى حياتى، وزلزلة فى أيامى.

(١) أعشاب قليلة متفرقة هنا وهناك.

«يا بُعد ما بين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى!

«ما يَجْمَلُ منك أن تُلْزِمْنِي لَوْمَ خطأ أنتَ المخطئُ فيه. سلْنِي عن حُبِّي أَجْبُكَ عن نكبتِي، وسلْنِي عن نكبتِي أَجْبُكَ عن حُبِّي!
«كان ينبغي أن تكونَ لِي الكبرياءُ فى الحب، ولكن ماذا أصنعُ وأنتَ منصرفُ عني؟ وِلاهُ من هذا الانصرافِ الذى يجعلُ كبريائي رضى منى بأن تنسى! فتنسى...
«ليس لِي من وسيلةٍ تَعْطِفُكَ إلا هذا الحبُّ الشديداً الذى هو يَصُدُّكَ، فكأن الأسبابَ مقلوبةً معي منذ انقلبتَ أنتَ.

«ويُخِيلُ إِلَيَّ من طُغْيَانِ آلامِي أن كلَّ ذِي حُزْنٍ فعندِي أنا تمامُ حُزنِهِ!
«ويُخِيلُ إِلَيَّ أَنِي أَفْصَحُ من نَظْقِ بآهِ!
«عذابِي عذابُ الصادقِ الذى لا يَعْرِفُ الكذبَ أبداً أبداً، بالكاذبِ الذى لا يعرفُ الصديقَ أبداً أبداً!

«كم يَقُولُ الرجالُ فى النساءِ، وكم يَصِفُونَهُنَّ بالكَيْدِ والغدرِ والمكرِ؛ فهل جُنْتُ أَنْتَ لَتُعاقِبِ الجنسَ كله فى أنا وحدى...؟
«ما لكلامِي يتقطعُ كأنما هو أيضاً مُخْتَنَقٌ؟

«لَشَدَّ ما أتمنَّى أن أَشْتَرِيَ انتصارِي، ولكنَّ انتصارِي عليك هو عندِي أن تنتصرَ أَنْتَ.
«إن المرأةَ تَطْلُبُ الحَرِيَّةَ وتَلْجُ فى طلبِها، ولكنَّ الحَيَاةَ تنتهى بها إلى يقينٍ لاشكَّ فيه هو أن ألطفَ أنواعَ حريتها فى ألطفِ أنواعِ استعبادها!
«حتى فى خيالي أرى لك هَيْئَةَ الأمرِ النَّاهِي أياها القاسى. لا أَحِبُّ منك هذا، ولكن لا يُعْجِبُنِي منك إلا هذا...!

«ويزيدُ رَفْعَةً فى عيني أنكَ لا تحاولُ قُطُّ أن تزيدَ رَفْعَةً فى عيني.
«فالمراةُ لا تُحِبُّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلْفِتَها دائماً ليرفعَ من شأنِهِ عندها.

«إن الطبيعة قد جعلت الأنوثة (فى الإنسان) هى التى تَلَفَتْ إلى نفسها بالتصنُّع والتَزْيِيدِ، وعَرَضَ ما فيها وتكَلَّفَ ما ليس فيها؛ فإن يَصْنَعِ الرجلُ صنيعها فما هو فى شىء إلا تزيينَ احتقاره!»
«التَزْيِيدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل، ولكن التَزْيِيدُ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى!»

«ارْفَعْ صَوْتَكَ بكلماتى تَسْمَعُ فيها اثنين: صَوْتِكَ وقلْبى.
«ليست هى كلماتى لَدَيْكَ أكثر مما هى أعمالك لَدَى.
«وليس هو حبى لك أكبر مما هو ظلمك لى!
«ما أَشَدَّ تَعَسَى إذا كُنْتُ أَخاطِبُ منك نائماً يَسْمَعُ أحلامه ولا يَسْمَعُنِى!
«ما أَتَعَسَ مَنْ تُبْكِيه الحياة بكاءها المفاجئ على ميت لا يَرْجِعُ، أوبكاءها المألوف على حبيب لا يَنال!»

«ولكن فَلَأَصْبِرُ ولَأَصْبِرَ على الأيام التى لا طعم لها، لأن فيها الحبيب الذى لا وفاء له!»
«إن المصاب بالعمى اللَوْنَى يرى الأحمر أخضر، والمصاب بعمى الحب يرى الشخص القَفْرَ كله أزهار.
«عمى مركَّبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحة تعبق.
«وعَمَى فى الزمن أيضاً أن ينظرَ إلى الساعة الأولى من ساعات الحب، فىرى الأيام كلها فى حكم هذه الساعة.
«وعَمَى فى الدم، أن يشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يحىي خياله ويغذيه أكثر مما يُحيي جسم صاحبه.
«وعَمَى فى العقل، أن يجعلَ وجهَ إنسان واحد كوجه النهار على الدنيا، تظهرُ الأشياءُ فى لونه، وبغير لونه تنطفئ الأشياء.»

«وَعَمَى فِي قَلْبِي أَنَا، هَذَا الْحُبُّ الَّذِي فِي قَلْبِي !

«ليس الظلام إلا فقدانَ النور، وليس الظلمُ في الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم.
«وظلمُ الرجال للنساء عملُ فقدان المساواة لا عملُ الرجال.
«كيف تُسخرُ الدنيا من متعلِّمةٍ مثلي، فتضعها موضعاً من الهوان والضعفِ بحيث
لو سُئِلْتُ أن تكتب (وظيفتها) على بطاقة، لما كتبت تحت اسمها إلا هذا الكلمة:
(عاشقة فلان)..؟»

«وحتى في ضعف المرأة لا مساواة بين النساء في الاجتماع، فكل متزوجة وظيفتها
الاجتماعية أنها زوجة؛ ولكن ليس لعاشقة أن تقول إن عشقها وظيفتها...
«وحتى في الكلام عن الحب لا مساواة، فهذه فتاة تُحب فتتكلّم عن حبها فيقال:
فاجرة وطائشة. ولا ذنب لها غير أنها تكلمت، وأخرى تحب وتكتم، فيقال: طاهرة
عفيفة. ولا فضيلة فيها أنها سكنت.
«أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكل في حرية الكلمة المخبوءة..
«لا لا، قد رجعت عن هذا الرأي...»

«إن القلق إذا استمر على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشأن من قوانين
الحياة.

«والنساء يُقْلِقْنَ الكون الآن مما استقرّ في نفوسهن من الاضطراب، وسيُخَرِّبْنَهُ
أشنع تخريب.

«ويلٌ للاجتماع من المرأة العصرية التي أنشأها ضعف الرجل! إن الشيطان لو خُيِّرَ
في غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرة متعلّمة خيالية كاسدة لا تجد الزوج...!
«ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرة خيالية، تريد أن تفرّ من أنها عذراء! لقد امتلأت
الأرض من هذه القنابل... ولكن ما من امرأةٍ تفرط في فضيلتها إلا وهي ذنب رجل
قد أهمل في واجبه.

«هل تملك الفتاة عرضها أو لا تملك؟ هذه هي المسألة....
 «إن كانت تملك، فلها أن تتصرف وتُعطي؛ أو لا، فلماذا لا يتقدم المالك...؟
 «هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها؛ فالحيوان الذى لا يعرف النسب
 لا تعرف أنثاه العرض...!
 «وهل كان عبثاً أن يفرض الدين فى الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل؟
 «ولكن أين الدين؟ وا أسفاه! لقد مدّنه هو أيضاً...!

«طالت رسالتى إليك يا عزيزى، بل طاشت، فإنى حين أجدك أفقد اللغة، وحين
 أفقدك أجدها.
 «ولقد تكلمت عن الدين لأنى أراك أنت بنصف دين...!
 «فلو كنت ذا دين كامل لتزوجت اثنتين....!
 «لا لا، قد رجعت عن رأى...»
 (طبق الأصل)

■ ■ ■

فلسفة الطائشة

.... وهذا مجلسٌ من مجالس (الطائشة) مع صاحبها، مما تَسَقَّطُ من حديثها؛ فقد كان يكتبُ عنها مائِصِبٌ فيه وما تخطئُ، كما يكتبُ أهلُ السياسة بعضهم عن بعض إذا فاوض الحليفُ حليفه، أو ناكِرَ الخصمِ خصمه؛ فإن كلامَ الحبيب والسياسي الداهية ليس كلامَ المتكلم وحده، بل فيه نطق الدولة... وفيه الزمنُ يُقبل أو يُدبر. وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُول التي تُرغم صديقاً على الصداقة، لأنه في طريقها أو طريق حوادثها، وكان يسميها «جيش احتلال»؛ إذ حطَّت في أيامه واحتلتها فتَبَوَّأت منها ماشاءت على رغمه، واستباحَتْ ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه. وقد كان في مدافعته حبّاً واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلَّ شيء على الأرض فيحاولُ غسله أو كنسه أو تغطيته.. فهذا ليس مما يُغسل بالماء، ولا يَكْنَس بالمكنسة، ولا يَغطى بالأغطية؛ إنما إزالته في إزالة الشَّبح الذي هو يُلقيه، أو إطفاء النور الذي هو يُثبِّته.

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية، والسخرية من الحسن الفاتن الذي يقْدسه، تأتي من اشتها هذا الحسن؛ فذاك إسقاطه سقوطاً مقدساً...

أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط، أو هو جعلُ تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه. لا بد من سُفل مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر؛ فإذا قال رجلٌ لامرأة قد فتنته أو وَقَعَتْ من نفسه: «أحبُّكِ». أو قالتها المرأة لرجل وقع من نفسها أو استهامها ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معاني الوقاحة الجنسية، وكلُّ السُّخرية بالمحسوب سخرية بإجلالٍ عظيم.. وهي كلمة شاعر في تقديس الجمال والإعجاب به، غير أنها هي بعينها كلمة الجزار الذي يرى الخروف في جماله اللحمي الدُهني، فيقول: «سَمين...!»

لهذا يمنع الدين خلوة الرجل بالمرأة، ويحرّم إظهار الفتنة من الجنس للجنس، ويفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات

حجاباً آخر من الأمر بغض البصر، إذ لا يكفي حجاب واحد، فإن الطبيعة الجنسية تنظر بالداخل والخارج معاً؛ ثم يطرد عن المرأة كلمة الحب إلا أن تكون من زوجها، وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته؛ إذ هي كلمة حيلة في الطبيعة أكثر مما هي كلمة صدق في الاجتماع، ولا يؤكد في الدين صدقها الاجتماعي إلا العقد والشهود لربط الحقوق بها، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارها في موضعها من النظام الإنساني؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشق من معانى الزوج، أما أن يكون من معنى آخر أو يكون بلا معنى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة، ما دامت هي وحدها التى تلد، وما دامت لا تلد للبيع...

وفلسفة هذه الطائشة فلسفة امرأة ذكية مطلعة مُحيطَة مفكرة، تُبصر لكتب العقل والحوادث جميعاً، وقد أصبحت بعد سقطة حبها ترى الصواب فى شكلين لا شكل واحد: فتراه كما هو فى نفسه، وكما هو فى أغلاطها. وقد أسقطنا فى رواية مجلسها ما كان من مطارحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالإملاء من الأستاذة..

قال صاحب الطائشة: ذكرت لها «قاسم أمين» وقلت: إنها خير تلاميذه وتلميذاته... حتى لكانها تجربة ثلاثين سنة لآرائه فى تحرير المرأة. فقالت: إنما كان قاسم تلميذ المرأة الأوروبية، وهذه المرأة بأعيننا فما حاجتنا نحن إلى تلميذها القديم؟

قالت: وأبلغ من يرد على قاسم اليوم هى أستاذته التى شَبَّت بها أطوار الحياة بعد، فقد أثبت قاسم - غفر الله له - أنه انحصر فى عهد بعينه ولم يتبع الأيام نظره، ولم يستقرئ أطوار المدينة؛ فلم يُقدَّر أن هذا الزمن المتمدّن سيتقدم فى رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم فى فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة، فأقواهما بالطبيعة أقواهما بالعلم، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازل ولا تحت الحياة مثلها.

مَزَقَ البرقع وقال: «إنه مما يزيدُ في الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفةً الوجه لكان في مجموع خَلْقها - على الغالب - ما يردُّ البصر عنها». فقد زال البرقع، ولكن هل قدَّر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائماً في الميدان الجنسيّ بالبرقع وبغير البرقع، وأنها تختَر لكل معركة أسلحتها، وأنها إن كشفت برقعَ الخَزْ فستضع في مكانه برقع الأبيض والأحمر....؟

وزعم أن «النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تُظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول: فلانة، أو بنتُ فلان، أو زوجُ فلان كانت تفعل كذا؛ فهي تأتي كل ما تشتهيهِ من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب». فقد زال البرقع والنقاب، ولكن هل قدَّر قاسم أن المرأة السافرة ستلجأ إلى حماية أخرى، فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها، وبدلاً من أن تلبسَ جسمها ثوباً يكسوه، تلبسه الثوب الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحركه في وقت معاً، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر: هذا الموضع اسمه... وهذا الموضع اسمه... وانظر هنا وانظر هاهنا... ما زادت المدنية على أن فكَّكت المرأة الطيبة ثم ركبَّتها في هذه الهندسة الفاحشة!

وأراد قاسم أن يعلمنا الحبَّ لنربط به الزوجَ معنا، فلم يزد على أن جرأنا على الحب الذي فرَّ به الزوجُ منا، وقد نسي أن المرأة التي تخالط الرجلَ ليُعجبها وتُعجبه فيصير زوجين - إنما تخالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته، فتكون طبيعته وطبيعتها هي محلَّ المخالطة قبل شخصيتهما، أو تحت ستار شخصيتهما؛ وهو رجلٌ وهى امرأة، وبينهما مصارعة الدم.. وكثيراً ما تكون المسكينة هى المذبوحة. وقد انتهينا إلى دهر يُصنَع حُبّه ومجالسُ أحبابه في «هوليوود» وغيرها من مُدُن السينما، فإن رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العِفَّة والوقار قال: بلادةٌ فى الدم، وبلاهةٌ فى العقل، وثَقُلَ أى ثقل؛ وإن رأى غير ذلك قال: فُجورٌ وطيش، واستهتارٌ أى استهتار. فأين تستقرُّ المرأة ولا مكان لها بين الضدين؟

أخطأ قاسم في إغفال عامل الزمن من حسابه، وهاجم الدين بالعرف؛ وكان من أفحش غلظه ظنُّه العرفَ مقصوراً على زمنه، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العرف، هو أن هذا الأخير دائم الاضطراب، فهو دائم التغيُّر، فهو لا يصلح أبداً قاعدة للفضيلة؛ وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُري، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين، رجالهم ونسائهم، إذا رأوا في جزيرتهم أو محلَّتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حقويه ثُبَّاناً قصيراً كأنه ورقُ الشجر على موضعه ذاك من آدم وحواء، إذا رأوا هذا المتعفِّفَ بخِرقَةٍ.. أنكروا عليه وتساءلوا بينهم. مَنْ ما من هذا الراهب...؟ ونسى قاسم - غفر الله له - أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيُّرها، فالتى تفرغ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة، وتلبس وجهها ألوان التصوير، لاتفعل ذلك إلا وهي قد تغيَّر فهمُها للفضائل، فتغيرت بذلك فضائلها، وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية. وروح المسجد غير روح الحانة، وهذه غير روح المرقص، وهذه غير روح المخدع، ولكل حالة تلبس المرأة لبساً فتُخفى منها وتُبدى. وتحريك البيئة لتتقلب، هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها.

وأيّن أخلاق الثياب العصرية في امرأة اليوم، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب؟ تبدّلت بمشاعر الطاعة، والصبر، والاستقرار، والعناية بالنسل، والتفرُّغ لإسعاد أهلها وذويها - مشاعر أخرى، أولها كراهية الدار والطاعة والنسل؛ وحسبك من شر هذا أوّله وأخفه!

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه، وكان مُصلحاً فيه روحُ القاضى، والقاضى بحكم عمله مقلدٌ مُتَّبِع، أليس عليه أن يُسندَ رأيه دائماً إلى نصٍّ لم يكن له فيه شأن ولا عمل؟ من ثم كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة، أن الأولى «لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها، هو نفسها، وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلّقات، إذا جرى القدرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن، لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تامُّ بأحوال المحبوب (...) وشمائله وصفاته، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم

فى كل وقت (!!!) وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها، ولا تُسلم نفسها إلا بعد منازلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهر من التعفف (؟؟؟؟)«...»^(١).

أليس هذا كلام قاض من القضاة المدنيين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لإحدى الفاجرتين: أيتها الجاهلة الحمقاء، كيف لم تتحاشى ولم تتسترى فلا يكون للقانون عليك سبيل؟

وحتى فى هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرف الأرنب وأذنيها^(٢) وإلا فمتى كان فى الحب اختيار، ومتى كان الاختيار يقع «فيما يجرى به القدر»، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها... فتدرس الصفات والشمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتصفىها كلها فى واحد تختاره من بينهم؟ هذا مضحك! هذا مضحك!

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحف فى هذه الأيام: كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها؛ ففسر لى أنت كلام قاسم، وأفهمنى كيف يكون اثنان واثنان خمسة وعشرين؟ وكيف يكون فرار متعلّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرة وضع الثقة فيمن لا يكون أهلاً لها؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن فى هذا أيضاً، فكثير من المنكرات والآثام قد انحلّ منها المعنى الدينى، وثبت فى مكانه معنى اجتماعى مقرر، فأصبحت المتعلّمة لا تتخوّف من ذلك على نفسها شيئاً، بل هى تُقارِفُه وتستأثر به دون الجاهلة، وتلبس له (السواريه)، وتقدّم فيه للرجال المهذّبين مرة ذراعها، ومرة خصرها.. أقرأت (شهرزاد)؟ إن فيها سطرًا يجعل كتاب قاسم كله ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شىء يُقرأ:

(١) ص ٥١ من كتاب «تحرير المرأة»، وهو كلام قاسم بنصه، وأكثر ما فى هذا الكتاب هو فى رأينا خلط وخبط.

(٢) يقول العرب: «فلان يعرف الأرنب وأذنيها» أى يعرف الشىء بالعلامة التى تشبته ولا تتخلف.

قالت شهرزاد المتعلّمة، المتفلسفة، البيضاء، البضة، الرشيقّة، الجميلة؛ للعبد الأسود الفظيع الدميم الذي تهواه: «ينبغي أن تكون أسود اللون، وضيق الأصل، قبيح الصورة، تلك وصفاتك الخالدة التي أحبّها...»^(١).

فهذا كلام الطبيعة لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة.
قال صاحب الطائشة:

فقلتُ لها: فإذا كان قاسم لا يُرضيك، وكان الرجل مُصلحاً دخلته روح القاضي، فخلط رأياً صالحاً وآخر سيئاً، فلعل «مصطفى كمال» همك من رجل في تحرير المرأة تحريراً مزق الحجاب وال...؟

قالت: إن مصطفى كمال هذا رجل ثائر، يسوق بين يديه الخطأ والصواب بعصا واحدة، ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هذا، ولا يبرح ثائراً حتى يتمّ انسلاخ أمتّه. وله عقل عسكري كان يكره به مكر الألمان، حين أكرههم الحلفاء على تحويل مصانع (كروب)، فحولوها تحويلاً يردّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات. وليس الرجل مُصلحاً ألبتّه، بل هو قائد زهّاه النصر الذي اتفق له، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفّتيه كلمة: «أريد...» وجعل بعد ذلك إذا غلط غلطة أرادها منتصرة فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها، ويأخذهم كيف شاء، ويدعّم كيف أحب؛ وبكلمة واحدة: هو مؤلف الرواية، والقانون نفسه أحد الممثلين...

وحقّه على الدين وأهل الدين هو الدليل على أنه ثائر لا مُصلح؛ فإن أخصّ أخلاق الثورة حقد الثائرين، وهذا الحقد في قوة حرب وحدها، فلا يكون إلا مادة للأفعال الكثيرة المذمومة، والرجل يحتذى أوربا ويعمل على أعمال الأوربيين في خيرها وشرها، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفسهم، يتبرّعون منها ويُلحقها هو

(١) ص ١٠٦ من «شهر زاد» للكاتب الدقيق صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم، وقد كتبنا نحن في هذا المعنى وكشفنا عن سره في كتاب «أوراق الورد» ص ٥١ - ٥٢ وفي غيره من كتبنا.

بقومه، فكأنه يعتنف الآراء ويأخذها أخذًا عسكرياً، ليس في الأمر إلا قوله «أريد» فيكون ما يريد. هو لم يحكم على شبر من أوروبا يجعله تركياً ولكنه جعل ردائل أوروبا تتجنس بالجنسية التركية...

وتالله إنه لأيسر عليه أن يجيء بملائكة أو شياطين من المردة، ينفخون أرض تركيا فيمطونها مطاً فيجعلونها قارة، من أن يُكره أوروبا على اعتبار قومه أوربيين بلبس قبعة وهدم مسجد. إنه لا يزال في أول التاريخ، وهذا الشعب الذي انتصر به لم تلده مبادئه، ولا أنشأه هدم العلماء؛ بل هو الذي ولدته تلك الأمهات، وأخرجه أولئك الآباء، وما كان يُعوّزُهُ إلا القائدُ الحازم المصمم، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة؛ فإذا فتن القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحول نبياً، فهذا شيء آخر له اسم آخر.

ولنفرض «الأثير» كما يقول العلماء، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية، وأن نبعتها بحثاً علمياً، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في إنجلترا؛ فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لا حرب الدويلة الصغيرة، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ.... ثم يستعزُّ الرجلُ بدَلَّتِه على قومه، ويدخله الغرور، فيتصنّع لهم مرة، ويتزين لهم مرة، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسَفِّه دينهم، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم، لأن هذا هو الإصلاح في رأيه. أفتُرى الإنجليز حينئذ يَضُوءون إليه ويلتفون حوله ويقولون: قائدنا في الحرب، ومُصلحنا في السلم، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله، وظفروا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله..؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله؟

إنه والله ما يتدافع اثنان أن هدم كنيسة واحدة يومئذ لا يكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر، ولكن العجز ممهدٌ من تلقاء نفسه، والأرض المنخسفة هي التي

يستنقع فيها الماء، فله فيها اسم ورسم؛ أما الجبل الصخري الأشم، فإذا صُب هذا الماء عليه أرسله من كل جوانبه، وأفاضه إلى أسفل...! ^(١)

قال صاحب الطائشة: فأقول لها: إذا كان هذا رأيك للنساء، فكيف لا ترين مثل هذا لنفسك؟

فتَضَعَت لهذه الكلمة ولَجَلَّت قليلاً ثم قالت: أنت سلبتني الرأي لنفسى، ووضعتنى فى الحقيقة التى لا تتقيد بقانون الخير والشر.

قلت: فإذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها فى رأى، وتنصح بالرأى الصائب غيرها، فيوشك ألا يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولا يعود فى المدرسة كلها عاقل إلا الكاتب....

فتضاحكت وقالت: لهذا يشتد ديننا الإسلامى مع المرأة، فهو يخلق طبائع المقاومة فى المرأة، ويخلقها فيما حولها، حتى ليخيل إليها أن السماء عيون تراها، وأن الأرض عقول تُحصى عليها؛ وهل أعجب من أن هذا الدين يقضى قضاء مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب إغراء، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث فى (الراديو) له دوى فى الدنيا، فيقيم عليها الحجاب، وغيره الرجل، وشرف الأصل؛ ويؤاخذها بروح طبيعتها، فيجعل الهفوة منها كأنها جنين يكبر ولا يزال يكبر حتى يكون عار ماضيها وخزى مستقبلها.

هذه كلها حُجُب مضروبة لا حجاب واحد، هى كلها لخلق طبائع المقاومة، لتيسير المقاومة؛ ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً، ولم يكن أبداً إلا الحجاب الأخير كالسور حول القلعة؛ ولكن قبَح الله المدينة وفنها؛ إنها أطلقت

(١) أفردنا مقالا خاصاً لهذا الإلحاد التركى الذبابى.... فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه: «كفر الذبابة» تقرأه، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

المرأة حرة، ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية فى اختيار أثقل قيودها
لا غير. أنت مُحمل بالذهب، وأنت حرٌّ ولكن بين اللصوص؛ كأنك فى هذا لست حرّاً
إلا فى اختيار من يجنى عليك...!

لم تعد المرأة العصرية انتصار الأمومة، ولا انتصار الخلقِ الفاضل، ولا انتصار
التعزية فى هموم الحياة؛ ولكن انتصار الفن، وانتصار اللهو، وانتصار الخلاعة.
قال صاحب الطائشة: فضحكْتُ وقلتُ: وانتصارى...!
(طبق الأصل)

«تنبيه»

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلّقات، ونحن إنما نروى قصة هى فى
الدنيا، ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل؛ فأما الصالح فيرى ويفهم، ولعله
يصون بها نفسه؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ولعله يرد بها نفسه. ومذهبنا دائماً
وجوب كشف الحقيقة، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذهُ عن أخطأ.



تربية لأولوية

كتبْتُ إلى سيدة فاضلة بما هذه ترجمتهُ منقولاً إلى أسلوبى وطريقتى:
أما بعدُ فهذا الذى كنا ظننا وظننتُ، فاقراً الفصل الذى انتزعتُهُ لك من مجلة^(*) ...
وستعرفُ منه وتنكر، وترى فيه النهار مبصراً والليل أعمى.... وتجدُ فتاة اليوم على
ما وقع بها من الظنَّة، وكثر فيها من أقوال السوء - لا تَشْمُسُ على الرِّيبة ولا تريد
أن تنتفى منها، بل هى تعملُ لتحقيقها، وتبغى مع تحقيقها أن يَتَعَالَمَ الناسُ ذلك
منها، وتريد مع هذين أن يطلقوا لها ما شاءت، ويُسَوِّغَها مُقَارَفة الإثم، ويُقَرُّوها
على منكراتها.

أما إنه إذا كانت أمهاتنا الجاهلات هنَّ أمسنا الذهاب بلا فائدة، فإن فتياتنا
المتعلّمات هنَّ يومنا الضائع بلا فائدة، غير أن الجاهلة لم تكن تَكْسَدُ ومعها
الفضيلة، فأصبحت المتعلّمة لم تكد تَنفُقْ ومعها الرذيلة، ولتَاجِرْ أُمِّي طاهرُ الاسم
تتحرك سُوقُه وتحيا، خيرٌ من تاجر متعلم نجس الاسم قد قامت سوقه وخمدتُ،
فما تتنفس من درهم ولا دينار.

لقد احتذينا على مثال المرأة الأوربية، فلما أحكمته المتعلّمات منا، كنَّ بين
الشرق والغرب كالسَّبخة النَّشَّاشة من الأرض، طَرَفُ لها بالفلاة وطرفُ بالبحر؛
فهى رملٌ فى ماء فى ملح، لا تَخْلُصُ لفساد ولا صحة، فاعتبر هذه وهذه نستجدهما
بحكاية واحدة أصلاً وطبق الأصل.

وقرأت الفصل الذى أومأت إليه السيدة، وكان فى كتابها، فإذا هو لكاتبة تزعم
(أنها ممن رفعن علمَ الجهاد لحرية المرأة)، وإذا فى أوله:

(*) مجلة الأسبوع المصرية ١٩٣٤م.

«كتبت آنسة أدبية فى عدد سابق من... الأغر تقول: (أجل، لنفتش عن هذا الرجل كما يفتشون هم عن المرأة، فإن أخطأناهم أزواجاً فلن نخطئهم أصدقاء!!!!) وكتب بعد هذا أديب فاضل، كما كتبت آنسة فاضلة ينحيان (كذا) هذا المنحى، ويطرقان نفس السبيل (كذا) التى اختطتها الآنسة الجريئة فى غير حق، الثائرة فى نزق. ثم قالت بعد ذلك: «قرأت مقال الآنسة الثائرة فى حيوية صارخة!!!! فجذعت، لأن (قاسم أمين) عندما رفع علم الجهاد من أجل حرية المرأة، (ولى الدين يكن) عندما جاهر بعده فى سبيل السفور، و(هدى شعراوى) عندما رفعت صوتها عالياً تطالب بحرية المرأة – ما ظنت وما ظن واحد من هذين الرجلين أن ثورة المرأة ستتطور إلى حد أن تقف آنسة مهذبة، تكشف عن رأسها تبكى وتستبكي سواها معها، من أجل الزواج....».

وأنا فلست أدري والله مم تعجب هذه الكاتبة، وإنى لأعجب من عجبها، وأراها كالتى تكتب عبثاً وهزلاً وهويماً، مظهره الجد والقصد والغضب. أئن أطلق للنساء أن يثرن كما تقول الكاتبة، وجاهد فلان وفلان فى هذه الثورة فأخذت مأخذها، فانطلقت لشأنها، فأوغلت فى حريرتها، فامتد بها أمدها شوطاً بعد شوط – ثم جاء خلُق المرأة يُسفر سفوره ويرفع الحجاب عن طبيعته ثائراً هو أيضاً فى غير مُدارة ولا حذق ولا كياسة، يريد أن يقتحم طريقه ويسلك سبيله، ثم وقف على رغمه فى الطريق منكسراً مما به من اللفة والوثبة يتوجع، يتنهد، يتلذع بهذه المعانى وهذه الكلمات – أئن وقع ذلك جاءت كاتبة من كاتبات السفور تقول للمرأة: جرى عليك وكنت حرة، وتزعزعت وكنت ثابتة، وأفحشت وكنت عفيفة، وتعهّرت وكنت طاهرة؟

أفلا تقول لها: سَفرْتُ أخلاقك إذ كنت سافرة بارزة، وضاع حيائك إذ كنت مُخلّة مهملّة، وغلّوت إذ كنت فى المبالغة من البدء؟

أفلا تقول لها: لقد تَلَطَّفْتَ فجئت بالمعنى المجازى لكلمة (العُرى)، ولقد أبدعت فكنت امرأة ظريفةً اجتماعية مَخِيلَةً للشعر والفن، وحققت أن واجب الظريفة الجميلة إعطاء الفن غذاء من....، ومن....؛ ومن لحمها...؟

نعم إن قاسم أمين (رحمه الله) لم يكن يظن... ولكن أما كان ينبغي أن يظن أن بعض الصواب في الخطأ لا يجعل الخطأ صواباً؟ بل هو أخرى أن يلبسه على الناس فيشبهه عليهم بالحق وما هو به، ويجعلهم يسكنون إليه ويأمنون جانبه فينتهي بهم يوماً إلى أن ينتسف خطؤه صوابه، ويغطي باطله على حقه ثم تستطرق إليه عوامل لم تكن فيه من قبل، ولا كانت تجد إليه السبيل وهو خطأ محض، فتمدُّ له في الغي مدّاً. ثم تنتهي هي أيضاً إلى نهايتها، وتثول إلى حقائقها؛ فإذا كل ذلك قد داخل بعضه، وإذا الشر لا يقفُ عندما كان عليه، وإذا البلاء ليس في نوع واحد بل أنواع.

ما يرتاب أحد في نية قاسم أمين، ولانزع من أن له خفيّة سوء أو مُضمر شر فيما دعا إليه من تلك الدعوة، ولكن أنا أرتاب في كفايته لما كان أخذ نفسه به وأراه قد تكلف ما لا يحسن، وذهب يقول في تأويل القرآن وهو لا ينفذ إلى حقائقه، ولا يستبطن أسرار عربيته، وكان مناظروه في عصره قومًا ضعفاء، فاستعلاهم بضعفهم لا بقوته، وكانت كلمة الحجاب قد انتفخت في ذهنه بعد أن أفرغت معانيها الدقيقة، فأخذها ممتلئة وجاء بها فارغة، وقال للنساء: غَيِّرْنَ وبدِّلْنَ. فلما أظعنه وبدلن وغيرن، وجاء الزمن بما يفسر الكلمة من حقائقه وتصاريفه لا من خيالات المتخيل أو المتشيع - إذا معنى التغيير والتبديل هو ما رأيت، وإذا الحجاب الأول على ضلاله كان نصف الشر، وإذا المرأة التي ربحت الشارع هي التي خسرت الزوج! وإذا تلك الدعوة لم تكن نفياً للحجاب عن المرأة، ولكن نفياً للمرأة ذاتها وراء حدود الأسرة، كأنها مجرمة عُوقبت على فساد سياستها؛ وهي قارّة في بيتها ولكنها مع ذلك منفية من مستقبلها.

كانوا يحتجّون لنفي الحجاب بالفلاّحات في سفورهن؛ وغفلوا أقبح الغفلة عن السبب الطبيعي في ذلك، وهو أن السفور إنما عمَّهنَّ من كونهن لسن في المنزلة

الاجتماعية أكثر من بهائم إنسانية مؤنثة؛ ومثل هذا السفور لا يكون على طبيعته تلك إلا فى اجتماع طبيعى فطرى أساسه الخلط فى الأعمال لا التمييز بينها، والاشتراك فى شىء واحد هو كَسْبُ القوتِ^(١) لا الانفراد بما فوق ذلك من أشياء النفس.

ولست أرى هذه اللجاجة، أو «الحيوية الصارخة» التى ثارت بفتياتنا - إلا تمرّدًا من طبيعتهن على الأحوال الظالمة المتصرفة بها؛ ويَحسبَنّه توسعا من الطبيعة فى الحرية، وطلبًا للعلم كله بعد الشارع، وللحقوق كلّها بعد نبذ الحجاب، وهو فى الحقيقة ليس إلا ثورة الطبيعة النسوية على خيبتها مما أصابت من الحرية والشارع والعالم والحقوق، ورغبةً منها فى أن تُحدّ بحدودها ويؤخذ منها العالم كله بما فيه، وتُعطى البيت وحده بما فيه.

إذا أنت كشفت جذور الشجرة لتُطلقها بزعمك من حجابها، وتُخرجها إلى النور والحرية، فإنما أعطيتها النور، ولكن معه الضعف؛ والحرية، ومعها الانتقاض؛ وتكون قد أخرجتها من حجابها ومن طبيعتها معًا؛ فخذها بعد ذلك خشبًا لا ثمرًا، ومنظر شجرة لاشجرة، لقد أعطيتها من علمك لا من حياتها، وجهلت أنها من أطباق الثرى فى قانون حياتها، لا فى قانون حجابها. أفليست كذلك جذور الشجرة الإنسانية؟

كلُّ ما يتغير يسهل تغييره على من شاء، ولكنّ النتائج الآتية من التغيير لا تكون إلا حتمًا مقضيًا كما يُقضى، فلن يسهل تبديلها ولا تحويلها ولا ردّها أن تقع. وقد أخطأ جماعة السفور، بل أنا أقول: إنهم جاءونا بالجاهلية الثانية، وإنهم طُبوا للمرأة المسلمة كذلك الطبّ الذى أساسه الرائحة الزكية فى البخور...! ^(٢)

(١) ولهذا لا يكاد يغتنى الفلاح ولو أيسر الغنى، حتى يصون امرأته ويحجبها ويرتفع بمعناها فى نفسه.

(٢) أى طب الدجالين.

وما هو الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم، قانون العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعة بائرة ينادى عليها في مدارج الطرق والأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الوردية، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الأعطاف المرتجة، النهود الـ.. الـ.. أوليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادى أجسامهن بمثل هذا؟

وهذه التي كتبت اليوم تطلبهم مخادنين إن أخطأتهم أزواجاً، وتفتش عليهم تفتيشاً بين الزوجات والأمهات والأخوات! هل تريد إلا أن تثب درجة أخرى في مخزيات هذا التطور، فتمشي في الطريق مشى الأنثى من البهائم طموحا مطروفة، تذهب عيناها هنا وهنا تلتمس من يخطو إليها الخطوة المقابلة..؟

ما هو الحجاب الشرعى إلا أن يكون تربية عملية على طريقة استحكام العادة لأسمى طباع المرأة وأخصها الرحمة؟ هذه الصفة النادرة التي يقوم الاجتماع الإنساني على نزاعها والمنازعة فيها ما دامت سنة الحياة نزاع البقاء، فيكون البيت اجتماعاً خاصاً مسالماً للفرد تحفظ المرأة به منزلتها، وتؤدي فيه عملها، وتكون مغرساً للإنسانية وغارسة لصفاتها معاً.

لقد رأينا مواليد الحيوان تولد كلها: إما ساعية كاسبة لوقتها، وإما محتاجة إلى الحضانة وقتاً قليلاً لا يلبث أن ينقضى فتكدح لعيشها؛ إذ كانت غاية الحيوان هي الوجود في ذاته لا في نوعه، وكان بذلك في الأسفل لا في الأعلى. غير أن طفل المرأة يكون في بطنها جنيناً تسعة أشهر، ثم يولد ليكون معها جنيناً في صفاتها وأخلاقها ورحمتها أضعاف ذلك، سنة بكل شهر. فهل الحجاب إلا قصر هذه المرأة على عملها، لتجويده وإتقانه وإخراجه كاملاً ما استطاعت؟ وهل قصرها في حجابها إلا تربية طبيعية لرحمتها وصبرها، ثم تربية بعد ذلك لمن حولها برحمتها وصبرها؟

أعرف معلمةً ذاتَ ولدٍ، تترك ابنَها في أيدي الخدم بعد وصاةٍ علميةٍ سيكولوجيةٍ... وتمضى ذاهبةً عن يمين الصباح ويمضى زوجها عن شماله... وقد رأيت هذا الطفل مرةً، فرأيتَه شيئاً جديداً غيرَ الأطفال، له سِمَةٌ روحانيةٌ غيرُ سِمَاتِهِمْ، كأنما يقول لى: إنه ليس لى أبٌ وأمٌ، ولكن أبٌ رقم (١)، وأبٌ رقم (٢)...!

وقد كنتُ كتبت كلمةً عن الحجاب الإسلامي قلت فيها: «ما كان الحجابُ مضروباً على المرأة نفسها، بل على حدود من الأخلاق أن تُجاوز مقدارها أو يُخالطها سوء أو يتدنَّس إليها؛ فكل ما أدى إلى هذه الغاية فهو حجاب، وليس يؤدى إليها شيء إلا أن تكون المرأة في دائرة بيتها، ثم إنساناً فقط فيما وراء هذه الدائرة إلى آخر حدود المعانى».

وهذا هو الرأى الذى لم يتنبه إليه أحد، فليس الحجابُ إلا كالرمز لما وراءه من أخلاقه ومعانيه وروحِهِ المَعْبُودَةِ، وهو كالصدفة لا تحجبُ اللؤلؤةَ ولكن تربيتها فى الحجاب تربيةً لؤلؤيةً؛ فوراء الحجاب الشرعى الصحيح معانى التوازن والاستقرار والهدوء والإطراد، وأخلاق هذه المعانى وروحها الدينى القوى، الذى ينشئ عجيبة الأخلاق الإنسانية كلها؛ أى صبرَ المرأة وإيثارها. وعلى هذين تقوم قوة المدافعة، وهذه القوة هى تمام الأخلاق الأدبية كلها، وهى سرُّ المرأة الكاملة؛ فلن تجد الأخلاق على أتمها وأحسنها وأقواها إلا فى المرأة ذات الدين والصبر والمدافعة، إنها فيها تشبه أخلاق نبي من الأنبياء.

وقد مُحِقَ الدين والصبر، وتراخت قوة المدافعة فى أكثر الفتيات المتعلّمات، فابْتُلِينَ من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس، ووقع فيهن معنى كمعنى العَفَن فى الثمرة الناضجة، وجهلن بالعلم حتى طبيعتن، فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية فى ذاتها، وأنه لا يشدها ويقيمها إلا الصفات السلبية، وملاكها الصبرُ فروعهُ وأصوله، وجمالها الحياء والعفة، ورمزها وحارسُها والمعينُ عليها هو الحجاب وحده. إنه إن لم يكن فى المرأة هذا فليست المرأة إلا بهذا.

وما تخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالها صفات الإيجاب، وتمردها على صفات السلب، كما يقع لعهدنا؛ فإن هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلا أن تعتبر هذه المرأة نقائص أخلاقها من أخلاقها، كما نرى في أوروبا، وفي الشرق من أثر أوروبا؛ فمن هذا تلقى الفتاة حياءها وتبذؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالمعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك؛ وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية؛ فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط. وعادت الفتاة من ذلك لا تبتغي إلا أن تكون امرأة روية: إما فوق الحياة، وإما في حقائق جميلة تختارها اختياراً وتفرضها فرضاً على القدر! تنسى الحمقاء أنها أحد الطرفين، وليست الطرفين جميعاً؛ فتحاول أن تقرر للحياة الجديدة تأويلاً جديداً لمعاني الشرف والكرامة والعرض والنسب وما إليها؛ فانسلخت من كل شيء، ثم لما أعجزها أن تنسلخ من غريزة الأنوثة طاشت طيشها الأخير، فانسلخت من إنسانية الغريزة.

أما إن غلطة الرجل في المرأة لا تكون إلا من غلطة المرأة في نفسها. وهي قد أعطيت في طبيعتها كل معاني حجابها؛ فإحساسها محتجب مختبئ أبداً كأنه في إتب^(١) وملاءة وبرقع، وأفكارها طويلة الملازمة لها لا تكاد تتركها، كأنها منها في بيت؛ وطبيعة الحذر لا تبرحها كأنها الحارس الثابت في موضعه، القائم بسلاحه على حفظ هذا الجسم الجميل؛ وطول التأمل موكل بها كأن عمله مصاحبة وحدتها لتخفيفها على نفسها والترفيه منها؛ والدنيا حول المرأة بمذاهب أقدارها، ولكن لها دنيا في داخلها هي قلبها تذهب الأقدار فيه مذاهب أخرى؛ وضغطة الحياة طبيعية فيها، حتى لا يساورها هم من الهموم إلا صار كأنه من عاداتها. والتي تمزقها الحياة كلما ولدت لا تكون الحياة إلا رحيمة بها إذا ضغطتها!

(١) الإتب هو بردة تشق فتلبس من غير كمين، وتسميه الريفيات (الملس).

فخروج المرأة من حجابها خروجٌ من صفاتها، فهو إضعافٌ لها، وتَضْريبٌ للرجال بها. وماذا تُجدي عادةَ الحذر إذا أفسدتها عادةُ الاسترسال والاندفاع؟ فيكونُ حذرًا ليكونُ إغفالًا، ثم يكونُ إغفالًا ليعودَ الزَّلَّةُ والغلطة؛ ومتى رجع غلطةً فهذا أولُ السقوط، ومبدأ الانقلاب والتحول. وليس الفرق بين امرأةٍ نفُورٍ من الريبة، شُمُوسٍ لا تُطلع الرجال ولا تُطمِعهم؛ وبين امرأةٍ قَرورٍ على الريبة، هَلُوكٍ فاجرة - ليس الفرق إلا حجاب الحذر أسدل على واحدة، وانكشف عن أخرى.

وإذا قرأت المرأة في فضائلها، فإنما هي في حجابها ودينها، وإنما ذلك الحجاب ضابط حريتها الصحيحة، باعتبارها امرأةً غير الرجل؛ فهو مسمًى بالحجاب لاتصاله بالحرية وضبطه لها، ولكن الضعفاء الذين يعرفون ظاهرًا من الرأي لا يدركون مذهبه، ولا يحققون ما ينتهي إليه، وينفذون في حكمهم على الظاهر لا على البصيرة، هؤلاء لا يعرفون معنى الحجاب إلا في القماش والكساء والأبنية، كأن حجاب الأخلاق النسوية شيء يصنعه الحائك والباني والمستعبد، ولا تصنعه الشريعة والأدب والحياة الاجتماعية؛ فهم كما ترى حين يأتون بنصف العلم، يأتون بنصف الجهل.

لم يخلق الله المرأة قوة عقل فتكون قوة إيجاب، ولكنه أبدعها قوة عاطفة لتكون قوة سلب؛ فهي بخصائصها والرجل بخصائصه، والسلب بطبيعته متحجب صابر هادئ منتظر، ولكنه بذلك قانون طبيعي تتم به الطبيعة.

وينبغي أن يكون العلم قوة لصفات المرأة لا ضعفًا، وزيادة لا نقصًا؛ فما يحتاج العالم إذا خرج صوتها في مشاكله أن يكون كصوت الرجل صيحة في معركة، بل تحتاج هذه المشاكل صوتًا رقيقًا مؤثرًا محبوبًا مجمعًا على طاعته، كصوت الأم في بيتها.

أيتها الفتاة، إن صدق الحياة تحت مظاهرها لا في مظاهرها التي تكذب أكثر مما تصدق؛ فساعدي الطبيعة واحجبي أخلاقك عن الرجل، لتعمل هذه الطبيعة فيه

بقوتين دافعتين: منها ومنك، فيُسرع انقلابُهُ إليك وبحثه عنك؛ وقد يجد الفاسق فاسقات وبَغايا، ولكنَّ الرجلَ الصحيحَ الرجولةَ لن يجدَ غيرَكَ.
 وإنما سفورك وسفور أخلاقك إفساد لتدبير الطبيعة، وتمكينٌ للرجل نفسه أن يُرْجَفَ بِكَ الظَّنَّ، ويسىء فيك الرأى؛ وعقابك على ذلك ما أنت فيه من الكساد والبوار؛ عقاب الطبيعة لمستقبلك بالحرمان، وعقاب أفكارك لنفسك بالألم!



س. ١٠ ع^(١)

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة، ويحبون المرأة حباً خائفاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ فلا يقبل إلا أدبر، ولا يعزم إلا انحلَّ عزمه. بلغوا الرجولة وكأن ليست فيهم؛ وتمرُّ بهم الحياة مرورها بالتماثيل المنصوبة، لا هذه قد وُلِدَ لها ولا أولئك؛ وما برحوا يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم، لا ليطلبوا سعادة وجودهم، ويُمخِّرون في شَعْوَةِ الحياة بالنهار على الليل، وبالليل على النهار؛ يحاولون أن يجدوا كالناس أياً ما وليالي، إن لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً، نصفه أسود مُقْفَرٌ مظلم...!

فأما «س» فرجلٌ «كشيخ المسجد» يكاد يرى حَصِيرَ المسجد حيث وَطِئَتْ قدماه من الأرض... ذو دينٍ وتقوى، ما يزال ينقبضُ وينكمشُ ويتزَّيَّلُ حتى يرجع طفلاً في ثلاثين من عمره... وهو حائرٌ بائرٌ لا يتَّجِهُ لشيءٍ من أمر المرأة، وقد فقدَ منها مما يحلُّ وما يحرم، ولا جرأةً لنفسه عليه، فلا جرأة له على الموبقات، ولا يزيِّن له الشيطان ورطةً منها إلا أَمَّلَسَ منه، فإن له ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب: إن يخشى الله، ويتوقَّى على نفسه، ويستحيى من ضميره.

وأما «أ» فرجلٌ معزَّابةٌ، ولكنه كالإسفنجة، امتلأت حتى ليس فيها خلأٌ لقطرة، ثم عُصِرَتْ حتى ليس فيها بلالٌ من قطرة؛ وقد بلغ ما في نفسه وقضى نَهْمَتَهُ حتى مما أراد؛ ثم قَلَبَ الثوب... فإذا له داخلَةٌ ناعمةٌ من الخزِّ والديباج، وإذا هو «الرجل الصالح» العفيفُ الدَّخَلَةُ، ما تنطلق له نفسٌ إلى مأثم، ولا يعرف الشيطان كيف يَتَسَبَّبُ لصلحه ومُراجعتِهِ الودِّ...

(١) هم الأصدقاء سعيد... وأمين حافظ شرف وعبد الله عمار.

وأما «ع» فهو كالأعرج؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجل واحدة، ولكنه يمشى... وهو «مَلِكُ الشوارع» لا يزال فيها مقبلاً مُدْبِراً طَرَفًا من النهار وزُلْفًا من الليل؛ فإذا لم يكن في الشارع نساء ظَنَّ الشارع قد هَرَبَ من المدينة وخرج من طاعته.. ولهذه الشوارع أسماء عنده غيرُ أسمائها التي يَتَعَارَفُها الناسُ ويستدلون بها؛ فقد يكون اسمُ الشارع مثلاً: «شارع طه^(*) الحكيم» ويسمّيه هو «شارع مارى»... ويكون اسمُ الآخر: «شارع كتشنر» فيسميه «شارع الطويلة»... ودربُ اسمه «دربُ الملاح» واسمه عنده «دربُ المَلِيحَة»... وهلمَّ جرّاً ومَسْخاً.

وإذا أراد صاحبنا هذا أن يسخرَ من الشيطان دخل المسجد فصلى، وإذا أراد الشيطان أن يسخرَ منه دَحْرَجَه في الشوارع...!

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة «تربية لأولوية»، يناقشونها بثلاثة عقول، ويفتشونها بستَ عيون؛ فأجمعوا على أن المرأة السافرة التي نبذت «حجاب طبيعتها» على ما بيّنته في تلك المقالة، إن هي إلا امرأةٌ مجهولةٌ عند طالبي الزواج، بقدر ما بالغت أن تكونَ معروفة، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة، قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد؛ وأتقنت الغلط ليصدقها فيه الرجل، فلم يكذبها فيه إلا الرجل؛ وجعلت أحسنَ معانيها ما ظهرت به فارغةً من أحسن معانيها...! وأردت أن أعرف كيف تننصفُ من الرجل العزب للمرأة التي أهملها أو تركها مُهملة... وأين تبلغ ضرباتها في عيشه، وكيف يكون أثرها في نفسه، وكيف تكون المرأة في خائنة الأعين؛ فتسرّحت مع أصحابنا في الكلام فناً بعد فن، وأزلت حذارهم الذي يحذرون، حتى أفضوا إلى بفلسفة عقولهم وصدورهم في هذه المعانى. قال «س»: «حسبى والله من الآلام وآلام معها - شعورى بحرمانى المرأة؛ فهو بلاء منعى القرار، وسلبنى السكينة؛ وكأنه شعورٌ بمثل الوحدة التي يُعاقب السجينُ

(*) ما يأتى هنا من أسماء الشوارع هو من شوارع طنطا، وفي شارع طه الحكيم كانت دار الرفاعى.

لها مصرفاً عن الحياة مصروفة عنه الحياة؛ تجعله جُدران سجنه يتمنى لو كان حَجَرًا فيها فينجو من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة، المخلى بينها وبينه توسعه مما يكره؛ شعور بالوحدة والعزلة حتى مع الناس وبين الأهل فما فى إلا عواطف خرس لا تستجيب لأحد ولا يجاوبها أحد فى «ذلك المعنى».

وتمام الذلة أن يجد العزب نفسه أبداً مُكرهاً على الحديث عن آلامه لكل من يُخالطه أو يجلس إليه، كأنه يحمل مصيبة لا يُنفس منها إلا كلامه عنها. وهذا هو السر فى أنك لا تجد عزباً إلا عرفته ثثاراً لا تزال فى لسانه مقالة عن معنى أو رجل أو امرأة، وأصبته كالذباب لا يطير عن موضع إلا ليقع على موضع.

ومع جهد الحرمان جهد شر منه فى المقاومة وكف النفس؛ فذلك تعب يهلك به الأدمى، إذ لا يدعه يتقار على حالة من الضجر فيما تنازع الطبيعة إليه، وهو كالمزع فى أعصابه، يحسها تشد لتقطع، ودائماً تشد لتقطع.

وقد رهقنى من ذلك الضنى النسوى ما عيل به صبرى وضعف له احتمالى؛ فما أرانى يوماً على جمام من النفس، ولا ارتياح من الطبع؛ وكيف وفى القلب مادة همه، وفى النفس علة انقباضها، وفى الفكر أسباب مشغلته؟ وقد أوقدت سورة الشباب نارها على الدم، تلتعج فى الأحشاء؛ وتطير فى الرأس، وتصبغ الدنيا بلون دُخانها، وفى كل يوم يتخلف منها رماذ هو هذا السواد الذى ران على قلبى.

وما حال رجل عذابه أنه رجل، وذله أنه رجل؛ يلبس ثيابه الإنسانية على مثل الوحش فى سلاسله وأغلاله، ويحمل عقلاً تسببه الغريزة كل يوم، وتراه من العقول الزُيُوف لا أثر للفضيلة فيه؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة، فما يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مُجتَرِحاً جريمة فكر...

وفى دُون هذا ينكر المرء عقله؛ وأى عقل تراه فى رجل عزب يقع فى خياله أنه متزوج، وأنه يأوى إلى «فلانة»، وأنها قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته، وأنه من أجلها كان عزوفاً عن الفحشاء بعيداً من المنكر؛ وفاء لها وحفظاً لعهد الله فيها، وقد دلّهته بفنونها التى يبتدعها فكره؛ وهى ساعة تؤاكله على الخوان، وساعة

تُضاحِكُه، ومرةً تُعابِثُه، وتارةً تُجافِيُه، وفي كل ذلك هو ناعمٌ بها، يحدثُها في نفسه، وَيَسْمُرُ معها، ويتصنَّع لها؛ ويُعابِثُها أحياناً في رقة، وأحياناً في جَفَاءٍ وغلظة: وقد ضربها ذات مرة..

ألا إن فكرة المرأة عندى هي هذا الجنون الذى يرجع بى إلى عشرة آلاف سنة من تاريخ الدنيا، فيرمى بى فى كهف أو غابة، فأرانى من وراء الدهور كأنى أبدأ الحياة منفرداً وأجدنى رجلاً عارياً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الإنس، دنياه أحجارٌ وأشجار، وهو حجرٌ له نموُّ الشجر.

لقد توزَّعت المرأة عقلى فهو متفرِّقٌ عليها، وهى متفرقة فيه، لا أستطيعُ والله أن أتصوَّرها كاملة، بل هى فى خيالى أجزاء لا يجمعُها كلٌ؛ هى ابتسامةٌ، هى نظرةٌ، هى ضحكةٌ، هى أغنيةٌ، هى جسمٌ، هى شىءٌ، هى هى هى.

أكل تلك المعانى هى المرأة التى يعرفها الناس، أم أنا لى امرأةٌ وحدى؟ وإنى على ذلك لأتخوَّف الزواج وأتحاماه؛ إذ أرى الشارع قد فضح النساء وكشَّفهن، فما يُرينى منهن إلا امرأةً تزهى بثيابها وصنعة جمالها، أو امرأةً كالهاربة من فضائلها، والبيت إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصَّناع، تَخِيطُ ثوبها بيدها فتبأهى بصنعتة قبل أن تبأهى بلبسه، وتزهى بأثر وجهها فى، لا بأثر المساحيق فى وجهها. وإن مكابدة العفة، ومصارعة الشيطان، وتوهج القلب بناره الحامية، وإلمام الطيرة الجنونية بالعقل – كل ذلك ومثله أهون من مكايده زوجة فاسدة العلم أو فاسدة الجهل، أبتلى منها فى صديق العمر بعدوِّ العمر.

إن أثر الشارع فى المرأة هو سوء الظن بها. فهى تحسبُ نفسَها معلنةً فيه أنوثتها، وجمالها، وزينتها؛ ونحن نراها معلنةً فيه سوء أدب، وفساد خلق، وانحطاط غريزة. ومن كان فاسقاً أساء الظنَّ بكل الفتيات، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله فى كل واحدة، ومن كان عفيفاً سَمِعَ من الفاسق فوجد من ذلك مُتعلِّقاً يتعلَّق به، وقياساً يقيسُ عليه؛ والفتنة لا تُصيب الذين ظلموا خاصةً، بل تعم.

آه لو استطعت أن أوقظ امرأةً من نساء أحلامى...

وقال «١»: لقد كانت معانى المرأة فى ذهنى صُورًا بديعةً من الشعر تستخفنى إليها العاطفة، ولايزال منها فى قلبى لكل يوم نازيةً تنزّو. وكانت المرأة بذلك حديث أحلامى ونَجَى وساوسى، وكنتُ عفيف البنطلون^(١)؛ ولكنَّ النساء أيقظننى من الحُلُم، وفجَعنى فيه بالحقيقة، ووضعن يدي على ما تحت مَلَمَس الحيّة، ولو حدثتُك بجملة أخبارهن، وما مارستُ منهن لتكرهت وتسخّطت، ولأيقنت أن كلمة (تحرير المرأة) إنما كانت خطأ مطبعياً، وصوابها: (تجريب المرأة).. فهؤلاء النساء أو كثرتهن لم يُذلن الحجاب إلا لتخرج واحدةً مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف، وتخرج الأخرى مما تعرف إلى أكثر مما تعرفه، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة...

ولقد عرفت فيمن عرفتُ منهن الخفيفة الطيَّاشة، والحمقاء المتساقطة، والفاحشة ذات الرّيبة، وكلُّ أولئك كان تحريرهن أى - تجريبهن - تقليدًا للمرأة الأوروبية؛ تهالكن على رذائلها دون فضائلها، واشتدَّ حرصهن على خيالها الروائى دون حقيقتها العلمية، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لا نأخذ الرذائل كما هى، بل نزيد عليها ضعفًا فإذا هى رذائل مضاعفة.

كان الحُلُم الجميل فى الحجاب وحده، وهو كان يُسرّر أنفاسى ويستطير قلبى، ويُرغمنى مع ذلك على الاعتقاد أن ها هنا علامة التكرّم، ورمز الأدب، وشارة العفة، وأن هذه المحصنة المخدّرة - عذراء أو امرأة - لم تُلق الحجاب عليها إلا إيداناً بأنها فى قانون عاطفة الأمومة لاغيرها؛ فهى تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها، ورمز الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن، ولأن وراءه صفاء روحها الذى تخشى أن يكدر، وثبات كيانها الذى تخشى أن يُزعزع.

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الحلى وصنوف الزينة والكسوة الحسنة: «يا هؤلاء، إنكم إنما تعلمونهن محبة الأغنياء لا محبة الأزواج»، وأحكم من هذا القول الرجل الإلهى الصارم عمر بن الخطاب: «اضربوهن بالعرى» فقد عُرِف

(١) يقول العرب فى الكناية عن العفة: وهو عفيف الإزار، وترجمتها فى عصرنا ما رأيت.

من ألف وثلثمائة سنة أن تحرير المرأة هو تحريرها، وأنها لا تخرج لمصلحة أكثر مما تخرج لإظهار زينتها. فلو مُنعت الثياب الجميلة حبستها طبيعتها في بيتها. فماذا تقول الشوارع لو نطقت؟ إنها تقول: يا هؤلاء، إنما تعلمونهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد...!

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحيائهن، ولقد كان الحجاب معنى لصعوبة المرأة واعتزازها، فصار الشارع معنى لسهولتها ورخصها؛ وكان مع تحقق الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع في الرجل، فصار مع توهم السهولة أو تحقيقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك؛ ما زالت تنمى وتتحوّل حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترقّى بمن لمس المرأة في الطريق من «الجُنحة» إلى «الجناية».

وتَحَنَّت الشَّبَابَ والرجال، ضُروباً من التخنث بهذا الاختلاط وهذا الابتذال، وتحلّلت طباع الغيرة، فكان هذا سريعاً في تغيير نظرهم إلى النساء، وسريعاً في إفساد اعتقادهم، وفي نقض احترامهم، فأقبلوا بالجسم على المرأة، وأعرضوا عنها بالقلب؛ وأخذوها بمعنى الأنوثة، وتركوها بمعنى الأمومة؛ ومن هذا قل طلاب الزواج، وكثر رواد الخنا.

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنجليزية، وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معاني الحجاب، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه: «سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية» قالت في آخره: «إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً، وهذا التنافس الجنسي، وتجريد الجنسين من الحُجب المشوّقة الباعثة التي أقامت الطبيعة بينهما - إذا كان هذا سيُصبح كلُّ أثره أن يتولّى الرجال عن النساء، وأن يزول من القلوب كلُّ ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي، فما الذي نكون قد ربحناه؟ لقد والله تضطرننا هذه الحال إلى تغيير خططنا، بل قد نستقرّ طوعاً وراء الحجاب الشرقي، لنتعلم من جديد فنَّ الحب الحقيقي».

وقال «ع»: لست فيلسوفاً، ولكن فى يدى حقائق من علم الحياة لا تأتى الفلسفة بمثلها، وكتابى الذى أقرأ فيه هو الشارع.

لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة. وحياة اللص معناها وجود السرقة، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق.

ومن حُكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يُباهى بإظهار فسقه قدر ما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها: وهذه إشارة من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينة مظلومة. فما ابتذال الحجاب، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار العزوبة فى الرجال، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلاً إلى ما دون الصفر؟ فهذا الثلج ماء يعتذر من تحوله وانقلابه بعذر طبيعى قاهر، له قوة الضرورة الملجئة، وكذلك المرأة المذلة أو الطامحة أو المتبذلة أو المتهتكة – ما صفاتهن إلا توكيد لأعدارهن. وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم، فالعزب وإن كان رجلاً حراً فى نفسه، ولكن رجولته تفرض للأنوثة حقها فيه؛ فمتى جحد هذا الحق، واستكبر عليه، رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن الغريم مع غريمه؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة أو حكامها وقوتها التنفيذية.

وإذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزاً، فماذا يكون إلا أن تمحى الدولة، وتسقط الأمة، وتتلاشى الفضائل؟ فالعزوبة من هذا جريمة بنفسها، ولا ينبغي أن تتربص بها الحكومة حتى تعم، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هى، ويجب تفسير كلمة «العزب» فى اللغة بمثل هذا المعنى: إنها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن.

وما ساء رأى العزب فى النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا فى أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها، وهم وحدهم جعلوها كذلك. إن لهم وجوداً محزناً يستمتعون فيه، ولكنهم يهلكون ويهلكون به. هم والله لأساتذة الدروس السافلة فى كل أمة، وهم والله بغاة من الرجال فى حكم البغايا من النساء، يجرون جميعاً مجرى واحداً. ومن هى البغى فى الأكثر إلا امرأة فاجرة

لا زوج لها؟ ومن هو العزب في الأكثر إلا رجلٌ فاسق لا زوجة له؟ على أن مع المرأة عذر ضعفها أو حاجتها، ولكن ما عذر الرجل؟ ماذا تُفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذي اعتاد فوضى الحياة وسيرها على نظامها، وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة؛ وأى عزب يجد الاستقرار، أو تجتمع له أسباب الحياة الفاضلة؛ وهو قد فقد تلك الروح التي تتم روحه، وتُنقّحها، وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تُشعره التّبعة والسيادة معاً، وتمتدّ به ويمتدّ بها في تاريخ الوطن؟

كيف يُعتَبَر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حيّ مختل في وجود مُستعار، يقضى الليل هارباً من حياة النهار، ويقضى النهار نافرّاً من حياة الليل؛ فيقضى عمره كلّ هارباً من الحياة، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة، بل ببعضها، بل بالممكن من بعضها...!

أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجلٌ عزب، وأية خادم عفيفة تطمئن أن تخدم رجلاً عزباً؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعزاب من الرجال!

قال الراوى: وهنا انتفض «س» و«ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويردّاهما إلى حلق «ع». ثم سألتني ثلاثتهم أن أسقطها من المقال، بيد أنى رأيت أن خير من حذفها أن تكون اللعنة لأعزاب الرجال إلا «س» و«ا» و«ع».

■ ■ ■

استنوق الجمل...

قال الشاب: لا قبل لي بهذا التعب المعنى الذى يسمونه «الزواج» فما هو إلا بيت ثقله على شيئين: على الأرض، وعلى نفسى؛ وامرأة همها فى موضعين: فى دارها، وفى قلبى؛ وما هو إلا أطفال يلزموننى عمل الأيدى الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين، وأتحمل فيهم رهقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامى، وأجمع هموم رؤوسهم كلها فى رأس واحد هو رأسى أنا.

يولد كل منهم بمعدة تهضم لتوها وساعتها، ثم لا شىء معها من يد أو رجل أو عقل إلا هو عاجز لا يستقل، متخاذل لا يطيق ولا يقدر.

قال: وإذا كان أول الزواج أى عسله وحلواه أنه امرأة تذهب عزوبتى فأنا وأمثالى ما نزال فى عسل وحلوى... ولكل وقت زواج، ولكل عصر أفكار، وما أسخف الليالى إذا هى ترادفت على ضرب واحد من أحلامها، فهذا يجعل النوم حكماً بالسجن عشر ساعات...!

قال: وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العزّاب قوم كرجال الفن؛ رذيلتهم فنية، وفضيلتهم فنية، فتلك وهذه بسبيل؛ وكل شىء فى الفن هو لموضعه من الفن لا من غيره؛ فإذا قلت: هذا خال من الفضيلة، عار من الأدب؛ وعبت الفن لذلك، فما هو إلا كعيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خال من لحيّة..! هات الظلام وسواده، فإنه لون كالنور وإشراقه، لا بد من كليهما؛ إذ المعنى الفنى إنما يكون فى تناسب الأشياء لا فى الأشياء ذاتها؛ ويد الفنى كيد الغنى؛ هذه لايقع فيها الذهب إلا ليعدد ثم يتعدد؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدد ثم تتعدد؛ وفى كل دينار قوة جديدة، وفى كل امرأة فن جديد...

قال: ومذهبنا فى الحياة أن نستمتع بها ضروباً وأفانين؛ من أطاق لم يقتصر على نوعين، ومن قدر على نوعين لم يرض الواحد، ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب

أو من قطرات الندى، لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصَّوَان؛ إذ هي لا تُلدُّ أشعة كواكب، ولا قطرات ندى؛ وحسبُ الجسد برأس واحد حِمْلًا.
قال: ومن الذى تعرّض عليه الحياةُ سلامها وتحيايتها وأشواقها فى مثل رسالة غرام، ثم يدعُ هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجأجتها فى مثل قضية من قضايا المحاكم كل ورقة فيها تلد ورقة..؟

ثم قال الشاب: لا تحسبن أن المرأة هي السافرة عندنا. ولكن اللذة هي السافرة؛ وما أحكم الشرع! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة: ما أحكم الشرع الذى لم يُرخص فى كشف وجه المرأة إلا لضرورة، فإن الواقع فى الحياة أن هذا الكشف كثير ما يكون كنقب اللص على ما وراء النقب، وإذا كسر ما فوق القفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر، فالباب الجديد كله سخرية وهزؤ من بعد..!

هذه عقلية شاب محام طوى عقله على الكتب القانونية، وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية... وليس يمتري أحد فى أنها عقلية السواد من شبابنا المثقف الذى لبس الجلد الأوربى. ومن البلاء على هذا الشرق أنه ما برح يُناهض المستعمرين ويؤاثبهم، غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التى تُناهضه وتواثبه، جاهلاً أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية؛ وتسوق الأسطول والجيش، والكتاب والأستاذ، واللذة والاستمتاع، والمرأة والحب.

ولو أن عدواً رماك بالنار فاستطارت فى ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها. فكيف - لعمري - غفل الشرقيون عن أخلاق نارية حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مَسَاغاً، وألين أخذاً، وأسرع فى الهضم...!

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا فى أعصابه، وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لاتكون إلا صيحة، وليس بينه وبينها فى الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها، لا من ناحية فائدتها منه.

وتلك المعانى كلها مشتقٌ بعضها من بعض، ومَرَجَعُها إلى أصلٍ واحدٍ، كالأمراض التى تَبْتلى الجسمُ يَمُهدُ شىءٌ منها لشيءٍ، ما دامت طبيعةُ هذا الجسمِ زائغةً أو مختلةً، أو متراجعةً إلى الضعف، أو ذاهبةً إلى الموت.

وأولئك شبانٌ وقف بهم الشبابُ موقفَ بِلادة، فلا يخطو إلى الرجولة، ولا يكْمُلُ بنموه الاجتماعى كما يكمل الرجل الوطنى؛ فمن ثَمَّ يكون خَوَّارًا لا يستطيع أن يحمل أثقالًا مع أثقاله، ويستوطى العجز والخمول؛ فلا يكون إلا قاعد الهمة، رخو العزيمة، قد استنم إلى أسباب عجزه وتخاذله؛ ولا يكون فى بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حَمِيلَةً على ذويه، ضَجَّةٌ لا يمشى، نومةٌ لا ينتهض، مستريحًا لا يعمل.

وبهذه المَكْسَلَة الاجتماعية فى الشبان يبدأ الشعبُ يتحول من داخله فينصرف عن فضائله، ويتخذ فى مكانها فضائل استعارة يقلد فيها قومًا غير قومه، ويجلبها لبيئة غير بيئته، ويُفسرها على أن تصلح له وهى فساد، ويكرهها على أن تنفعه وهى ضرر، وتلك حالة يُغامر فيها الشعبُ بكيانه فلا تلبث أن تصدعه وتفرقه.

ولو أن فى السحاب مطرًا وغيثًا لما كان له فى كل ساعة لونٌ مصبوغ، ولو أن فى الشباب دينًا لما صبغته تلك الأخلاق الفاسدة، وما زهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوة للصوص إليه، وهل كان الدين إلا واجبات وتبعات وقيودًا يراد من جميعها إعداد الإنسان لأمثالها فى الاجتماع، حتى يقر فى إنسانيته الصحيحة على النحو الذى يصلح له منفردًا ويصلح له مجتمعًا؟ فليست الزوجة وحدها هى التى خسرت الشباب بل خسره معها الوطن والدين والفضيلة جميعًا، وبهذا انعكس وضعه من الجماعة، فوجب فى رأيه أن تسخر الجماعة له، وأن يستقل هو بنفسه، وبهذا العكس، وهذا السقوط، وهذا الاستمتاع الذى يجد سعادته فى نفسه؛ أصبح أولئك الشبان كأنما حققهم على المجتمع أن يقدم لهم بغايا لا زوجات... بغايا حتى من الزوجات...!

قبح الله عصرًا يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة فى الوطن كلمتان تفسران الإنسانية إحداها بالأخرى تفسيرا إنسانيا دينيا بالواجبات والقيود والأحمال، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق كما تفسر الحيوانية الذكر والأنثى.

والنفسُ الدنيئةُ أو المنحطَّةُ في أخلاقها ومَنازعها من الحياة لا تكون إلا دنيئةً أو منحطَّةً في أحلامها وأخيلتها الروحية، دنيئةً كذلك في طاعتها إن قَضَتْ عليها الحياةُ بموضع الخضوع، دنيئةً في حكمها إن قَضَتْ لها الحياةُ بمنزلة من السلطة. ولو تنبَّهت الحكومة لطرِدَتْ من عملها كلَّ موظفٍ غير متأهِّل، فإنها إنما تستعمل شرًّا لا رجلاً يمنع الشر، وكلُّ شابٍ تلك حاله هو حادثة تَرْتَدِفُ الحوادث وتستلزمها، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه.

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعةٍ ثالثة تقومُ بالاثنتين معاً، وهي طبيعة الشعب. فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفرَّ الشابُّ القويُّ من تَبِعة الرجولة، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانية؛ ولا يقيم لوطنه جانباً من بناء الحياة في نفسه وزوجه وولده، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوق نفسه، وفوق الإنسانية والفضيلة والوطن جميعاً؛ ولا يعرفُ أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعافٌ في طبيعته لمعنى الإخلاص الثابت، والصبر الدائب، والعطف الجميل في أي أسبابها عَرِضَتْ.

ومن فسْولة الطبع ولؤمه ودنائه أن يهرب هذا الجنديُّ من ميِّدانه الذي فَرَضَتْ عليه الطبيعةُ الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه متعلِّلاً لفراره المُخْزى بمشقة هذا الواجب، وما عسى أن يعاني فيه كما يحتج الجبانُ بخوف الهلاك وعناء الحرب. ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات، وبوارهنَّ على الوطن؛ وأن يتواطأوا على نَبْذ هذه الأحمال، وإلقائها في طُرُق الحياة، وتركها لمقاديرها المجهولة. كأنهم - أصلحهم الله - لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات، ويضيع بوطنهم في أمَّهات الجيل المقبل، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهُمومها السامية.

إن الجمل إذا اسْتَنَوَقَ تخنَّثَ ولان وخضع، ولكنه يحمل؛ وهؤلاء إذا اسْتَنَوَقُوا تخنَّثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا..

ومن سقوط النفس في الرجل النَّكسِ العاجز المقصر أن يحتجَّ لعزوبته بعلمه وجهل الفتيات، أو تمدنه وزعمه أنهن لم يبلغن مبلغ الأوربية، ولا يرى هذا المنحط أن الزواج في معناه الإنساني الاجتماعي هو الشكل الآخر للاقتراع العسكري، كلاهما واجب حتم لا يُعتذر منه إلا بأعذار معينة، وما عداها فجب وسقوط وانخزال ولعنة على الرجولة.

ومن سقوط النفس أن يغنى الشاب عن الزواج لفجوره فيقره، ويُمكن له، وكأنه لا يعلم أنه بذلك يحطمُ نفسه، ويحدثُ جريمتين، ويجعلُ نفسه على الدنيا لعنتين. ومن سقوط النفس أن يغترَّ الشاب فتاةً حتى إذا وافق غرَّتْها مكرُّ بها وتركها بعد أن يلبسها عارها الأبدى؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك، هو أبداً عند من يسرقهم في باب الخسائر والنكبات، لافي باب الريح والمكسب؛ وعند المجتمع في باب الفساد والشر، لا في باب المصلحة والخير؛ وعند نفسه في باب الجريمة والسرقة، لا في باب العمل والشرف.

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج في أصلها وفروعها الكثيرة التي منها المغالاة والشطط في المهور، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية، وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء، وعزوفها عن الفاضل ذي الكفاف أو اليسير على غنى في رجولته وفضائله، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة، والسبيكة بالدينار، وكأن الطبيعة قد ابتليت هي أيضاً بالسقوط، فأصبحت تعتبر الغنى والفقر، فتجعل في دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس، وتلقى في دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة.. على حين أن الجميع مُستيقنون لا يتدافع اثنان منهم في أن الطبيعة لا تبالي إلا بوراثنة الآداب والطباع.

وأعظم أسباب هذا السقوط في رأيي هو ضعف التربية الدينية في الجنسين، وخاصة الشباب، ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة، مع أنه هو لا غيره

نظام هذه الحياة وقوامها في كل ما يتصل منها بالنفس. وليست المدنية الصحيحة - كما يحسب المفتونون - هي نوع المعيشة للحياة ومادتها، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها، وإلى هذا ترمى كل مبادئ الإسلام؛ فإن هذا الدين القوى الإنساني لا يعبأ بزخارف كهذه التي تتلبس بها المدنية الأوروبية القائمة على الاستمتاع، وفنون اللذات، وانطلاق الحرية بين الجنسين؛ فهذا بعينه هو التحطيم الإنساني ينتهي بتهديم تلك المدنية وخرابها. وإنما يعبأ الإسلام بالعقيدة التي تنظم الحياة تنظيمًا صحيحًا متساوًا وافيًا بالمنفعة، قائمًا بالفضيلة بعيدًا من الخلط والفوضى.

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهر آخر هو سبب من أكبر أسباب السقوط، وهو ضعف التربية الاجتماعية في المدرسة، وإلى هذا الضعف يرجع سبب آخر هو تخنث الطباع واسترسالها إلى الدعة والراحة، وفراؤها من حمل التبعة «المسئولية» التي هي دائما أساس كل شخصية قائمة في موضعها الاجتماعي.

وبذلك الضعف وذلك السقوط وضعت المرأة البغى العاهرة في الموضع الطبيعي للأم، ونزل الرجل السافل المنحط في المكان الطبيعي للأب، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصريه العظيمين عن طبيعتهما، وجعلت فضيلة الفتيات المسكينات تتأكل من طول ما أهملت، وأخذ سوس الدم يتركها فضائل نخرة، ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ما دامت الفضيلة في حكم الناس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين، وما دامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية.

لقد قتلت رُوحية الزواج، وهي على كل حال جريمة قتل، فمن القاتل يا صاحبنا المحامي؟

قال الشاب: هو كل رجل عزب.

قلت: فما عقابه؟

فسكت ولم يرجع إلى جواباً.

قلت: كأنى بك قد تأهلت وخلاك ذم.. فما عقابه؟

قال: إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزّاب، فليعاقبهم الشعبُ
بتسميتهم «أرامل الحكومة»... واحدُهم: رجلٌ أرملة حكومة..
ثم قال: اللهمَّ يَسِّرْها ولا تَجْعَلْنى رجلاً بغلطين: غلطةٌ فى نساءِ الأمة، وغلطةٌ
فى ألفاظ اللغة.



أرملة حكومة...

(أرملة الحكومة) فيما تواضعنا عليه بيننا وبين قرائنا^(١) وهو الرجل العزب، يكون مُطيقاً للزواج، قادراً عليه، ولا يتزوج؛ بل يركبُ رأسه في الحياة، ويذهبُ يَمُوءَ على نفسه كذباً وتدليساً، وينتحلُّ لها المعاذير الواهية، ويَمْتَلِقُ العُللَ الباطلة، يحاول أن يُلْحِقَ نفسه بمرتبة الرجل المتزوج من حيث يحط الرجل المتزوج إلى مرتبته هو، ويضيف شؤمه على النساء إلى هؤلاء النساء المسكينات، يزيدهن على نفسه شر نفسه، ويرميهن بالسوء وهو السوء عليهن، ويتنقصهن ومنه جاء النقص، ويعيبهن وهو أكبر العيب؛ لا يتذكر إلا الذى له، ولا يتناسى إلا الذى عليه، كأنما انقلبت أوضاع الدنيا، وتبدلت رسوم الحياة، فزالت الرجولة بتبعاتها عن الرجل إلى المرأة، وانفصلت الأنوثة بحقوقها من المرأة إلى الرجل، فوجب أن تحمل تلك ما يحمل هذا، فتقدم ويقرر وادعأ، وتتعب ويستريح، وتُعانى الهموم السامية في الحياة الاجتماعية، ويعانى المخنث ابتساماته ودموعه، متكئاً في مجلسه النسيمي تحت جناح المروحة.. فأما المرأة فتشرف على هلكتها، وتُخاطرُ

بحاضرها ومستقبلها، وأما هو فيبقى من ثيابه في مثل الخدر المصون..!

(أرملة الحكومة) هو ذلك الشاب الزائف المبهرج، يُحسبُ في الرجال كذبا وزوراً؛ إذ لا تكمل الرجولة بتكوينها حتى تكمل بمعانى تكوينها؛ وأخص هذه المعانى إنشاء الأسرة والقيام عليها، أى مغامرة الرجل في زمنه الاجتماعى ووجوده القومى، فلا يعيش غريباً عنه وهو معدود فيه، ولا طفلياً فيه وهو كالمنفى منه، ولا يكون مظهراً لقوة الجنس القوى هاربة هروب الجبن من حمل ضعف الجنس

(١) انظر مقالة «استنوق الجميل». والتاء في «أرملة الحكومة» ليست للتأنيث، بل هي تاء جديدة في العربية، تزداد في هذه الكلمة خاصة واسمها تاء الهزؤ... وياحبذا لو اصطلح النساء والفتيات والمتزوجون جميعاً على تسمية كل رجل عزب «أرملة الحكومة» فإن هذا الاسم إذا عم وشاع كان فى معناه وفعله المطهر، حامضاً لغوياً كحامض الفنيك...!

الآخر المحتمى بها، ولا لمرودة العشير مُتَبَرِّنة تَبَرُّؤُ النذالة من مؤازرة العشير الآخر المحتاج إليها؛ ولا يرضى لنفسه أن يكون هو والذل يعملان في نساء أمتة عملاً واحداً، وأن يصبح هو والكساد لا يأتي منهما إلا أثرٌ متشابه، وأن يببى هو والفناء في ظلمة واحدة كظلمات القبر، تنقلُ الأحداثُ إلى الدور، فتجعلُ البيتَ - الذى كان يقتضيه الوطنُ أن يكون فيه أبٌ وأمٌّ وأطفال - بيتاً خاويًا كأنما تكل الأم والأطفال، وبقيت فيه البقية من هذا الرجل العزب الميت أكثر تاريخه...!

لقد رأيتُ بعينى أداة العزب وأثاثه فى بيته، كأنما يقصُّ عليه كلُّ ذلك قصة شؤمه ووحدته، وكأنما يقول له الفرش والنجد والطراز: «بِغْنى يا رجل وردنى إلى السوق؛ فإنى هنالك أطمع أن يكون مصيرى إلى أب وأم وأولاد، أجد بهم فرحة وجودى، وأصيب من معاشرتهم بعض ثوابى، وأبلى تحت أيديهم وأرجلهم فأكون قد عملتُ عملاً إنسانياً. أما عندك، فأنت خشبة مع الخشب، وأنت خِرقة بين الخرق. واسمع الكرسى إنه يقول: أف. وأصغ إلى فراشك إنه يقول: تف...».

شهد العزب ورب الكعبة على نفسه أنه مُبْتلى بالعافية، مستعبدٌ بالحرية، مجنونٌ بالعقل، مغلوبٌ بالقوة، شقى بالسعادة، وشهدت الحياة عليه ورب البيت أنه فى الرجولة قاطع طريق؛ يقطع تاريخها ولا يؤمنه، ويسرق لذاتها ولا يكسبها ويخرج على شرعها ولا يدخل فيه، ويعصى واجباتها ولا ينقاد لها. وشهد الوطن - والله - عليه أنه مخلوق فارغ كالواغل على الدنيا؛ إن كان نعمةً بصلاحه، انتهت النعمة فى نفسها لا تمتد؛ وإن كان بفساده مصيبةً امتدت فى غيرها لا تنقطع. وأنه شحاذ الحياة أحسن به الأجداد نسلاً باقياً، ولا يُحسِن هو بنسل يبقى. وأنه فى بلاده كالأجنبى، مهبطه على منفعةٍ وعيشٍ لا غيرهما، ثم يموت وجود الأجنبى بالنقلة إلى وطنه، ويموت وجود العزب بالانتقال إلى ربه؛ فيستويان جميعاً فى انقطاع الأثر الوطنى، وينفقان جميعاً فى انتهاب الحياة الوطنية؛ وأن كليهما خرج من الوطن أبتَر لا عَقِب له، ويذهبان معا فى لجج النسيان: أحدهما على باخرة، والآخر على النعش!

جاءنى بالأمس «أرملة حكومة» وهو مهندس موظف. ومعنى الهندسة الدقة البالغة فى الرقم والخط والنقطة وما احتمل التدقيق؛ ثم الحذر البالغ أن يختل شىء أو ينحرف، أو يتقاصر أو يطول، أو يزيد أو ينقص، أو يدخله السهو، أو يقع فيه الخطأ، إذا كان الحاضر فى العمل الهندسى إنما هو للعاقبة، وكان الخيال للحقيقة؛ وكان الخرق هنا لا يقبل الرقعة. ومتى فصلت الأرقام الهندسية من الورق إلى البناء مات الجمع والطرح والضرب والقسمة، ورجع الحساب حينئذ وهو حساب عقل المهندس، فإما عقل دقيق منتظم، أو عقل مأفون مختل.

بيد أن المهندس - على ما ظهر لى - قد خلت حياته من الهندسة.. وانتهى فيها من التحريف المضحك - حتى فيما لا يخطئ الصغار فيه - إلى مثل التحريف الذى قالوا إنه وقع فى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا كُنَّا نَبِّئُكَ وَإِنَّكَ لَتَسْعِيٓرٌ﴾ الفاتحة الآية ٥، قد رَوَوْا أن إمام قرية من القرى فى الزمن القديم كان يخطب أهل قريته ويصلى فى مسجدها فنزل به ضيف من العلماء فقال له الخطيب: إن لى مسائل فى الدين لم يتوجه لى وجه الحق فيها، ولا أزال متحير الراى، وكنت من زمن أتمنى أن ألقى بها الأئمة، فأريد أن أسألك عنها. قال العالم: سل ما أحببت.

قال الخطيب: أشكل على فى القرآن بعض مواضع، منها فى سورة الحمد ﴿إِنَّا كُنَّا نَبِّئُكَ وَإِنَّكَ لَتَسْعِيٓرٌ﴾... أى شىء بعده. «تسعين أو سبعين»...؟ أشكلت على هذه فأنا أقرؤها: تسعين. أخذاً بالاحتياط...!

كذلك مهندسنا فيما أشكل عليه من حسابه للحياة، فهو عزب أخذاً بالاحتياط. قال وهو يحاورنى:

كيف تكلفنى الزواج وتكرهنى عليه، وتعنّفنى على العزوبة وتعيبنى بها؛ وإنما أنت كالذى يقول: دع الممكن وخذ المستحيل؛ إن استحالة الزواج هى التى جعلتني عزباً، والعزوبة هى التى جعلتني فاسداً، وفى هذا الجو الفاسد من حياة الشباب، إما أن تكسد الفتاة، وإما أن تتصل بها العدو. والعزب لا يأبى أن يقال فيه إنه للنساء طاعون أحمر أو هواء أصفر؛ فهو والله مع ذلك موت أسود وبلاء أزرق.

قلت: لقد هَوَلَتْ عَلَى؛ فما مستحيلك يا هذا، وَلَمْ استحالَ عليك ما أمكن غيرك، وكيف بلغت مصر خمسةَ عشرَ مليوناً؟ أمِنْ غير آباءِ خُلِقُوا، أم زُرِعُوا زرعاً في أرضِ الحكومة؟ اسمع - ويحك - ألا يكونُ الرجالُ قد أقبلوا وتراجعتُ، وتجلدوا وتوجَّعتُ، أو أقدموا وخَسْتُ، واسترجلوا وتأنَّثْتُ؟
قال: ليس شيء من هذا.

قلت: فإن المسألة هي كيف ترى الفكرة، لا الفكرة نفسُها، فما حَمَلَكَ على العزوبة وأنت موظف وظيفتُك كذا وكذا ديناراً، وأنت مهندس يَصْدُقُ عليك ما قالوه في الرجل المجدود: لو عَمَدَ إلى حَجَرٍ لَانْفَلَقَ له عن رزق.
قال: أليس مستحيلاً ثُمَّ مستحيلاً أن يجمعَ مثلي يَدُهُ على مائةِ جنبيه يدفعها مهرًا؛ وما طرقتُ - علم الله - باباً إلا استقبلوني بما معناه: هل أنت معجزة مالية؟ هل أنت مائة جنبيه؟

قلت: فإن عملك في الحكومة يُغَلُّ عليك في السنة مائة وثمانين ديناراً فلم لا تعيش سنة واحدة بثمانين فتقع المعجزة؟
قال: «بكل أسف» لا يستطيع الرجل العزب أن يدَّخر أبداً؛ فهو في كل شيء مبدَّد ضائع متفرق.

قلت: فهذه شهادتُك على نفسك بالسَّفَه والخُرْق والتبذير؛ تُنفى ما يكفى عدداً وتضيِّقُ بواحدة، وماذا يَرتَنى مثلك في الحياة؟ أعند نفسه وفي يقينه أن يتأبَّدَ فيبقى عَزَباً فهو يُنْفِقُ ما جمع في شهوات حياته، ويتوسَّع فيها ضروباً وألواناً ليكونَ وهو فرد كأنه وهو في إنفاقه جماعة، كل منهم في موضع رذيلة أو مكانٍ لهو؛ وكأن منه رجالاً هو كاسبُهم وعائلهم، يُنْفِقُ على هذا في القهوة، وعلى هذا في الحانة، وعلى ذلك في الملاهى، وعلى الرابع في المواخير، وعلى الخامس في المستشفى...؟ إن كان هذا هو أصلُ الرأى عند العزب، فالعزبُ سفيه مجرم، وهو إنسانٌ خَرِبٌ من كل جهة إنسانية، وهو في الحقيقة ليس المتَّسِعَ لنفقات خمسة، بل كأنه قاتلٌ من هم أبناء وطنه؛ إذ كان بهذا مُطِيقاً أن يكونَ أباً ينفق على أبنائه، لا سفيهاً يُنْفِقُ على شياطينه.

فإن كان قد بنى رأيه على أن يتعزَّب مدةً ثم يتأهل، فهذا أحرى أن يعينه على حسن التدبير، وهو مَضْرَأَةٌ له على شهوة الجمع والادِّخار؛ إذ يكون عند نفسه كأنما يَكْدَحُ لعياله وهو فى سَعَةٍ منهم بعد، وهم لا يزالون فى صُلْبِهِ على الحال التى لا يسألونه فيها شيئاً إلا أخلاقاً طيبة وهمماً وعزائم يَرثونها من دمه فتجىء معهم إلى الدنيا متى جاءوا.

إنما العزْبُ أحدُ رجلين: رجل قد خرج على وطنه وقومه وفضائل الإنسانية، قاعدته: جُرَّ الحبلَ ما انجرَّ لك. وهذا داعرٌ فاسقٌ، مبذَّرٌ متلافٌ إن كان من الميَاسير، أو مُريبٌ دنىءٌ حقيرُ النفسِ إن كان من غيرهم... ورجل غير ذلك، فهو فى وثاق الضرورة إلى أن تُطْلِقَهُ الأسباب، ومن ثمَّ فهو يعمل أبداً للأسباب التى تُطْلِقَهُ، ويعرف أنه وإن لم يكن أهلاً فلا تزال ذمته فى حق زوجةٍ سَيَعُولُها، وفى حقوقِ أطفالٍ يَأْبُوهُمْ، وواجباتِ وطنٍ يخدمه بإنشاء هذه الناحية الصغيرة من وجوده، والقيام على سياستها، والنهوضِ بأعبائها. فانظر ويحك أى الرجلين أنت؟

قال: فتريدنى أن أقامرَ بتعبِ سنةٍ وأنا بعد ذلك ما يُقَدَّرُ لى، قد أشتري بتعب سنة من العمر تعبَ العمر كله؟

قلت: فهذه هى خِصَّةُ الفرديَّة، ودناءتها الوحشية فى جنايتها على أهلها، وسوء أثرها فى طباعهم وعزائمهم؛ فهى فرديَّةٌ تضرب فىهم العاطفة الاجتماعية ضربَ التَّلَفِ^(١)، وتبتليهم بالخوف من التَّبَعاتِ حتى لَيَتَوَهَّمُ أَحَدُهُمْ أنه إن تزوج لم يدخل على امرأة، ولكن على معركة. وهى تُصيبهم بالقسوة والغِلظة؛ فما دام الواحد منهم واحداً لنفسه، فهو فى تصريف حُكْمِ الأثرة، وفى قانون الفِتنة بأهواء النفس ونافعها؛ كأنما يعامله الناس رجلاً كله مَعِدَّة، أو هو فىهم قوة هضم ليس غير.

قال: ولكن الزواج عندنا حظٌ مخبوء «لوترية» والنساء كأوراق السحب، منهن ورقةٌ هى التوفيق والغنى بين آلاف هُنَّ الفقر والخيبة المحققة.

(١) يقال ضربه ضرب التلف، أى الضرب الذى يقتله ويتلفه.

قلت: هل اعتدت أن تتكلم وأنت نائم؟ فلعلك الآن في نومة عقل، أو لا فأنت الآن في غفلة عقل.

إن هذا المسكين الذى يمسح الأحذية ويشترى من تلك الأوراق لا يخلو منها؛ يعلم علمًا أكثر من اليقين أن عيشه هو من مسح الأحذية لا من الأخيلة التى فى هذه الأوراق؛ فهو لا يعتدُّ بها فى كبير أمر ولا صغيره، وما يُنزلُها فى حساب رغبته وثوبه إلا يوم يُخالطُ فى عقله فيتنزّه أن يمسح أحذية الناس، ويرى أن عظيمًا مثله لا يمسح إلا أحذية الملائكة...

أنت يا هذا مهندس، ولك بعض الشأن وبعض المنزل، فهَبْكَ ارتأيت أنه لا يحسن بك أو لا يحسن لك إلا أن تتزوج بنت ملك من الملوك، فهذه وحدها هى عندك «النمرة الرابعة»، وسائر النساء فقر وخيبة، ما دام الأمرُ أمر رأيك وهواك؛ غير أنك إذا عرّضت لتلك «النمرة الرابعة» لم تعرفك هى إلا صعلوكًا فى الصعاليك، وأحمق بين الحمقى.

إن تلك الأوراق تُصنع صنعتهَا على أن تكون جملةُها خاسرة إلا عددًا قليلًا منها؛ فإذا تعاطيت شراءها فانت على هذا الأصل تأخذها، وبهذا الشرط تبدل فيها؛ وما تَمْتَرى أنت ولا غيرك أن القاعدة ههنا هى الخيبة، وشذوذها هو الربح؛ وليس فى الاحتمال غير ذلك؛ ومن ثم فقد برئ إليك الحظ إن لم يُصيبك شيء منه؛ وأين هذا وأين النساء، وما منهن واحدة إلا وفيها منفعة تكثر أو تقل، بل الرجال للنساء هم أوراق السحب فى اعتبارات كثيرة، ما دامت طبيعة اتصالهما تجعل المرأة هى فى قوانين الرجل أكثر مما تجعل الرجل فى قوانينها، وهل ضاعت امرأة إلا من غفلة رجل أو قسوته أو فسولته أو فجوره؟

قال المهندس: فإنى أعلم الآن - وكنت أعلم - أن لا صلاح لى إلا بالزواج. وأن طريقي إلى الزوجة هو كذلك طريقي إلى فضيلتى وإلى عقلى. وتالله ما شيء أسوأ عند العزب ولا أكره إليه من بقائه عزبًا، غير أنه يكابر فى المماراة كلما تحاقرت إليه نفسه، وكلما رأى أن له حالًا ينفرد بها فى سخط الله وسخط الإنسانية.

ولا مَكْذِبَةً، فقد والله أنفقتُ في رذائلي ما يجتمع منه مهرُ زوجة سَرِيَةٍ تَشْتَطُّ في المهر وتَغْلُو في الطَّلَب؛ ولكن كيف بي الآن وما جبرني من قبلُ إصلاحُ، ولا أعانني اقتصاد، ومن لي بفتاة من طبقتي بمهر لا أتحمِل منه رَهَقًا، ولا تتقاصرُ معه أُموري، ولا تختلُ معيشتي؟

قلت: فإذا لم يَحْمِلْكَ الحمارُ من القاهرة إلى الإسكندرية؛ فإنه يَحْمِلْكَ إلى قليوب أو طوخ. وفي النساءِ إسكندرية، وفيهن شبرا، وقليوب، وطوخ؛ وما قَرُبَ وَبَعُدَ، وما رَخُصَ وَغَلَا.

قال: ولكن بلدى الإسكندرية...

قلت: ولكنك لا تَمْلِكُ إلا حمارًا... وللمرأة من كل طبقةٍ سَعْرُها في هذا الاجتماع الفاسد؛ ولو تَعَاوَنَ الناسُ وُصِّلُحُوا وأدركوا الحقيقة كما هي، لَمَّا رأينا الزواجَ من فقر المهور كأنما يَرَكِبُ سُلْحَفًا يمشى بها... ونحن في عصر القطار والطيارة، وقد كان هذا الزواج على عهد أجدادنا في عصر الحمار والجمل، كأنه وحده من السرعة في طيارة أو قِطار.

حين يَفْسُدُ الناسُ لا يكون الاعتبارُ فيهم إلا بالمال؛ إذ تنزل قيمتهم الإنسانية ويبقى المال وحده هو الصالح الذي لا تتغير قيمته. فإذا صلُحُوا كان الاعتبارُ فيهم بأخلاقهم ونفوسهم؛ إذ تنحط قيمة المال في الاعتبار، فلا يغلب على الأخلاق ولا يسخرها. وإلى هذا أشار النبي ﷺ في قوله لطالب الزواج: «التمس ولو خاتماً من حديد»^(١). يريد بذلك نفى المادية عن الزواج، وإحياء الروحية فيه، وإقراره في معانيه الاجتماعية الدقيقة، وكأنما يقول: إن كفاية الرجل في أشياء إن يكن منها المال فهو أقلُّها وآخرها. حتى إن الأخسَّ الأقلَّ فيه لِيُجْزَى منه كخاتم الحديد؛

(١) انظر «قصة زواج، وفلسفة المهر».

إن الرجل هو الرجولة بعظمتها وجلالها وقوتها وطباعها، ولن يُجْزئ منه الأقل ولا الأخس مع المال، وإن ملء الأرض ذهباً لا يُكَمِّل للمرأة رجلاً ناقصاً، وهل تُتَمَّ الأسنان الذهبية اللامعة، يَحْمِلُهَا الْهَرَمُ في فمه، شيئاً مما ذهب منه؟ وما عسى أن تصنع قواطع الذهب الخالص وطواحنه لهذا المسكين بعد أن نطق تحاتُّ أسنانه العظمية وتناثرها أنه رجلٌ حلَّ البلى في عظامه...؟



رؤيا فى السماء

قال أبو خالد الأحول الزاهد: لما ماتت امرأة شيخنا أبى ربيعة الفقيه الصوفى، ذهبْتُ مع جماعة من الناس فشَهِدنا أمرَها؛ فلما فرغوا من دفنها وسَوَى عليها، قام شيخُنَا على قبرها وقال: يرحمك الله يا فلانة؟! الآن قد شُفِيتِ أنتِ ومَرِضْتُ أنا، وعُوفِيتِ وابتُلِيتِ، وتركتِنِ ذاكراً وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بك معنى، فستكونُ بعدك بلا معنى، وكانت حياتُك لى نصفَ القوَّة، فعاد موتُك لى نصفَ الضَّعف، وكنتُ أرى الهمومَ بمواساتِك همومًا فى صُورِها المخفِّفة، فستأتينى بعد اليوم فى صُورِها المضاعفة؟ وكان وجودُك معى حجاباً بينى وبين مشقَّات كثيرة، فستخلصُ كلُّ هذه المَشاقِّ إلى نفسى، وكانت الأيام تمرُّ أكثرَ ما تمرُّ رقتك وحنانك، فستأتينى أكثرَ ما تأتى مُتَجَرِّدةً فى قَسوتِها وغِلظتها. أما إنى - والله - لم أرْزاً منك فى امرأة كالنساء، ولكنى رُزئتُ فى المخلوقةِ الكريمة التى أحسستُ معها أن الخليقةَ كانت تتلطفُ بى من أجلِها!

قال أبو خالد: ثم استدَمَعَ الشيخُ، فأخذتُ بيده ورجعنا إلى داره، وهو كان أعلمَ بما يعزى الناسُ بعضهم بعضاً، وأحفظُ لما وَرَدَ فى ذلك؛ غيرَ أن للكلام ساعات تبطلُ فيها معانيه أو تضعُفُ، إذ تكون النفسُ مُسْتَغْرِقةً الهم فى معنى واحدٍ قد انحصرتُ فيه. إما من هَوُلِ الموت، أو حبٍ وقع فيه من الهَوُلِ ظلُ الموت، أو رغبةٍ وقع فيها ظلُ الحب، أو لُجاجةٍ وقع فيها ظلُ الرغبة. فكنتُ أحدثه وأعزِّيه، وهو بعيدٌ من حديثى وتعزيتى، حتى انتهينا إلى الدار فدخلنا وما فيها أحد، فنظرَ يميناً ويسرةً، وقَلَّبَ عينيه ههنا وههنا، وحوَّلقَ واسترجع، ثم قال: الآن ماتت الدارُ أيضاً يا أبا خالد إن البناءَ كأنما يحيا بروح المرأة التى تتحرَّكُ فى داخله، وما دام هو الذى يحفظُها للرجل، فهو فى عين الرجل كالمُطَرَفِ^(١) تلبسه فوق ثيابها من فوقِ

(١) المطرف رداء من خز فيه نقوش تلبسه المرأة فى دارها، وهو المسمى (الروب).

جسمِها: وانظر كم بين أن ترى عيناك ثوب امرأة في يد الدلال في السوق، وبين أن تراه عيناك يلبسها وتلبسه! ولكنك يا أبا خالد لاتفقه من هذا شيئاً، فأنت رجل آليت لا تقرب النساء ولا يقربنك، ونجوت بنفسك منهن وانقطعت بها لله؛ وكأن كل نساء الأرض قد شاركن في ولادتك فحرمن عليك! وهذا مالا أفهمه أنا إلا ألفاظاً، كما لا تفهم أنت ما أجد الساعة إلا ألفاظاً؛ وشتان بين قائل يتكلم من الطبع، وبين سامع يفهم بالتكلف.

فقلت له: يا أبا ربيعة، وما يمنعك الآن وقد اطرحت أثقالك وانبثت أسبابك من النساء - أن تعيش خفيف الظهر، وتفرغ للنسك والعبادة، وتجعل قلبك كالسما انقشع غيمها فسطعت فيها الشمس؛ فإنه يقال: إن المرأة ولو كانت سالحة قانتة - فهي في منزل الرجل العابد مدخل الشيطان إليه، ولو أن هذا العابد كان يسكن في حسناته لا في دار من الطوب والحجارة لكانت امرأته كوة يقتحم الشيطان منها. ولقد كان آدم في الجنة، وبينها وبين الأرض سموات وأفلاك، فما منع ذلك أن تتعلق روح الأرض بالشيطان، فيتعلق الشيطان بحواء، وتتعلق هي بآدم، ومكر الشيطان فصورها لهما في صيغة مسألة علمية، ومكرت حواء فوضعت فيها جاذبية اللحم والدم، فلم تعد مسألة علم ومعرفة، بل مسألة طبع ولجاجة؛ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما.

وهل اجتمع الرجل والمرأة من بعدها على الأرض إلا كانا من نصب الحياة وهمومها، وشهواتها ومطامعها، ومضارها ومعاييبها، في معنى «بدت لهما سوءاتهما»...؟
كلانا يا أبا ربيعة ممن لهم سائر بالباطن في هذا الوجود غير السير بالظاهر، وممن لهم حركة بالفكر غير الحركة بالجسم، فقبيح بنا أن نتعلق أدنى متعلق بنواميس هذا الكون اللحمي الذي يسمى المرأة، فهو تدل وإسفاف منا.

ولعلك تقول: «النسل وتكثير الأدمية» فهذا إنما كتب على إنسان الجوارح والأعضاء، أما إنسان القلب فله معناه وحكم معناه؛ إذ يعيش بباطنه، فيعيش ظاهره

فى قوانين هذا الباطن، لا فى قوانين ظاهر الناس. وإنه لشراً كل ما نَقَلَ إلى طبع أهل الجوارح وشَهواتهم، فزَيْنَ لك ما يُزَيْنَ لهم، وشَغَلَك بما يَشْغَلُهم؛ فهذا عندنا - يرحمك الله - بابُ كأنه من أبواب المَجُون الذى يَنْقُلُ الرجل إلى طَبْعِ الصَّبِيِّ.

فاطْمَسْ يا أخى على موضعها من قلبك، وألقِ النورَ على ظِلِّها؛ فالنورُ فى قلب العابد نُورُ التحويل إن شاء، ونورُ الرؤية إن شاء؛ يرى به المادَّة كما يريد أن تكون لا كما تكون. وأنت قد كانت فيك امرأة، فَحوَّلْها صلاةً، وأعملْ بنورك عكسَ ما يَعْمَلُ أهل الجوارح بظلامهم، فقد تكونُ فى أحدهم الصلاةُ فيُحوِّلُها امرأة... .

قال أبو ربيعة: تالله إنه لرأى؛ والوَحدةُ بعد الآن أروحُ لقلبي، وأَجْمَعُ لهمى؛ وقد خلَعَنى اللهُ مما كنتُ فيه، وأخذ القبرُ امرأتى وشَهواتى معاً، فسأعيشُ ما بقى لى فيما بقى منى. وزوالُ شىء فى النفس هو وجودُ شىء آخر. ولقد انتهيتُ بالمرأة ومعانيها وأيامها إلى القبر، فالبدءُ الآن من القبر ومعانيه وأيامه.

وتَوَاتَقاً على أن يسيرا معاً فى (باطن) الوجود...! وأن يعيشا فى عُمر هو ساعة معدودة اللِّحَظَات، وحياة هى فكرةٌ مرسومةٌ مصوَّرة.

قال أبو خالد: ورأيتُ أن أبيتُ عنده وفاءً بحقِّ خدمته، ودَفْعاً للوحشة أن تُعاوَدَه فتَدخلَ على نفسه بأفكارها ووَساوسها. وكان قد غَمَرْنَا تعبُ يومنا، وأعيا أبو ربيعة، وخذَلْتَه القوة؛ فلما صَلِينَا العِشاءَ قلتُ: يا أبا ربيعة، أحبُّ لك أن تَنعَسَ فَتُريحَ نفسك ليذهبَ ما بك، فإذا استَجَمَمَتِ أيقظتُك فقمنا سائرَ الليل.

فما هو إلا أن اضطجع حتى غلبه النُّعاس. وجلسْتُ أفكر فى حاله وما كان عليه وما اجتهدتُ له من الرأى؛ وقلتُ فى نفسى: لعلنى أغريته بما لا قبَل له به، وأشرتُ عليه بغير ما كان يحسنُ بمثله، فأكون قد غششتُه. وخامرنى الشكُّ فى حالى أنا أيضاً، وجعلتُ أقابلُ بين الرجلِ متزوّجا عابداً، وبين الرجلِ عابداً لم يتزوج؛ وأنظرُ فى ارتياضِ أحدهما بنفسه وأهلِهِ وعياله، وارتياضِ الآخرِ بنفسه وحدها؛ وأخذتُ أذهبُ وأجىء من فكر إلى فكر، وقد هدأ كلُّ شىء حولى كأن

المكان قد نام، فلم ألبث حتى أخذتني عيني فنامت واستثقلت كأنما شددت شداً بحبال من النوم لم يجي ثمن يقطعها.

ورأيت في نومي كأنها القيامة وقد بعث الناس، وضاق بهم المحشر، وأنا في جملة الخلائق، وكأننا من الضغطة حب ميثوث بين حجرى الرحي. هذا والموقف يغلى بنا غليان القدر بما فيها، وقد اشتد الكرب وجهدنا العطش، حتى ما منا ذو كبد إلا وكان الجحيم تتنفس على كبده، فما هو العطش بل هو السعار واللهب يحدد بهما الجوف ويتأجج.

فنحن كذلك إذا ولدان يتخللون الجمع الحاشد، عليهم مناديل من نور، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب، يملأون هذه من هذه بسلسال برود عذب، رؤيته عطش مع العطش، حتى ليتلو من رآه من الألم، ويتلعلع كأنما كوى به على أحشائه. وجعل الولدان يسقون الواحد بعد الواحد ويتجاوزون من بينهما، وهم كثرة من الناس، وكأنما يتخللون الجمع في البحث عن أناس بأعيانهم، ينضحون غليل أكبادهم بما في تلك الأباريق من روح الجنة ومائها ونسيمها. ومربى أحدهم، فمددت إليه يدي وقلت: «اسقني فقد يبست واحترقت من العطش!»

قال: «ومن أنت؟»

قلت: «أبو خالد الأحول الزاهد...»

قال: «ألك في أطفال المسلمين ولد افترطته صغيراً فاحتسبته عند الله؟»

قلت: «لا....»

قال: «ألك ولد كبر في طاعة الله؟»

قلت: «لا....»

قال: «ألك ولد نالتك منه دعوة صالحة جزاء حقك عليه في إخراجك إلى الدنيا؟»

قلت: «لا....»

قال: «ألك ولد من غير هؤلاء ولكنك تعبت في تقويمه، وقمت بحق الله فيه؟»

قلت: «يرحمك الله، إني كلما قلتُ «لا» أحسستُ «لا» هذه تمرُّ على لساني كالمِكْوَاةِ الحامية...».

قال: «فنحن لا نسقى إلا آباءنا؛ تعبوا لنا في الدنيا، فاليوم نتعبُ لهم في الآخرة، وقدموا بين يديهم الطفولة، وإنما قدّموا السنة طاهرةً للدفاع عنهم في هذا الموقف الذي قامت فيه محكمةُ الحسنَةِ والسيئة. وليس هنا بعد السنة الأنبياء أشدُّ طلاقاً من السنة الأطفال، فما للطفل معنى من معاني آثامكم يحتبس فيه لسانه أو يلجج به».

قال أبو خالد: فجئن جنوني، وجعلتُ أبحثُ في نفسي عن لفظة «ابن» فكأنما مُسحتِ الكلمة من حفظي كما مُسحتُ من وجودي، وذكرتُ صلاتي وصيامي وعبادتي، فما خطرْتُ في قلبي حتى ضحك الوليدُ ضحكاً وجدتُ في معناه بكائي وندمي وخيبتني.

وقال: يا ويلك! أما سمعت: «إن من الذنوب ذنباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام، ويكفرها الغم بالعيال». أتعرفُ من أنا يا أبا خالد؟
قلت: من أنت يرحمنا الله بك؟

قال: أنا ابنُ ذاك الرجل الفقير المُعِيل، الذي قال لشيخك إبراهيم بن أدهم العابد الزاهد: «طوبى لك! فقد تفرغت للعبادة بالعزوبة». فقال له إبراهيم: «لروعة تنالك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه...»، وقد جاهدَ أبى جهادَ قلبه وعقله وبدنه، وحملَ على نفسه من مقاساة الأهل والولد حملها الإنسان العظيم، وفكرَ لغير نفسه، واغتمَّ لغير نفسه، وعملَ لغير نفسه، وآمن وصبر، ووثق بولاية الله حين تزوّج فقيراً، وبِضمان الله حين أعقب فقيراً؛ فهو مُجاهد في سُبُل كثيرة لا في سبيل واحدة كما يُجاهد الغزاة، هؤلاء يستشهدون مرة واحدة، أما هو فيستشهد كل يوم مرة في همومه بنا، واليوم يرحمه الله بفضل رحمته إيانا في الدنيا.

أما بلغك قولُ ابن المبارك وهو مع إخوانه في الغزو: «أتعلمون عملاً أفضل مما نحن فيه؟ قالوا: ما نعلم ذلك. قال: أنا أعلم. قالوا فما هو؟ قال: رجل مُتَعَفِّفٌ على

فقره، ذو عائلة قد قام من الليل، فنظر إلى صبيانه نيامًا مُتَكَشِّفِينَ، فسترهم وغطَّاهم بثوبه؛ فَعَمَلُهُ أَفْضَلُ مما نحن فيه...».

يخلع الأب المسكين ثوبه على صبيته لِيُدْفِنَهُمْ به ويتلقَّى بجلدِ البردِ فى الليل، إن هذا البرد - يا أبا خالد - تحفظه له الجنة هنا فى حرِّ هذا الموقف كأنها مُؤْتَمَنَةٌ عليه إلى أن تُؤدِّيَه. وإن ذلك الدفء الذى شمل أولاده يا أبا خالد - هو هنا يقاتل جهنم ويدفعها عن هذا الأب المسكين.

قال أبو خالد: وَيَهُمُّ الوليدُ أن يمضَى ويدعنى، فما أملك نفسى، فأمدُّ يدي إلى الإبريق فأنشطُهُ من يده، فإذا هو يتحوَّل إلى عظم ضخم قد نَشِبَ فى كفى وما يليها من أسَلَةِ الذراع^(١). فغابت فيه أصابعى، فلا أصابع لى ولا كف. وأبى الإبريق أن يسقينى وصار مُثَلَّةً بى، وتجسَّدت هذه الجريمة لتشهد علىّ، فأخذنى الهول والفرع، وجاء إبريقٌ من الهواء، فوقع فى يد الوليد، فتركنى ومضى.

وقلت لنفسى: ويحك يا أبا خالد! ما أراك إلا مُحَاسِبًا على حسناتك كما يُحَاسِبُ المذنبون على سيئاتهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله!

وبلغتنى الصيحة الرهيبة: أين أبو خالد الأحوال الزاهد العابد؟

قلت: هأنذا.

قيل: طأوؤس من طواويس الجنة قد حُص^(٢) ذَيْلُهُ فضاع أحسن ما فيه! أين ذَيْلُكَ من أولادك، وأين محاسنك فيهم؟ أُخْلِقَتْ لك المرأة لتتجنَّبها، وجعلت نسل أبويك لتتبرأ أنت من النسل؟

جئت من الحياة بأشياء ليس فيها حياة؛ فما صنعت للحياة نفسها إلا أن هربت منها، وانهمزمت عن ملاقاتها؛ ثم تأملُ جائزة النصر على هزيمة...!

(١) الأسلة: ما يلي الكف من الذراع إلى القسم المستغلظ منها. فالأسلة هى العظمة التى تشد عليها ساعة اليد.

(٢) حص ذيله: قطع وجذ.

عَمِلْتَ الْفَضِيلَةَ فِي نَفْسِكَ وَنَشَأْتَكَ، وَلَكِنَّهَا عَقَمَتْ فَلَمْ تَعْمَلْ بِكَ. لَكَ أَلْفُ أَلْفِ رَكْعَةٍ وَمِثْلُهَا سَجَدَاتٍ مِنَ النَّوَافِلِ، وَلَخَيْرٌ مِنْهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ صُلْبِكَ أَعْضَاءُ تَرْكِعَ وَتَسْجُدَ.

قَتَلْتَ رَجُولَتَكَ، وَوَأَدْتَ فِيهَا النَّسْلَ، وَلَبِثْتَ طَوَالَ عَمْرِكَ وَلَدًا كَبِيرًا لَمْ تَبْلُغْ رَتَبَةَ الْأَبِ! فَلَنْ أَقِمْتَ الشَّرِيعَةَ، لَقَدْ عَطَلْتَ الْحَقِيقَةَ، وَلَنْ...

قال أبو خالد: ووقعت غنة النون الثانية في مسمعي من هول ما خفت مما بعدها كالنفخ في الصور؛ فطار نومي وقمت فزعا مشنت القلب، كمن فتح عينيه بعد غشية، فرأى نفسه في كفن في قبر سد عليه...

وما كدت أعي وأنظر حولي وقد برق الصبح في الدار حتى رأيت أبا ربيعة يتقلب كأنما دخرجته يد، ثم نهض مستطار القلب من فزعه وقال أهلكتنى يا أبا خالد، أهلكتنى والله.

قلت: ما بالك يرحمك الله!

قال: إني نمت على تلك النية التي عرفت أن أجمع قلبي للعبادة، وأخلص من المرأة والولد، ومن المعاناة لهما في مَرَمَةِ المعاش والتلفيق بين رغيف ورغيف، وأن أعفى نفسي من لأوائهم وضرائهم وبلائهم، لأفرغ إلى الله وأقبل عليه وحده. وسألت الله أن يخير لي في نومي؛ فرأيت كأن أبواب السماء قد فتحت، وكان رجالا ينزلون ويسيروا في الهواء يتبع بعضهم بعضاً، أجنحة وراء أجنحة؛ فكلما نزل واحد نظر إلى وقال لمن وراءه: هذا هو المشنوم!

فيقول الآخر: نعم هو المشنوم!

وينظر هذا الآخر إلى ثم يلتفت لمن وراءه ويقول له: هذا هو المشنوم! فيقول الآخر: نعم هو المشنوم!

وما زالت «المشنوم، المشنوم» حتى مروا؛ لا يقولون غيرها ولا أسمع غيرها، وأنا في ذلك أخاف أن أسألهم، هيبة من الشؤم، ورجاء أن يكون المشنوم إنساناً ورائي

يبصرونه ولا أبصره. ثم مرّ بى آخرهم، وكان غلامًا. فقلت له: يا هذا، من هو المشئوم الذى تؤمّنون إليه؟
قال: أنت!

فقلت: ولم ذاك؟

قال: كنا نرفع عملك فى أعمال المجاهدين فى سبيل الله، ثم ماتت امرأتك وتحزّنت على ما فاتك من القيام بحقّها، فرفعنا عملك درجةً أخرى؛ ثم أمرنا الليلة أن نضع عملك مع الخالفين الذين فروا وجبّئوا!

إن سُمّو الرجل بنفسه عن الزّوجة والولد طيرانٌ إلى الأعلى.. ولكنّه طيرانٌ على أجنيحة الشّياطين!
طيرانٌ بالرجل إلى فوّهة البُركان الذى فى الأعلى..!

■ ■ ■

بنته الصغيرة

(١)

فرغ أبو يحيى مالك بن دينار، زاهد البصرة وعالمها، من كتابة المصحف؛ وكان يكتب المصحف للناس، ويعيش مما يأخذه من أجره كتابته؛ تعففاً أن يطعم إلا من كسب يده، ثم خرج من داره وجهه المسجد، فأتاه صلى بالناس صلاة العصر، وجلسوا ينتظرونه، واستوى هو قائماً، فركع وسجد ما شاء الله حتى قضى نافلته، ثم انفتل من صلاته فقام إلى أسطوانته^(١) التي يستند إليها، وتحلق الناس حوله جموعاً خلف جموع، يذهب فيهم البصر مرةً هنا ومرةً هنا من كثرتهم وامتدادهم، حتى تغطى بهم المسجد على رُحبه. ومد الإمام عينه فيهم ثم أطرق إطراقةً طويلة، والناس كأن عليهم الطير مما سكنوا لهيبته، ومما عجبوا لخشوعه؛ ثم رفع الشيخ رأسه وقد تندت عيناه، فما نظر إليهم حتى كأنما أطلع على أرواحهم فجر رطب من سحر ذلك الندى.

وبدر شاب حدث فسأله: ما بكاء الشيخ؟ وكان قريباً يجلس من الإمام في سمت بصره^(٢)، فتأمله الشيخ طويلاً يقلب فيه الطرف كالمتعجب، ولبت لا يجيبه كأنما عقد لسانه أو أخذته من نفسه حال، فما يثبت شيئاً مما يرى.

وازداد الناس عجباً؛ فما جربوا على الشيخ من قبلها حصراً ولا عياً، ولا قطعه سؤال قط، ولا تخلف عن جواب؛ وقالوا إن له لشأناً، وما بُد أن تكون من وراء حُبسته شعاب في نفسه تهدر بسيلها وتعتلج؛ فما أسرع ما يلتقى السيل، فيجتمع، فيصوب إلى مجراه، فيتقاذف.

(١) كان العلماء والرواة يجلسون إلى أساطين المسجد، وهي أعمدته، كما كان بالأزهر إلى عهد قريب.

(٢) أي أمامه في الخط الذي يمتد فيه البصر.

وتبسم الإمام وقال: أما إنى قد ذكرتُ ذَكَرَى فبكِيتُ لها، ورأيتُ رؤيا فتبسمتُ لها؛ أما الذكري، فهل تعلمون أن هذا المسجد الذى يَفْهَقُ بهذا الحشد العظيم، وتقع فيه المدينة لكل أذان وتطير - هل تعلمون أنه خلا قَطُّ من الناس وقد وَجَبَت الفريضة؟ قالوا: ما نَعْلَمه.

قال: فقد كان ذلك لعشرين سنةً خَلَّتْ فى مَوْتِ الحسن^(١)، فقد مات عَشِيَّةَ الخميس، وأصبحنا يومَ الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة، فتبع أهل البصرة كلهم جنازته واشتغلوا به، فلم تُقَمْ صلاة العصر بهذا المسجد، وما تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ؛ ومثل الحسن لا تموت ساعة موته من عُمرٍ من شَهِدَهَا، فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهاره البصرة كلها فى كَفَنٍ أبيض، فما بقيت فى نفس رجل ولا امرأة شهوة إلى الدنيا، وفرغ كل إنسان من باطله، كما يفرغ من أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة، وظهر لهم الموت فى حقيقة جديدة بالغة الرُوع لا يراها الأبناء فى موت آبائهم وأمهاتهم، ولا الآباء والأمهات فى موت من ولدوا، ولا المحب فى موت حبيبه، ولا الحميم فى موت حميمه؛ فإن الجميع فقدوا الواحد الذى ليس غيره فى الجميع، وكما يموت العزيز على أهل بيت فيكون الموت واحداً وتتعدد فيهم معانيه، كذلك كان موت الحسن موتاً بعدد أهل البصرة!

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموت وكُبر، وانكششت فيه الحياة وصُغُرَتْ، وتحاقرت الدنيا عند أهلها، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التى يُلْقَى فيها الملوك والصعاليك والأخلاط بين هؤلاء وأولئك، لا يصغر عنها الصغير، ولا يكبر عنها الكبير؛ لا بل دون ذلك، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعرءاء، تنكشف للأبصار عن شَوْهَاء نجسة قد أَرَمَتْ^(٢) لا تُطَاق على النظر، ولا على الشمِّ، ولا على اللمس؛ وما تتفجر إلا عن آفة، وما تتفجر إلا لهوام الأرض.

(١) هو الحسن البصرى الإمام العظيم، وسيأتى وصفه، ولد سنة ١٥ للهجرة، وتوفى سنة ١١٠هـ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١هـ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠هـ.

(٢) أَرَمَتْ: بدأت تتعفن وتبلى.

تلك هي الذكرى، وأما الرؤيا فقد طالعنتني نفسي من وجه هذا الفتى، فأبصرتني حين كنت مثله يافعا مُترعرا داخلًا في عصر شبابي، فكأنما انتبهت عيني من هذه النفس على فاتك خبيث كان في جانياته في أغلاله في سجنه، ومات طويلاً ثم بُعث!

إنى مُخبركم عنى بما لم تُحيطوا به، فأرعوه أسماعكم، وأحضروه أفهامكم، واستجمعوا له، فإنه كان غيب شيخكم، وأنا محدثكم به كيلا ييأس ضعيف، ولا يقنط يائس، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين.

لقد كنت في صدر أيامي شُرطياً، وكنت في آنفة الحداثة من قبلها أفتى وأتشرط، وكنت قوياً معصوباً في مثل جبلة الجبل من غلظ وشدة، وكنت قاسياً كأن في أضلاعي جندلة لا قلباً، فلا أذمم ولا أتأثم؛ وكنت مُدمناً على الخمر، لأنها روحانية من عجز أن تكون فيه روحانية، وكأنها إلهية يزورها الشيطان - لعنه الله - فيخلق بها للنفس ما تحب مما تكره، ويثيبها ثواب ساعة ليست في الزمن بل في خيال شاربها. وكأن جهل العقل نفسه في بعض ساعات الحياة، هو - في علم الشيطان وتعليمه - معرفة العقل نفسه في الحياة!

فبينما أنا ذات يوم أجول في السوق، والناس يفورون في بيعهم وشرائهم، وأنا أرقب السارق، وأعد للجاني، وأتهى للنزاع، إذ رأيت اثنين يتلاحيان، وقد لبب أحدهما الآخر؛ فأخذت إليهما، فسمعت المظلوم يقول للظالم: لقد سلبتني فرح بُنياتي، فسيدعون الله عليك فلا تصيب من بعدها خيراً، فإني ما خرجت إلا اتباعاً لقول رسول الله ﷺ: «من خرج إلى سوق من أسواق المسلمين، فاشترى شيئاً، فحملة إلى بيته، فخص به الإناث دون الذكور؛ نظر الله إليه».

قال الشيخ: وكنت عزباً لا زوجة لي، ولكن الآدمية انتبهت في، وطمعت في دعوة صالحة من البنيات المسكينات، إذا أنا فرحتهن؛ ودخلتني لهن رقة شديدة، فأخذت للرجل من غريمه حتى رضى، وأضعفت له من ذات يدي لأزيد في فرح

بناته، وقلت له وهو ينصرف: عَهْدُ يَحَاسِبُكَ اللهُ عَلَيْهِ، وَيَسْتَوْفِيهِ لِي مِنْكَ، أَنْ تَجْعَلَ
بَنَاتِكَ يَدْعُونَ لِي إِذَا رَأَيْتَ فَرَحَهُنَّ بِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِنَّ، وَقُلْ لَهُنَّ: مَا لَكُمْ بَنَاتُكُمْ
وَبِتُّ لَيْلَتِي أَتَقَلَّبُ مَفْكَرًا فِي قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمَعَانِيهِ الْكَثِيرَةِ، وَحَثَّ عَلَيَّ
إِكْرَامِ الْبَنَاتِ، وَأَنْ مَنْ أَكْرَمَ بَنَاتِهِ كَرَّمَ عَلَى اللهِ، وَجَرَّصَهُ أَنْ يَنْشَأَنَّ كَرِيمَاتٍ فَرِحَاتٍ؛
وَحَدَّثَنِي هَذَا الْحَدِيثُ لَيْلَتِي تِلْكَ إِلَى الصُّبْحِ، وَفَكَّرْتُ حِينَئِذٍ فِي الزَّوْجِ، وَعَلِمْتُ
أَنَّ النَّاسَ لَا يَزُوجُونِي مِنْ طَيِّبَاتِهِمْ مَادَمْتُ مِنَ الْخَبِيثِينَ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى
سُوقِ الْجَوَارِي، فَاشْتَرَيْتُ جَارِيَةً نَفِيسَةً، وَوَقَعْتُ مِنِّي أَحْسَنَ مَوْقِعٍ، وَوَلَدَتْ لِي بِنْتًا
فَشَغَفْتُ بِهَا، وَظَهَرْتُ لِي فِيهَا الْإِنْسَانِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَيْسَتْ فِيَّ، فَرَأَيْتُ بَعْدَ مَا بَيْنِي
وَبَيْنَ صَوْرَتِي الْأُولَى؛ وَرَأَيْتُهَا سَمَاوِيَّةً لَا تَمْلِكُ شَيْئًا وَتَمْلِكُ أَبَاهَا وَأُمَّهَا، وَلَيْسَ لَهَا
مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا شَبْعٌ بَطْنُهَا وَمَا أَيْسَرَهُ، ثُمَّ لَهَا بَعْدَ ذَلِكَ سُرُورٌ نَفْسُهَا كَامِلًا تَشَبُّ عَلَيْهِ
أَكْثَرَ مِمَّا تَشَبُّ عَلَى الرُّضَاعِ؛ فَعَلِمْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي تَكْتَنِفُهُ رَحْمَةُ اللهِ يَمْلِكُ بِهَا دُنْيَا
نَفْسِهِ، فَمَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَفُوتَهُ دُنْيَا غَيْرِهِ، وَأَنَّ الَّذِي يَجِدُ طَهَارَةَ قَلْبِهِ يَجِدُ سُرُورَ
قَلْبِهِ وَتَكُونُ نَفْسُهُ دَائِمًا جَدِيدَةً عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ الَّذِي يَحْيَا بِالثِّقَةِ تُحْيِيهِ الثِّقَةُ؛
وَالَّذِي لَا يَبَالِي الْهَمَّ لَا يَبَالِي الْهَمُّ بِهِ، وَأَنَّ زِينَةَ الدُّنْيَا وَمَتَاعَهَا وَغُرُورَهَا وَمَا تَجْلِبُ
مِنَ الْهَمِّ - كُلُّ ذَلِكَ مِنْ صِغَرِ الْعَقْلِ فِي الْإِيمَانِ حِينَ يَكْبُرُ الْعَقْلُ فِي الْعِلْمِ!

كَانَتْ الْبَنِيَّةُ بَدْءَ حَيَاةٍ فِي بَيْتِي وَبَدْءَ حَيَاةٍ فِي نَفْسِي، فَلَمَّا دَبَّتْ عَلَى الْأَرْضِ
ازْدَدْتُ لَهَا حُبًّا، وَأَلْفَتْنِي وَأَلْفَتُهَا، فَرُزِقْتُ رَوْحِي مِنْهَا أَطْهَرَ صَدَاقَةٍ فِي صَدِيقٍ،
تَتَجَدَّدُ لِلْقَلْبِ كُلِّ يَوْمٍ، بَلْ كُلِّ سَاعَةٍ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِمَحْضِ سُرُورِ الْقَلْبِ دُونَ مَطَامِعِهِ،
فَتُجَدِّدُهُ بِالْحَيَاةِ نَفْسُهَا لَا بِأَشْيَاءِ الْحَيَاةِ، فَلَا تَزِيدُ الْأَشْيَاءُ فِي الْمَحَبَّةِ وَلَا تَنْقُصُ مِنْهَا،
عَلَى خِلَافِ مَا يَكُونُ فِي الْأَصْدِقَاءِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى الْمَضَرَّةِ وَالْمَنْفَعَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ: وَجَّهْتُ أَنْ أَتْرِكَ الْخَمْرَ فَلَمْ يَأْتِ لِي وَلَمْ أَسْتَطِعْهُ؛ إِذْ كُنْتُ مِنْهُمْ كَمَا
عَلَى شَرْبِهَا، وَلَكِنْ حَبَّ ابْنَتِي وَضَعْتُ فِي الْخَمْرِ إِثْمَهَا الَّذِي وَضَعْتُهُ فِيهَا الشَّرِيعَةُ،
فَكِرْهْتُهَا كُرْهًا شَدِيدًا، وَأَصْبَحْتُ كَالْمَكْرَهَةِ عَلَيْهَا، وَلَمْ تَعُدْ فِيهَا نَشْوَتُهَا وَلَا رِيْهَا،

وكانت الصغيرة في تمزيق أخيلتها أبرع من الشيطان في هذه الأخيلة، وكأنما جرّتنى يدها جرّاً حتى أبعدتنى عن المنزلة الخمرية التي كان الشيطان وضعنى فيها، فانتقلت من الاستهتار والمكابرة وعدم المبالاة إلى الندم والتحوب والتأثم، وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر، وهممت به دبّت ابنتى إلى مجلسى؛ فأنظر إليها وتنتشر عليها نفسى من رقة ورحمة، فأرقب ما تصنع، فتجىء فتجاذبنى الكأس حتى تهرقها على ثوبى، وأرانى لا أغضب، إذ كان هذا يسرها ويضحكها، فأسر لها وأضحك.

ودام هذا منى ومنها، فأصبحت فى المنزلة بين المنزلتين، أشرب مرة وأترك مراراً، وجعلت أستقيم على ذلك؛ إذ كانت النشوة بابنتى أكبر من النشوة بالزجاجة؛ وإذ كنت كلما رجعت إلى نفسى وتدبرت أمري، أستعيز بالله أن تعقل ابنتى معنى الخمر يوماً فأكون قد نجست أيامها، ثم أقدم إلى الله وعلى ذنوبها فوق ذنوبى، ويترحم الناس على آبائهم وتلعننى؛ إذ لم أكن لها كالأباء، فأكون قد وجدت فى الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين.

ومضيت على ذلك وأنا بها أصلح بها شيئاً فشيئاً وكلما كبرت كبرت فضيلتى، فلما تمّ لها سنتان، ماتت!

قال الراوى: وسكت الشيخ، فعلق به الأبصار، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم، وكأنما ماتت لحظات من الزمن لذكر موت الطفلة، وخامر المجلس مثل السكر بهذه الكأس المذهلة؛ ولكن الطفلة دبّت من عالم الغيب كما كانت تصنع، وجذبت الكأس وأهرقتها، فانتبه الناس وصاحوا: ماتت فكان ماذا؟

قال الشيخ: فأكدنى الحزن عليها، وهن جأشى، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما أتأسى به، فضاعف الجهل أحرانى، وجعل مصيبتى مصائب والإيمان وحده هو أكبر علوم الحياة، يُبصرُك إن عميت فى الحادثة، ويهديك إن ضللت عن السكينة، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة، لا عدوها تكون المصيبة وإياها عليك، وإذا أخرجت الليالى من الأحزان والهموم عسكر ظلامها لقتال نفس

أو محاصرتها، فما يدفع المأل ولا ترد القوة ولا يمنع السلطان، ولا يكون شيء حينئذ أضعف من قوة القوى، ولا أضيع من حيلة المحتال، ولا أفقر من غنى الغنى، ولا أجهل من علم العالم، ويبقى الجهد والحيلة والقوة والعلم والغنى والسلطان للإيمان وحده؛ فهو يكسر الحادث ويقلل من شأنه، ويؤيد النفس ويضاعف من قوتها، ويرد قدر الله إلى حكمة الله؛ فلا يلبث ما جاء أن يرجع، وتعود النفس من الرضا بالقدر والإيمان به، كأنما تشهد ما يقع أمامها لا ما يقع فيها.

قال الشيخ: ورجعت بجهلى إلى شر مما كنت فيه، وكانت أحزاني أفرح الشيطان؛ وأراد - أخزاه الله - أن يفتن في أساليب فرجه، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة جمعة، وكانت كأول نور الفجر من أنوار رمضان، سؤل لى الشيطان أسكر سكرة ما مثلها، فبت كالميت مما ثملت، وقدفتنى أحلام إلى أحلام، ثم رأيت القيامة والحشر، وقد ولدت القبور من فيها، وسبق الناس وأنا معهم، وليس وراء ما بى من الكرب غاية، وسمعت خلفى زفيراً كفحيح الأفعى، فالتفت فإذا بتنين عظيم ما يكون أعظم منه، طويل كالنخلة السحوق، أسود أزرق، يرسل الموت من عينيه الحمراوين كالدم، وفى فمه مثل الرماح من أنيابه، ولجوفه حر شديد لو زفر به على الأرض ما نبتت فى الأرض خضراء، وقد فتح فاه ونفخ جوفه وجاء مسرعاً يريد أن يلتقمنى، فمررت بين يديه هارباً فزعاً؛ فإذا أنا بشيخ هرم يكاد يموت ضعفاً، فعذت به وقلت أجرنى وأغثنى. فقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن مر وأسرع، فلعل الله أن يسبب لك أسباباً للنجاة. فوليت هارباً وأشرفت على النار وهى الهول الأكبر، فرجعت أشتد هرباً والتنين على أثرى، ولقيت ذلك الشيخ مرة أخرى، فاستجرت به فبكى من الرحمة لى وقال: أنا ضعيف كما ترى، وما أقدر على هذا الجبار، ولكن اهرب إلى هذا الجبل، فلعل الله يحدث أمراً.

فنظرت فإذا جبل كالدار العظيمة، له كوى عليها ستور، وهو يبرق كشعاع الجوهر؛ فأسرعت إليه والتنين من ورائى، فلما شارفت الجبل فتحت الكوى، ورفعت الستور،

وأشرفت على وجوه أطفال كالأقمار، وقرب التنين منى، وصرت فى هواء جوفه وهو يتضرم على، ولم يبق إلا أن يأخذنى؛ فتصايح الأطفال جميعاً: يا فاطمة! يا فاطمة! قال الشيخ: فإذا ابنتى التى ماتت قد أشرفت على، فلما رأت ما أنا فيه صاحت وبكت، ثم وثبت كرمية السهم، فجاءت بين يدى، ومدت إلى شمالها فتعلقت بها، ومدت يمينها إلى التنين فولى هارباً، وأجلستنى وأنا كالميت من الخوف والفرع، وقعدت فى حجرى كما كانت تصنع فى الحياة، وضربت بيدها إلى لحيتى وقالت: يا أبت.. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. سورة الحديد الآية ١٦.

فبكيت وقلت: يا بُنيّة، أخبرينى عن هذا التنين الذى أراد هلاكى. قالت ذاك عملك السوء الخبيث، أنت قوّيته حتى بلغ هذا الهول الهائل، والأعمال ترجع أجساماً كما رأيت. قلت فذاك الشيخ الضعيف الذى استجرت به ولم يُجرنى؟ قالت: يا أبت ذاك عملك الصالح، أنت أضعفته فضعف حتى لم يكن له طاقة أن يُغيثك من عملك السيئ؛ ولو لم أكن لك هنا، ولو لم تكن اتبعت قول رسول الله ﷺ فيمن فرح بناته المسكينات الضعيفات، لما كانت لك هنا شمال تتعلق بها، ويمين تطرد عنك.

قال الشيخ: وانتبهت من نومى فزعا ألعن ما أنا فيه، ولا أرانى أستقر، كأنى طريدة عملى السيئ، كلما هربت منه هربت به، وأين المهرب من الندم الذى كان نائماً فى القلب واستيقظ للقلب؟

وأملت فى رحمة الله أن أربح من رأس مال خاسر، وقلت فى نفسى: إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمر ما ينبغى أن يستهان به، وصححت النية على التوبة، لأرجع الشباب إلى ذلك الشيخ الضعيف، وأسمن عظامه، حتى إذا استجرت به أجارنى ولم يقل: «أنا ضعيف كما ترى!».

وسألت فدللت على أبى سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى، سيد البقية من التابعين؛ وقيل لى: إنه جمع كل علم وفن إلى الزهد والورع والعبادة، وإن لسانه

السحر، وإن شخصه المغناطيس، وإنه ينطق بالحكمة كأن في صدره إنجيلاً لم يُنزل، وإن أمه كانت مولاةً لأم سلمة زوج النبي ﷺ، فكانت ربما غابت أمه في حاجة فيبكي، فترضعه أم سلمة تُعَلِّله بثديها فيدرُّ عِلته، فكانت بينه وبين بركة النبوة صلة.

وغدوتُ إلى المسجد والحسنُ في حلقته يقصّ ويتكلّم، فجلست حيث انتهى بي المجلس، وما كان غيرَ بعيد حتى عَرَتْنِي نَفْضَةٌ كَنَفْضَةِ الْحَمَى؛ إذ قرأ الشيخ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ سورة الحديد الآية ١٦؛ فلو لفظتني الأرض من بطنها، وانشقَّ عني القبرُ بعد الموت ما رأيتُ الدنيا أعجب مما طالعنتني في تلك الساعة، وأخذ الشيخ يفسرُ الآية، فصنع بي كلامه ما لو بُعث نبيٌّ من أجلى خاصةً لما صنَع أكثرَ منه.

وكلامُ الحسن غيرُ كلام الناس، وغيرُ كلام العلماء؛ فإنه يتكلّم من قلبه ومن روحه، ومن وجهه ولسانه، وناهيكم من رجل خاشع مُتَصَدِّعٍ من خشية الله، لم يكن يُرى مُقْبِلاً إلا وكأنه أُسِيرَ أمروا بضرب عنقه، وإذا ذُكِرَتِ النارُ فكأنها لم تخلق إلا له وحده؛ رجلٌ كان في الحياة لتتكلّم الحياة بلسانه أصدقَ كلماتها.

فصاح صائح: يا أبا يحيى، التفسير التفسير! وصاح المؤذن: الله أكبر. فقطع الشيخ وقال: التفسيرُ إن شاء الله في المجلس الآتي.



بنته الصغيرة

(٢)

... وجاء من الغد أبو يحيى مالك بن دينار إلى المسجد، فصى بالناس، ثم تحوّل إلى مجلس درسه وتعلّموا حوله؛ وكانوا إلى بقيّة خبره فى لهفة كأن لها عمراً طويلاً فى قلوبهم، لا ظمأ ليلة واحدة.

وقال منهم قائل: أيها الشيخ، جُعِلْتُ فِدَاكَ، ما كان تأويل الحَسَن لتلك الآية من كلام الله تعالى، وكيف رجع الكلام فى نفسك مَرَجَعَ الفكر تَتَبَعَهُ، وأصبح الفكرُ عندك عملاً تحذو عليه، وتصل هذا العمل فكان ما أنت فى ورَعك و...؟

فقطع الإمام عليه وقال: هوّن عليك يا هذا؛ إن شيخك لأهوّن من أن تذهب فى وصفه يميناً أو شمالاً، وقد روى لنا الحَسَن يوماً ذلك الخبر الوارد فيمن يُعَذَّب فى النار ألف عام من أعوام القيامة، ثم يدركه عفو الله فيخرج منها، فبكى الحسن وقال: «يا ليتنى كنت ذلك الرجل!» وهو الحَسَنُ يا بنى، هو الحسن...

فضج الناس وصاح منهم صائحون: يا أبا يحيى، قتلتنا يأساً. وقال الأول: إذا كان هذا فأوشك أن يعمّنا اليأس والقنوط، فلا ينفعنا عملٌ، ولا نأتى عملاً ينفع.

قال الشيخ: هوّنوا عليكم، فإن للمؤمن ظنين: ظناً بنفسه، وظناً بربه؛ فأما ظنّه بالنفس فينبغى أن ينزل بها دون جَمَحاتها ولا يفتأ ينزل؛ فإذا رأى لنفسه أنها لم تعمل شيئاً أوجب عليها أن تعمل، فلا يزال دائماً يدفعها؛ وكلما أكثرَتْ من الخير قال لها: أكثرى. وكلما أقلَّتْ من الشرّ قال لها: أقلّى. ولا يزال هذا دأبه ما بقى؛ وأما الظنُّ بالله فينبغى أن يعلو به فوق الفترات والعِلل والآثام، ولا يزال يعلو؛ فإن الله عند ظنّ عبده، إن خيراً فله وإن شراً فله. ولقد روينا هذا الخبر: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قَتَلَ تسعاً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فُدِّلَ على راهب فأتاه،

فقال: إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ قال: لا! فقتله فكمل به مائة! ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ قال: نعم؛ ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا، فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نصّف الطريق أتاه ملك الموت، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيّهما كان أدنى فهو له. فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة!

قال الشيخ: فهذا رجل لما مشى بقلبه إلى الله حسبت له الخطوة الواحدة، بل الشبر الواحد؛ ولو أنه طوّف الدنيا بقدميه ولم يكن له ذلك القلب، لكان كالعظام المحمولة في نعش؛ قبرها في المشرق هو قبرها في المغرب، وليس لها من الأرض ولا للأرض منها إلا معنى واحد لا يتغير؛ هو أنه بجملته ميت، وأنها بجملتها حفرة.

والإنسان عند الناس بهيئة وجهه وحليته التي تبدو عليه، ولكنه عند الله بهيئة قلبه وظنه بالله الذي يظن به؛ وما هذا الجسم من القلب إلا كقشرة البيضة^(١). مما تحتها. فيالها سخريّة أن تزعم القشرة لنفسها أن بها هي الاعتبار عند الناس لا بما فيها؛ إذ كان ما تحويه لا يكون إلا فيها هي؛ ومن ثم تبعد في حماقتها فتسأل: لماذا يرميني الناس ولا يأكلونني...؟

إن هذه الأخلاق الفاضلة في هذا الإنسان لا تجد تمام معناها إلا في حالة بعينها من أحوال القلب، وهي حالة خشوعه على وصفها الذي شرحته الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ أَمْنًا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾؟ سورة الحديد الآية ١٦.

(١) قشرة البيضة العليا اليابسة تسمى القبيض بفتح القاف وسكون الياء، والقشرة الداخلة الملتزمة بالبياض تسمى الغرقى بكسر الغين والقاف.

فالأخلاق الفاضلة محدودة بالله والحق معاً، وهي كلها في خشوع القلب لهذين؛ فإن من القلب مخارج الحياة النفسية كلها.

قال الشيخ: وأنا منذ حفظت عن الحسن تأويل هذه الآية، واستنذت بها، مضيت أعيش من الدنيا في تاريخ قلبي لا في تاريخ الدنيا، وأدركت من يومئذ أن ليس حفظ القرآن حفظه في العقل، بل حفظه في العمل به؛ فإن أنت أثبتت الآية منه، وكنت تعمل بغير معناها، وتعيش في غير فضيلتها، فهذا - ويحك - نسيانها لا حفظها. وقد كان قومنا الأولون بمعانيه كالشجرة الخضراء النامية؛ فيها ورقها الأخضر وزهرها، وعلى ظاهرها حياة باطنها، فلما ثبت الناس على الشكل وحده، ولم يبالوا القلب وأحواله، أصبحوا كالشجرة اليابسة، عليها ورقها الجاف، ليس في بقائه ولا سقوطه طائل.

ما أصبحت ولا أمسيت منذ حفظت تفسير الآية إلا في حياة منها، وهذه الآية هي التي دللتني بمعانيها أن ليست الحياة الأرضية شيئاً إلا ثورة الحي على ظلم نفسه، يستكف عنها أكثر مما يستجر لها، والناس من شقائهم على العكس، يستجرون أكثر مما يستكفون، وإنما السعيد من وجد كلمات روحانية إلهية يعش قلبه فيهن، فذاك لا يعمل أعماله كما يأتي ويتفق، بل يحذو على أصل ثابت في نفسه، ويختار فيما يعمل أحسن ما يعمل، ومن ثم لا يكون جهاده مرأمة أو خضوعاً في سبيل الوجود كالحيوان، بل في سبيل صحة وجوده؛ ولا يكون غرضه أن يلبس الحياة كما تأخذه هي وتدعه، بل أن يحيا في شرف الحياة على ما يأخذها هو ويدعها. إن الشقاء في هذه الدنيا إنما يجرُّه على الإنسان أن يعمل في دفع الأحران عن نفسه بمقارفته الشهوات، وبإحساسه غرور القلب؛ وبهذا يبعد الأحران عن نفسه ليجلبها على نفسه في صور أخرى!

قال الشيخ: وكان مما حفظته من تفسير الحسن قوله:

إن كل كلمة فى الآية تكاد تكون آية، وليست الكلمة فى القرآن كما تكون فى غيره، بل السُّمُوُّ فيها على الكلام، أنها تحمل معنى، وتوَمَّى إلى معنى، وتَسْتَتِيعُ معنى؛ وهذا ما ليس فى الطاقة البشرية، وهو الدليل على أنه ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ أَيْنُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾^(١) سورة هود الآية ١.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ سورة الحديد الآية ١٦.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ هذه الكلمة حثٌّ، وإِطْمَاعٌ، وجدالٌ، وحُجَّةٌ؛ وهى فى الآية تُصَرِّحُ أن خَشُوعَ القلب الذى تلك صفته هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه (سيأنى) له أن يعيش ساعة أو ما دونها؟ إذن فالكلمة صارخة تقول: الآن الآن قبل ألا يكون آن. أى: البَدَارَ البَدَارَ ما دمت فى نفس من العمر؛ فإن لحظة بعد (الآن) لا يضمنها الحى. وإذا فنى وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو؛ ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذى يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التى هى (الآن). فانظر - ويحك - وقد جُعِلَ الأبد فى يدك؛ انظر كيف تصنع به؟

تلك هى حكمة اختيار اللفظة من معنى (الآن) دون غيره، على كثرة المعانى. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا كالتَّصَّ على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقوم بهم الفضيلة، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء، لا يخشعان إلا للمادة، وكأن إنسانهم إنسانٌ تُرابى، لا يزال يضطرب على مَكْرَ الليل والنهار بين طرفين من الحيوان: عَيْشِهِ وموتِهِ؛ وما تقسو الحياة قسوتها على الناس إلا بهم، وما ترقُّ رَقَّتْهَا إلا بالمؤمنين.

(١) طريقتنا فى اكتناه إعجاز القرآن، أن الكلمة الواحدة من كلماته لها جهات عدة؛ كما نرى فيما نشرحه من تفسير هذه الآية، وفيما جئنا به من تفسير آيات سبقت فى المقالات الأخرى؛ فالبحث فى فهم القرآن يجب أن يكون فى اللفظة، ووجه اختيارها، وسياق تركيبها، وما تدل عليه فى كل ذلك، وما يدل كل ذلك بها. وقد بسطنا هذا فى كتابنا: إعجاز القرآن.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة؛ إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعاً، بل ذلاً، أَوْضَعَةً، أو رياءً أو نفاقاً، أو ما كان، أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصاً مُخْلِصاً مَحْضَ الإرادة.

واشترط «القلب» كأنه يقول: إنما القلب أساسُ المؤمن، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلب خاشعاً لله وللحق. فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نَبَعَ منه الفاسقُ والظالم الطاغيةُ وكلُّ ذى شر. ما أشبه القلب تنفرعُ منه معانى الخلق، بالحبّة تنسرحُ منها الشجرة؛ فخذُ نفسك من قلبك كما شئت؛ حلّوا من حلّوا، ومُرّاً من مُرّ.

وخشوع القلب لله وللحق، معناه السموُّ فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة؛ وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها فى قانونين لا قانون واحد، ومتى خضع القلب لله وللحق، عَظُمَتْ فيه الصغائر من قوّة إحساسه بها، فيراها كبيرةً كبيرة وإن عمى الناس عنها، ويراهها وهى بعيدةٌ منه بمثل عين العقاب: يكون فى لوح الجوّ ولا يغيب عن عينه ما فى الثرى.

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء خشوعاً هو شرٌّ من الطغيان والقسوة؛ فتقيّد خشوع القلب «بذكر الله»، هو فى نفسه نفى لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية فى شهواتها. وما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إلهٌ ساعته. فيما أحكم وأعجب قول النبى ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». جعل نزع الإيمان موقوتاً «بالحين» الذى تُقْتَرَفُ فيه المعصية؛ إذ لم يكن الله عند هذا الشقى هو إله ذلك «الحين».

والخشوع لما «نزل من الحق» هو فى معناه نفى آخر للكبرياء الإنسانية التى تُفسد على المرء كلّ حقيقة، وتخرج به من كل قانون؛ إذ تجعل الحقائق العامة محدودةً بالإنسان وشهواته لا بحدودها من الحقوق والفضائل.

ويخرج من هذا وذلك تقريرُ الإرادة الإنسانية، وإلزامها الخير والحق دون غيرها، وقهرها للذات وشهواتها، وجعلها الكبرياء الإنسانية كبرياء على الدنايا

والخسائس، لا على الحقوق والفضائل؛ وإذا تقرر كل ذلك انتهى بطبيعته إلى إقرار السكينة في النفس، ومحو الفوضى منها، وجعل نظامها في إحساس القلب وحده؛ فيحيا القلب في المؤمن حياة المعنى السامي، ويكون نبضه علامة الحياة في ذاتها، وخشوعه لله وللحق علامة الحياة في كمالها.

وقال: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ كأنه يقول: إن هذا الحق لا يكون بطبيعته ولا بطبيعة الإنسان أرضياً، فإذا هو ارتفع من الأرض وقرره الناس بعضهم على بعض، لم يجاوز في ارتفاعه رأس الإنسان، وأفسدته العقول؛ إذ كان الإنسان ظالماً متمرداً بالطبيعة، لا تحكمه من أول تاريخه إلا السماء ومعانيها، وما كان شبيهاً بذلك مما يجيئه من أعلى؛ أى بالسلطان والقوة؛ فيكون حقاً «نازلاً» مُتَدَفِّعاً كما يتصوّب الثقل من عال ليس بينه وبين أن ينفذ شىء.

والخشوع لما نزل من الحق ينفي خشوعاً آخر هو الذى أفسد ذات البين من الناس، وهو الخشوع لما قام من المنفعة وانصراف القلب إليها بإيمان الطمع لا الحق. وبحمل الآية على ذلك الوجه يتحقق العدل والنصفة بين الناس؛ فيكون العدل فى كل مؤمن شعوراً قلبياً، جاريّاً فى الطبيعة لا مُتَكَلِّفاً من العقل؛ وبهذا وحده يكون للإنسان إرادة ثابتة عن الحق فى كل طريق، لا إرادة لكل طريق، وتستمر هذه الإرادة مُتَسَقَّةً فى نظامها مع إرادة الله، لا نافرة منها ولا متمردة عليها؛ وهذا وذلك يُنَبِّت القلب مهما اختلفت عليه أحوال الدنيا، فلا يكون من إيمانه إلا سُمُوهُ وقُوَّتُهُ وثباتُهُ، وينزل العمرُ عنده منزلة اللحظة الواحدة، وما أيسر الصبر على لحظة! ما أهون شرّ «الآن» إن كان الخير فيما بعده.

ألم يأن؛ ألم يأن؛ ألم يأن...

قال الشيخ: وكان الحسن فى معانيه الفاضلة هو هذه الآية بعينها؛ فما كانت حياته إلا إسلامية كهذا الكلام الأبيض المشرق الذى سمعته منه؛ شعاره أبداً: «الآن قبل ألا يكون أن» وإمامه: «خذ نفسك من قلبك» وطريقته «شرف الحياة لا الحياة نفسها».

وكان يرى هذه الحياة كوقعة الطائر؛ هي جناحين مستوفزين أبداً لعمل آخر هو الأقوى والأشدّ، فلا ينزلان بطائرها على شيء إلا مطويين على قدرة الارتفاع به، ولا يكونان أبداً إلا هههافين خفيفين على الطيران؛ إن كانا في حكم الجو لا في حكم الأرض.

وآلة الوقوع والطيران بالإنسان شهواته ورغباته؛ فإن حطته شهوة لا ترفعه، فقد أوبقته وأهلكته وقذفت به ليؤخذ.

لقد رويانا عن النبي ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس»، وهذا ضرب من خشوع القلب المؤمن فيما يحل له: يدع أشياء كثيرة لا بأس فيها لو أتاها؛ ليقوى على أن يدع ما فيه بأس، فإن الذي يترك ما هو له يكون أقوى على ترك ما ليس له.

والنفس لا بدّ راجعة يوماً إلى الآخرة، وتاركة أداها؛ فقوم نظامها في الحياة الصحيحة أن تكون كل يوم كأنها ذهبت إلى الآخرة وجاءت. وتلك هي الحكمة فيما فرضته الشريعة الإسلامية من عبادة راتبة تكون جزءاً من عمل الحياة في يومها وليلتها. فإذا لم تكن النفس في حياتها كأنها دائماً تذهب إلى مصيرها وترجع منه، طمسها الجسم وحبسها في إحدى الجهتين، فلم يبق لها فيه إلا أثر ضئيل لا يتجاوز النصح، كاعتراض المقتول على قاتله: يحاول أن يردّ السيف بكلمة...! وبذلك يتضاعف الجسم في قوته، ويشتدّ في صولته، ويتصرف في شهواته، كأن له بطنين يجوعان معاً... فتستهلك شهوات المرء دينه، وتقذف به يمينا وشمالاً، على قصد وعلى غير قصد، تمضي به كما شاءت في مدرجة من الشر.

ومثل هذا المسرف على نفسه لا يكون تمييزه في الدين، ولا إحساسه بالخير، إلا كذلك السكير الذي زعموا أنه أراد التوبة، وكانت له جرّتان من الخمر، فلما اتعظ وبلغ في النظر إلى نفسه وحظ إيمانه، وأراد أن يطيع الله ويتوب. نظر إلى الجرّتين ثم قال: أتوب عن الشرب من هذه حتى تفرغ هذه...!

قال الشيخ: ثم إنى تبث على يد الحسن، وأخلصت في التوبة وصححتها، وعلمت من فعله وقوله أن حقيقة الدين هي كبرياء النفس على شرها وظلمها وشهوتها، وأن هذه الكبرياء القاتلة للإثم، هي في النفس أخت الشجاعة القاتلة للعدو الباغي: يفخر البطل الشجاع بمبلغه من هذه، ويفخر الرجل المؤمن بمبلغه من تلك؛ وأن خشوع القلب هو في معناه حقيقة هذه الكبرياء بعينها.

وحدثت الحسن يوماً حديثاً رؤيائياً^(١)، وما شبه لي من عملي السيئ وعملي الصالح، فاستدمعت عيناه، وقال:

إن البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل الله، وإنها فوز لهما في معركة من الحياة، يكونان هما والصبر والإيمان في ناحية منها قبيلاً، ويكون الشيطان والهـم والحزن في الجهة المناوئة قبيلاً آخر.

إن البنت هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها، كأنما يحملان الأحجار على ظهريهما حجراً حجراً، ليبتنيا تلك الدار في يوم يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر، ما صحبته وما بقيت في بيته.

فليس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته إلا على أنها بنته، ثم أم أولادها، ثم أم أحفاده؛ فهي بذلك أكبر من نفسها، وحققها عليه أكبر من الحق، فيه حُرمتها وحرمة الإنسانية معاً؛ والأب في ذلك يُقرض الله إحساناً وحناناً ورحمة، فحق على الله أن يوفيه من مثلها، وأن يُضعف له.

والبنت ترى نفسها في بيت أهلها ضعيفة كالمنقطعة وكالعالة، وليس لها إلا الله ورحمة أبويها؛ فإن رحمتها، وأكرمها فوق الرحمة، وسرّها فوق الكرامة، وقاما بحق تأديبها وتعليمها وتفقيها في الدين وحفظا نفسها طاهرة كريمة مسرورة مؤدبة، فقد وضعها بين يدي الله عملاً كاملاً من أعمالهما الصالحة، وكما وضعه بين

(١) ذكرت الرؤيا في القسم الأول من هذه المقالة.

يدى الإنسانية. فإذا صاروا إلى الله كان حقاً لهما أن يجدا فى الآخرة يميناً وشمالاً يذهبان بينهما إلى عفو الله وكرمه ، وكما قال رسول الله ﷺ : «من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها، وغذاها فأحسن غذاها، وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه - كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة».

فهذه ثلاث لا بد منها معاً، ولا تُجزئ واحدة عن واحدة فى ثواب البنت: تربية عقلها تربية إحسان، وتربية جسمها تربية إحسان وإطاف، وتربية روحها تربية إكرام وإطاف وإحسان.

قال الشيخ: والله أرحم أن تضيع عنده الرحمة؛ والله أكرم أن يضيع الإحسان عنده، والله أكبر...

وهنا صاح المؤذن: الله أكبر.

فتبسم الشيخ وقام إلى الصلاة.

■ ■ ■

الأجنبية (*)

أَحَبَّهَا وَأَحَبَّتْهُ، حتى ذهب بها في الحب مَذْهَبًا قالت له فيه: «لو جاءنى قلبى فى صورة بشرية لأراه كما أَحِسُّه، لما اختار غير صورتك أنت فى رقتك وعطفك وحنانك» وحتى ذهبْتُ به فى الحب مذهبًا قال لها فيه: «إن الجنة لا تكون أبدعَ فناءً ولا أحسنَ جمالاً، ولا أكثرَ إمتاعاً - لو خُلِقَتْ امرأةٌ يهواها رجل - إلا أن تكون هى أنت!» فقالت له: «ويكون هو أنت...!».

وتَدَلَّهَتْ فيه، حتى كأنما خَلَبَهَا عقلُها ووضع لها عقلاً من هواه؛ فكانت تقول له فيما تَبُّهُ من ذاتِ نفسها: «إن حبَّ المرأة هو ظهورُ إرادتها مُتَبَرِّئَةً من أنها إرادة، مُقِرَّةٌ أنها مع الحبيب طاعةٌ مع أمر، مُدْعِنَةٌ أنها قد سَلِمَتْ كبرياءها لهذا الحبيب، لتراه فى قوته ذا كبريائين».

وافْتَتَنَ بها حتى أخذتُ منه كلَّ مأخذ، فملأتُ نفسَه بأشياء، وملأتُ عينَه من أشياء؛ فكان يقول لها فى نجواه: «إنى أرى الزَمَنَ قد انتَسَخَ مما بينى وبينك، فإنما نحن بالحب فى زمن من نَفْسَيْنَا العاشقتين، لا يُسمَّى الوقتَ ولكن يسمَّى السرور؛ وإنما نعيشُ فى أيامٍ قلبيةَّة، لا تدلُّ على أوقاتها الساعةُ بدقائقها وثوانيتها، ولكن السعادةُ بحقائقها ولذاتها».

وتحَابًّا ذلك الحبُّ الفنى العجيب، الذى يكون ممتلئاً من الروحين يكاد يفيضُ وينسكب، وهو مع ذلك لا يَبْرُحُ يَطْلُبُ الزيادة، ليتخيل من لذتها ما يتخيلُ السَّكِرُ فى نشوته إذا طَفَحَتِ الكأس، فيرى بعينه أنها ستتسع لأكثر ما امتلأت به، فيكون له بالكأس وزيادتها، سُكْرُ الخمر وسكْرُ الوهم.

تحابًّا ذلك الحبُّ الفَوَّارُ فى الدم، كأن فيه من دَوْرته طبيعة الفراق والتلاقى بغير تلاقٍ ولا فراق؛ فيكونان معاً فى مجلسهما الغزلى، جَنَبَهُ إلى جنبها وفأها إلى

(*) انظر «الرافعى العاشق» من كتاب «حياة الرافعى».

فيه^(١) وكأنما هربت ثم أدركها، وكأنما فرت ثم أمسكها. وبين القبلة والقبلة هجران وصُلح، وبين الفتنة والفتنة غضب ورضى. وهذا ضرب من الحب يكون في بعض الطبائع الشاذة المسرفة، التي أفرطت عليها الحياة إفراطها فيلن الحيوانية بالإنسانية، ويجعل الرجل والمرأة كبعض الأحماض الكيماوية مع بعضها؛ لا تلتقى إلا لتتمازج، ولا تتمازج إلا لتتحد ولا تتحد إلا ليبتلع وجود هذا وجود ذاك.

وضرب الدهر من ضرباته في أحداث وأحداث؛ فأبغضته وأبغضها، وفَسَدَت ذات بينهما، وأدبر منها ما كان مُقبلاً؛ فوثب كلاهما من وجود الآخر وثبة فزع على وجهه. أما هو فسَخَطها لعيوب نفسها، وأما هي... وأما هي فتكرهته لمحاسن غيره! وانسربت أيام ذلك الحب في مساريها تحت الزمن العميق الذي طوى ولا يزال يطوى ولا يبرح بعد ذلك يطوى؛ كما يغور الماء في طباق الأرض. فأصبح الرجل المسكين وقد نزلت تلك الأيام من نفسه منزلة أقارب وأصدقاء وأحباء ماتوا بعضهم وراء بعض، وتركوه ولكنهم لم يبرحوا فكره، فكانوا له مادة حسرة ولَهْفَة. أما هي.. أما هي فانشقَّ الزمن في فكرها برجة زلزلة، وابتلع تلك الأيام ثم التأم...!

فحدثنا «الدكتور محمد»^(*) رئيس جماعة الطلبة المصريين في مدينة... بفرنسا، قال: «وانتهى إليَّ أن صاحبنا هذا جاء إلى المدينة وأنه قادم من مصر، فتخالجنى الشوق إليه، ونزعت إلى لقائه نفسى، وما بيننا إلا معرفتى أنه مصرى قديم من مصر؛ وخيل إليَّ فى تلك الساعة مما أحتاجنى من الحنين إلى بلادى العزيزة، أن ليس بينى

(١) تأويل هذا فى باب (الحال) عند ظرفاء النحويين: متلاصقين متعانقين.

(*) هو ولده الدكتور محمد الرافعى، وكان يدرس وقتئذ فى جامعة ليون، وقد أنشأ من أجله هذه القصة لتكون رسالة إليه برأيه فى موضوع بخصوصه.

وبين مصر إلا شارعان أقطعهما فى دقائق؛ فخففتُ إليه من أقرب الطرق إلى مثواه،
كما يصنع الطير إذا ترامى إلى عُشه فابندره من قطر الجو.

قال: وأصبته واجماً يعلوه الحزن، فتعرفتُ إليه، فما أسرع ما ملأ من نفسى
وما ملأت من نفسه. وكما يَمَحى الزمان بين الحبيبين إذا التقيا بعد فرقة - يتلاشى
المكان بين أهل الوطن الواحد إذا تلاقوا فى الغربة. فذابت المدينة الكبيرة التى نحن
فيها، كأن لم تكن شيئاً؛ وتجلى سحر مصر فى أقوى سطوته وأشدها فأخذنا كلينا،
فما استشعرنا ساعتئذ إلا أن أوربا العظيمة كأنما كانت مرسومة على ورقة، فطويناها
وأحللنا مصر فى محلها.

وطغى علينا نازع الطرب طغياناً شديداً، فأرسلتُ من يجمع الإخوان المصريين،
واخترتُ لذلك صديقاً شاعر الفطرة، فنزا به الطرب، فكان يدعوهم وكأنه يؤذن
فيهم لإقامة الصلاة. وجاءوا يهرولون هرولة الحجاج، فلو نطقت الأرض الفرنسية
التى مشوا عليها تلك المشية ل قالت: هذه وطأة أسود تتخيل خيلاءها من بغي
النشاط والقوة.

ألا ما أعظمك يا مصر، وما أعظم تعنتك فى هذا السحر الفاتن! أبنبغى أن يغترب
كل أهلك حتى يدركوا معنى ذلك الحديث النبوى العظيم: «مصر كنانة الله فى أرضه».

فيعرفوا أنك من عزتك معلقة فى هذا الكون تعليق الكنانة فى دار البطل الأروع؟
قال «الدكتور محمد»: واجتمعنا فى الدار التى أنزل فيها، فراع ذلك صاحبة
مَثْواي^(١)، فقلت لها إن ههنا ليلةً مصريةً ستحتل ليلتكم هذه فى مدينتكم هذه، فلا
تجزعوا. ثم دعوتها إلى مجلسنا لتشهد كيف تستعلن الروح المصرية الاجتماعية
برقتها وظرفها وحماستها، وكيف تفسر هذه الروح المصرية كل جميل من الأشياء
الجميلة بشوق من أشواقها الحنانة، وكيف تكون هذه الروح فى جو موسيقيتها

(١) صاحبة المَثْوَى هى ربة البيت الذى ينزل فيه الضيف ومن كان فى حكمه، يقول العربى: من

كانت صاحبة مَثْواك؟ فتطلق على صاحبة البنسيون.

الطبيعية حين تنأجى أحبابها، فيجىء حديثها بطبيعته كأنه ديباجة شاعر في صفائها وحلاوتها ورنين ألفاظها؟
وقالت السيدة الزيفة: يا لها سعادة! سأخذ زينتى، وأصلح من شأنى، وأكون بعد خمس دقائق فى مصر!

قال الدكتور: وأخذنا فى شأننا، وكان معنا طالب حسن الصوت، فقام إلى الببانة^(١) وغنى مقطوعة «مقطوعة» مصرية من هذه المقاطيع التى تططق فيها النفس، فجعل يمل صوت به وآه ودار اللحن دورة تأوهت فيها الكلمات كلها. ثم أعتور الببانة طالب آخر فما شذ عن هذه السنة، وكان بعد الأول كالنائحة تجاوب النائحة! فمال على السيدة الفرنسية وأسرت إلى: أهاتان امرأتان أم رجلان...؟ فقلت لها: إن هذا لحن تاريخى ذو مقطوعتين، كانت تتطارحه كيلوباترا وأنطونيو، وأنطونيو وكيلوباترا... فأعجبت المرأة أشد الإعجاب، وأكبرت منا هذا الذوق المصرى أن نكرمها لوجودها فى مجلسنا بألحان الملكة المصرية الجميلة، وطربت لذلك أشد الطرب، وملكها غرور المرأة، فجعلت تستعيد: «يالوعتى ياشقاى ياضنى حالى...» وتقول: ما كان أرق كيلوباترا! ما كان أرق أنطونيو! يالفنة الحب الملكى...!

قال «الدكتور محمد»: ثم خجلت والله من هذا الكلام المخنث، ومن تلفيقى الذى لفقته للمرأة المخدوعة، فانتفضت انتفاضة من يملؤه الغضب، وقد حمى دمه، وفى يده السيف الباتر، وأمامه العدو الوقح؛ وثرت إلى الببانة فأجريت عليها أصابعى، وكأن فى يدي عشرة شياطين لا عشر أصابع، ودوى فى المكان لحن: «اسلمى يا مصر» وجلس كالرعد فى قبة الدنيا، تحت طباق الغيم، بين شرار البرق. فكانما ترزّل المكان على السيدة الفرنسية وعلينا جميعاً وصرخ أجدادنا يزأرون من أعماق التاريخ: «اسلمى يا مصر...»^(٢)

(١) الببانة: كلمة استعملناها فى كتابنا (السحاب الأحمر) للبيانو، وتجمع على ببانات.

(٢) هذا هو النشيد الذى وضعناه على لسان سعد باشا زغلول، وهو اليوم النشيد الوطنى لمصر كلها، يحفظه جميع الطلبة، الكشافة، والأندية الرياضية، وغيرها.

ولما قَطَعْتُ التَفْتُ إليها في كبرياء تلك الموسيقى وعظمتها وقلت لها: هذا هو غناؤنا نحن الشبان المصريين.

ثم راجعنا صاحبنا الضيف، وأحفيناه بالمسألة، فقال بعد أن دافعنا طويلاً: إنه يُحسن شيئاً من الموسيقى وإن له لحنًا سيّطارحنا به لناخذه عنه. فطربنا بلحنه قبل أن نسمعه، وقلنا له: افعلْ متفضلاً مشكوراً ومازلنا حتى نهض متثاقلاً، فجلس إلى البيانة وأطرق شيئاً، كأنه يُسوّى أوتاراً في قلبه، ثم دَقَّ يَتَشَاجَى بهذا الصوت:

أَضَاعَ غَدَى مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ غَدَى وَحَطَمْنِي مَنْ كَانَ يَجْهَدُ فِي سَبْكِ!
فَإِنْ كُنْتُ لَا أَسَى لِنَفْسِي فَمَنْ إِنْ؟ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَبْكِ لِنَفْسِي فَمَنْ يَبْكِ^(١)

قال «الدكتور محمد»: فكان الغناء يَعْتَلِجُ في قلبه اعتلاجاً، وكانت نفسه تبكي فيه بكاءًها وتَغْضُ من غُضَّتْها، وكأن في الصوت فكراً حزيناً يستعلن في همّ موسيقى، وخيل إلينا بين ذلك أن البيانة انقلبت امرأة مغنية تُطَارِحُ هذا الرجل عواطفها وأحزانها، فاجتمع من صوتهما أكمل صوت إنسانيّ وأجمله وأشجاه وأرقه. فأطفنا به وقلنا له: لقد كَتَمْتَنَا نَفْسَكَ حَتَّى نَمَّ عَلَيْهَا مَا سَمِعْنَا، وما هذا بغناء، ولكنه همومٌ مُلْحَنَةٌ تلحيناً، فلن ندعَكَ أو تُخْبِرْنَا ما كان شأنك وشأنها.

فاعتل علينا ودافعنا جهده، فقلنا له: هيهات؛ والله لن نُفْلِتَكَ وقد صرت في أيدينا، وإنك ما تزيدُ على أن تَعِظَنَا بهذه القصة؛ فإن أمسكت عنها فقد أمسكت عن موعظتنا، وإن بخلت فما بخلت بقصتك بل بعلم من علم الحياة نُفِيدُهُ مِنْكَ، وأنت ترانا نعيش هاهنا في اجتماع فاسد كأنه قِصَصٌ قَلْبِيَّةٌ، بين نساء لا يَلْبَسْنَ إِلَّا ما يَعْرِى جمالهن، وفي رجالٍ أفرطت عليهم الحرية، حتى دخل فيها مَخْدَعُ الزوجة...!

قال الدكتور: ونظرتُ فإذا الرجل كاسِفٌ قد تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَيَّنَ الانْكَسَارُ في وجهه، فَأَلَمْتُ بما في نفسه، وعلمتُ أنه قد دهى في زوجة من هؤلاء الأوربيات، اللواتي يتزوّجن على أن يكون مَخْدَعُ المرأةَ منهن حراً أن يأخذ وَيَدَعُ، وَيُغَيِّرُ وَيَبْدَلُ، وَيَقْسِمُ كلمة «زوج» قسمين وثلاثة وأربعة وما شاء..

(١) وضعنا هذين البيتين لبطل القصة، وكم لهذه القصة من أبطال...!

وكأنما مَسَسْتُ البارودَ بتلك الشرارة، فانفجرت نفسُ الرجل عن قصة ما أقطعها!

قال: يا إخواني المصريين، قبل أن أنفضَ لكم ذلك الخبر أسديكم هذه النصيحة التي لم يضعها مؤلف تاريخي لسوء الحظ، إلا في الفصل الأخير من رواية شقائي: إياكم إياكم أن تغتروا بمعاني المرأة، تحسبونها معاني الزوجة؛ وفرّقوا بين الزوجة بخصائصها، وبين المرأة بمعانيها، فإن في كل زوجة امرأة، ولكن ليس في كل امرأة زوجة.

واعلموا أن المرأة في أنوثتها وفنونها النسائية الفردية، كهذا السحاب الملون في الشفق حين يبدو؛ له وقتٌ محدود ثم يُمسَخُ مسخًا، ولكنَّ الزوجة في نسائيتها الاجتماعية كالشمس؛ قد يحجبها ذلك السحاب، بيد أن البقاء لها وحدها، والاعتبار لها وحدها، ولها وحدها الوقت كله.

لا تتزوجوا يا إخواني المصريين بأجنبية، إن أجنبية يتزوج بها مصري، هي مُسدسٌ جرائمٌ فيه ستُ قذائف:

الأولى: بوارُ امرأةٍ مصرية وضياعُها بضياع حقها في هذا الزواج؛ وتلك جريمة وطنية. فهذه واحدة.

والثانية: إقحام الأخلاق الأجنبية عن طباعنا وفضائلنا في هذا الاجتماع الشرقي، وتوهينه بها وصدّعه؛ وهي جريمة أخلاقية.

والثالثة: دسُّ العروق الزائغة في دماننا ونسْلنا؛ وهي جريمة اجتماعية. والرابعة: التمكين للأجنبي في بيت من بيوتنا، يملكه ويحكمه ويصرفه على ماشاء؛ وهي جريمة سياسية.

والخامسة: للمُسلم منا إثارة غير أخته المسلمة، ثم تحكيمة الهوى في الدين، ما يعجبه وما لا يعجبه، ثم إلقاؤه السّم الديني في نبع ذريته المقبلة، ثم صيورته خزيًا لأجداده الفاتحين الذين كانوا يأخذونهنّ سبايا، ويجعلونهن في المنزلة

الثانية أو الثالثة بعد الزوجة؛ فأخذته هي رقيقاً لها، وصار معها فى المنزلة الثانية أو الثالثة بعد^(١)... وهذه جريمة دينية.

والسادسة: بعد ذلك كله، أن هذا المسكين يؤثر أسفله على أعلاه... ولا يبالي فى ذلك خمس جرائم فظيعة.

وهذه السادسة جريمة إنسانية!

ما كنتُ أحسبُ يا إخوانى، وقد رجعتُ بزوجتى الأوربية إلى مصر، أنى أحضرتُ معى من أوربا آلةً تصنع أحزاني ومصابى! ولم يكن وَعَظْنى أحدٌ بما أعظكم به الآن، ولا تنبهتُ بذكائى إلى أن الزوجة الأجنبية تثبتُ لى غربتى فى بلادى! وتثبتُ على أنى غير وطنى أو غير تامّ الوطنية، ثم تكونُ منى حماقة تثبت للناس أنى أحقق فيما اخترت؛ ثم تعودُ مشكلةً دولية فى بيتى، يزورها أبناءُ جنسها ويستزفونها برغم أنفى وفمى ووجهى كله! ويستطيلون بالحماية، ويستقرون بالامتيازات، ويرفعون ستاراً عن فصل، ويُرْخون ستاراً على فصل... وأنا وحدى أشهد الرواية..!

إن الشيطان فى أوربا شيطانُ عالم مخترع؛ فقد زين لى من تلك الزوجة ثلاث نساء معاً: زوجة عقلية، وزوجة قلبية، وزوجة نفسية؛ ثم نفث اللعين فى روعى أن المرأة الشرقية ليس فيها إلا واحدة، وهى مع ذلك ليست من هؤلاء الثلاث ولا واحدة. قال الخبيث: لأنها زوجة الجسم وحده، فلا تسمو إلى العقل، ولا تتصل بالقلب، ولا تمتزج بالنفس؛ وأنها بذلك جاهلة، غليظة الحس، خشنّة الطبع، لا تكون مع المصرى إلا كما تكون الأرض المصرية مع فلاحها...

لعنة الله على ذلك الشيطان الرجيم العالم المخترع! ما علمتُ إلا من بعد أن هذه الشرقية الجاهلة الخشنّة الجافية، هى كالمنجّم الذى تبرّهُ فى ترابه، وماسه فى فحمة، وجوهره فى معدنه، وأن صعوبتها من صعوبة العفة الممتنعة، وأن

(١) يريد: بعد عشيقها.

خشونتَها من خشونة الحب المعتز بنفسه، وأن جفائها من جفاء الدين المتسامي على المادة؛ وأنها بمجموع ذلك كان لها الصبرُ الذي لا يدخله العجز، وكان لها الوفاء الذي لا تلحقه الشبهة، وكان لها الإيثار الذي لا يُفسده الطمع. هي جاهلةٌ، ولها عقل الحياة في دارها؛ وغليلةٌ الحس ولها أرقُّ ما في الزوجة لزوجها وحده؛ وخشنةٌ الطبع؛ لأنها تنزّه أن تكون مَلَمَسًا ناعماً لهذا وذاك وهؤلاء وأولئك... لا كامرأة الحب الأوربية، التي تجعل نفسها أنثى الفن، وتريد أن تعيش دائماً مع زوجها الشرقي من التفضيل والإيثار والإجلال والإباحة - في كلمة «أنا» قبل كلمة «أنت».. امرأةٌ أنشأتها الحربُ العظمى بأخلاق مُخرّبة مُدمرة تنفجر بين الوقت والوقت.

عندنا يا إخواني تعدّد الزوجات، يتهموننا به عمى وجهل وسخافة. انظروا، هل هو إلا إعلانٌ لشرعية الرجولة والأنوثة، ودينية الحياة الزوجية في أيّ أشكالها؛ وهل هو إلا إعلانٌ بطولة الرجل الشرقي الأنوف الغيور، أن الزوجة تتعدّد عند الرجل ولكن... ولكن ليس كما يقع في أوروبا من أن الزوج يتعدّد عند المرأة...! يتهموننا بتعدّد المرأة على أن تكون زوجةً لها حقوقها وواجباتها - بقوة الشرع والقانون - نافذةً مؤدّة؛ ثم لا يتهمون أنفسهم بتعدّد المرأة خليلةً مخادنةً ليس لها حقّ على أحد، ولا واجبٌ من أحد، بل هي تتقاذفها الحياة من رجلٍ إلى رجلٍ، كالسكير يتقاذفه الشارع من جدارٍ إلى جدار.

لعنة الله على شيطان المدنية العالم المخترع المخنث، الذي يجعل للمرأة الأوربية بعد أن يتزوجها الرجل الشرقي، أصابع «أوتوماتيكية»، ما أسرع ما تمتد في نزوة من حماقاتها إلى رجلها بالمسدّس، فإذا الرصاص والقتل؛ وما أسرع ما تمتد في نزوة من عواطفها إلى عاشقها بمفتاح الدار، فإذا الخيانة والعُهر!!

ماذا تتوقعون يا إخواني من تلك الرقيقة الناعمة، المتأنثة بكل ما فيها أنوثة تكفي رجالاً لا رجلاً واحداً، وقد ضعفت روحية الأسرة في رأيها، وابتذلت الروحية في مجتمّعها ابتذالاً، فأصبح عندها الزواج للزواج على إطلاقه، لا لتكون امرأة

واحدة لرجل واحد مقصورة عليه؛ وبذلك عاد الزواج حقاً فى جسم المرأة دون قلبها وروحها؛ فإن كان الزوج مشئوماً منكوباً لم يستطع أن يكون رجلاً قلبها فعليه أن يدع لها الحرية لتختار زوج قلبها...! ومعنى ذلك أن تكون هذه المرأة مع الزوج الشرعى بمنزلة المرأة مع فاسق؛ ومع الفاسق بمنزلة المرأة مع الزوج الشرعى...! وإن كان الرجل منحوساً مخيباً، وكان قد بلغ إلى قلبها زمناً ثم مله قلبها، فعليه أن يدع لها الحرية لتنتقل وتلد بذات الهوى، ويقول لها: شأنك بمن أحببت! فإن هذا المنحوس المخيب ليس عندها إنساناً، ولكنه رواية إنسانية انتهت الفصل الجميل منها بمناظره الجميلة، وبدأ فصل آخر بحوادث غير تلك. فلمن يشهد الرواية أن يتبرم ما شاء، ويستثقل كما يشاء، ومتى شاء انصرف من الباب...!

امرأة هذه المدنية فى امرأة العاطفة؛ تتعلق باللفظ حين تلبس العاطفة من زينتها، وإن ضاع فيه المعنى الكبير من معانى العقل، وإن فاتت به النعمة الكبيرة من نعم الحياة.

تقوى العاطفة فتجئ بها إلى رجل، ثم تقوى الثانية فتذهب بها مع رجل آخر...! وتقيّد نفسها إن شاءت، وتُسرح نفسها إن شاءت، وما بُد من أن تَبْلُو الحياة كما يبُلُوها الرجل وأن تخوض فى مشاكلها، وإذا شاءت جعلت نفسها إحدى مشاكلها...! ولا مندوحة من أن تتولى شأن نفسها بنفسها، فإذا خاست أو غدرت فكل ذلك عندها من أحكام نفسها، وكل ذلك رأى وحق؛ إذ كان محورها الذى تدور عليه هو عاطفتها وحرية هذه العاطفة، فمن هذا يُقرّر لها خطتها، ويُملى عليها واجباتها، ويؤرّ لها الأسماء على إرادته دون إرادتها، فيسمى لها نكد قلبها باسم فضيلة المرأة، وحرمان عاطفتها باسم واجب الزوجة الشريفة؟

ومن ذا خوله الحق أن يقرر وأن يُملى؟

وهذا الشرقى العتيق المأفون الذى قبلها سافرة لا تعرف رُوحها ولا جسمها الحجاب؛ ما باله يريد أن يضرب الحجاب على عاطفتها، ويتركها محبوسة فى شرفه وحقوقه وواجباته، وإن لم تكن محبوبة فى الدار؟

ما علمتُ يا إخواني إلا من بعد، أن الزوجة الغربية قد تكونُ مع زوجها الشرقي كالسائحة مع دليلها. هيهات هيهات، إنه لن يُمسكها عليه، ولن يُكرهها على الوفاء له، إلا أن تكونَ حُثالةً يزهدُ فيها حتى ذُبابُ الناس؛ فيأسُها هو يجعل هذا المسكينَ مطمَّعها، وهي مع ذلك لو خلطته بنفسها ل بقيتُ منها ناحية لا تختلط؛ إذ ترى أمتَه دون أمتها، وجنسَه دون جنسها؛ فما تَسُبُّ أمةَ زوجها وبلاده بأقبح من هذا!

أما والله إن الرجل الشرقي حين يأتي بالأجنبية لتلوين حياته بألوان الأنثى.... لا يكون اختار أزهى الألوان إلا لتلوين مصائب حياته! وقد يكون هناك ما يشد، ولكن هذه هي القاعدة.

أما قصتي يا إخواني.....

قال الدكتور محمد: قد حكيتها «يرحمك الله».

■ ■ ■

قصيدة مترجمة عن الشيطان

لحوم البحر (*)

لَكأنما والله تَمَدَّدَ على سِيفِ البحرِ فى الإسكندرية شيطانٌ مارِدٌ من شياطينِ
ما بينَ الرجلِ والمرأةِ، يخدعُ الناسَ عن جهنمَ بتبريدِ معانيها... وقد امتلأ به
الزمانُ والمكانُ؛ فهو يُرْعِشُ ذلكَ الرملَ بذلكَ الهواءِ رَعَشَةً أعصابِ حيةٍ؛ ويُرسِلُ
فى الجوِ نفخاتٍ من جُرأةِ الخمرِ فى شاربها ثارَ فَعَرَبِد، ويُطلِعُ الشمسَ للأعينِ فى
منظرِ حَسَناءِ عُرْيانةٍ أَلْقَتْ ثيابها وحياءها معاً؛ ويُرخي الليلَ ليغطى به المَخازى
التي خجلَ النهارُ أن تكونَ فيه.

ولَعَمري إن لم يكنَ هو هذا الماردُ، ما أَحَسَبُهُ إلا الشيطانَ الخبيثَ الذى ابتدع
فكرةَ عرضِ الآثامِ مَكشوفةً فى أجسامها تحت عينِ التقى والفاجر، لتعملَ عَمَلُها
فى الطباعِ والأخلاقِ؛ فَسَوَّلَ للنساءِ والرجالِ أن ذلكَ الشاطئَ علاجُ المَلَمَلِ من الحرِ
والتعبِ، حتى إذا اجتمعوا، فتقاربوا، فتشابكوا، سَوَّلَ لهم الأخرى أن الشاطئَ هو
كذلكَ علاجُ المَلَمَلِ من الفضيلةِ والدينِ!

وإن لم يكنِ اللعينانِ فهو الرجيمُ الثالثُ، ذلكَ الذى تَأَلَّى أن يُفسدَ الآدابَ الإنسانيةَ
كلها بفسادِ خُلُقٍ واحدٍ، هو حياءُ المرأةِ؛ فبدأ يكشِفُها للرجالِ من وَجْهها، ولكنه
استمرَّ يكشفُ... وكانت تظنه نَزَعَ حجابها فإذا هو أولُ عُرْيِها... وزادت المرأةُ،
ولكن بما زاد فجورَ الرجالِ؛ ونَقَصَتْ، ولكن بما نَقَصَ فضائلهم؛ وتغيرت الدنيا
وفَسَدَتِ الطباعُ؛ فإذا تلكَ المرأةُ ممن يُقَرُّونها على تَبْذُلِها بين رجلين لا ثالثَ لهما:
رجلٌ فَجَرٌ، ورجلٌ تخنث...

(*) كتبها فى مصيفه بالإسكندرية.

هناك فكرة من شريعة الطبيعة هى عقل البحر فى هؤلاء الناس، وعقل هؤلاء الناس فى البحر؛ إذا أنت اعترضتها فتبينتها فتعقبها، رأيتها بلاغة من بلاغة الشيطان فى تزيينه وتطويعه، وأصبت فكرة مستقرًا فيها استقرار المعنى فى عبارته، آخذًا بمدخلها ومخرجها. وما كان الشيطان عيياً ولا غيباً، بل هو أذكى شعراء الكون فى خياله، وأبلغهم فى فطنته، وأدقهم فى منطقته، وأقدرهم على الفتنة والسحر؛ فى هذا كله كان شيطاناً لم تسعه الجنة إذ ليس فيها النار، ولم ترضه الرحمة إذ ليس معها الغضب، ولم يعجبه الخضوع الملائكى إذ ليس فيه الكبرياء، ولم يخلص إلى الحقيقة إذ لا تحمل الحقيقة شعر أحلامه.

وما أتى الشيطان أحداً، ولا وسوس فى قلب، ولا سؤل لنفس، ولا أغوى من يغويه - إلا بأسلوب شعري ملتبس دقيق، يجعل المرء يعتقد أن اطراح العقل ساعة هو عقل الساعة، ويُفسد برهانه مهما كان قوياً؛ إذ يرتد به من النفس إلى أخيلة لا تقبل البرهانات، ويقطع حجته مهما كانت دامغة؛ إذ يعترضها بنزعة من النزعات توجهها كيف دار بها الدم لا كيف دار بها المنطق.

فكرة من شريعة الطبيعة، ظاهرها لبعض الأمر من الشمس والهواء والبحر وما لا أدري، وباطنها لبعض الأمر من فن الشيطان وبلاغته وشعره وما لا أدري؛ وما كانت الشرائع الإلهية والوضعية إلا لإقرار العقل فى شريعة الطبيعة كى تكون إنسانية لإنسانها كما هى الحيوانية لحيوانها، وليجد الإنسان ما يحفظ به نفسه من نفسه التى هى دائماً فوضى، ولا غاية لها لولا ذلك العقل إلا أن تكون دائماً فوضى... وبالشرائع والآداب استطاع أن يضع لكلمة الطبيعة النافذة عليه جواباً، وأن يرى فى هذه الطبيعة أثر جوابه؛ فكلمتها هى: أيها الإنسان، أنت خاضع لى بالحيوانى فيك. وكلمته هى: أيتها الطبيعة، وأنت لى خاضعة بالإلهى فى.

والآن سأقرأ لك القصيدة الفنية التى نظمها الشيطان على رمل الشاطئ فى الإسكندرية؛ وقد نقلتها أترجمها فصلاً بعد فصل عن تلك الأجسام عارية وكاسية،

وعن معانيها مكشوفة ومغطاة، وعن طباعها بريئة ومتهمة، حتى اتسقت الترجمة على ما ترى:

قال الشيطان:

«ألا إن البهيمة والعقلية في هذا الإنسان؛ مجموعهما شيطانية...
ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.
هنا تتعرى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.
هنا يخلع الرجل ثوبه، ثم يعود إليه فيلبس فيه الأدب الذي خلعه...
رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظراً بالعين والعاطفة.
يرمى ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد.
ونظراً للمرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط...
تحوّل بصرها أو تخفّضه، وهى من قلبها تنظر...
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزّار...!

«يا لحوم البحر! سلخك جزّار من ثيابك.
جزّار لا يذبح بألم ولكن بلذّة...
ولا يحزّ بالسكين ولكن بالعاطفة...
ولا يُميت الحيّ إلا موتاً أدبيّاً...
إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء.
فهنا تلتحم نوااميس الطبيعة ونوااميس الأخلاق.
للطبيعة أسلحة العرى، والمخالطة، والنظر، والأنس، والتضاحك، ونزوع
المعنى إلى المعنى...
وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدئ؛ وسلاح من الحياء مكسور! يا لحوم
البحر! سلخك من ثيابك جزّار...»

«الشاطئ كبيرٌ كبير، يسعُ الآلاف والآلاف.
ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير، حتى لا يكون إلا خلوة...
وتقضى الفتاة سنتها تتعلم، ثم تأتي هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو....
وتُمضي المرأة عامها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي...
لو كانت حجاجاً صواماً، للعنثها الكعبة لوجودها في «استانلي».
الفتاة ترى في الرجال العُريانيين أشباح أحلامها، وهذا معنى من السقوط.
والمرأة تُسارقهم النظر تنويعاً لرجلها الواحد، وهذا معنى من المَواخير..
أين تكونُ النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانيين؟
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار....!»

«هناك التريبة، وهنا إعلان الإغفال والطيش.
وهناك الدين، وهنا أسباب الإغراء والزَل.
هناك تكلفُ الأخلاق، وهنا طبيعة الحرية منها.
وهناك العزيمة بالقهر يوماً بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد يوم.
والبحرُ يعلمُ اللائى والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر...
لو درى هؤلاء وهؤلاء مَعرةً اغتسالهم معاً فى البحر، لاغتسلوا من البحر.
فقطرة الماء التى نجسَتْها الشهواتُ قد انسكبتْ فى دمائهم.
وذرة الرمل النجسة فى الشاطئ، ستكبرُ حتى تصير بيتاً نجساً لأب وأم...
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار...!»

«يجيئون للشمس التى تقوى بها صفات الجسم؛
ليجد كل من الجنسين شمسَه التى تضعفُ بها صفات القلب.
يجيئون للهواء الذى تتجدد به عناصرُ الدم؛
ليجدوا الهواء الآخر الذى تفسدُ به معانى الدم.

يجيئون للبحر الذى يأخذون منه القوة والعافية؛
ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية: سمكة تطارد سمكة...
ويقولون ليس على المصيف حرج،
أى لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حرج.
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار...!

«المدارس، والمساجد، والبائع، والكنائس، ووزارة الداخلية؛
هذه كلها لن تهزم الشاطئ.
فأمواج النفس البشرية كأموال البحر الصاخب، تنهزم أبداً لترجع أبداً.
لا يهزم الشاطئ إلا «الجامع الأزهر»، لو لم يكن قد مُسَخ مدرسة!
فصرخة واحدة من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح.
وترد الأمواج نقية بيضاء^(١)، كأنها عمائم العلماء.
وتأتى إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء.
ولكنى أرى زمناً قد نقل حتى إلى المدارس روح «الكازينو»...!
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار....!

«هنا على رغم الآداب، مملكة للصيف والقيظ، سلطانها الجسم المؤنث العارى.
أجسام تعرض مفاتيحها عرض البضائع؛ فالشاطئ حانوت للزواج!
وأجسام تعرض أوضاعها كأنها فى غرفة نومها فى الشاطئ....
وأجسام جالسة لغيرها، تحيط بها معانيها ملتزمة معانيه؛ فالشاطئ سوق
للرقيق...»

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال «بيض»، ولسنا من هذا الرأى، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه، لغفلتهم عن السير فى بلاغة الاستعمال مرة فى الوصف بالمفرد، ومرة فى الوصف بالجمع.

وأجسام خَفِرَةٌ جالسةٌ للشمس والهواء؛ فالشاطئ كدار الكُفْرِ لمن أكره^(١).
وأجسامٌ عليلةٌ تَقْتَحِمُهَا الأعينُ فتزدرِيها، لأنها جَعَلَتِ الشاطئَ مستشفى...!
وأجسامٌ خليعةٌ أضافت من (استانلى) وأخواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة
الإسكندرية - مَزْبَلَة الإسكندرية...
كان جدالُ المسلمين في السفور، فأصبح الآن في العُرَى.
فإذا تطوّر، فماذا بقى من تقليد أوربا إلا الجدلُ في شرعية جمع المرأة بين الزوج
وشبه الزوج^(٢)؟».

انتهى ما استطعتُ ترجمته، بعد الرجوع فى مواضع من القصيدة إلى بعض
القواميس الحية... إلى بعض شبان الشاطئ.

■■■

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ النحل: ١٠٦.
(٢) يسمى هذا فى اللغة الضمد بفتح الضاد والميم، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج، ومنه قول
الشاعر:

تريدين كيما تضمدينى وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد
ومن هذا يقال فى الرجل: ذاق الضماد (بكسر الضاد) أى ذاق الطعم الذى وصفه أناتول فرانس.....

قصيدة مترجمة عن الملك

احذرى...!

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمة عن أحد الملائكة؛ رآنى جالساً تحت الليل وقد أجمعت أن أضع كلمة للمرأة الشرقية فيما تحاذره أو تتوجس منه الشر، فتخايل الملك بأضوائه فى الضوء، وسنح لى بروحه، وبث فى من سره الإلهى، فجعلت أنظر فى قلبى إلى فجر من هذا الشعر ينبع كلمة كلمة، ويشرق معنى معنى، ويستطير جملة جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرت فى حلم من الأحلام فجئت بها.

وانطلق ذلك الملك وتركها فى يدى لغة من طهارته للمرأة الشرقية فى ملائكتها:

احذرى...!

«احذرى أيتها الشرقية وبالغى فى الحذر، واجعلى أخص طباعك الحذر وحده. احذرى تمدن أوربا أن يجعل فضيلتك ثوباً يوسع ويضيّق؛ فلبس الفضيلة على ذلك هو لبسها وخلعها...

احذرى فنهم الاجتماعى الخبيث الذى يفرض على النساء فى مجالس الرجال أن تؤدى أجسامهن ضريبة الفن...

احذرى تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقّة إلى... إلى الفضيحة.

احذرى تلك النسائية^(١) الغزليّة؛ إنها فى جملتها ترخيص اجتماعى للحرّة أن... أن تشارك البغى فى نصف عملها.

(١) نحن نستعمل: النسائية والنسوة، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار فى كل موضع للأفصح فى موقعه.

أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى التمدن الذى اخترع لقتل لَقَبِ الزوجةِ المقدَّس، لقب «المرأة الثانية»...
واخترع لقتل لقبِ العذراءِ المقدَّس، لقب «نصف عذراء»...
واخترع لقتل دينيةِ معانى المرأة، كلمة «الأدب المكشوف»...
وانتهى إلى اختراع السُّرعة فى الحب... فاكتمى الرجلُ بزوجةِ ساعة...
وإلى اختراع استقلالِ المرأة، فجاء بالذى اسمُهُ (الأب) من الشارع، لتلقى بالذى
اسمُهُ (الابن) إلى الشارع.
أيتها الشرقية، احذرى احذرى!

«احذرى وأنتِ النَجْمُ الذى أضاء منذُ النبوة، أن تقلدى هذه الشمعة التى أضاءتْ
منذُ قليل.
إن المرأة الشرقية هى استمرارٌ متصلٌ لآداب دينها الإنسانى العظيم.
هى دائماً شديدة الحفاظ حارِسةٌ لحَوَزَتِها؛ فإن قانون حياتها دائماً هو قانون
الأمومة المقدَّس.
هى الطهر والعفة، هى الوفاء والأنفة، هى الصبر والعزيمة، هى كلُّ فضائل الأم.
فما هو طريقُها الجديدُ فى الحياة الفاضلة، إلا طريقُها القديمُ بعينه؟
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى (ويحك) تقليد الأوربية التى تعيش فى دنيا أعصابها محكومةً بقانون
أحلامها...
لم تعدْ أنوثتها حالةً طبيعِيَّةً نفسيَّةً فقط، بل حالةً عقليَّةً أيضاً تشكُّ وتُجادل...
أنوثةً تَفَلَّسَتْ فرأت الزواج نصف الكلمة فقط... والأم نصف المرأة فقط...»

ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة...
إنها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ للرجل. ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها...
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى خَجَلِ الأوربية المترجِّلة من الإقرار بأنوثتها.
إن خَجَلَ الأنثى يجعل فضيلتها تخجل منها...
إنه يُسَقِّطُ حياءها ويكسو معانيها رُجُولَةً غيرَ طبيعِيَّةٍ،
إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى...
والمرأة تعلقو بالزواج درجةً إنسانيةً، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجةً إنسانيةً
بالزواج.

أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى تَهَوُّسِ الأوربية فى طلب المساواة بالرجل.
لقد ساوته فى الذهابِ إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجد فى وجهها اللَّحْيَةَ...
إنها خُلِّقت لتَحْبِيبِ الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادَّةً تبغِيضُ.
العجيبُ أن سرَّ الحياة يَأْبَى أبداً أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خَسِرَتْه.
والأعجبُ أنها حين تخضع، يرفعها هذا السرُّ ذاته عن المساواة بالرجل إلى
السيادة عليه.

أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى أن تخسرى الطباع التى هى الأليقُ بأم أنجبت الأنبياء فى الشرق.
أمَّ عليها طابع النفس الجميلة، تنشرُ فى كل موضع جَوْ نفسها العالية.
فلو صارت الحياة غَيْمًا ورعدًا وبرقًا، لكانت هى فيها الشمس الطالعة.

ولو صارت الحياة قَيْظًا وَحَرُورًا واختناقًا، لكانت هى فيها النسيم يَتَخَطَّرُ.
أُمُّ لا تبالى إلا أخلاق البُطولةِ وعزائمها، لأن جَدَّاتها وَلَدْنَ الأبطال.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى هؤلاء الشَّبَّان المتمدنين بأكثر من التمدن...
يُبَالِغُ الخبيثُ فى زينته، وما يدرى أن زينته مُعْلَنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر.. ويبالغُ
فى عَرَضِ رَجُولَتِهِ على الفَتَيَاتِ، يحاولُ إيقاظَ المرأةِ الراقدةِ فى العذراء المسكينة!
ليس لامرأةِ فاضلةٍ إلا رَجُلُها الواحد، فالرجالُ جميعًا مَصائِبُها إلا واحدًا.
وإذ هى خالطت الرجال، فالطبيعىُّ أنها تُخالطُ شَهَوَاتٍ، ويجب أن تحذَرَ وتُبَالِغُ.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى؛ فإن فى كل امرأةٍ طبائعٌ شريفةٌ مُتَهَوِّرةٌ؛ وفى الرجالِ طبائعٌ خسيصةٌ
متَهَوِّرةٌ.
وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرفِ فيه الميل إلى النزول، وبين الخِسةِ فيها
الميل إلى الصَّعود.

فيكُ طبائعُ الحبِّ، والحنان، والإيثار، والإخلاص، كلما كَبُرَتْ كَبُرَتْ.
طبائعُ خَطَرَةٍ، إن عملت فى غير موضعها... جاءت بعكس ما تعمله فى موضعها.
فيها كُلُّ الشرفِ ما لم تنخدعْ، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كُلُّ العار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى كلمةً شيطانيةً تسمعينها: هى فَنِيَّةُ الجمال أو فَنِيَّةُ الأنوثة.
وافهميها أنتِ هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.
بكلمة يكون الإحساس فاسدًا، وبكلمة يكون شريفًا.

ولا يَتَسَقَّطُ الرجل امرأةً إلا فى كلمات مُزَيَّنةٍ مثلِها...
يجب أن تَتَسَلَّحَ المرأةُ مع نظرتها، بنظرة غضب ونظرة احتقار.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى أن تُخدعى عن نفسك؛ إن المرأة أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة.
إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك، هى أخت الكلمة التى تقال ساعة إنفاذ الحكم
للمحكوم عليه بالشَّنَق...
يَغْتَرُونَكَ بكلمات الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعد إلى الشناقعة^(١)
ماذا تشتهى؟ ماذا تريد؟

الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى أمام الدجاجة...
الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحم الدجاجة! بعض كلمات الثعلب هى أنياب الثعلب...
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

«احذرى السقوط؛ إن سقوط المرأة لهوُّه وشِدَّتُه ثلاث مصائب فى مصيبة:
سقوطها هى، وسقوط من أوجدها، وسقوط من توجدهم!
نَوَائِبُ الأسرة كلها قد يَسْتُرُها البيت، إلا عار المرأة.
فَيَدُ العار تَقْلِبُ الحيطان كما تَقْلِبُ اليد الثوب فتجعل ما لا يرى هو ما يرى.
والعار حكمٌ ينفذه المجتمع كله، فهو نفى من الاحترام الإنسانى.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!

(١) كلمة «المشنقة» ليست عربية، ولكن لها وجهاً فى الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة،
وكان اسمها قديماً «الشناقعة»، ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء، وهى أفصح وأخف، فلعل الشناقعة بعد هذا
تشنق المشنقة....

«لو كان العار فى بئر عميقة لقلبها الشيطان مِنْدَنَةً ووقفَ يُؤذَنَ عليها.
يفرَح اللعين بفضيحةِ المرأةِ خاصَّةً، كما يفرحُ أبُّ غنىٍّ بمولودٍ جديدٍ فى بيته...
واللصُّ، والقاتلُ، والسكِّيرُ، والفاسقُ، كل هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحرِّ
والبرد:

أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هى الزلزلة.
ليس أفظعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض، إلا عار المرأة حين يشق الأسرة.
أيتها الشرقية! احذرى احذرى!»



الجمال البائس (*)

(١)

«وكيف يُشعّب صدع الحبّ في كبدي»، كيف يُشعّب صدع الحب؟
لعمري ما رأيت الجمال مرةً إلا كان عندي هو الألم في أجمل صوره وأبدعها؛
أتراني مخلوقاً بجرح في القلب؟
ولا تكون المرأة جميلةً في عيني، إلا إذا أحسست حين أنظر إليها أن في نفسي شيئاً قد عرفها، وأن في عينيها لحظات موجهة، وإن لم تنظر هي إليّ.
فإثبات الجمال نفسه لعيني، أن يُثبّت صداقته لروحي باللمحة التي تدلّ وتتكلم:
تدلّ نفسي وتتكلم في قلبي.

كنت أجلس في (الإسكندرية) بين الضحى والظهر، في مكان على شاطئ البحر،
ومع صديقي الأستاذ (ح)^(*) من أفاضل رجال السلك السياسي، وهو كاتب من ذوى
الرأى، له أدب غص ونوادر وظرائف، وفي قلبه إيمان لا أعرف مثله في مثله، قد
بلغ ما شاء الله قوة وتمكناً، حتى لأحسب أنه رجل من أولياء الله قد عوقب فحكم عليه
أن يكون محامياً، ثم زيد الحكم فجعل قاضياً، ثم ضعفت العقوبة فجعل سياسياً...
وهذا المكان ينقلب في الليل مسرحاً ومرقّصاً ومابينهما... فيتغاوى فيه الجمال
والحب، ويعرض الشيطان مصنوعات في الهزل والرقص والغناء^(١)، فإذا دخلته في
النهار رأيت نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه، فتحسّ للنور هناك عملاً في نفسك.

(*) انظر قصة صاحبة الجمال البائس في «عود على بدء» من كتاب حياة الرافعي.

(**) الأستاذ حافظ عامر (بك).

(١) انظر مقالة (لو ...) في الجزء الثاني، فقد كتبت عن هذا المسرح بعينه.

ويُرى المكانُ صَدْرًا من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل ، فما تَجِيئه من ساعة بين الصبح والظهر ، إلا وجدته ساكنًا هادئًا كالجسم المستثقل نومًا ؛ ولهذا كنت كثيرًا ما أكتب فيه ، بل لا أذهب إليه إلا للكتابة.

فإذا كان الظهر أقبل نساء المسرح ومعهن من يُطارحن الأناشيدَ وألحانها ومن يُثقفهن فى الرقص ، ومن يُرويهن ما يُمثلن إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتساقط عليهن الليالى بالموت ليلةً بعد ليلة.

وكنّ إذا جئن رأيننى على تلك الحال من الكتابة والتفكير ، فينصرفن إلى شأنهن ، إلا واحدة كانت أجملهن^(*) ، وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل كأن منهن مثل العنز التى كسر أحد قرنيها ، فهى تحمل على رأسها علامة الضعف والذلة والنقص ، ولو أن امرأة تتبدد حيناً فلا تكون شيئاً ، وتجتمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً ، وأخرى شكلاً ناقصاً ، وتارة هيئةً مُشوّهة ؛ لكانت هى كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتى يمشين فى المسرّات إلى المخاوف ، ويعشن ولكن بمقدّمات الموت ، ويجدن فى المال معنى الفقر ، ويتلقين الكرامة فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أب أو أم أو زوجة.

وتلك الواحدة التى أومأت إليها كانت حزينة مُتسلّبة^(١) فكانما جذبها حزنُها إلى ، وكانت مفكرة فكانما هداها إلى فكرها ، وكانت جميلةً فدلّها على الحب ، وما أدري والله أى نفسينا بدأت فقالت للأخرى أهلاً... ورأيته لا تصرف نظرها عنى إلا لترده إلى ، ولا تردّه إلا لتصرفه ؛ ثم رأيته قد جال بها الغزل جولةً فى معركته... فتشاغلت عنها لا أريها أنى أنا الخصم الآخر فى المعركة..

(*) يعنى راقصة هناك اسمها «بنوتشيا».

(١) يقال : تسلبت المرأة. إذا أهدت ، أى لبست ثياب الحداد.

بَيْدَ أَنى جَعَلْتُ آخِذَهَا فى مَطَارِحِ النظر، وَأَتَأْمَلُهَا خُلْسَةً بعد خُلْسَةٍ فى ثوبِها
الحريرى الأسود، فَإِذْ هو يَشُبُّ لَوْنَهَا^(١) فيجعلُهُ يَتَلَأَلُ، وَيُظْهِرُ وَجْهَهَا بِلَوْنِ البدر
فى تَمِّهِ، وَيُبْدِيهِ لِعَيْنَى أَرْقٍ من الورد تحت نور الفجر.

ورَأَيْتُ لَهَا وَجْهًا فىهِ المرأةُ كُلُّهَا باختصار، يُشْرِقُ على جِسمِ بَضِّ أَلَيْنَ من خَمَلِ
النَّعام، تَعْرِضُ فىهِ الأنوثةُ فَنَّهَا الكامل؛ فلو خُلِقَ الدلالُ امرأةً لَكَانَتْهَا.
وَتَلَوُّحُ للرأى من بعيد كأنها وَضَعَتْ فى فَمِها (زَرَّ وَرَد) أَحْمَرَ مُنْضَمًّا على نَفْسِهِ:
شَفَتَانِ تَكَادُ ابْتِسَامَتُهُمَا تَكُونُ نداءً لَشَفَتَى مُحِبِّ ظَمَانٍ...!

أما عيناها فما رَأَيْتُ مِثْلَهُمَا عَيْنَى امرأةٍ ولا ظَبْيَةٍ؛ سَوَادُهُمَا أَشَدُّ سَوَادًا من عيون
الظباء؛ وقد خُلِقَتَا فى هَيْئَةٍ تُثَبِّتُ وجودَ السحرِ وفَعْلَهُ فى النفس؛ فهما القوَّةُ الواثقةُ
أنْهَا النافذةُ الأمر، يُمازِجُهَا حَنَانٌ أَكْثَرُ مما فى صدر أم على طفلها؛ وتَمَامُ المِلاحَةِ
أنْهُمَا هما، بهذا التَكْحِيلِ، فى هذه الهَيْئَةِ، فى هذا الوجهِ القَمَرِىِّ.
يا خالِقَ هاتينِ العَيْنَيْنِ! سَبِّحَانَكَ سَبِّحَانَكَ!

قال الراوى:

وَأَتَغَاوَلُ عَنْهَا أَيَّامًا؛ وطال ذلك منى وشَقَّ عَلَيْهَا، وكأنى صَغَرْتُ إِلَيْهَا نَفْسُهَا،
وأَرَهَقْتُهَا بِمعْنَى الخُضوعِ، بَيِّدُ أَنْ كِبَرِياءَها التى أَبَتْ لَهَا أَنْ تَقْدَمَ، أَبَتْ عَلَيْهَا كَذَلِكَ
أَنْ تَنْهَزِمَ.

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أَسْتَنْشِى العِطَرَ يَكُونُ مُتَضَوِّعًا فى
الهواء: لا أنا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْسَهُ ولا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَخَذْتَ مِنى. ثم لا تَدْفَعُنِى
إِلَيْهِ إِلَّا فِطْرَةَ الشَّعْرِ والإِحساسِ الرُّوحانى، دون فِطْرَةِ الشَّرِّ والحيوانية^(٢) ومتى

(١) يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال.

(٢) بسطنا هذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا «أوراق الورد» وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب،

فلم نتوسع فيه هنا.

أَحْسَسْتُ جَمَالَ الْمَرْأَةِ أَحْسَسْتُ فِيهِ بِمَعْنَى أَكْبَرَ مِنَ الْمَرْأَةِ، أَكْبَرَ مِنْهَا؛ غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مِنْهَا.

قال الراوى:

فإني لجالس ذات يوم وقد أقبلت على شأنى من الكتابة، وبإزائى فتى رقيق الشباب، فى العمر الذى ترى فيه الأعين بالحماسة والعاطفة، أكثر مما ترى بالعقل والبصيرة، ناعمٌ أُمْلَدُ تَمَّ شَبَابُهُ وَلَمْ تَتَمَّ قُوَّتُهُ، كأنما نَكَصَتِ الرَّجُولَةُ عَنْهُ إِذْ وَافَتْهُ فَلَمْ تَجِدْهُ رَجُلًا... أو تلك هى شِيْمَةُ أَهْلِ الظَّرْفِ وَالْقَصْفِ مِنْ شَبَابِ الْيَوْمِ: ترى الواحدَ مِنْهُمْ فَتَعْرِفُ النَّضَجَ فى ثِيَابِهِ أَكْثَرَ مِمَّا تَعْرِفُهُ فى جِسْمِهِ، وتَأْبَى الطَّبِيعَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ أَنْثَى فَيَجَاهِدُ لِيَكُونَ ضَرْبًا مِنَ الْأُنْثَى...! إني لجالسٌ إِذْ وَافَتِ الْحُسْنَاءُ فَأَوْمَأَتْ إِلَى الْفَتَى بِتَحِيَّتِهَا، ثم ذهبَتْ فَاعْتَلَّتْ الْمِنْصَّةَ مَعَ الْبَاقِيَّاتِ، وَرَقَصَتْ فَأَحْسَنْتُ مَا شَاءَتْ، وَكَأَنَّ فى رَقْصِهَا تَعْبِيرًا عَنْ أَهْوَاءِ وَنَزَعَاتِ تَرْيَدُ إِثَارَتِهَا فى رَجُلٍ مَا... فَقُلْتُ لِصَاحِبِنَا الْأُسْتَاذِ (ح): إِنْ كَلِمَةُ الرَّقْصِ إِنَّمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذَا، كَمَا يَسْتَعْرِنَ كَلِمَةُ الْحُبِّ لَجَمْعِ الْمَالِ؛ وَلَارْقَصَ وَلَا حَبَّ إِلَّا فُجُورٌ وَطَمَعٌ.

ثم إنها فرغت من شأنها فمرّت تَتَهَادَى حَتَّى جَاءَتْ فَجَلَسَتْ إِلَى الْفَتَى... فَقَالَ الْأُسْتَاذُ (ح) وَكَانَ قَدْ أَلَمَّ بِمَا فى نَفْسِهَا: أَتُرَاهَا جَعَلَتْهُ هَهُنَا مَحْطَةً...؟
قال الراوى: أَمَا أَنَا فَقُلْتُ فى نَفْسِي لَقَدْ جَاءَ الْمَوْضُوعُ... وَإِنِّ لَفَى حَاجَةً أَشَدَّ الْحَاجَةِ إِلَى مَقَالَةٍ مِنَ الْمَكْحُولَاتِ، فَتَفَرَّغْتُ لَهَا أَنْظُرُ مَاذَا تَصْنَعُ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ قَلِيلًا مَا يَكُونُ لَهَا فِكْرٌ أَوْ فِلْسَفَةٌ؛ غَيْرَ أَنَّ الْفِكْرَ وَالْفِلْسَفَةَ وَالْمَعَانِي كُلَّهَا تَكُونُ فى نَظَرِهَا وَابْتِسَامَاتِهَا وَعَلَى جِسْمِهَا كُلِّهِ.

وكان فتاها قد وَضَعَ طَرَبُوشَهُ عَلَى يَدِهِ؛ فَقَدْ انْتَهَيْنَا إِلَى عَهْدٍ رَجَعَ حَكْمُ الطَرَبُوشِ فِيهِ عَلَى رَأْسِ الشَّابِّ الْجَمِيلِ، كَحَكْمِ الْبَرَقِ عَلَى وَجْهِ الْفَتَاةِ الْجَمِيلَةِ... فَأَسْفَرَ ذَاكَ مِنْ طَرَبُوشِهِ، وَأَسْفَرَتْ هَذِهِ مِنْ نِقَابِهَا - قَالَ الرَّاوى: فَمَا جَلَسْتُ إِلَى الْفَتَى حَتَّى أَدْنَيْتُ رَأْسَهَا مِنَ الطَرَبُوشِ، فَاسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ، فَأَلْصَقْتُ بِهِ خَدَّهَا...

ثم التفتت إلينا التفاتة الخشيف المذعور استزوح السبع^(١) ووجد مقدّماته فى الهواء، ثم أرخت عينيها فى حياء لا يستحى....
 وأنشأت تتكلم وهى فى ذلك تُسارقنا النظر، كأن فى ناحيتنا بعض معانى كلامها...
 ثم لا أدرى ما الذى تضحكت له، غير أن ضحكتها انشقت نصفين، رأينا نحن أجملهما فى ثغرها...
 ثم تزعزعت فى كرسيها كأنما تهم أن تنقلب، لتمتد إليها يد فتُمسكها أن تنقلب...
 ثم تساندت على نفسها، كالمریضة النائمة تتناهض من فراشها فيكاد يئن بعضها من بعضها، وقامت فمشت، فحاذتنا، وتجاوزتنا غير بعيد، ثم رجعت إلى موضعها متكسرة كأن فيها قوة تعلن أنها انتهت...

قال الراوى:

ونظرت إليها نظرة حزن؛ فتغصبت واغتاظت، وشاجرت هذه النظرة من عينيها الدعجائين بنظرات متهمكة، لا أدرى أهى توبخنا بها، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجاناً...؟

فقلت للأستاذ (ح)، وأنا أجهر بالكلام ليبلغها:

أما ترى أن الدنيا قد انتكست فى انتكاسها، وأن الدهر قد فسد فى فساد، وأن البلاء قد ضوعف على الناس، وأن بقية من الخير كانت فى الشر القديم فانتزعت؟
 قال: وهل كان فى الشر القديم بقية خير وليس مثلها فى الشر الحديث؟
 قلت: ههنا فى هذا المسرح قيان لو كانت إحداهن... فى الزمن القديم، لتنافس فى شرائها الملوك والأمراء وسراة الناس وأعيانهم، فكان لها فى عهارة الزمن صون وكرامة، وتقلب فى القصور فتجعل لها القصور حرمة تمنعها ابتذال فنّها لكل

(١) الخشف: ولد الغزال، يطلق على الذكر والأنثى. واستروح السبع: أى وجد ريحه فى الهواء قبل أن يراه، وكذلك طبيعة الحيوان.

من يدفع خمسة قروش، حتى لِرُذال الناس وغَوَّائِهِمْ وَسَفَلَتِهِمْ؛ ثم هي حين يُدْبِرُ شبابُها تكون في دار مولاها حَمِيلَةً على كَرَمٍ يَحْمِلُها، وعلى مُروءة تعيش بها. وقديماً أخذت سَلَامَةُ الزرقاء في قُبَلَتِها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم، تبلغ ألفى جنيه، فهل تأخذ القَيْنَةُ من هؤلاء إلا دَخِينَةً^(١) بمليمين....؟

قال الأستاذ (ح): ما أبعدك يا أخى عن (بورصة) القَبْلة وأسعارها.. ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين؟

قال الراوى:

كانت سَلَامَةُ هذه جاريةً لابن رَامِين^(٢)، وكانت من الجمال بحيث قيل في وصفها: كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفَيْها؛ فاستأذن عليها في مجلس غنائها الصَّيرَفَى الملقَّب بالماجن، فلما أذنت له، دخل فأقعى بين يديها، ثم أدخل يده في ثوبه فأخرج لؤلؤتين، وقال: انظري يا زرقاء جُعِلَتْ فِدَاكَ. ثم حَلَفَ أنه نَقَدَ فيهما بالأَمْسِ أربعين ألف درهم. قالت: فما أصنع بذاك؟ قال: أردتُ أن تعلمي... ثم غَنَّتْ صوتاً وقالت: يا ماجنُ هَبْهُما لى ويحك.. قال: إن شئتِ والله فعلتُ. قالت: قد شئتُ. قال: واليمينُ التى حَلَفْتَ بها لازمةٌ لى إن أخذتِهما إلا بشفتيكِ من شفتى.....

قال الراوى:

ورأيتها قد أذنت لى، وأنصتت لكلامى، وكأنما كانت تَسْمَعُنِي أَعْتَذِرُ إليها، واستيقنتُ أن ليس بى إلا الحزنُ عليها والرتاء لها، فبدتُ أشدَّ حَياءً من العذراء فى أيام الخِدر.....

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة، وجمعها الدخائن.

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه)، كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة، بمائة ألف درهم.

ثم قلتُ: نعم كان ذلك الزمنُ سفيهاً، ولكنها سفاهةٌ فنّ...
لأسفاهةٍ عَرَبْدَةٍ وَتَصَعْلِكٍ كما هي اليوم.
فنظرتُ إلى نظرةٍ لن أنساها؛ نظرةً كأنها تَدْمَعُ، نظرةً تقول بها: ألسْتُ إنسانة؟
فلم أملك أن قلتُ لها: تعالى تعالى.
وجاءت أحلى من الأملِ المَعْتَرِضِ سَنَحَتْ به الفُرصة، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا
قالت؟...



الجمال البائس

(٢)

جاءت أحلى من الأمل المعترض سَنَحَتْ به فُرْصة؛ وعلى أنها لم تَخْطِ إلينا إلا
خَطْوَةً وَتَمَامَهَا، فقد كانت تَجِدُ في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرضٍ إلى
أرضٍ، ونقلها البُعْدُ النازِحُ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ.

يا عجباً! إن جلوسَ إنسانٍ إلى إنسانٍ بإِزائه، قد يكونُ أحياناً سَفَرًا طويلاً في عالمِ
النفس؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ في دُنْيَا فارغةٍ من خلالِ كثيرة: كالتقوى، والحياءِ،
والكرامة، وسموِّ الروح، وغيرها؛ فإذا عَرَضَ لها من يُشعرُها بعضَ هذه الخلالِ،
وَيَنْتزعُها من دُنْيَا اضطرارِها وأخلاقِ عيشها ولو ساعةً، فما تكونُ قد وَجَدَتْ شخصاً،
بل كَشَفَتْ عالماً تَدْخُلُهُ بنفسٍ غيرِ النفسِ التي تَدَبَّرُها في عالمِ رزقها....
ولا أعجبَ من سحرِ الحبِّ في هذا المعنى؛ فإنَّ العاشقَ لِيَكُونُ حبيبَهُ إلى جانبه،
ثم لا يُحسُّ إلا إنه طَوَى الأرضَ والسمواتِ ودخلَ جَنَّةَ الخُلْدِ في قُبلة...

* * *

جلستُ إلينا كما تَجَلَّسُ المرأةُ الكريمةُ الخَفِرَةُ: تُعْطِيكَ وَجْهَهَا وتبتعدُ عنكَ
بسائرِها، وتُريكَ الغُصْنَ وتخبأُ عنكَ أزهاره. فرأيناها لم تستقبلِ الرجلَ منا بالأنثى
منها كما اعتادت؛ بل استقبلتْ واجِباً برِعاية، وتلطفًا بحَنانٍ، وأدباً من فنِّ بأدبٍ
من فنِّ آخر؛ وكان هذا عجيبيّاً منها؛ فكلَّمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت: أَمَّا واحدٌ
فإننا نَنبُعُ دائماً مَحَبَّةً من نجالِسُهم، وهذه هي القاعدة. وأما الثانية، فإننا لا نَجِدُ
الرجلَ إلا في النَّدْرَةِ؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يَتَسَوَّمُونَ بِسَيِّما الرجالِ، كحيلةِ
المحتالِ على غَفْلَةِ المغفَلِ؛ وهم معنا كالقُدْرَةِ بالثَمَنِ ما يشتريه الثمن؛ ليسوا علينا

إلا قَهْرًا من القَهْر؛ ولسنا عليهم إلا سَلْبًا من السَلْب، مادةٌ مع مادة، وشَرٌّ على شر؛ أما الإنسانيةُ منا ومنهم فقد ذَهَبَتْ أو هي ذاهبة.

قال (ح): ولكن:

فلم تدعه يَسْتَدْرِك بل قالت: إن «لكن» هذه غائبة الآن... فلا تجيء في كلامنا. أتريد دليلاً على هذا الانقلاب؟ إن كل إنسان يعلم أن الخطَّ المستقيم هو أقرب مَسَافَةٍ بين نُقْطَتَيْن؛ ولكنَّ كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخطَّ المَعْوَجَّ هو أقرب مَسَافَةٍ بينها وبين الرجل.... قالت: فإذا وَجَدَتْ إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها.. رَدَّتْها أخلاقه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل، وزادتها طبيعتها الزَّهْوُ بهذا الرجل النادر، فتكون معه في حالة كحالة أكمل امرأة، بيد أنه كمال الحُلم الذي يستيقظ وشيكاً؛ فإن الرجل الكامل يكملُ بأشياء، منها وأسفاه...! منها ابتعاده عنا. ثم قالت: وصاحبك هذا منذ رأيتَه، رأيتَه كالكتاب يشغلُ قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو....

وضحكتُ أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتابُ عند هذه كتاباً يشغلُ بمعانيه؟ غير أنى رأيتها قد تكلمت واحتفلت، وأحسنَت وأصابت؛ فتركتهما تتحدث مع الأستاذ (ح)، وغابتُ عنها غيبة فكر؛ وأنا إذا فكَّرتُ انطبق على قولهم: خَلَّ رَجُلًا وشأنه. فلا يتصلُ بى شيءٌ مما حولى. وكان كلامُها يسطعُ لى كالمصباح الكهربائى المتوقد، فقدمها فكرها إلى غير ما قدَّمتها إلى نفسها، ورأيتُ لها صورتين فى وقتٍ معاً، إحداهما تعتدِرُ من الأخرى....

وكنْتُ قبل ذلك بساعة قد كتبتُ فى تَذْكِرة خواطرى هذه الكلمة التى استوحيتُها منها؛ لأضعها فى مقالة عنها وعن أمثالها، وهى:

«إذا خرجت المرأة من حُدود الأسرة وشريعتهما؛ فهل بقى منها إلا الأنثى مجردة تجريدها الحيوانى المتكشِّف، المتعرِّض للقوة التى تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعملُ هذه المرأة عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذى استرعاها الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهل المال أهل السرقة؟ إن الليل ينطوى على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

«وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائماً وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهات والمحصنات من النساء، وليس شأنها من شأنهم؟ إن خيالها يحرز في وعيه صورتها الماضية من قبل أن تزل، فإذا خلت إلى نفسها كانت فيها اثنتان، إحداها تلعن الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ما ترى.

«وهى حين تطالع مرآتها لتتبرج وتحتفل في زينتها، تنظر إلى خيالها فى المرأة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها، ولهذا تبالغ أشد المبالغة؛ فلا تُعنى بأن تظهر جميلة كالمرأة، بل مُثمرة كالتاجر... وتكسبها بجمالها يكون أول ما تفكر فيه؛ ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه؛ بخلاف الطبع الذى فى المرأة، فإن سرورها بمسحة الجمال عليها هو أول فكرها وآخره.

«إن الساقطة لا تنظر فى المرأة - أكثر ما تنظر - إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة، وما يستهوى الرجل وما يفسد العفة عليه؛ فكأن الساقطة وخيالها فى المرأة، رجل فاسق ينظر إلى امرأة، لا امرأة تنظر إلى نفسها...».

ذهبت أفكر فى هذه الكلمة التى كتبتها قبل ساعة، ولم أستطع أن ألبس فى هذه القضية وجه القاضى؛ فدخلتنى رقة شديدة لهذا الجمال الفاتن، الذى أراه يبتسم وحوله الأقدار العابسة؛ ويلهو وبين يديه أيام الدموع؛ ويجتهد فى اجتذاب الرجال والشبان إلى نفسه، والوقت آت بالرجال والشبان الذين سيجتهدون فى طرده عن أنفسهم.

وتغشاني الحزن، ورأت هى ذلك وعرفته؛ فأخرجت منديلها المعطر ومسحت وجهها به، ثم هزته فى الهواء، فإذا الهواء منديل معطر آخر مسحت به وجهى... وقال الأستاذ (ح): آه من العطر! إن منه نوعاً لا أستنشيه مرة إلا ردنى إلى حيث كنت من عشرين سنة خلت، كأنما هو مسجل بزمانه ومكانه فى دماغى...

فضحكت هي وقالت إن عطرنا نحن النساء ليس عطرًا بل هو شعورٌ نُثبِتُهُ في شعورٍ آخر...

فقلت أنا: لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهًا غير هذا. قالت: وما هو؟ قلت: إن المرأة المعطرة المتزينة، هي امرأةٌ مُسلَّحةٌ بأسلحتها. أفي ذلك ريب؟ قالت: لا. قلت: فلماذا لا يُسمَّى هذا العطرُ بالغازاتِ الخانقةِ الغرامية...؟

فضحكت فنونا؛ ثم قالت: وتسمى (البودرة) بالديناميت الغرامى. ونقلنى ذلك إلى نفسى مرة أخرى، فأطرقتُ إطرقةً؛ فقالت: ما بك؟ قلت: بى كلمة الأستاذ (ح)، إنها ألهمتُ فى قلبى جَمرةً كانت خامدة.

قالت: أو حَرَكْتَ نقطةَ عطرٍ كانت ساكنة...!

فقلت: إن الحب يضعُ روحانيته فى كل أشيائه، وهو يغير الحالة النفسية للإنسان، فتتغيرُ بذلك الحالةُ للأشياء فى وَهْمِ المحب. (فعطرُ كذا) مثلاً... هو نوعٌ شَذُو من العطر، طيبُ الشَّميم، عاصِفُ النَّشوة، حادُّ الرائحة؛ لكأنه يَنْشُرُ فى الجو رَوْضةً قد مُلئتُ بأزهاره تُشَمُّ ولا تُرى؟ وأنه ليجعلُ الزمنَ نفسَه عبقًا بريحه، وإنه ليُفَعِّمُ كلَّ ما حوله طيبًا، وإنه ليسحرُ النفسَ فيتحوَّلَ فيها...

وهنا ضحكتُ وقطعتُ على الكلام قائلة: يظهر لى أن (عطر كذا) هاجرُ أو مخاصم... قلت: كلا، بل خرج من الدنيا وما انتَشَقَتْ أَرْجَهُ مرةً إلا حَسْبَتُهُ يَنْفُحُ من الجنة. فما أسرعَ ما تلاشى من وجهها الضحكُ وهيئته، وجاءت دَمعةٌ وهيئتها ولمحت فى وجهها معنىً بكيتُ له بكاءً قلبى.

جمالها، فننتها، سحرها، حديثها، لهوها؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عَيْنٌ ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذُنُوبٌ، وذُنُوبٌ، وذُنُوبٌ!

وأردنا أنا و(ح) بكلامنا عن الحب وما إليه، ألا نوحِشَها من إنسانيتنا، وأن نَبْلُ شوقها إلى ما حُرِّمَتْه من قَدَرها قدرَ إنسانَةٍ فيما نَتَعَاطَاهُ بيننا. والمرأة من هذا النوع إذا طَمَعَتْ فيما هو أعلى عندها من الذهب والجوهرِ والمتاع، طَمَعَتْ فى الاحترام من رجلٍ

شريف متعفف، ولو احترَمَ نظره، أو كلمة. تقنع بأقل ذلك وترضى به؛ فالقليل مما لا يدركُ قليله، هو عند النفس أكثر من الكثير الذى يُنال كثيره.

ومثل هذه المرأة، لا تدرى أنت: أطافت بالذنب أم طاف الذنب بها؟ فاحترامها عندنا ليس احتراماً بمعناه، وإنما هو كالوَجُوم أمام المصيبة فى لحظة من لحظات رَهبةِ القدر وخُشوع الإيمان.

وليسَت امرأةً من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّم والحسرة واللهفة مما هى فيه، وهذا هو جانبهن الإنسانى الذى يُنظر إليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى، وحسرة أخرى، وندم آخر. كم يرحم الإنسان تلك الزوجة الكارهة المرغمة على أن تعاشر من تكرهه، فلا يزال يغلى دُمها بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع! وكم يرثى الإنسان للزوجة الغيور، يغلى دُمها أيضاً ولكن بوساوس وآلام من الحب! ألا فاعلم أن كل من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثل هم مائة زوجة كارهة مرغمة مستعبدة، يُخالطه مثل هم مائة زوجة غيور مكابدة منافسة؛ ولقد تكون المرأة منهن فى العشرين من سنّها وهى مما يكابد قلبها فى السبعين من عُمر قلبها أو أكثر. وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى، ولم تكن معنا لا فى زمانها ولا فى مكانها ولا فى أسبابها، وقد فتحت الباب الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفر والحياء، وحوّلت جمالها من جمالٍ طابَعُه الرذيلة، إلى جمالٍ طابَعُه الفن، وأشعرت أفرأحها التى اعتادتْها رُوح الحزن من أجلنا، فأدخلت بذلك على أحزانها التى اعتادتْها رُوح الفرح بنا.

من ذا الذى يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفس مثل هذه ثم لا يُحسن به^(١)؟

(١) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنانه (الربطة)، كتبناه فى مثل موضوع (الجمال البائس)، غير أنه بمنحى آخر ومعان أخرى. والربطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوروبيون المرأة البغى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة..

تتجدد الحياة متى وجد المرء حالة نفسية تكون جديدة في سرورها. وهذه المرأة المسكينة لا يعنيتها من الرجل من هو؟ ولكن كم هو... لم ترَ فينا نحن الرجل الذى هو «كم»، بل الذى هو «من». وقد كانت من نفسها الأولى على بُعد قصي كالذى يمد يده فى بئر عميقة ليتناول شيئاً قد سقط منه؛ فلما جلست إلينا، اتصلت بتلك النفس من قُرب؛ إذ وجدت فى زمنها الساعة التى تصلح جسراً على الزمن.

قال الراوى:

كذلك رأيته جديدة بعد قليل، فقلت للأستاذ (ح): أما ترى ما أراه؟ قال: وماذا ترى؟ فأومأت إليها وقلت: هذه التى جاءت من هذه. إن قلبها ينشر الآن حولها نوراً كالمصباح إذا أضىء، وأراها كالزهرة التى تفتحت؛ هى هى التى كانت، ولكنها بغير ما كانت.

فقالت هى: إنى أحسبك تحببى؛ بل أراك تحببى؛ بل أنت تحببى... لم يخف على منذ رأيته ورأيته.

قلت: هببه صحيحاً، فكيف عرفته ولم أصنعك، ولم أتملق لك، ولم أزد على أن أجيء إلى هنا لأكتب؟

قالت: عرفته من أنك لم تصانعى، ولم تتملق لى، ولم تزد على أن تجيء إلى هنا لتكتب....

قلت: ويحك، لو كُحلت عين (المكرسكوب) لكنت عينك. وضحكننا جميعاً؛ ثم أقبلت على الأستاذ (ح) فقلت له: إن القضايا إذا كثر ورودها على القاضى جعلت له عيناً باحثة.

قال الراوى:

وأنظرُ إليها، فإذا وجهها القمرى الأزهر قد شَرِقَ لونه، وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثله على وجه العذراء المخدرة إذا أنت مسستها بريبة^(١)؛ فما شككت أنها

(١) أى لأنها ظنت أنه يقول إنها اعتادت الرجال.

الساعة امرأة جديدة قد اصطَلَحَ وجهُها وحَيَاؤُها، وهما أبداً متعاديان في كل امرأة مكشوفة العفة...

ونذهبت أَسْتَدْرَكَ وَأَتَأَوَّلَ، فقلتُ لها: ما ذلك أردتُ، ولا حَدَسْتُ على هذا الظن، وإنما أنا مُشْفِقٌ عليك متألم بك، وهل يعرُضُ لك إلا الطبقة النظيفة... من المُجْرَمِينَ والخُبَثَاءِ وأهل الشرِّ؛ أولئك الذين أعاليهم في دُور الخلاعة والمسارح، وأسافلهم في دُور القضاء والسجون؟

فقلت: أَعْتَرَفْتُ بِأَنَّكَ لَمْ تُحَسِّنْ قَلْبَ الثوب، فظهر لكل عينٍ أنه مقلوب؛ لكنك تحبني... وهذا كاف أن ينهَضَ منه عُذْر!

قال الأستاذ (ح): إنه يحبك، ولكن أتعرفين كيف حُبُّه؟ هذا بابٌ يضعُ عليه دائماً عدَّةً من الأقفال.

قالت: فما أيسر أن تجد المرأة عدَّةً من المفاتيح...

قال: ولكنه عاشقٌ يُنِيرُ العشق بين يديه؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس، ما تطمَعُ إلا أن تراه، وما يطمَعُ إلا أن يراها، ولا شيء غير ذلك؛ ثم لا يزال حسنُها عليه ولا يزال هواه إليها، وليس إلا هذا.

قالت: إن هذا لعجيب.

قال: والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيءٌ نهائى، فلا هَجْرٌ ولا وصلٌ؛ ينسالك بعد ساعة، ولكنك أبداً باقيةٌ بكل جمالك في نفسه. والصغائرُ التي تُبْكِي الناسَ وتَتَلَذَّعُ في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً في همهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب، تبكيه هو أيضاً وتَعْتَلِجُ في قلبه، ولكنها تظلُّ عنده صغائرُه ولا يَعْرِفُهَا إلا صغائرُ؛ وهذا هو تَجَبُّرُه على جَبَّار الحب.

قال الراوى:

ونظرتُ إليها ونظرتُ، وعاتبْتُ نفسُ نفساً في أعينهما، وسألتُ السائلةَ وأجابت المُجيبَةَ، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت؟...

الجمال البائس

(٣)

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتُ : أما هى ، فَرَنْتُ إِلَى فى سكون ، وكانت نظرتُها مُعَاتِبَةً
طويلةً التملُّق والتوجُّع ، وفيها الانكِسارُ والفُتور ، وفيها الاسترخاءُ والدلال .
وبينما كان طَرَفُها ساجياً فاتراً كأنه ينظرُ أحلامه ، إذ حَدَدَتْه إِلَى فجأةً ونظرت
نظرةً مدهوش ، فَبَدَتْ عيناها فَرَعَتَيْنِ ولكن فى وجهٍ مطمئن .
ثم لم تكدُ تفعلُ حتى ضَيَّقَتْ أَجْفَانَهَا وَحَدَّقَتْ النظرَ مُتَأَلِّئًا بمعانيه ، فَبَدَتْ
عيناها ضاحكتين ولكن فى وجهٍ متألم .

ثم ابتسمتُ بوجهها وعينيها معاً ، وَأَتَمَّتْ بِذَلِكَ أَجْمَلَ أساليبِ المرأةِ الجميلةِ
المحبوبةِ فى اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكَسَرِ حُجَّتَهُ فى
كبريائه ، وانتزاعِ الفكرةِ المستقلةِ من نفسه .

وأما أنا ؛ فكان نظرى إليها ساكناً متألماً يُقَرُّ أنه عَجَزَ عن جوابِ عينيها وسيبقى
عاجزاً عن جوابِ عينيها...

إن وجهها هو الابتسامُ وروحُ الابتسام ، وجسمها هو الإغراء وروحُ الإغراء ،
وفنّها هو الفتنةُ وروحُ الفتنة ؛ وهى بهذا كله ، هى الحبُّ وروحُ الحب ؛ غير أن
فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً
لجسمها ، وفنّها رذيلةً فى جمالها ؛ وهى بهذا كله ، هى الشقاء وروحُ الشقاء .

أَمَّا أَنى أَحَبُّ فَنَعْمَ وَنِعَمًا ، بل أراه حبًّا فالقًا كَبَدى ، وليس يخلو فؤادى أبداً من
سَوَالِفِ حُبِّ ماضى ، وأما أَنى أَسْتَرُذِلُّ فى الحبِّ وأمتهنُّ فضيلتى وأنزلُ بها ، فلا وأبداً .

إن ذلك الحبّ هو عندى عملٌ فنى من أعمال النفس، ولكن الفضيلة هي النفس ذاتها؛ الحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ فى زمنى، أما الفضيلةُ فهي زمنى كله، وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبية الأرضِ فى مدتها القصيرة، ولكن الفضيلةُ جاذبيةُ السماءِ فى خلودها الأبدى.

على أنه لا مُنافرةَ بين الحب والفضيلة فى رأى، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن، لا يكون إلا فى النفس الفاضلة المتورعة عن مُقارفة الإثم. وههنا يتحول الحبُّ إلى ملكة سامية فى إدراك معانى الجمال، فيكون الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحى للنفسِ العاشقة؛ وبهذا الوحي والاستمداد منه ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةً من يرتفع بالآدمية إلى الملائكية^(١)، ليتلقى النورَ منها فناً بعد فن، والفرح معنى بعد معنى، والحزن السماوى فضيلةً بعد فضيلة.

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيةٌ لاتّسع بعض العقولِ المهيأة للإلهام، كى تحيط بأفراح الحياة وأحزانها، فتبدعَ للندى صورةً من صور التعبير الجميلة التى تُثير أشواق النفس؛ كأن كلَّ محبٍ وحبيبته من هؤلاء الملهمين، هما صورةٌ جديدةٌ من آدم وحواء، فى حالةٍ جديدة من معنى ترك الجنة، لإيجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضى والحزن السماوى.

والخطرُ فى الحب ألا يكون فيه خطر... فهو حينئذ نداءُ الجنس، لا يكون إلا دنيئاً ساقطاً مبذولاً، فلا قيمة له ولا وحى فيه؛ إذ يكون احتيالا من عمل الغريزة جاءت فيه لابسَةٌ ثوبها النورانى من شوق الروح لتخدع النفس الأخرى فيتصل بينهما، حتى إذا اتّصل بينهما خلعت الغريزة هذا الثوب واستعلنَت أنها الغريزة، فانحصر الحبُّ فى حيوانيته، وبطلت أشواقه الخيالية أجمع.

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف، ونرى أن مخالفة القاعدة هي القاعدة فى هذه اللفظة وفى ألفاظ أخرى.

قال الراوى :

وعرفت الحسناء هذا كله من عَرَضَها نظرةً وتلقَّيها نظرةً غيرَها ، فقالت للأستاذ (ح) : أَمَا أن يكونَ مع أثر الشعر والفكر فى الجمال ودعوى الحب ، أثر الزهد فى الجسم الجميل وادعاء الفضيلة ، فإنَّ بعيداً أن يجتمعا .

قال (ح) : وأين تبعدينه ويحك عن هذه المنزلة؟ إني لأعرف مَنْ هو أعجبُ من هذا ! قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفه؟

قال : أعرفُ متزوجاً ، أحبُّ أشدَّ الحب وأمَّضه ، حتى استهام وتدَّله ، فكان مع هذا لا يكتبُ رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذنَ فيها زوجته ، كيلا يعتدى على شيء من حقها . وزوجته كانت أعرفَ بقلبه وبحبِّ هذا القلب ، وهى كانت أعلمُ أن حبه وسُلوانه إنما هما طريقتان فى الأخذِ والتركِ بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارةً من سبيل الطبيعة ومحاسنها . فتنهَّدت وقالت : يا عجبا ! وفى الدنيا مثلُ هذا الزوج الطاهر ، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجة الكريمة؟

ثم إنها وجَّمتْ هُنيئةً تجتمعُ فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استدَّمَعَتْ ، ثم أرسلتْ عينيها تبكى ؛ فبدَّرتُ أنا أرفُّه عنها حتى كفَّفتُ من دمعها ، وكأن (ح) قد وخَّزها فى قلبها وخزةً أليمةً بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجة الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى فى وسوسة شيطان الغيرة . ارتفع ثلاث مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلةٌ ثلاث مرات ؛ وكأنه بهذا لم يكلمها ، بل رَسَمَ لها صورتها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى.....

وياما كان أجملها يترقرق الدمعُ فى عينيها الفاتنتين الكحيلتين ، فيبُثُّ منهما حزناً يخيّل لمن رآه ، أنه من أجلها سيحزنُ الوجودَ كله ! ليس البكاء من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هو فنُّ الحزن يضع جمالا جديداً فى فنِّ الحُسن . وأكاد أعجبُ كيف وجدَ الدمعُ مكاناً بين

المعاني الضاحكة في وجهها، لو لم يكن هذا الدمع قد جاء ليظهر على وجهها الفن الآخر من جمال المعاني الباكية.

وسألتها: ما الذي خامر قلبك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاك، وأنت كما أرى يتألق النور على جدران المكان الذي تحلين به، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك؟ فتشككت لحظة ثم قالت: أبك ما تقول أم أنت تتهكم بي؟ قلت: كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق: الجمال، والحب، والألم الإنساني؟

قالت: لا تثريب عليك^(١) ولكن صوّر إلى ببلاغتك كيف أحببتك وأنت غير متحبيب إليّ، وكيف جادلت نفسي فيك وداورتها، وكلما عزمت انحلّ عزمي؟ فهذا مالا أكاد أعرف كيف وقع، ولكنه وقع.

هذه قطرة من الماء الصافي العذب، فضع عليها (المكرسكوب) يا سيدي، وقل لي ماذا ترى؟

قلت: إنك تخرجين من السؤال سؤالاً. فما الذي خامر قلبك من كلام (ح) فبكيت له؟ قالت: إذن فليست هي قطرة من الماء، بل تلك دمعته من دموعي، فضع عليها المكرسكوب يا سيدي.

قال الراوي:

وكانت حزينة كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها، وبقيت روحها تبكي في داخلها. فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرك لغلظته الأولى فقال: إنك الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه، فكل امرأة يحبها هي عروس قلمه ولها على هذا القلم حق النفقة... فضحك نوعاً من الضحك الفاتر، كأنما ابتكره ثغرها الجميل لساعة حزنها؛ ونظرت إلى فقلت: إن كان الأمر من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلا شيء) جحا.

(١) أي لا عتب عليك.

فضحكت أظرف من قبل، وخيّل إليّ أن تُعرّها انطبقَ بعد افتتراره على قبلة أفلتت منه فأمسكها من آخرها....

ثم قالت: ما هو (لا شيء) جُحا؟

قلت: زعموا أن جُحا ذهب يحتطب، وحملَ فوق ما يُطيق، فبهّظه الحملُ وبلغَ به المشقة، ثم رأى في طريقه رجلاً أبله فاستعان به، فقال الرجل: كم تُعطيني إذا أنا حملتُ عنك؟ قال: أعطيك (لا شيء). قال: رضيت.

ثم حمل الأبله وانطلق معه حتى بلغا الدار، فقال: أعطيني أجرى. قال جُحا: لقد أخذته. واختلفا: هذا يقول أعطني، وهذا يقول أخذت؛ فلبَّه الرجل^(١) ومضى يرفعه إلى القاضي، وكانت بالقاضي لُوثَةٌ، وعلى وجهه رَوْءَةُ الحمق^(٢) تُخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه، فلما سمع الدعوى قال لجُحا: أنت في الحبس أو تُعطيهِ (اللا شيء)...

قال جُحا في نفسه: لقد احتججتُ لعقلي بين هذين الأبلهين؛ ثم إنه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقة، وقال للرجل: تقدّم وافتح يدي فتقدم وفتحها. قال جُحا: ماذا فيها؟ قال الرجل: (لا شيء).

فقال له جُحا: خذ (لا شيئك) وامض فقد برئت ذمتي. قالوا: فذهب الرجل يحتجّ، فقال له القاضي: مه! أنت أقررت أنك رأيت في يده (لا شيء)، وهو أجرك فخذ ولا تطمع في أزيد من حقك...!

وضحكت وضحكنا، ثم قالت: أنا راضية أن أكون عروسَ القلم، فليُجرِ على القلم نفقتي، وليصور لي كيف أحببت، وكيف أمرت نفسي وجادلتها؟

(١) أخذ بتلابيبه.

(٢) اللوثة (بضم اللام): مس من الجنون، وتكون أيضاً بمعنى الحمق، وروءة الحمق: علاماته، وهي معروفة في علم الفراسة.

قلت: لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه. بيّد أننى لو صَنَفْتُ روايةً يكونُ فيها هذا الموقفُ، لوضَعْتُ على لسانِ العاشقةِ هذا الكلامَ تُحدِّثُ به نفسَها.

تقول: كيف كنتُ وكيف صرتُ؟ لقد رأيتُننى أعاشِرُ مائةَ رجلٍ فأخالطَهم في شَتَّى أحوالهم، وأصرفهم في هواي، وكلُّهم يَجْهَدُ جُهدَه في استمالَتِي، وكلُّهم أهلُ مودةٍ وبَذَلٍ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ، قد أنقَ وتَجَمَّلَ وراعَ حسنه؛ كأنما هَرَبَ إلَيَّ في ثيابِ عُرْسِه ليلةَ زفافِه، وتركَ من أجلى عروسًا تبكى وتَصيحُ بويلِها. ثم أنا مع ذلك مُغلَقةُ القلبِ دونهم جميعاً، أضدِّقُهم المودةَ والصحبةَ، وأكذِّبُهم الحبَّ والهوى؛ فليستُ أحبُّهم إلا بما أنالَ منهم وليستُ أتُحبُّبُ إليهم إلا ما أنولُهم مني، وهم بين عقلي وحيلتي رجالٌ لا عقولَ لهم، وأنا بين أهوائهم وحماقاتهم امرأةٌ لا ذاتَ لها.

ثم أرى بغتَةً رجلاً فرداً أكاد أنظر إليه وينظرُ إلَيَّ حتى يَضَعَ في قلبي مسألةً تحتاجُ إلى الحلِّ...

وأرتاع لذلك فأحاولُ تناسيَه والإغضاءَ عنه، فتلجُّ المسألةُ في طلبِ حلِّها، وتشغَلُ خاطري، وتتمدّدُ في قلبي؛ وهو هو المسألة... فأفزعُ لذلك وأهتُمُّ له، وأجهدُ جهدي أن أكونَ مرةً حازمةً بصيرةً، كرجالِ المالِ في حقِ الثروةِ عليهم؛ ومرةً قاسيةً عنيدةً، كرجالِ الحربِ في واجبِها عندهم؛ ومرةً خبيثةً مُنكرةً، كرجالِ السياسةِ في عملِها بهم؛ ولكنى أرى المسألةَ تلينُ لى وتتشكَّلُ معي وتحتملُ هذه الوجوهَ كلها، لتبقى حيثُ هي في قلبي؛ فإنه هو هو المسألة... وأغتمُّ لذلك غمًّا شديداً، وأراني سأسقُطُ بعد سقوطي الأولِ وأقبحَ منه؛ إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخداعِ، وهذا يُفْسِدُهُ الإخلاصُ؛ وبالمكرِ، وهذا يعطلُّه الوفاءُ؛ وبالنسيانِ، وهذا يبطلُّه الحبُّ؛ وإن عواطفنا كلها متجرّدةٌ لغرضٍ واحدٍ، هو كَسْبُ المالِ وجمعه وادخاره؛ وفضيلتنا عمليةٌ لا تتخيّلُ، حِسَابِيَّةٌ لا تختلُ؛ فيستوى عندنا الرجلُ بلغِ جماله القمرَ في سمائه، والرجلُ بلغتْ دَمَامَتُهُ الذبابَ في أقذاره؛ والحبُّ معنا هو: كم في كم ويبقى ماذا.... أو كما يقول أهلُ السياسةِ: هو «النقطةُ العمليةُ في المسألة». ولكن المسألةُ التي في قلبي لا ترى هذا حلاً لها؛ لأنه هو هو المسألة...

فيزيدُ بى الكَرْبِ، ويشتدُّ على البلاء، وأحتال لقلبي وأدبر في خنقه، وأذهب أقنعه أن الرجل إذا كان شريفاً لم يحب المرأة الساقطة؛ إذ يُعابُ بصحبته والاختلاف إليها، فإذا كان ساقطاً لم تحبّه هي، فإنما هو صيدها وفريستها، وموضعُ نقيمتها من هذا الجنس؛ وأسرف على قلبي في الملامة والتعذيل فأقول له: ويحك يا قلبي! إن المرأة منا إذا تفتّحت قلبها لحبيب، تفتّح كالجرح لينزف دماءه لا غير. فيقتنع القلب ويجمع على أن ينسى، وأن يرجع عن طلبه الحب؛ وأرى المسألة قد بطلت وكان بطلانها أحسن حل لها، وأناؤم وادعة مطمئنة، فيأتى هو فى نومى ويدخل فى قلبي، ويعيد المسألة إلى وضعها الأول، فما أستيقظ إلا رأيتّه هو هو المسألة...

فأتناهى فى الخوف على نفسى من هذا الحب، وأراه سجنها وعقابها، وقهرها وإذلالها، فأقول لها: ويلك يا نفسى! إنما همك فى الحياة وسائل الفوز والغلب، فأنت بهذا عدوة مسماة فى غفلة الرجال صديقة، وقد وضعت فى موضع تعيشين فيه بإهانات من الرجال، يسمونها فى نذالتهم بالحب؛ فأنت عدوة الرجال بمعنى من الدهاء والخُبث، وعدوة الزوجات بمعنى من الحقد والضغينة، وعدوة البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة، وكل ما يستطيع الدهاء أن يعملّه فهو الذى على أنا أن أعملّه، فماذا أصنع وأنا أحب؟ وكيف أنجح وأنا أحب؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كله بعيد عن المسألة ما دام هو هو المسألة...

قال الراوى:

وكانت كالداهلة مما سمعت، ثم قالت: ألك شيطان فى قلبي؟ فهذا كله هو الذى حدث فى سبعة أيام.

قال (ح): ولكن كيف يقع هذا الحب؟ وهبك صنفت تلك الرواية، ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام، فيما كنت تنطقها فى وصف حبها وما اجتذبتها من رجل فاز بقلبها ولم يُداورها، بعد مائة رجل كلهم داورها ولم يفز منهم أحد؟ أكون فى وجه هذا الرجل أنواراً كتباًشير الصبح تدل على النهار الكامن فيه؟

قالت هي : نعم نعم. بماذا كنت تُنطقها؟
 قلتُ : كنت أضع في لسانها هذا الكلامَ تُجيبُ به عاذلةً تَعْدُلُها :
 تقول : لا أدري كيف أحببتُه ، ولكنَّ هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه ،
 وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مُفْعَمًا بالمغناطيس مَصْدَرُهُ ، ومعناها هو ، ولا شيء
 فيه إلا هو.

عرَضَتْه لي شخصيته ظاهراً لأن جوابَ شخصيته فيّ ، وأصبحَ في عيني كبيراً
 لأن جوابَ شخصيتي فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيده كلَّ يوم ظهوراً ،
 وتزيدني كل يوم بَصَراً ، وأعطاه حقه في الكمال عندي حَقُّه في الحب مني ؛ وبذلك
 الشخصية التي جوابها في نفس ، أصبح ضرورة من ضرورات نفسي.

قال الراوى :
 ولما رأيته في جوى كنسيمة وعاصفته ، أرادتها على قصتها وشأنها ، فماذا قلتُ
 لها وماذا قالت؟ ...

■ ■ ■

الجمال البائس

(٤)

قلتُ لها: إن قلبي وقلبك يتجاليان^(١) في هذه الساعة ويتباكيان، أتدريين ماذا يقول لك قلبي؟

إنه ليقول عني: أعزز عليَّ بأن تكوني ههنا، وأن تتألف منك هذه القصة التي تبدأ بالوصمة وتنتهي بالاستخذاء، فتنطلق المرأة في متآلفها ومهاويها ليبلغ بها القدر ما هو بالغ؛ وليس إلا الضرورة وسطوتها بها، والإذلال ومهانته لها، والاجتماع وتهكمه عليها، والابتذال واستعباده إياها؛ ومهما يأت في القصة من معنى فليس فيها معنى الشرف؛ ومهما يكن من موقف فليس فيها موقف الحياء؛ ومهما يجر من كلام فليس فيها كلمة الزوجة، وأعزز عليَّ بأن أرى المصباح الجميل المشبوب الذي وُضع ليضيء ما حوله، قد انقلب فجعل يحرق ما حوله؛ وكان يتلألاً ويتوقد، فارتدَّ يتسعر ويتضرم ويجنى ما يتصل به، وسقط بذلك سقطة حمراء...

أفتدريين ماذا يقول لي قلبك؟

إنه يقول عنك: يا بؤسنا من نساء! لقد وُضعنا وضعا مقلوباً، فلا تستقيم الإنسانية معنا أبداً، وكلُّ شيء منقلبٌ لنا متنكّر؛ والشفقة علينا تنقلب من تلقاء نفسها تهكماً بنا؛ فنبكي من شفقة بعض الناس، كما نبكي من ازدراء بعض الناس. يا بؤسنا من نساء!

قالت: صدقت، وكذلك تنقلب أسباب الحياة معنا أسباباً للمرض والموت؛ فاليقظة ليس لها عندنا النهار بل الليل، والصحو لا يكون فينا بالوعي بل بالسُّكر، والراحة

(١) أي يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح.

لا تكون لنا في السكون والانفراد، بل في الاجتماع والتبذل؛ وماذا يردُّ على امرأة من واجباتها السهرُ والسكرُ والعريضةُ، والتبذلُ، وتدريبُ الطباع بالوقاحة، وتضرية النفس على الاستغواء، والتصدى بالجمال للكسب من رذائل الفساق وأمراضهم، والتعرض لمعروفهم بأساليب آخرها الهوان والمذلة، واستماحتهم بأساليب أولها الخداع والمكر؟

إن حياة هذه هي واجباتها، لا يكون البكاء والهم إلا من طبيعة من يحياها، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاتاً تتهارب فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلنا الهم وجلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلف السرور، ختلنا العقل نفسه بالخمير؛ فما تسكر المرأة منا للسكر أو النشوة، بل للنسيان، وللقدرية على المرح والضحك، ولإمداد محاسنها بالأخلاق الفاجرة، من الطيش والخلاعة والسفه وهذيان الجمال الذي هو شعرة البليغ... عند بلغاء الفساق.

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضر الغادة منكن هو الشباب والصبي والجمال وإقبال العيش، فكيف بها فيما تستقبل؟

قالت : إن المستقبل هو أخوف ما نخافه على أنفسنا، وليس من امرأة في هذه الصناعة إلا وهي مُعدة لمستقبلها : إما نوعاً من الانتحار، وإما ضرباً من ضروب الاحتمال للذل والخسف؛ وليس مستقبلنا هذا كمستقبل الثمار النضرة إذا بقيت بعد أوانها، فهو الأيام العفنة بطبيعة ما مضى... بلى إن مستقبل المرأة البغي هو عقاب الشر.

قال (ح) : هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأة منهن قد تتبرم بزوجها وتضجر وتغتم، وترغم أنها مُعذبة؛ فتتسخط الحياة، وتندب نفسها؛ ثم لا تعلم أنه عذاب واحدٌ برجل واحدٍ، تألفه، فتعتاده، فترزق من اعتياده الصبر عليه، فيسكن بهذا نفاهاً؛ وتلك نعمة واجبها أن تحمد الله عليها، مادام في النساء مثل

الشَّهيدات، تتعذبُ الواحدةُ منهن فُنُونًا من العذاب بمائة رجل، وبألف رجل، وهم مع ذلك يَبْتُلُونَ رَوْحَهَا بعددِهم من الذنوب والآثام. وقد تستثقلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوج والنَّسل والدار، فتغتاضُ وتشكو من هذه الرَّجْرَجَةِ اليومية في الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبتْ بهن الحياةُ في مثل الخَسَفِ بالأرض.

وقد تجزَعُ للمستقبل وتَنسى أنها في أمان شَرَفِها، ثم لا تعلم أن نساءً يَتَرَقَّبْنَ هذا الآتِي كما يَتَرَقَّبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيه الشُّرْطَةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كله.

فقلتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاء كلُّ العزاء للزوجات، وهى أن الزوجةَ امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها.

والزوجةُ امرأةٌ تجدُ الأشياءَ التى تتوزعُ لحبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته، يفيضُ بالحب، ويستمدُّ من الحب؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئاً، فتنقلبُ وحشيةً القلب، يفيضُ قلبها برذائل، ويستمدُّ من رذائل؛ إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنَّسل.

والزوجةُ امرأةٌ هى امرأةٌ خالصةُ الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مُهلَكةٍ.

وتَمَامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعياً مستَقَرًّا فى قانونه إلا للزوجات وحدهن؛ فهو نِعْمَتُهُنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن، وبرَكَّتُهُنَّ على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةً بزوجها، فإن زوجَها قد أولدها سعادتها، وهذه وحدها مزية ونعمة؛ أما أولئك فليس لهنَّ عاقبة^(١)؛ إذ النسلُ قلبٌ لحالتهن كلها؛ وهو غنى إنسانى، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً؛ وهو رحمة، ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة فى موضع حبِّ الولد الجديد من قلوبهن، حبَّ الرجل الجديد، فكانت هذه نقمةً أخرى.

(١) يقال ليس له عاقبة، أى ليس له نسل وعقب.

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهنّ الثّاني بعد الأول، أو الثّالث بعد الثّاني، أو الرّابع بعد الثّالث؟
قلت : ليس الجديد عليهنّ هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد، ولكنه الرجل الذي يكون وحده بالعدد جميعاً؛ إذ هو عندهنّ يُشبه الزوج في الاختصاص وفي شرف الحب، فهو الحبيب الشّريف الذي تتعلّقهُ إحداهن وتريد أن تكونَ معه شريفة: ولكن من نقمة الطبيعة أن ممن وجدته منهن لا تجده إلا لتعاني ألمّ فقده.
يا عجباً! كلُّ شيء في الحياة يُلقى شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء المسكينات، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة..
قالت هي: وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ تُرجمُ بها المسكينة كألفاظك هذه... وكتسمية الناس لها «بالساقطة»؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر.

ثم تنهدت وقالت: مَنْ عسى يعرفُ خَطَرَ الأسرة والنسل والفضيلة كما تعرفُها المرأة التي فقدتها؟ إننا نُحسُّها بطبيعة المرأة، ثم بالحنين إليها، ثم بالحسرة على فقدها، ثم بروبيتها في غيرنا؛ نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجة نوعاً واحداً. ولكن هل يُنصفنا الرجال وهم يتدافعوننا؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا؟ قلت: ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وخمرة خديها، بل على أخلاقها وطباعها؛ فهذا هو السبب في بقاء المرأة الساقطة حيث ارتطمت، وهي متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل.

ومن ثم كانت الزّلة الأولى ممتدة متسحبة إلى الآخر؛ إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخ للنسل، إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يُوثق به.

وهذه الزّلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متساندة، لا يُقيّمها إلا تماسكها جملة؛ وما لم يتماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط

فيه؛ ولهذا لا يعرف الناس جريمةً واحدةً تُعدُّ سلسلةً جرائمَ لا تنتهى، إلا سقطة المرأة؛ فهي جريمة مجنونة كالإعصارِ الثائر يلفها لُفًّا؛ إذ تتناول المرأة فى ذاتها، وترجع على أهلها وذويها، وترعى إلى مستقبلها ونسلها؛ فيَهْتَكُها الناسُ هي وسائر أهلها من جاءت منهم ومن جاءوا منها.

والمرأة التى لا يحميها الشرف لا يحميها شىء، وكلُّ شريفةٍ تعرفُ أن لها حياتين إحداها العفة، وكما تُدافعُ عن حياتها الهلاك، تُدافعُ السقوطَ عن عفتها؛ إن هو هلاكٌ حقيقتها الاجتماعية؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أن لها عقلين تحتُمى بأحدهما من نزوات الآخر، وما عقلها الثانى إلا شَرَفُ عرضها.

قال الأستاذ (ح): إن هذه هى الحقيقة، فما تَسَامَحَ الرجالُ فى شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقلٍ فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أَرادوا ذلك أم لم يريدوه.

قلت: وهذا هو معنى الحديث: «عَفُوا تَعَفَّ نساؤكم». فإن عَفَا المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها، ما لم تنتهياً لها الوسائل والأحوال التى تُعينُ نفسها على ذلك؛ وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمها، تشدُّدُ الرجالِ فى قانون العرض والشرف.

فإذا تراخى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعف تنبثق حرية المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر، على ما تكون أحوالها وأسبابها فى الحياة. وهذه الحرية فى المدنية الأوروبية قد عَوَّدَت الرجال أن يُغضوا ويتَسَمَّحوا، فتهافَّت النساءُ عندهم، تنالُ كلُّ منهن حُكْمَ قلبها. ويَخْضَعُ الرجل..

على أن هذا الذى يسميه القومُ حرية المرأة، ليس حريةً إلا فى التسمية، أما فى المعنى فهو كما ترى:

إما شُرودُ المرأة فى التماسِ الرزقِ حين لم تجد الزوج الذى يَعُولُها أو يكفِيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه، فمثلُ هذه هى حُرَّةُ حرية النكدِ فى عيشها؛ وليس بها الحرية، بل هى مستعبدةٌ للعملِ شرًّا ما تُستعبدُ امرأة.

وإما انطلاق المرأة في عِبَاتِهَا وشَهَوَاتِهَا مُسْتَجِيبَةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع في الرجال، بمقدار ما يشتريه المال، أو تُعِين عليه القوة، أو يَسَوِّغُه الطيش، أو يجلبه التَهْتِك، أو تدعو إليه الفُنُون؛ فمثل هذه هي حرة حرية سقوطها؛ وما بها الحرية، بل يستعبدُها التمتع.

والثالثة حرية المرأة في انسلاخها من الدين وفضائله، فإن هذه المدنية قد نسخت حرام الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلال قانوني، فلا مَسْقَطة للمرأة ولا غَضاضة عليها قانوناً... فيما كان يُعَدُّ من قبل خِزْيًا أَقْبَحَ الخِزْيِ وعاراً أشدَّ العار؛ فمثل هذه هي حرة حرية فسادها، وليس بها الحرية، ولكن تستعبدُها الفوضى.

والرابعة غَطْرَسَةُ المرأة المتعلمة، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعد أن يكون الزوج الناعم كقفاز الحرير في يدها، ولا الزوج المؤنث الذي يقول لها نحن امرأتان... فهي من أجل ذلك مُطْلَقَةٌ مُخَلَّاةٌ كيلا يكون عليها سلطان ولا إمرة؛ فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزيجها، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضاللتها.

حرية المرأة في هذه المدنية أولها ما شئت من أوصاف وأسماء، ولكن آخرها دائماً إما ضياع المرأة وإما فساد المرأة.

والدليل على التواء الطبيعة في المدنية، استواء الطبيعة في البادية؛ فالرجال هناك قَوَّامُونَ على النساء، والنساء بهذا قَوَّامَاتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يَفُورُ دماً؛ وبهذه الوحشية يقررون شَرَفَ العِرض في الطبيعة الإنسانية، ويجعلونه فيها كالغريزة، فيَحَاجِزُونَ بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمة من حوله.

قال الراوى:

وغطت وجهها بيديها وقالت: إنك لا تزال ترجم بالحجارة... إن فيك متوحشاً.
قلت بل متوحشة...

إنك أنتِ قد تكلمتِ فىِّ ، فجمالك الذى يضع الإنسان فى ساعةٍ مجنونةٍ ليمتعه بطيشها ، قد وضعنا نحن فى ساعةٍ مفكرةٍ وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلتُ جمالك ، فقد قلتُ وحيك ؛ إذ لا جمال عندى إلا ما فيه وحى .

أما قلتُ : إنك لو خيَّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً نابغةً يكتبُ ويفكر ويتلقى الوحى من الوجوه الجميلة ؟

فدقتُ صدرها بيدها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفكرتُ لحظةً وقالت : إذا كنتَ تزعمُ أننى قلتُه ، فأظنُّ أننى قلتُه ...

قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هى شيئاً من هذا ؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذوق .

قالت : بل قل أربعُ غلطاتٍ جميلةٍ من فنّ الذوق ؛ إن الرجلَ الظريفَ القوى الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدث المرأة ...

قال (ح) : لتضحكُ منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحكُ له ...

قلت : فلى إليك رجاء .

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل .

فماذا قلتُ لها وماذا قالت ؟ ..

■■■

الجمال البائس

(٥)

قلتُ لها: إن كلمة الكفر لا تكون كافرة إذا أكره عليها من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وكلمة الفجور أهون منها وأخف وزناً وشأناً، ثم لا تكون إلا فاجرة أبداً، إذ لا إكراه على هذه الدعارة إكراهاً لا خيار فيه. وما أول الدعارة إلا أن تمتد المرأة طرفها من غير حياء، كما يمد اللص يده من غير أمانة.

ومن اضطرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأ محراب المسجد في أعماقه فيصلى ثمة، ولكن الفجور لا يترك في النفس موضعاً لدين ولا إيمان؛ إذ هو دائم في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط، فيجعل المرأة تحيا بعيدة عن ضميرها، فيضعف منها أول ما يضعف آثار الآداب والأخلاق، فيهلك فيها أول ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى.

فإذا انتهت المرأة إلى هذا، لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أن على غيرها أن يتحمل عواقب أعمالها، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنون عقله؛ أفلا تكون المرأة حينئذٍ مجنونة جنون جسمها... ؟

فساءها ذلك وبان فيها، ولكنها أمسكت على ما في نفسها؛ والمرأة من هؤلاء لا يمشى أمرها في الناس ولا يتصل عيشها، إلا إذا كثرت طباعها كثرة ثيابها، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل؛ فينبعث منها الغضب وهي في أنعم الرضى، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ وكأن لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحد ولا لنفسها.

وتساير غضبها ثم قالت: كان كلامك أن لك رجاء إلى، فأنا أحب.....

... أحب أن أعلم.

قلت: وأنا كذلك أحب... أحب أن أعلم.

فضحكْتُ وسُرِّي عنها، وثَبَّتْتُ على شفتيها ابتسامَةً لو جاء مَلَكٌ من السماء ليضعَ في ثغرها ابتسامَةً أَجْمَلَ منها، لما وجد أَجْمَلَ منها.

ثم قالت: تُحِبُّ أن تَعْلَمَ ماذا؟

قلت: أَحِبُّ أن أَعْلَمَ منك قِصَّةَ هذه الحِياةِ ما كان أولُها؟

قالت: لقد قُضِيَتْ من حُكْمِكَ فينا، ولكنك أخطأت، فلكل ليل مُظْلَمٌ كوكبُهُ؛ والكوكب الوقاد المعلق فوق ليل المرأة منا هو إيمانُها؛ نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته، لكنّه كإيمان الناس في تعزيتِه، والله ربُّنا وربُّكم!

قلت: لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا؛ وإنما أنت تصفين الإيمانَ الأولَ الذي كان عملاً، فصار ذكرى، فصارت الذكرى أملاً، فظننتِ الأملَ هو الإيمان.

قالت: ثم إننا جميعاً مَكْرَهَاتٌ على هذه الحياة، فما نحن إلا صرعى المصادمة بين الإرادة الإنسانية وبين القدر.

قلت: ولكن لم تهف واحدة منكن في غلطتها الأولى وهي مستكْرِهَةٌ على غلطة؛ بل هي راغبة في لذة، أو مبادرة لشهوة، أو طالبة لمنفعة.

قالت: هذا أَحَدُ الوجهين؛ أما الآخر فالتماسُ الرزق وصلاح العيش؛ فالرجل مع الرجل، رأس ماله قُوَّتُهُ، وعمله بقوته؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثَتُها، وعمل أنوثتها. وفي الوجه الأول - وجه اللذة والمنفعة - تحتال كلمة الفُجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة، منها الحبُّ والزواج والسعادة، فتستسلم المرأة مضطراً ليقع شيء من هذا. وفي الوجه الثاني - وجه الرزق والعيش - تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة، منها الجوع والفقر والشقاء، فتسقط المرأة مضطراً خيفة أن يقع شيء من هذا؛ وفي أحد الوجهين يكون الرجلُ هو الفاجر لفساد آدابه، وفي الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمع لفساد مبادئه.

قلت: أنا لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه المديّة، لم تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين؛ وآفة هذه القوانين أنها لم تُسنّ لمنع الجريمة أن تقع، ولكن للعقاب عليها بعد وقوعها؛ وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها، وتركها لقانون الغريزة الوحشيّ في هؤلاء الوحوش الأدميين، الذين يأخذهم السُّعار من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين: المرأة الجميلة والذهب. فما ألجأت امرأة حاجتها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً، إلا ضربَه ذلك السُّعار؛ فإن استخفّت بزواته وتعرّست عليه، طردها إلى الموت، ومنعها أن تعيش من قبله؛ وإن صلحت له وتيسرت، آواها هي وطرد شرفها..

وبخلاف ذلك الدين؛ فإنه قائم على منع الجريمة وإبطال أسبابها، فهو في أمر المرأة يُلزم الرجل واجبات، ويُلزم المجتمع واجبات غيرها، ويُلزم الحكومة واجبات أخرى.

أما الرجل فينبغي له أن يتزوج، ويتحصّن، ويغار على المرأة، ويعمل لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدّب، ويستقيم، ويُعين الفرد على واجبات الفضيلة، ويتدأّمج ويشدّ بعضه بعضاً؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة، فتعاقب على إسقاطها عقاب الموت والألم والتشهير؛ لتقيم من الثلاثة حُرّاً جابرةً، من لا يخش الله خشيها؛ فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضع غلطة تسقط فيه المرأة.

قال الأستاذ (ح): صدقت، فالحقيقة التي لا مرأى فيها، أن فكرة الفُجور فكرة قانونية؛ ومادام القانون هو أباحها بشروط، فهو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط؛ ومن هذا التقرير يُقدّم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان؛ ومن ثم تأتي الجرأة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون، ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بآخر معانيها وأقبح معانيها.

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوربي، وتقديمها على الرجال، والتأدّب معها؛ كل ذلك يجعل جرأة السفهاء عليها جرأة متأدّبة، حتى كأن المتحكّك

منهم فى امرأة يقول لها : من فضلك كونى ساقطة... أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحة معاً، وذلك هو سرُّها.

القانون كأنما يقول للرجال : احتالوا على رضى النساء، فإن رضىن الجريمة فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هى فى الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة فى نفسها، بأساليب من الملق والرياء والمكر، تتركها عاجزة لا تملك إلا أن تدعن وترضى؛ وبهذا ينصرف كلُّ فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التى تُطلق تلك الفطرة من حيائها، وتُخرجها من عفتها، «تطبيقاً للقانون»... ولا سيادة فى اجتماعنا للمرأة، ولكن القانون جعلها سيدة نفسها، وجعلها فوق الآداب كلها، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضىت؛ إذا رضىت ماذا...؟

قلتُ : فإذا كان القانون هنا فى مسألتنا هذه يعدل بالظلم، ويحمى الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة؛ فهو إنما يُفسد الدين، ويصرف الناس عن خوف الله إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها؛ وبهذا لا يكون عمله إلا فى تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة، ويدع الباطن يُسرُّ ما شاء من خُبثه وحيلته وفساده؛ فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة؛ فلا جرم كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها؛ فإذا أخذت المرأة مُلاينةً ورضى فهذا فجورٌ قانونى... وإن كانت الملاينة هى عمل الحيلة والتدبير، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر، وإن ضاعت المرأة وسقطت، وذهب شرفها باطلاً، وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً. أما إذا أخذت المرأة مكارهةً وغضباً، فهذه هى الجريمة فى القانون؛ ويسمى القانون جريمة الاعتداء على العرض، وهى بأن تُسمى جريمة العجز عن إرضاء المرأة، أحق وأولى.

على أن المسكينة لم تؤخذ فى الحالتين إلا غضباً، ولكن اختلفت طريقة الرجل الغاصب؛ فإن كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة، هى إخراجها

من شرفها، وحرمانها حقوق إنسانيتها فى الأسرة، وطردُها وراء حدود الاعتبار الاجتماعى، وتركها ثمة مَخَلَّةً لمجارى أمورِها، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل الرجل الفاجر، فلا تكون لها بيئة إلا من أمثاله وأمثالها، كما يجتمع فى الموضع الواحد، أهل المصير الواحد، على طريقة القطيع فى المجزرة...

فقلت هى : الحق أن هذه الجريمة أولها الحب؛ وهى لا تقع إلا من بين نقيضين يجتمعان فى المرأة معاً: كبر حبها إلى ما يفوت العقل، وصغر عقلها إلى ما ينزل عن الحب. والمرأة تظل هادئة ساكنة رزينة، حتى تصادفها اللحاظ النارية من العين المقدرة لها، فلا يكون إلا أن تملأها ناراً ولهباً؛ ولتكن المرأة من هى كائنة، فإنها حينئذ كمستودع البارود، يهول عظمه وكبره، وهو لا شىء إذا اتصلت به تلك الشرارة المهاجمة.

وليس حراسة المرأة شيئاً يؤبه به أو يُعتدُّ به أو يسمَّى حراسة، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار؛ فيستوى فى وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة، والفزع من الحريق الأعظم؛ فيحتاط لاثنيهما بوسائل واحدة فى قدر واحد واعتبار واحد.

وإذا تركت المرأة لنفسها تحرُسها بعقلها وأدبها وفضلها وحربتها، فقد ترك لنفسه مستودع البارود تحرُسُه جدرانُه الأربعة القوية... والرجال يعلمون أن للمرأة مظاهر طبيعية، من الخيلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة؛ ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة كجلد جسمها الناعم، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائى الذى سينفجر...

قلت: إذا كان هذا فقبح الله هذه الحرية التى يريدونها للمرأة. هل تعيش المرأة إلا فى انتظار الكلمة التى تحكمها بلطف، وفى انتظار صاحب هذه الكلمة؟

قالت: إن هذا حق لا ريب فيه، وأوسع النساء حريةً أضيئهنَّ في الناس؛ وهل كالومس في حريرتها في نفسها؟
ولكن يا شؤمها على الدنيا! إنها هي بعينها كما قلت أنت: حرية المخلوق الذي يُترك حرًا كالشريد، لتُجرب فيه الحياة تجاريبها. وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القدر فيها؟

قلت: ولهذا لا أرجع عن رأيي أبدًا: وهو أنه لا حرية للمرأة في أمة من الأمم، إلا إذا شعر كل رجل في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها، بحيث لو أهينت واحدة ثار الكل فاستقادوا لها، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة؛ يومئذ تصبح المرأة حرة، لا بحريرتها هي، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال... فضحكت وقالت: (يومئذ) ! هذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان.... ؟

قال الأستاذ (ح): ولكننا أبعدنا عن قصة هذه الحياة، ما كان أولها؟
قالت: إن الشبان والرجال علم يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه؛ ويجب أن يقرَّ في ذهن كل فتاة، أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب، ولا كالمدرسة فيها الصداقة، ولا كالمحل الذي تبتاع منه منديلًا من الحرير أو زجاجة من العطر، فيه إكرامها وخدمتها.

وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء؛ فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجمت، أي توقحت، أي تبذلت، استوى عندها أن تذهب يمينًا أو تذهب شمالًا، وتهيات لكل منهما ولأيهما اتفق: صاحبات اليمين في كنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة، وصاحبات الشمال ما صاحبات الشمال...؟
قلت: هذا هذا؛ إنه الحياء، الحياء لا غيره؛ فهل هو إلا وسيلة أعانت الطبيعة بها المرأة لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو، فلا تلقى رجلاً إلا وفي دمه حارس لا يغفل. وهل هو إلا سلب جمعته الطبيعة إلى ذلك الإيجاب الذي لو انطلق وحده في نفس المرأة لاندفعت في التبرج والإغراء، وعرض أسرار أنوثتها في المعرض العام...؟

قالت: ذاك أردتُ، فكلُّ ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق، فلا تعدُّنه من فُرط الجمال، بل من قلة الحياء. واعلم أن المرأة لا تخضع حقَّ الخضوع في نفسها إلا لشئئين: حياؤها وغريزتها. قلت: يا عجباً! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية: «تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثدييها». فإن اختضعت المرأة للحياء كفتْ غريزتها..

قالت: ... وجعلها الحياءُ صادقةً في نفسها وفي ضميرها، فكانت هي المرأة الحقيقية الجديرة بالزوج والنسل وتوريث الأخلاق الكريمة وحفظها للإنسانية. قلت: ومن هذا يكون الإسرافُ في الأنوثة والتبرجِ أمام الرجال كذباً من ضمير المرأة.

قالت: ومن أخلاقها أيضاً؛ ألا ترى أن أشدَّ الإسراف في هذه الأنوثة وفي هذا التبرج لا يكون إلا في المرأة العامة..؟ قلت: والمرأة العامة امرأةٌ تجارية القلب. فكان المسرفة في أنوثتها وتبرُّجها، هذه سبيلُها، فهي لا تؤمن على نفسها.

قالت: قد تؤمن على نفسها، ولكنها أبداً مؤمسة الفكر في الرجال، فيوشكُ ألا تؤمن؛ وهي رهْءٌ بأحوالها وبما يقع لها، فقد يتقدم إليها الجريء وقد لا يتقدم، ولكنها بذلك كأنها مُعلنةٌ عن نفسها أنها «مستعدة ألا تؤمن»..

قال (ح): لكن يقال إن المرأة قد تتبرج وتتناثرت ل ترى نفسها جميلةً فاتنة، فيعجبها حسنُها، فيسرُّها إعجابُها.

قالت: هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذي رأيتُه هنا، ينظر إلى نفسه كما ينظر رجلٌ إلى راقصة تتأوَّد وتهتز وتترجرج. إن هذا الرقاص فيه الحركة الفنية كما هي حركة ليس غير؛ فهو كالميزان أو القياس أو آتات الضبط؛ أما فتنة الحركة وسحرها ومعناها من المرأة الفاتنة في وهم الرجل المفتون بها؛ فهذا كله لا يكون منه شيء في أستاذ الرقص، وإن كان أستاذ الرقص.

إن أجملَ امرأةَ تَبْصُقُ بِفَمِهَا على وجهها فى المرأةِ، إذا مُحَى الرجلُ من ذهنها،
أو لم يُطَلَّ بعينيه من وراء عينيها، أو لم تكن ممتلئة الحواس به، أو بإعجابه،
أو بالرغبة فى إعجابه؛ فمهما يكن من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها حينئذ
إلا كالدنيا إذا خَلَّتْ من العدل...

قلت: ولكننا أبعدنا عن «قصة هذه الحياة ما كان أولها!».
قالت: سأفعل ذلك لموضعك عندي: إن قصتي فى الفصل الأول منها هى قصة
جمالى؛ وفى الفصل الثانى هى قصة مرض العذراء؛ وفى الفصل الثالث هى قصة الغفلة
والتهاون فى الحراسة؛ وفى الفصل الرابع هى قصة انخداع الطبيعة النسوية المبنية
على الرقة وإيجاد الحب وتلقيه والرغبة فى تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد؛ ثم
فى الفصل الخامس هى قصة لؤم الرجل، كان محباً شريفاً يُقْسِمُ بالله جَهْدَ إيمانه، فإذا
هو كالزور والمحتال واللص وأمثالهم ممن لا يُعرفون إلا بعد وقوع الجريمة.
ثم سكنت هنيئةً، فكان سكوتها يُنمُّ كلامها...

وقال (ح): فما هو مَرَضُ العذراء الذى كان منه الفصل الثانى فى الرواية؟
قالت: كلُّ عذراءٍ فهى مريضةٌ إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يُعْلَمَها أهلها أن العلاج
قد يكون مسموماً؛ وينبغى أن يحوطوها بقريب من العناية التى يحاط المريض بها،
فلا يُجْعَلَ ما حوله إلا ملائماً له، ويُمْنَعُ أشياء وإن أحبها ورغبَ فيها، ويُكْرَهُ على
أشياء وإن عافها وصدف عنها.

قال (ح): فيكون القانون الاجتماعى تصديقاً للقانون الدينى من أن الذكورة هى فى
نفسها عداوةٌ للأنوثة، وأن كلَّ رجلٍ ليس ذا رَحِمٍ مَحْرَمٍ^(١) يجب أن يكون مرفوضاً إلا
فى الحالة الواحدة المشروعة، وهى الزواج.

(١) يقال ذو رحم محرم: أى لا يحل للمرأة، كأبيها وأخيها إلخ.

قالت: فتكون المشكلة الاجتماعية هي: من ذا يُرغم الذكورة على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضيع الأنوثة؟

قال: ولكن إذا كان سقوط الفتاة هو جنائية «الزواج المزور» ، فما عسى أن يكون سقوط بعض المتزوجات؟

قالت: هو جنائية «الزواج المنقح»... تريد أنفسهن الخبيثة تنقيح الزوج، والمومسات أشرف منهن؛ إذ لا يعتدين على حق ولا يخن أمانة.

ورف على وجهها في هذه اللحظة شعاع من الشمس كان على جبينها كصفاء اللؤلؤ، ثم تحول على خدها كإشراق الياقوت؛ ورأتني أتأمله، فقالت: أنا مُنتَشِية بحظي في هذه الساعات؛ وهذا الشعاع إنما جاء يختم نورها.

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيقي من حياتها... وهو رجل يتحفظها؛ كلما أخذته عينها ابتسمت له ابتساماً من الذل، لو لم تجعله هي ابتساماً لكان دموعاً؛ ثم وقفت وما تتماسك من الهم، كأنها تمثال «للجمال البائس»؛ ثم حينت وسلمت وودعت؛ وبعد «واوات» أخرى... مشت ساكنة ومراًها يضيح ويبكى.

فوداعاً يا أوهام الذكاء التي تلمس الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها!

ووداعاً يا أحلام الفكر التي تضع مع كل شيء شيئاً يغيره!

ووداعاً يا حُبّها...



عربة اللُقطاء...(*)

جلستُ على ساحل الشاطبي في (إسكندرية) أتأمل البحر، وقد ارتفع الضحى، ولكنَّ النهارَ لَدُنْ ناعِمٍ رطيبٍ كأنَّ الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظهر.

وجاءت عربة اللُقطاء فأشرفت على الساحل، وكأنها في منظرها غمامة تتحرك، إذ تعلوها ظلةٌ كبيرة في لون الغيم. وهى كعربات النقل، غير أنها مُسوَّرة بألواح من الخشب كجوانب النعش تُمسِكُ مَنْ فيها من الصغار أن يتدحرجوا منها؛ إذ هى تدرُج وتَنَقَلُّ.

ووقفتُ فى الشارع لتُنزل ركبها إلى شاطئ البحر، أولئك ثلاثون صغيراً من كل سَفِيح لقيط ومنبوذ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يمكن أن تُمَطَّ العربة فتسعهم، ولكن يمكن أن يُكَبَسُوا ويتداخلوا حتى يَشْغَلَ الثلاثة أو الأربعة منهم حيزَ اثنين. ومن منهم إذا تألم سيذهب فيشكو لأبيه... ؟

وترى هؤلاء المساكين خليطاً مُلتبساً يُشْعِرُ اجتماعهم أنهم صيدٌ فى شبكة لا أطفال فى عربة، ويدلك منظرهم البائس الذليل أنهم ليسوا أولاد أمهات وآباء، ولكنهم كانوا وساوسِ آباء وأمّهات...

هذه العربة يجرُّها جوادان أحدهما أدهم والآخر كُمَيْت^(١). فلما وقفت لوى الأدهم عنقه والتفت ينظر: أيفرغون العربة أم يزيدون عليها... ؟ أما الكُمَيْت فحرَّك رأسه وعَلَكَ لجامه كأنه يقول لصاحبه: أن الفكرَ فى تخفيف العبء الذى تحمله يجعله أثقلَ عليك مما هو، إذ يُضيف إليه الهمَّ، والهمُّ أثقل ما حملت نفس؛ فما دمت فى

(*) كتبها فى مصيفه بسيدي بشر سنة ١٩٣٥م.

(١) الأدهم: الأسود. والكُمَيْت: الأحمر.

العمل فلا تتوهَّم الراحة، فإن هذا يُوهِن القوة، ويخْذُل النشاط، ويجلبُ السَّأم؛
وإنما رُوحُ العمل الصبر، وإنما رُوح الصبر العزم.
ورآهم الأدهم يُنزلون اللُّقطاء، فاستخفَّه الطرب، وحرَّك رأسه كأنما يسخرُ
بالكميت وفلسفته، وكأنما يقولُ له: إنما هو النَّزوعُ إلى الحرية، فإن لم تكن لك في
ذاتها، فلتكنْ لك في ذاتك، وإذا تعذَّرت اللذة عليك، فاحتفظْ بخيالها، فإنه وُصِّلَتْ
بها إلى أن تُمكنَ وتتسهَّلَ؛ ولا تجعلَنَّ كلَّ طباعِك طباعاً عاملةً كادحةً، وإلا فأنت أداة
ليس فيها إلا الحياة كما تريدك، وليكنْ لك طبعُ شاعرٍ مع هذه الطباع العاملة، فتكونَ
لك الحياة كما تريدك وكما تريدها.
إن الدنيا شيء واحدٌ في الواقع؛ ولكنَّ هذا الشيء الواحد هو في كل خيال دنيا
وحدها.

وفى العربة امرأتان تقومان على اللقطاء؛ وكلتاها تزويرٌ للأُم على هؤلاء
الأطفال المساكين؛ فلما سكنت العربة انحدرتُ منهما واحدة وقامت الأخرى
تناولها الصغار قائلةً: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... إلى أن تمَّ العدد وخلا قفصُ
الدَّجاج من الدجاج...!
ومشى الأطفال بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مُستسلِمة، مُستكينة،
معترفة أن لا حقَّ لها في شيء من هذا العالم، إلا هذا الإحسان البَخْس القليل.
جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحرَ والشمس، فغفلَ الصغارُ عن كل ذلك وصرفوا
أعينهم إلى الأطفال الذين لهم آباءٌ وأمَّهات...

واكبدي! أضنى الأسى كبدي؛ فقد ضاق صدري بعد انفساحه، ونالني وجع الفكرِ
في هؤلاء التُّعساء، وعَرَّتْنِي منهم علةٌ كَدَس الحمى في الدم؛ وانقلبتُ إلى مَثَوَى،
والعربة وأهلها ومكانها وزمانها في رأسى.

فلما طاف بى النوم طاف كل ذلك بى، فرأيتنى فى موضعى ذاك، وأبصرتُ العربية قد وقفت، وتحاورَ الأدهم والكُميت؛ فلما أفرغوها وشعرَ الجوادان بخفتها التفتنا معاً، ثم جمعاً رأسيهما يتحدثان!

قال الكُميت: كنتُ قبلَ هذا أجرُ عربيةِ الكلابِ التى تقتلها الشرطُ بالسُّم، فأخذ الموتَ لهذه الكلابِ المسكينة، ثم أرجعُ بها موتى؛ وكنتُ أذهبُ وأجىءُ فى كل مراد ومُضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها، ولا أشعر بغير الثقل الذى أجره؛ فلما ابتليتُ بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء، أحسستُ ثقلاً آخرَ وقع فى نفسى وما أدري ما هو؟ ولكن يُخيلُ إلى أن ظلَّ كل طفل منهم يُثقلُ وحدهُ عربية. قال الأدهم: وأنا فقد كنتُ أجرُ عربية القمامة والأقذار، وما كان أقدرها وأنتنها، ولكنها على نفسى كانت أظهرَ من هؤلاء وأنظف؛ كنتُ أجِدُ ريحها الخبيثة ما دمت أجرها؛ فإذا أنا تركتُ العربية استروحتُ النسيم واستطعمتُ الجو، أما الآن فالريحُ الخبيثة فى الزمن نفسه، كأن هذا الزمن قد أروحَ وأنتن منذ قرنتُ بهؤلاء وعربتهم. قال الكُميت: إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه، إذ يكون وراءها كالقطعة المتَّممة لها، ولا تقبل أمه إلا هذا، ولا يصرفُها عنه صارف، فترغم الوجودَ على أن يتقبلَ ابنها، وعلى أن يُعطيَه قوانينه؛ أما هؤلاء الأطفال فقد طردَهم الوجود منه كما طرد الله آباءهم وأمهاتهم من رحمته؛ وقد هُديتُ الآن إلى أن هذا هو سرُّ ما نشعر به؛ فلسنا نجرُّ للناس ولكن للشياطين..

وهنا وقف على حوزى العربية صديقٌ من أصدقائه فقال: من هؤلاء يا أبا على؟ قال الحوزى: هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم. قال أبو هاشم: سبحان الله أما تترك طبعك فى النكتة يا شيخ؟ قال الحوزى: وهل أعرفهم أنا؟ هم بضاعة العربية والسلام: اركبوا يا أولاد، انزلوا يا أولاد. هذا كلُّ ما أسمع. قال أبو هاشم: ولكن ما بالك ساخطاً عليهم، كأنهم أولاد أعدائك؟

قال الحوذى: ليت شعري من يدري أى رجل سيخرج من هذا الطفل، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة؟

انظر كيف تعلقت هذه البنت وعمرها سنتان، فى عنق هذا الولد الذى كان من سنتين ابن سنتين^(١)... لا أرانى أحمل فى عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم العربات إلى أبواب دورهم؛ فإن هؤلاء اللقطاء يحملون إلى باب الملجأ، وهو باب للحارات والسكك لا يأخذ إلا منها، فلا يرسل إلا إليها.

أنا والله يا أبا هاشم، ضيق الصدر، كاسف البال من هذه المهنة؛ ويخيّل إلى أنى لا أحمل فى عربتى إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدعارة والسكر وعواصف وزوابع...

قال أبو هاشم: ولكن هؤلاء الأطفال مساكين، ولا ذنب لهم.

قال الحوذى: نعم لا ذنب لهم، غير أنهم هم فى أنفسهم ذنوب؛ إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تثبت امتداد الإثم والشر فى الدنيا؛ ولدتهم أمهاتهم لغية^(٢). فقطع صاحبه عليه وقال: وهل ولدنهم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن؟ قال: نعم، إنه عمل واحد، غير أن أحواله فى الجهتين مختلفة لا تتكافأ؛ وهل تستوى حال من يشتري المتاع، ومن يسرق المتاع؟

ههنا باعث من الشهوة قد عجز أن يسمو سموه - وما سموه إلا الزواج - فتسفل وانحط، ورجع فسقا، وعاد أوله على آخره: كان أوله جرماً فلا يزال إلى آخره جرماً، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره؛ فلما حملت المرأة وفاءت إلى أمرها، وذهب عنها جنون الرجل والرجل معاً؛ انطوت للرجال على الثأر والحقد والضعينة؛ فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً.

والأمهات يعددن لأجنتهن الثياب والأكسية قبل أن يولدوا، ويهيئن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً فى الحياة، فيكسبنهم فى بطونهن شعور الفرح والابتهاج وارتقاب

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على)، والمراد أنه ابن أربع سنوات.

(٢) ولدته لغية: أى من سفاح. وضده لرشدة بفتح الراء.

الحياة الهنيئة والرغبة في السمو بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء يُعِدُّن لهم الشوارع والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن طول أشهر حملها أن يجيئها الوليد ، بل أن يتركها حياً أو مقتولاً ؛ فيورثنهم بذلك وهم أجنة شعور اللهفة والحسرة والبغض والمقت ، ويطبعنهم على فكرة الخطيئة والرغبة في القتل ، فلا يكون ابن العار إلا ابن هذه الرذائل أيضاً .

وتظلُّ الفاسقة مدة حملها تسعة أشهر في إحساس خائف ، مترقب ، منفرد بنفسه ، منعزل عن الإنسانية ، ناغم ، متبرم ، متستر ، منافق ؛ فلو كان السفيح من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سُمُّه من هذا الإحساس العنيف . ومتى أَلْقَتْ الفاسقة ذا بطنها^(١) قطعته لتَوَّه من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمته به ليموت ؛ فإن هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهو موت آخر شرٌّ من ذلك ؛ ومهما يتَوَلَّه الناس . والمحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره ؛ مما في دمه وطباعه الموروثة ؛ ولا يبرح جريمة ممتدة متطاولة ، ولا ينفك قصة فيها زان وزانية ، وفيها خطيئة ولعنة .

فهؤلاء كما رأيت أولاد الجُرأة على الله ، والتعدى على الناس ، والاستخفاف بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغض الخارج من الحب ، والوقاحة الآتية من الخجل ، والاستهتار المنبعث من الندامة ؛ وكلُّ منهم مسألة شرّ تطلب حلّها أو تعقيدها من الدنيا ، وفيهم دماء فؤارة تجمع سموها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة .

قال أبو هاشم : ألا لعنة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغترَّت تلك المرأة فاستزلّها وهوّرها فى هذه المَهْواة . أكان حق الشهوة عليه أعظم من حق هذا الآدمي . أما كان ينبغى أن يكون هذا الآخر هو الأول فى الاعتبار ، فيعلم أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبته ، وهو البلاغ إلى ما يحاوله منها ؛ فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالثٌ يراهما ... فلعلهما يستحيان .

(١) أى وضعت وولدت ، وهو تعبير عربى بليغ .

قال الحوذني الفيلسوف: لعنة الله على ذلك الرجل، ولعنات الله كلها، ولعنات الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التي انقادت له واغترت به. إن الرجل ليس شيئاً في هذه الجريمة، فقد كانت بصقة واحدة تغرقه، وكانت صفة واحدة تهزمه، وكان مع المرأة الحكومة والشرائع والفضائل، ومعها جهنم أيضاً. ألم تعلم الحمقاء أن الرجل الذي ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها، وأن الشريعة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه؟ إنه ليس الرجل هو الذي ساور هذه المرأة، بل مادة الحياة التي رأت في المرأة مستودعها، فتريد أن تقتحم إلى مقرها عنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد، ولا شيء إلا أن توجد؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً، ولا فضيلة ولا رذيلة. لأيهما يجب التحصين: أللصاعقة المنقضة، أم للمكان الذي يخشى أن تنقض عليه؟ لقد أجابت الشريعة الإسلامية: حصنوا المكان. ولكن المدنية أجابت: حصنوا الصاعقة...!

وكانت المرأتان المصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان، فقالت الكبرى منهما: يا حسرتاً على هؤلاء الصغار المساكين! إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة، أى فى سرورهم وأفراحهم؛ وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة، أى فى وجودهم فقط.

وكبر الأطفال يكون منه إدخالهم فى نظام الدنيا، وكبر هؤلاء إخراجهم من «الملجأ» وهو كل النظام فى دنياهم، ليس بعده إلا التشريد والفقر وابتداء القصة المحزنة. فقالت الصغرى: ولم لا يفرحون كأولاد الناس، أليست الطبيعة لهم جميعاً، وهل تجمع الشمس أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك؟

قالت الأخرى: الطبيعة؟ تقولين الطبيعة؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياة بعد، ولم تجاوبى بقلبك القلب الصغير الذى كان تحت قلبك تسعة أشهر؛ وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ.

لقد ولدتُ يا ابنتى خمسةَ أطفال، وبالعينِ البليغةِ التى أنظرُ بها إليهم أنظرُ إلى هؤلاء، فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الإنسانى: يعبسُ لهم حتى الجو، ويُظلم عليهم حتى النور؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره.

يا لهفى على عُود أخضرٍ ناعم رَيَّانَ كان للثمرِ فقيل له: كن للحطب! الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىِّ بأنه حىٌّ كما يهوى، ورؤيته نفسه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به. وهؤلاء اللقطاء فى حياة عامَّة قد نُزعت منها الأمُّ والأبُّ والدارُ، فليس لهم ماضٍ كالأطفال، وكأنهم يبدءون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات. قالت الصغيرة: ولكنهم أطفال.

قالت تلك: نعم يا ابنتى هم أطفال، غيرَ أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل. وحسبكُ بشقاء الطفل الذى لم يعرف من حنان أمه إلا إنها لم تقتله، ولا من شفقتها إلا إنها طرحتَه فى الطريق. إن الطبيعةَ كلَّها عاجزة أن تعطيَ أحدهم مكانًا كالموضع الذى كان يتبوَّؤه بين أمه وأبيه.

ليس الأطفال يا ابنتى إلا صُورًا مُبهمةً صغيرةً من كل جمال العالم، تفسرُها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة؛ فأين أينَ العيونُ التى فيها تفسرُ هذه الصور اللقيطة؟

ألا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذال الطغام الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين! يزعمون لأنفسهم الرجولة، فهذه هى رجولتهم بين أدينا، هذه هى شهائمتهم، هذه هى عقولهم، هذه هى آدابهم... ! عجبًا، إن سيئات اللصوص والقتلة كلها يُنسَى ويتلاشى، ولكنَّ سيئات العشاق والمحبين تعيش وتكبر...

أكان ذنبُ المرأة أنها صادقة فصدقت، وأنها مُخلصة فأخلصت، وأنها رقيقة فلانت، وأنها مُحسنة فرحمت، وأنها سليمة القلب فانخدعت؟

واكبدي للمسكينة! هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التي خلقت لها؟
هل انخدعت إلا الأم التي فيها؟ وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأب الذي فيه؟
واكبدي لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاث فجائع: في كرامتها التي ابتذلت،
وفى الحبيب الذي تبرأ منها، وفى طفلها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته
لما كتب عليه...!

إن هذا لا يُعوّضه فى الطبيعة إلا أن يكون لكل رجل من أولئك الأنذال ثلاث أرواح،
فيُقتل ثلاث مرات: واحدة بالشنق، والثانية بالحرق، والثالثة بالرجم بالحجارة.

وكان اللقطاء قد تبعثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى، فوقف أحدهم على طفل صغير
يلعب بما بين يديه، وأمه على كئيب منه، وهى تتلهى بالمخرم تتلوى فيه أصابعها.
فنظر الطفل إلى اللقيط وأوماً إلى جماعته ثم قال له: أنتم جميعاً أولاد هاتين
المرأتين أم إحداهما؟

قال اللقيط: هما المراقبتان؛ وأنت أفليست هذه التى معك مراقبة؟

قال الطفل: ما معنى مراقبة؟ هذه ماما!

قال الآخر: فما معنى ماما؟ هذه مراقبة.

قال الطفل: وكلكم أهل دار واحدة؟

قال: نحن فى الملجأ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دورنا.

فقال الطفل: وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك؛ ثم تغضب إذا أعطوك
ليزيدوك؟ وهل يُسكتونك بالقرش والحلوى؟ والقبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد؟
إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ؛ فإن أبى قد ضربنى اليوم، وقد أمر (ماما)
أن لا تعطينى شيئاً إذا بكيت، ولا تزيدنى إذا غضبت، ولا

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة: تعال يا رقم عشرة... فلوى اللقيط المسكين
وجهه، وأنصاع وأدبر.

«ومشى الأطفال بوجوه يتيمة، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة، مستكينة،
معترفة أن لا حق لها فى شيء من هذا العالم إلا هذا الإحسان البخس القليل» ...

الله أكبر (*)

جلستُ وقد مضى هزيعٌ من الليل، أهْيَيْءُ فى نفسى بناء قصة أُديرُها على فتى كما أَحَبَّ.. خبيثٍ داعر، وفتاة كما أَحَبَّتْ... عذراء مُتَمَاجِنَةٌ؛ كلاهما قد دَرَسَ وتخرَّجَ فى ثلاثة معاهد: المدرسة، والروايات الغرامية، والسِّيما. وهو مصرىُّ مسلم، وهى مصرية مسيحية. وللفتى هَنَاتٌ وسيئاتٌ لا يتنَزَّهُ ولا يتورَّع؛ وهو من شبابه كالماء يغلى، ومن أُنَاقَتِهِ بحيث لم يَبْقَ إلا أن تَلَحَّقه تاء التأنيث... وقد تشعَّبت به فنونُ هذه المَدِينَةِ، فرفعَ الله يَدَهُ عن قلبه لا يُبَالى فى أى أوديتها هَلَكَ؛ وهو طَلُبُ نساء، دأبه التَّجَوُّلُ فى طُرُقِهِنَّ، يَتَبَّعُهُنَّ ويتعرَّضُ لِهِنَّ، وقد أَلْفَتَهُ الطرق حتى لو تكلمت لقلت: هذا ضَرْبٌ عجيبٌ من عَرَبَاتِ الكَنَسِ...!

وللفتاة تَبَرُّجٌ وتهتك، يَعْبَثُ بها العَبَثُ نفسه، وقد أخرجتها فنونُ هذا التأنث الأوربى القائم على فلسفة الغريزة، وما يُسمَّونه «الأدب المكشوف» كما يُصَوِّره أولئك الكُتَّابُ الذين نَقَلُوا إلى الإنسانية فلسفة الشهوات الحرَّة عن البهائم الحرَّة.. فهى تَبَرُّزُ حين تَخْرُجُ من بيتها، لا إلى الطريق، ولكن إلى نظرات الرجال؛ وتَظْهَرُ حين تَظْهَرُ، مُصَوِّرة لا بتلوين نفسها مما يجوزُ وما لا يجوزُ، ولكن بتلوين مرآتها مما يُعْجِبُ وما لا يُعْجِبُ.

وكلا اثنيهما لا يُقيم وزناً للدين، والمسلم والمسيحى منهما هو الاسم وحده؛ إذ كان مِن وَضَعِ الوالدين (رحمهما الله!)؛ والدينُ حُرِّيَّةُ القيد لا حُرِّيَّةُ الحرية؛ فأنت بعد أن تُقَيِّدَ رذائلَكَ وضراوتَكَ وشَرَكَ وحيوانيتَكَ - أنت من بعد هذا حر ما وَسِعَتْكَ الأرضُ والسماءُ والفكر؛ لأنك من بعد هذا مُكَمَّلٌ لِلإنسانية، مستقيمٌ على طريقَتها؛ ولكن هَبْ حِمَارًا تَفَلَسَفَ وأراد أن يكون حراً بعقله الحمارى؛ أى تقرير

(*) كتبها فى الأسبوع الأخير من رمضان.

المذهب الفلسفي الحماري في الأدب.... فهذا إنما يبتغى إطلاق حريته، أي تسليط حماريته الكاملة على كل ما يتصل به من الوجود.

وتمضي قصتي في أساليب مختلفة تمتحن بها فنون هذه الفتاة شهوات هذا الفتى، فلا يزال يمشى من حيث لا يصل، ولا تزال تمنعه من حيث لا ترد؛ وما ذلك من فضيلة ولا امتناع، ولكنها غريزة الأنوثة في الاستمتاع بسلطانها، وإثباتها للرجل أن المرأة هي قوة الانتظار، وقوة الصبر؛ وأن هذه التي تحمل جنينها تسعة أشهر في جوفها، تمسك رغبتها في نفسها مدة حمل فكرى إذا هي أرادت الحياة لرغبتها، ليكون لوقوعها وتحققها مثل الميلاد المفرح.

ولكن الميلاد في قصتي لا يكون لذيلة هذه الفتاة، بل لفضيلتها؛ فإن المرأة في رأيي - ولو كانت حياتها محدودة من جهاتها الأربع بكبائر الإثم والفاحشة - لا يزال فيها من وراء هذه الحدود كلها قلب طبيعته الأمومة، أي الاتصال بمصدر الخلق، أي كل فضائل العقيدة والدين؛ وما هو إلا أن يتنبه هذا القلب بحادث يتصل به فيبلغ منه، حتى تتحول المرأة تحول الأرض من فصلها المقشعر المجذب، إلى فصلها النضر الأخضر.

ففي قصتي تزعن الفتاة لصاحبها في يوم قد اعترتها فيه مخافة، ونزل بها هم، وكادتها الحياة من كيدها؛ فكانت ضعيفة النفس بما طرأ عليها من هذه الحالة. وتخلو بالفتى وفكرها منصرف إلى مصدر الغيب، مؤمل في رحمة القدر؛ ويخلبها الشاب خلابة رعونته وحبه ولسانه، فيعطيها الألفاظ كلها فارغة من المعاني، ويقر بالزواج وهو منطو على الطلاق بعد ساعة؛ فإذا أوشكت الفتاة أن تصرع تلك الصرعة دوى في الجو صوت المؤذن: «الله أكبر!».

وتلسع الفتاة في قلبها، وتتصل بهذا القلب روحانية الكلمة، فتتغ الحياة السماوية في الحياة الأرضية، وتنتبه العذراء إلى أن الله يشهد عارها، ويفجوها أنها مقدمة على أن تفسد من نفسها ما لا يصلح المستحيل فضلاً عن الممكن، وترنو بعين الفتاة الطاهرة من نفسها إلى جسم بغى ليست هي تلك التي هي؛ وتنظر بعين

الزوجة من صاحبها إلى فاسق ليس هو ذاك الذى هو؛ ويحكى لها المكان فى قلبها المفطور على الأمومة - حكاية تثور منها وتشمئز، ويصرخ الطفل المسكين صرخته فى أذنها قبل أن يولد ويُلقي فى الشارع... !

الله أكبر! صوت رهيب ليس من لغة صاحبها ولا من صوته ولا من خسته، كأنما تفرغ السماء فيه ملء سحابة على رجب قلبها فتُنقيه حتى ليس به ذرة من دنسه الذى ركبته الساعة. كان لصاحبها فى حس أعصابها ذلك الصوت الأسود، المنطفى، المبهم، المتلجلج مما فيه من قوة شهواته؛ للمؤذن صوت آخر فى روحها؛ صوت أحمر، مشعل كمعمعة الحريق، مجلجل كالرعد، واضح كالحقيقة، فيه قوة الله! سمعت صوت السلسلة وقعقتها تلوى وتشد عليها، ثم سمعت صوت السلسلة بعينها يكسر حديدًا ويتحطم.

كانت طهارتها تختنق فنفذت إليها النسمات؛ وطارت الحمامة حين دعاها صوت الجو، بعد أن كانت أسفت حين دعاها صوت الأرض. طارت الحمامة، لأن الطبيعة التفتت فيها لفتة أخرى.

ويكرر المؤذن فى ختام أذانه: «الله أكبر الله أكبر!» فإذا ...

وتبدل خاطرى، فوقفت فى بناء القصة عند هذا الحد، ولم أدر كيف يكون جواب «إذا....» فتركت فكرى يعمل عمله كما تلهمه الواعية الباطنة، ونمت... ورأيت فى نومي أنى أدخل المسجد لصلاة العيد وهو يعج بتكبير المصلين: «الله أكبر الله أكبر!» ولهم هدير كهدير البحر فى تلاطمه. وأرى المسجد قد غص بالناس فاتصلوا وتلاحموا؛ تجد الصف منهم على استوائه كما تجد السطر فى الكتاب ممدودًا محتبكا ينتظمه وضع واحد، وأراهم تتابعوا صفا وراء صف، ونسقا على نسق، فالمسجد بهم كالسنبلة ملئت حبا ما بين أولها وآخرها؛ كل حبة هى فى لف من أهلها وشملها، فليس فيهن على الكثرة حبة واحدة تميزها السنبلة فضل تمييز، لا فى الأعلى ولا فى الأسفل.

وأقف متحيراً مُتَلَدِّداً أَلْتَفْتُ ههنا وههنا، لا أدري كيف أخلصُ إلى موضع أجلس فيه، ثم أمضى أتخطى الرِّقَابَ أطمعُ في فُرْجَةٍ أفتحهما وما تنفرج، حتى أنتهى إلى الصفِّ الأوَّل، وأنظرُ إلى جانب المحراب شيخاً بادِناً يملأُ موضعَ رَجَليْن، وقد نَفَحَ منه ريحُ المِسْك، وهو في ثياب من سُندُسٍ خُضِرَ؛ فلما حاذَيْتُهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وانكَمَشَ، فكأنما هو يُطَوِّى طَيِّباً، ورأيت مكاناً وَسَعَنِي فَحَطَطْتُ فيه إلى جانبه، وأنا أعجَبُ للرجل كيف ضاق ولم أضيق عليه، وأين ذهب نِصفُهُ الضَّخْمُ وقد كان بعضه على بعضه زِيماً على زِيَمٍ^(١) وامتلاءً على امتلاء.

وجعلتُ أَدُسُّ عليه ظنِّي، فوقع في نفسي أنه مَلَكٌ من ملائكة الله قد تمثَّل في الصورة الآدمية فاكتنمَ فيها لأمر من الأمر.

وضجَّ الناسُ: «الله أكبرُ اللهُ أكبرُ!» في صوت تقشعرُّ منه جُلود الذين يخشَوْنَ رَبَّهُمْ، غير أن الناسَ مما أَلْفَوْا الكلمةَ ومما جهلوا من معناها - لا يسمعونها إلا كما يسمعون الكلام؛ أما الذي إلى جانبي فكان ينتفضُّ لها انتفاضةً رَجَّتْنِي معه رَجًّا، إذ كنتُ ملتصِقاً به مُناكِباً له؛ وكأنَّ المسجدَ في نَفْضِهِ إيانا كان قِطاراً يجرى بنا في سرعة السحاب، فكلُّ ما فيه يرتجُّ ويهتزُّ. ورأيتُ صاحبي يَذْهَلُ عن نفسه، ويتلألأ على وجهه نورٌ لكل تكبيرة، كأن هناك مصباحاً لا يزال ينطفئ ويشتعل؛ فقطعتُ الرأى أنه من الملائكة.

ثم أقيمت الصلاةُ وكبَّرَ أهلُ المسجد، وكنتُ قرأتُ أن بعضهم صلى خَلْفَ رجل من عظماء النفوس الذين يعرفون الله حقَّ معرفته؛ قال: فلما كبَّرَ قال: «الله..» ثم بُهِتَ وبقي كأنه جَسَدٌ ليس به رُوح من إجلاله الله تعالى؛ ثم قال: «أكبر» يَعَزِمُ بها عَزْماً، فظننتُ أن قلبي قد انقطعَ من هيبة تكبيره.

قلتُ أنا: أمَّا الذي إلى جانبي، فلما كبر مدَّ صوته مداً ينبثق من رُوحه ويستطير، فلو كان الصوتُ نوراً لَمَلَأَ ما بين الفجر والضُحى.

(١) أى كتلا على كتل، والزيم المتفرق من اللحم.

وعرفتُ والله من معنى المسجد ما لم أعرف، حتى كأني لم أدخله من قبل، فكأن هذا الجالسُ إلى جانبي كضوء المصباح في المصباح؛ فانكشف لي المسجد في نوره الرُّوحى عن معانٍ أدخلتني من الدنيا في دُنْيَا على حِدَةٍ. فما المسجد بناء ولا مكاناً كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيحٌ للعالم الذى يَمُوج من حَوْلِه ويضطرب؛ فإن في الحياة أسبابَ الرِّيحِ والباطل والمنافسة والعداوة والكَيْدِ ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجدُ إذ يجمع الناسَ مراراً في كل يوم على سلامة الصدر، وبراعة القلب، وروحانيّة النفس، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرةً منزّهةً مُسَبَّغَةً على حدود جسمها من أعلاه وأسفلهِ شعارَ الطُّهرِ الذى يُسمّى الوضوء، كأنما يغسلُ الإنسان آثارَ الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد.

ثم يستوى الجميعُ في هذا المسجد استواءً واحداً، ويقفون موقفاً واحداً، ويخشعون خشوعاً واحداً، ويكونون جميعاً في نفسية واحدة؛ وليس هذا وحده، بل يَخِرُّون إلى الأرض جميعاً ساجدين لله؛ فليس لرأس على رأس ارتفاع، ولا لوجه على وجه تمييز؛ ومن ثمَّ فليس لذات على ذات سلطان. وهل تُحقِّقُ الإنسانيةُ وَحدَتها في الناس بأبدع من هذا؟ ولعمري أين يجدُ العالمُ صوابه إلا ههنا؟

فالمسجد هو في حقيقته موضعُ الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكلِّ ما يزيغُ به الاجتماع، وهو فكرٌ واحدٌ لكلِّ الرعوس؛ ومن ثمَّ فهو حلٌّ واحدٌ لكلِّ المشاكل، وكما يُشَقُّ النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يُقام المسجد فتقف الأرضُ بمعانيها الترابية خلف جدرانهِ لا تَدْخُلُهُ.

وما حَرَكَةٌ في الصلاة إلا أولُها «الله أكبر» وآخرُها «الله أكبر»؛ ففي ركعتين من كلِّ صلاة إحدى عشرة تكبيرةً يَجْهَرُ المصلون بها بلسان واحد؛ وكأني لم أفطن لهذا من قبل، فأى زمام سياسى للجماهير وروحانيّتها أشدُّ وأوثق من زمام هذه الكلمة التى هى أكبرُ ما فى الكلام الإنسانى؟

ولما قُضِيَت الصلاة سَلَّمْتُ على المَلِكِ وَسَلَّم على ، ورأيتُه مقبلاً محتفياً ، ورأيتُنِي
أثيراً في نفسه ، وجالت في رأسِي الخواطرُ فتذَكَّرْتُ القِصَّةَ التي أريدُ أن أكتبَها ، وأن
المؤدَّنَ يكرر في خاتمة أذنيه : «الله أكبرُ اللهُ أكبرُ» فإذا...
وقلت : لأَسأَلَنَّهُ ، وما أعظم أن يكونَ في مقالتي أسطرٌ يلهمها مَلَكٌ من الملائكة !
ولم أكد أرفع وجهي إليه حتى قال :

«... فإذا لَطَمْتان على وجه الشيطان ، فَوَلَّى مُدْبِراً ولم يُعَقِّبْ ؛ ووَضَعَتِ الكلمةُ
الإلهيَّةُ معناها في موضعه من قلب الفتاة ، فَلأَيَّ بِلأى ما نَجَتْ .
إن الدينَ في نفس المرأة شعورٌ رقيق ، ولكنه هو الفولاذُ السميكَ الصُّلبُ الذي
تُصَفِّحُ به أخلاقُها المدافعة .
الله أكبر ! أتدري ماذا تقول الملائكة إذا سمعت التكبير ؟ إنها تُنشدُ هذا النشيد :

بَيْنَ الوقتِ والوقتِ من اليومِ تَدُقُّ ساعةُ الإسلامِ بهذا الرنينِ : اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ ،
كما تَدُقُّ الساعةُ في موضعٍ ليتكَلَّمُ الوقتُ برنينها .

الله أكبر ! بَيْنَ ساعاتٍ وساعاتٍ من اليومِ تُرْسَلُ الحياةُ في هذه الكلمة نداءها
تهتِفُ : أَيُّها المؤمن ! إن كنتَ أَصَبْتَ في الساعاتِ التي مضتْ ، فاجتهدْ للساعاتِ
التي تتلو ؛ وإن كنتَ أَخْطَأْتَ ، فَكْفَرْ وَاُمُحْ ساعةً بساعةٍ ؛ الزمنُ يمحو الزمنَ ، والعملُ
يُغَيِّرُ العملَ ودقيقةٌ باقيةٌ في العمرِ هي أَمَلٌ كبيرٌ في رحمة الله .

بين ساعاتٍ وساعاتٍ ، يتناولُ المؤمنُ ميزانَ نفسه حين يسمع : اللهُ أكبرُ ،
ليعرفَ الصِّحَّةَ والمرضَ من نِيَّتِهِ ؛ كما يَضَعُ الطبيبُ لمريضه بينَ ساعاتٍ وساعاتٍ
ميزانَ الحرارة .

اليوم الواحد فى طبيعة هذه الأرض عُمرٌ طويلٌ للشرِّ، تكاد كلُّ دقيقة بشَرِّها تكون يوماً مختوماً بَلِيلٍ أسود؛ فيجب أن تقسمَ الإنسانيةُ يومها بعدد قارَّات الدنيا الخمس، لأنَّ يومَ الأرض صورةً من الأرض؛ وعند كل قسم: من الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء - تصيح الإنسانية المؤمنة مُنبِّهةً نفسها: الله أكبر، الله أكبر!

بين ساعاتٍ وساعات من اليوم يعرض كلُّ مؤمن حسابَه، فيقوم بين يدي الله ويرفعه إليه. وكيف يكون من لا يزال ينتظر طولَ عمره فيما بين ساعاتٍ وساعاتٍ - الله أكبر.... ؟

بين الوقتِ والوقت من النهار والليل تُدَوِّى كلمة الروح: الله أكبر. ويُجيبها الناس: الله أكبر. ليعتاد الجماهير كيف يُقَادُّون إلى الخير بسهولة، وكيف يحققون فى الإنسانية معنى اجتماع أهل البيت الواحد؛ فتكون الاستجابة إلى كل نداء اجتماعى مغروسةً فى طبيعتهم بغير استِكرَاه.

النفْسُ أسمى من المادَّةِ الدنيئة، وأقوى من الزمن المخرب، ولا دين لمن لا تشمئزُّ نفسه من الدناءة بأنْفةً طبيعية، وتحمل هموم الحياة بقوة ثابتة. لا تضطربوا؛ هذا هو النظام. لا تنحرفوا؛ هذا هو النهج. لا تتراجعوا؛ هذا هو النداء. لن يكبرَ عليكم شيء مادامت كلمتكم: الله أكبر.....!

■ ■ ■

فى اللهب ولا تحترق (*)

أفى الممكن هذا؟

لَعُوبٌ حَسَنَةُ الدَّلِّ، مُفَاكِهَةٌ مُدَاعِبَةٌ، تُحْيِي لَيْلَهَا رَاقِصَةً مَغْنِيَّةً؛ حَتَّى إِذَا اعْتَدَلَ
الَّيْلُ لِيَمْضَى، وَانْتَبَهَ الْفَجْرُ لِيُقْبِلَ - انْكَفَأَتْ إِلَى دَارِهَا فَانْصَتَتْ وَشَيْهَا، وَخَرَجَتْ
مِنْ زِينَتِهَا، وَخَلَعَتْ رُوحًا وَلَبَسَتْ رُوحًا، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِلَيْكَ، وَلَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.
ثُمَّ ذَهَبَتْ فَتَوَضَّأَتْ وَأَفَاضَتْ النُّورَ عَلَيْهَا، وَقَامَتْ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهَا تَصَلُّى...!

هِيَ حَسَنَاءُ فَاتِنَةٍ، لَوْ سَطَعَ نُورُ الْقَمَرِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ لَسَطَعَ مِنْ وَجْهِهَا.
وَمَا تَرَاهَا فِي يَوْمٍ إِلَّا ظَهَرَتْ لَكَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ، حَتَّى لَتَظُنَّ أَنَّ الشَّمْسَ تَزِيدُ
وَجْهَهَا فِي كُلِّ نَهَارٍ شُعَاعَةً سَاحِرَةً، وَأَنَّ كُلَّ فَجْرٍ يَتْرَكُ لَهَا فِي الصُّبْحِ بَرِيقًا وَنَضْرَةً
مِنْ قَطَرَاتِ النَّدى.

وَتَحْسَبُ أَنَّ لَهَا دَمًا يَطْعَمُ فِيهَا يَطْعَمُ أَنْوَارَ الْكَوَاكِبِ، وَيَشْرَبُ فِيهَا يَشْرَبُ
نَسَمَاتِ اللَّيْلِ.

وَإِذَا كَانَتْ فِي وَشْيِهَا وَتَطَارِيفِهَا وَأَصْبَاغِهَا وَحِلَاها لَمْ تَجِدْهَا امْرَأَةً، وَلَكِنْ جَمْرَةً
فِي صُورَةِ امْرَأَةٍ؛ فَلَهَا نُورٌ بَصِيصٌ وَلَهَبٌ، وَفِيهَا طَبِيعَةُ الْإِحْرَاقِ.... إِنَّ الَّذِي وَضَعَ
عَلَى كُلِّ جَمَالٍ سَاحِرٍ فِي الطَّبِيعَةِ خَاتَمَ رَهْبَةٍ، وَضَعَ عَلَى جَمَالِهَا خَاتَمَ قُرْصِ الشَّمْسِ.
فَإِذَا رَأَيْتَهَا بِتِلْكَ الزِينَةِ فِي رَقْصِهَا وَتَثْنِيَّهَا، قُلْتَ: هَذِهِ رَوْضَةٌ مُفَقَّنَةٌ اشْتَهَتْ أَنْ
تَكُونَ امْرَأَةً فَكَانَتْ، وَهَذَا الرِّقْصُ هُوَ فَنُّ النِّسِيمِ عَلَى أَعْضَائِهَا.

وَهِيَ مَتَى نَفَذَتْ إِلَى الْبَقْعَةِ الْمَجْدِبَةِ مِنْ نَفْسِكَ أَنْشَأَتْ فِي نَفْسِكَ الرَّبِيعَ سَاعَةً
أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ.

(*) انظر قصة هذه الراقصة وما كان من شأنها وشأنه فى «عمله فى الرسالة» من كتاب «حياة الراقص».

وتنسجم أنغام الموسيقى فى رشاقتها نغمةً إلى حركة؛ لأن جسمها الفاتن الجميل هو نفسه أنغام صامتة تُسمع وتُرى فى وقت معاً.

وتنسكب روحها الظريفة بين الرقص والموسيقى، لتُخرج لك بظرفها صراحة الفن من إبهامين، كلاهما يُعاون الآخر.

وهى فى رقصها إنما تفسر بحركات أعضائها أشواق الحياة وأفراحها وأحزانها، وتزيد فى لغة الطبيعة لغةً جسم المرأة.

وكأن الليل والنهار فى قلبها؛ فهى تبعث للقلوب ما شاءت ضوءاً وظلمة.

وهى إلى القصر، غير أنك إذا تأملت جمالها وتماّمها، حسبتهَا طالت لساعتها.

وإلى النحافة، غير أنك تنظر فإذا هى رابية كأن بعضها كان مختبئاً فى بعض.

ويخيل إليك أحياناً فى فن من فنون رقصها أن جسمها يتثاءب برعشة من الطرب، فإذا جسمك يهتز بجواب هذه الرعشة، لا يملك إلا أن يتثاءب... ويُجن رقصها أحياناً، ولكن لتحقيق جنون الحركة أن العقل الموسيقى يُصرّف كل أعضاء جسمها.

ومهما يكن طيش الفن فى تأودها ولفنتها ونظرتها وابتسامها وضحكها - ففى وجهها دائماً علامة وقار عابسة تقول للناس: أفهمونى.

ولما رأيتها شهد قلبى لها بأن على وجهها مع نور الجمال نور الوضوء، وأنها مُحترزة ممتنعة فى حصن من قلبها المؤمن، يبسط الأمن والسلامة على ظاهرها، وأن لها عينا عذراء لا تحاول التعبير، لا سؤالاً ولا جواباً ولا اعتراضاً بينهما؛ وأن قوة جمالها تستظهر بقوة نفسها، فيكون ما فى جمالها شيئاً غير ما فى النساء - شيئاً عبقرياً بالغ القوة، يكف الدواعى، ويحسم الخواطر، ويرغم الإعجاب أن يكون ذهولاً وحيرة، ويكره الحب أن يرجع مهابة واحتشاماً.

والرواية كلها فى باطنها تظهر على ضوء من مصباح قلبها، وما وجهها إلا الشاشة البيضاء لهذه «السيما»، وهل يكون على الوجه إلا أخيلة القلب أو الفكر؟

وعندى أن المرأة إذا كان لها رأى ديني ترجع إليه، وكان أمرها مجتمعاً في هذا الرأى، وكانت أخلاقها محشودة له، متحفلة به - فتلك هي الياقوتة التي ترمى في اللهب ولا تحترق، وتظل مع كل تجربة على أول مجاهدتها؛ إذ يكون لها في طبيعة تركيبها الياقوتى ما تهزم به طبيعة التركيب النارى.

وليس من امرأة إلا وقد خلق الله لها طبيعة ياقوتية، هي فطرتها الدينية التي فيها: إن بقيت لها هذه بقيت معها تلك؛ ولكنها حين تنخلع من هذه الفطرة تخذلها الفطرة والطبيعة معاً، فيجعل الله عقابها في عملها. ويكلها إلى نفسها؛ فإذا هي مقبلة على أغلاطها ومساوئها بطرق عقلية إن كانت عالمة، وبطرق مفضوحة إن كانت جاهلة. وما بُدُّ أن تستسر بطباع إما فاسدة وإما فيها قوة الاستحالة إلى الفساد؛ ويرجع ضميرها الخالى محاولاً أن يمتلئ من ظاهرها، بعد أن كان ظاهرها هو يمتلئ من ضميرها، وتصبح المرأة بعد ذلك في حكم أسباب حياتها، مصرفة بهذه الأسباب، خاضعة لما يصرفها، ويذهب الدين وينزل في مكانه الشيطان، ويزول الاستقرار ويحل في محله الاضطراب، وتنطفئ الأشعة التي كانت تذيب الغيوم وتمنعها أن تتراكم، فإذا الغيوم ملتف بعضها على بعض؛ وتخذل القوة السامية التي كانت تنصر المرأة على ضعفها فتنصرها بذلك على أقوى الرجال؛ فإذا المرأة من الضعف إلى تهافت، تغلبها الكلمة الرقيقة، وتغترها الحيلة الواهنة، وتوافق انخداعها كل رغبة مزينة، ويستذلها طمعها قبل أن يستذلها الطامع فيها؛ ولتكن بعد ذلك من هي كائنة أصلاً وحسباً وتهذيباً وعقلاً وأدباً وعلماً وفلسفة، فلو أنها امرأة من الأسمنت المسلح لتفتتت بالطبيعة التي في داخلها، مادامت الطبيعة متوجهة إلى الهدم بعد أن فقدت ما كان يمسكها أن تهدم وأن تنهدم.

لقد رقى الدين في نساءنا ورجالنا. فهل كانت علامة ذلك إلا أن كلمة: «حرام، وحلال» قد تحولت عند أكثرهم وأكثرهن إلى «لائق، وغير لائق»، ثم نزلت عند كثير من الشبان والفتيات إلى «معاقب عليه قانوناً، ومباح قانوناً...» ثم انحطت آخرًا عند السواد والدَّهْمَاء إلى «ممكّن، وغير ممكّن...»؟

قالت الياقوتة، أعنى الراقصة:

أخذنى أبى من عهد الطفولة بالصلاة، وأثبت فى نفسى أن الصلاة لا تصح بالأعضاء إن لم يكن الفكرُ نفسه طاهراً يصلّى الله مع الجسم، فإن كانت الصلاة بالجسم وحده لم يزد المرء من رُوح الصلاة إلا بعداً. وقرّر هذا فى نفسى واعتدته، إذ كنتُ أتعبّد على مذهب الإمام الشافعى رحمته الله، فأصحح الفكرَ، وأستحضر النيةَ فى قلبى، وأنحصر بكلى فى هذا الجزء الطاهر قبل أن أقول: «الله أكبر»؛ وبذلك أصبح فكرى قادراً على أن يخلع الدنيا متى شاء ويلبسها، وأن يخرج منها ثم يعود إليها؛ ونشأت فيه القوة المصمّمة التى تجعله قادراً على أن ينصرف بى عما يُفسد رُوح الصلاة فى نفسى، وهى سرُّ الدين وعماده.

ويا لها حكمة أن فرض الله علينا هذه الصلوات بين ساعات وساعات، لتبقى الروح أبداً إما متصلةً أو مهيأةً لتتصل، ولن يعجز أضعف الناس مع روح الدين أن يملك نفسه بضع ساعات، متى هو أقرّ اليقين فى نفسه أنه متوجّه بعدها إلى ربه، فخاف أن يقف بين يديه مخطئاً أو آثماً، ثم هو إذا ملك نفسه إلى هذه الفريضة ذكر أن بعدها الفريضة الأخرى، وأنها بضع ساعات كذلك، فلا يزال من عزيمة النفس وطهارتها فى عمر على صيغة واحدة لا يتبدّل ولا يتغيّر، كأنه بجملته - مهما طال - عمل بضع ساعات.

قالت الياقوتة: ورأيتُ أبى يصلّى، وكذلك رأيتُ أمى، فلا تكاد تلمّ بى فكرة آثمة إلا انتصبا أمامى، فأكره أن أستلّم إليهما فأكون الفاسدة وهما الصالحان، واللّئيمة وهما الكريمان؛ فدمى نفسه - ببركة الدين - يحرسنى كما ترى.

قلت: فهذا الرقص...؟

قالت: نعم، إنه قضى على أن أكون راقصة، وأن ألتمس العيش من أسهل ثلاث طُرُق وألينها وأبعدّها عن الفساد، وإن كان الفساد ظاهراً؛ أريد: الرقص، أو الخدمة فى بيت، أو العمل فى السوق. وأنا مُطابقةً لحريتى فى الأولى، ولكنى لن أملكها فى

الأخيرتين مادام على هذا الميسم من الحسن؛ وكم من امرأة متحجبة وهى عارية الروح، وكم من سافرة وروحها متحجبة، إن كنت لا تعلم هذا فاعلمه، وليس السؤال ما سألت، بل يجب أن يكون وضعه هكذا: هل ما ترى هو فى ثيابى فقط، أو هو فى ثيابى ونفسى؟

ها أنت ذا تُغلغل نظرتك فى عينيّ إلى المعانى البعيدة، فهل ترى عيني راقصة؟ قلت: لا والله، ما أرى عيني راقصة، ولكن عيني مجاهد فى سبيل الله...! فاستضحكت وقالت: بل قل: عيني مجاهد يهزم كل يوم شيطاناً أو شياطين. إنى لأرقص وأغنى، ولكن أتدري ما الذى يُحرزنى من العاقبة، ويحمينى من وباء هذا الجمهور المريض النفس؟ فاعلم أنى لا أشعر بالجمهور ولا بروح المسرح، إلا كما أشعر بروح المقبرة والمشيعين إليها؛ فهيها بعد ذلك هيها! ومن هذا لا أحس بقلوبهم ولا بشهواتهم، وما أنا بينهم إلا كالتى تؤدى عملاً فنياً على ملامن الأساتذة الممتحنين، والنظارة يحكمون لها أو عليها؛ فهى فى فكرة الامتحان، وهم لأنفسهم فيما شاءوا...

ولست أنكر أن أكثرهم، بل جميعهم، يخطئ فى طريقة تناوله السيال الكهربائى المنبعث من نفسى، ولكن لا على، فهذا السيال نفسه ينبعث مثله من الزهر، ومن القمر والكواكب، ومن كل امرأة جميلة تمشى فى الطريق، ومن كل جميل فى الطبيعة، وحتى من الأمكنة والبقاع إذا كان لإنسان فيها ذكريات قديمة، أو نبهت ببعض معانيها بعض معانيه؟

قالت الياقوتة: فأنا كما ترى؛ أضرب وجوهاً من الاضطراب فى جذب الناس ودفعهم معاً. وإذا سلمت المرأة من أن يغلبها الطمع على فكرها، سلمت من أن يغلبها الرجل عن فضيلتها. وفى النساء حواس مغناطيسية كاشفة منبهة خلقت فيهن كالوقاية الطبيعية، لتسلم بها المرأة من أن تخطر عفتها لغرض، أو تغرر بنفسها لإنسان، فإنك لتكلم المرأة، وتزين لها ما تزين، وهى شاعرة بما فى نفسك، وكأنها

ترى ما فى قلبك ينشأ ويتدرج تحت عينيها. وكأنه فى وعاء من الزجاج الرقيق الصافى تحمله على كفك يَشَف ويَفْضَح، لا فى قلب من لحم ودم تخفيه بين جنبيك فيطوى ويكتم.

وليس يُبْطِل هدايةَ هذه الحاسة فى المرأة إلا طمُعها المادى فى المال والمتاع والزينة؛ فإن هذا الطمَع هو القوى التى يغلب بها الرجل المرأة، فبنفسها غلبها! وإذا تبدَّل طمع امرأة فى رجل فهى مُوسس، وإن كانت عذراء فى خدرها.

ويا عجباً! إن وجودَ الطبيعة فى النفس غير الشعور بها؛ فليس يُشعر المرأة بتمام طبيعتها النسائية إلا الزينة والمتاع وما به المتاع والزينة؛ فكان الحكمة قد وَقَّتْها وعَرَّضَتْها فى وقت معاً، لتكونَ هى الواقية أو المُخْطِرة لنفسها، فبعملها تُجْزَى، ومن عملها ما تَضَحْك وتَبْكى.

قالت الياقوتة: ولذا أخذتُ نفسى ألا أطمع فى شىء من أشياء الناس، وسَخَوْتُ عن كل ما فى أيديهم؛ فما يتكرمون على إلا بهلاكى، وحسبى أن يبقَى لعينى قلبى ضوءهما المبصر. وأنا أَعْتَمِد على شهامة الرجل، فإن لم أجدها علمت أنى بإزاء حيوان إنسانى، فأتحذره حَذْرَى من مصيبةٍ مقبلة. وإذا جاءنى وَقَحٌ خَلَقَ اللهُ وَجْهَهُ الحَسَنَ مَسْبَةً له، أو خلقه هو مَسْبَةً لوجهه القبيح، ذكرتُ أنى بعدَ ساعة أو ساعات أقوم إلى الصلاة، فلا يزداد منى إلا بعداً وإن كان بإزائى، فأغلِطُ له وأتسَخَطُ، وأظهر الغضبَ وأصْفَعُهُ صَفْعَتَى.

قلت: وما صَفْعَتُكَ؟

قالت: إنها صَفْعَةٌ لا تَضْرِبُ الوجهَ ولكن تُخْجَلُهُ.

قلت: وما هى؟

قالت الياقوتة: هى هذه الكلمة؛ أما تعرفُ يا سيدي أنى أُولِى وأَقُولُ «الله أكبر» فهل أنت أكبر...؟ أقيم لك البرهان على صغارك وحقارتك، أنا نادى الشرطى...؟!

تختنق بالرقص وتنتعشُ بالصلاة، وفي كل يوم تختنق وتنتعش.
ولكنى لا أزال أقول:
أفى الممكن هذا؟
أفى المترادف شرعا: رَقَصْتُ وصلَّت...؟



المشكلة (*)

(١)

قالت لى صاحبة «الجمال البائس»^(١) فيما قالت: إن المرأة الجميلة تخاطبُ في الرجل الواحد ثلاثة: الرجل، وشيطانه، وحيوانه. فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نكن معه... وأما الحيوان فله في أيدينا مَقَادَةُ من الغباوة، ومَقَادَةُ من الغريزة، إذا شمسَ في واحدة أصحَبَ في الأخرى وانقاد؛ ولكن المشكلة هي الرجل تكون فيه رجولة.

نعم إن المشكلة التي أعضلت على الفساد هي في الرجل القوى رجولة يعرف حقيقة وجوده وشرف منزلته، ولهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يكون بين الوقت والوقت في اليوم خارجاً من صلاة.

وإنما الرجولة في خلال ثلاث: عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلها قبل أن يكون في هواه، وقبوله ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجره العظيم، والثالثة: قدرته على العمل والقبول إلى النهاية.

ولن تقوم هذه الخلال إلا بثلاث أخرى: الإدراك الصحيح للغاية من هذه الحياة، وجعل ما يحبه الإنسان وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية، والثالثة: القدرة على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحب وكره على السواء.

فالرجولة على ذلك هي إفراغ النفس في أسلوب قوى جزل من الحياة، مُتَسَاوِق في نمط الاجتماع، بليغ بمعاني الدين، مصقول بجمال الإنسانية، مُسْتَرْسِلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية.

(*) تقرأ قصة صاحب هذه المشكلة وما كان من خبره وخبر صاحبتة في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافي» ولل قصة تمام لم ينشر بعد.

(١) مرت مقالات (الجمال البائس) في هذا الجزء.

ولهذه الحكمة أسقطت الأديان من فضائلها مبدأ إرضاء النفس فى هواها، فلا معاملة به مع الله فى إثم أو شر، وأسقطه الناس من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض، فلا يقوم به إلا الغش والمكر والخديعة، وكلُّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعية، فإنما ينزِعُ إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقةً لمحبتها وتوفيةً لحظها، وعمله هذا الذى يُلبِّسُه الوصف الاجتماعى الساقط ويسميه باسمه فى اللغة، كالرجل الذى يُرضى نفسه أن يسرق ليغتنى، فإذا أعطى نفسه رضاها فهو اللص؛ وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغاش، وكالجندي فى إرضاء جُبنه هو الخائن، وكالشاب فى إرضاء رذيلته هو الفاسق، وهلمَّ جَرًّا وهلمَّ جَرَجَرَةً...

وأما بعدُ، فالقصة فى هذه الفلسفة قصة رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومٌ ليله وهدوءُ نهاره حتى كَسَفَتْ بَالَهُ، وفرقت رأيه وكابد فيها الموت الذى ليس بالموت، وعاش بالحياة التى ليست بالحياة. قال: فقدتُ أمى وأنا غلام أحوج ما يكون القلبُ إلى الأم، فخشى على أبى أن أستكينَ لذلةً فَقَدِهَا فيكون فى نشأتى الذلُّ والضراعة، وكَبُرَ عليه أن أحسَّ فَقَدِهَا إحساسَ الطفل تموت أمه فيحملُ فى ضياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها؛ فعَلَّمَنى هذا الأبُّ الشفيقُ أن الرجلَ إذا فَقَدَ أمَّهُ كان شأنه غير شأن الصبى، لأنه له قوةٌ وكبرياء، وألقى فى روعى أنى رجلٌ مثله، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلى الآن...

وكان من بعدها إذا دعانى قال: أيها الرجل، وإذا أعطانى شيئاً قال: خذ يا رجل. وإذا سألتنى عن شأنى قال: كيف الرجل؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً، حتى توهمتُ أن معى رجلاً فى عقلى خلقتَه هذه الكلمة. وتمامُ الرجل بشيئين: اللحية فى وجهه، والزوجة فى داره، فتجىء الزوجة بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاها قوةً له، أو وقاراً أو جمالاً، أو تكون كلتاها خشونة، أو لتكونا معاً سوادين فى الوجه والحياة...

أما اللحية لى أنا أيها الرجل الصغير فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىء بها، ولكن الأخرى فى يده وحيلته؛ فجاءنى ذات نهار وقال لى: أيها الرجل! إن فلانة مُسمّاة عليك^(١) منذ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها. وفلانة هذه طفلة من ذوات القُربى، فأفرحنى ذلك وأبهجنى؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى: أصبحت زوجاً أيها الرجل...

وكان هذا الرجل الجاثم فى عقلى هو غرورى يومئذ وكبريائى، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقة بعد الحماقة، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحية طويلة...

ونشأت على ذلك: صُلِبَ الرأى مُعتدّاً بنفسى، إذا هَمَمْتُ مَضِيَّتْ، وإذا مَضِيْتُ لا أُلوى، وما هو إلا أن يخطر لى خاطر فأركب رأسى فيه، ولئن تُكسَرَ لى يَدٌ أو رجل أهون على من أن يكسَرَ لى رأى أو حُكم، وأكسبني ذلك خيالاً أكذب خيال وأبعده، يخلط على الدنيا خلطاً فيدعنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد، فيطالعها اثنى عشر شهراً للسنة...

وترامت حريتى بهذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة، وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد، كذبت على الفكرة والطبيعة.

ولست جميل الطلعة إذا طالعت وجهى، ولكنى مع ذلك معتقد أن الخطأ فى المرأة... إذ هى لا تُظهر الرجل الوضىء الجميل الذى فى عقلى، ولست نابغة، ولكن الرجل الذى فى عقلى رجلٌ عبقرى. وهذا الذى فى عقلى رجلٌ متزوج؛ فيجب على أنا الطفل أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد فى المدارس العليا...

ونذهبت بكل ذلك أرى فلانة زوجتى، فأغلقت الباب فى وجهى واختبأت منى، فقلت فى نفسى: أيها الرجل، إن هذا نُشُوزٌ وعِصْيَانٌ، لا طاعة وحُب. وساءنى

(١) هذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد: «مخطوبة لفلان».

ذلك وغمّنى وكبّر علىّ، فأضمرت لها العَدْر، فثبتت بذلك فى ذهنى صورة (الباب المغلق)، وكأنه طلاق بيننا لا باب...

قال: ثم شبّ الرجل فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقّب زوجته الغائبة غيبةً طويلة، كل أيامه ظمأ على ظمأ، وكلّ يوم يمرّ به هو زيادةً سنة فى عمر شيطانه... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية، وأصبح رجل كُتب وعلوم وفكر وخيال؛ فعرضت له فتاة كاللواتى يعرضن للطلبة فى المدارس العليا، ما منهن على صاحبها إلا كالخيبة فى امتحان... بيد أنّ (الرجل) لم يعرف من هذه الفتاة إلا أوائل المرأة... ولم يكد يستشرف لأواخرها حتى سُميت على غيره، فخطبت، فزفت؛ زُفت بعد نصف زوج إلى زوج....

وعرف الرجل من الفلسفة التى درّسها أنه يجب أن يكون حرّاً بأكثر مما يستطيع، وبأكثر من هذا الأكثر... فقالها بملء فيه، وقال للحرية: أنا لك وأنت لى. قالها للحرية، فما أسرع ما ردّت عليه الحرية بفتاة أخرى...

نقول نحن: وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات، فصار منهن بين الشباب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب مغلقة؛ ولكنها مع ذلك مسماة له، يقول أهله وأهلها: (فلان وفلانة). وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياء والصيانة، وليست الفتاة من ورائه إلا العفاف المنتظر، وليس الفتى إلا ابن الأب الذى سمى الفتاة له وحبسها على اسمه، وليست القربى إلا شريعة واجبة الحق نافذة الحكم. وعند أهل الشرف، أنه مهما يبلغ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرف مقيد. وعند أهل الدين، أن الزواج لا ينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائما من أوله على معانى الفاحشة.

وعند أهل الفضيلة، أن الزوجة إنما هى لبناء الأسرة؛ فإن بلغ وجهها الغاية من الحسن أو لم يبلغ، فهو على كل حال وجه ذو سلطة وحقوق (رسمية) فى الاحترام، لا تقوم الأسرة إلا بذلك، ولا تقوم إلا على ذلك.

وعند أهل الكمال والضمير، أن الزوجة الطاهرة المخلصة الحب لزوجها. إنما هي معاملة بين زوجها وبين ربه؛ فحيثما وضعها من نفسه في كرامة أو مهانة، وضع نفسه عند الله في مثل هذا الموضع.

وعند أهل العقل والرأى، أن كل زوجة فاضلة، هي جميلة جمال الحق؛ فإن لم تُوجب الحب، وجبت لها المودة والرحمة.

وعند أهل المروءة والكرم، أن زوجة الرجل إنما هي إنسانيته ومروءته؛ فإن احتملها أعلن أنه رجل كريم، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة.

أما عند الشيطان (لعنه الله) فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة: الحب، الحب، الحب!

قال الشاب: وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهى جمالاً، وكما يشتهي فكرى علماً، كنت أنا المتزوج وحدي وبقي فكرى عزباً... وقد عرفتُ التي تصلح لي بجمالها وفكرها معاً، وتبوأنت في قلبي وأقمت في قلبها؛ ثم داخلت أهلها، فخلطوني بأنفسهم، وقالوا: شاب وعزب... ومتعلم وسرى... فلم يكن لدارهم (باب مغلق)، حتى لو شئت أن أصل إلى كريمتهم في حرام وصلت، ولكني رجل يحمل أمانة الرجولة...

أما الفتاة فلست أدري والله أفيها جاذبية نجم، أم جاذبية امرأة، وهل هي أنثى في جمالها، أو هي الجمال السماوي أتى ينقح الفنون الأرضية لأهل الفن؟

إذا التقينا قالت لي بعينيها: هأنذا قد أرخيت لك الزمام، فهل تستطيع فراراً مني؟ ولتصق فتقول لي بجسمها: أليست الدنيا كلها هنا، فهل في المكان مكان إلهنا؟ ونفترق فتحصر لي الزمن كله في كلمة حين تقول: غداً نلتقي.

كلامها كلام متأدب، ولكنه في الوقت نفسه طريقة من الخلاعة، تلفتك إلى فمها الحلو؛ والحركة على جسمها حركة مستحجية، ولكنها في الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسم في التمثال العاري.

إنها والله قد جعلت شيطاني هو عقلي؛ أما هذا العقلُ يَنْصَحُ وَيَعِظُ ويقول: هذا خيرٌ وهذا شرٌّ. فهو الشيطانُ الذي يجب أن أتبرأ منه...

قال: وألم الأب بقصة فتاه، ويحسبها نزوةً من الشباب يُخمدُها الزواج، فيقول في نفسه: إن للرجل نظرتين إلى النساء: نظرة إليهن من حيث يختلفن، فتكون كل امرأة غير الأخرى في الخيال والوهم والمزاج الشعري، ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْن في حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الإنساني، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة - ويقرر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَرٍ، فلا ينظر النظرة الخيالية التي لا تقنع بامرأة واحدة، بل لاتزال تلتمس محاسن الجنس ومفاتنَه، وهي النظرة التي لا يقوم بها إلا بناء الشعر دون بناء الأسرة، ولا تصلحُ عليها المرأةُ تلد أولادًا لزوجها، بل المرأة تلد المعاني لشاعرها.

ثم احتاط في رأيه، فقدّر أن ابنه ربما كان عاشقًا مسحورًا، ذا بصيرة مدخولة وقلب هواء وعقل مُلتاث، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته، ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة، بيد أنه قال: إنه هو والده، وهو ربّاه وأنشأه في بيت فيه الدينُ والخلقُ والشهامةُ والنّجدة، وأن محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملاً من أعمال البيئة الفاسدة المستهترّة، حين تجمع كل معاني الفساد والإباحة والاستهتار في كلمة (الحرية). وقال: إن البيئة في العهد الذي كان من أخلاقه الشرف والدينُ والمروءة والغيرة على العرض، لم يكن فيها شيء من هذا، ولم يكن الأبناء يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن؛ إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً، والأب أعرفُ بدينياه وأجدرُ أن يكون مُبرراً من اختلاط النظرة، فيختار للدين والحسب والكمال، لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة، ولا محل للاعتراض بالعشق في باب من أبواب الأخلاق، بل محله في باب الشهوات وحدها.

ثم جرّم الأب أن الولد الذي يجيء من عاشقين، حرى أن يرث في أعصابه جنون اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة؛ ولهذا وقف الشرع في سبيل الحب

قبل الزواج لوقاية الأمة في أولها؛ ولهذا يكثر الضعف العصبى فى هذه المدنية الأوربية وينتشر بها الفساد، فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه.

ولم يكد ينتهى الأب إلى حيث انتهى الرأى به، حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهين للزفاف ويتعجل لابنه المطيع.. نكبة ستجىء فى احتفال عظيم..

قال الشاب: وجن جنونى؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يلقى منه، فلجأت إلى عمى أستدفع به النكبة، وأتأيد بمكانه عند أبى، وبثنته حزنى وأفضيت إليه بشأنى، وقلت له فيما قلت: افعلوا كل شىء إلا شيئا ينتهى بى إلى تلك الفتاة، أو ينتهى بها إلى، وما أنكر أنها من ذوات القربى، وأن فى احتمالى إياها واجبا ورجولة، وفى سترى لها ثوابا ومروءة، وخاصة فى هذا الزمن الكاسد الذى بلغت فيه العذارى سنَّ الجدات... ولكن القلب العاشق كافر بالواجب والرجولة، والثواب والمروءة، وبالألم والأب؛ فهو يملك النعمة ويريد أن يملك التنعم بها؛ وكل من اعترضه دونها كان عنده كاللص...

قال: قبح الله حبا يجعل أباك فى قلبك لصا أو كاللص.

قلت: ولكنى حر أختار من أشاء لنفسى.....

قال: إن كنت حرا كما تزعم، فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها؟ ألا تكون حرا إلا فىنا نحن وفى هدم أسرتنا؟

قلت: ولكنى متعلم، فلا أريد الزواج إلا بمن.....

فقطع على وقال: ليتك لم تتعلم، فلو كنت نجارا أو حدادا أو حوذيا، لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضعون للحب وللمرأة هذا الخضوع، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطان أن يقضى فى قلوبهم كل أوقات فراغه...

أما العاملون فى الدين، والمغامرون فى الحياة، والعارفون بحقائق الأمور، والطامعون فى الكمال الإنسانى، فهؤلاء جميعا فى شغل عن تربية أوهامهم، وعن

البكاء للمرأة والبكاء على المرأة، ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع؛ وغرضهم منها أجل وأسمى؛ وقد قال نبيُّنا ﷺ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ». أى انظروا إليهن من جانب تقوى الله؛ فإن المرأة تُقَدِّمُ مَنْ رَجُلُهَا عَلَى قَلْبٍ فِيهِ الْحُبُّ وَالكَرَاهَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلَا تَدْرِي أَى ذَلِكَ هُوَ حَظُّهَا؛ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّ امْرَأَةً نَبَذَ زَوْجَةً، لَخَرِبَتِ الدُّنْيَا وَلَفَسَدَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا. وهذه يا بنى أوهامٌ وَقَتِهَا وَعَمَلُ أَسْبَابِهَا، وَسِيَمِضَى الْوَقْتِ وَتَتَغَيَّرُ الْأَسْبَابُ وَرَبَّمَا كَانَ النَّاضِجُ الْيَوْمَ هُوَ الْمُتَعَفِّنُ غَدًا، وَرَبَّمَا كَانَ الْفَجُّ هُوَ النَّاضِجُ بَعْدَ.

وهبك لا تحب ذاتَ رَحِمِكَ ثُمَّ أَكْرَمَتَهَا وَأَحْسَنَتَ إِلَيْهَا وَسَتَرَتَهَا، أَفِيكُونُ عِنْدَكَ أَجْمَلُ مِنْ شَعُورِهَا أَنْكَ ذُو الْفَضْلِ عَلَيْهَا؟ وَهَلْ أَكْرَمُ الْكَرَمِ عِنْدَ النَّفْسِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا هَذَا الشَّعُورُ فِي نَفْسٍ أُخْرَى؟ إِنْ هَذَا يَا بَنَى إِنْ لَمْ يَكُنْ حُبًّا فِيهِ الشَّهْوَةُ، هُوَ حُبُّ إِنْسَانِيٍّ فِيهِ الْمَجْدُ.

ووقعت المشكلة وَزُفَّتِ الْمُسْكِينَةُ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة؟^(١)

■■■

(١) (رجاء إلى القراء): هذه القصة واقعة، وقد بنى الرجل بامرأته، وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس (شهر العسل). فماذا يرى له القارئ من رأى؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل؟

المشكلة

(٢)

لما فرغتُ من مقالات (المجنون)^(١) وأرسلتُ الأخيرة منها، قلتُ فى نفسى: هذا الآخر هو الآخرُ من المجنون وجنونه، ومن الفكر فى تخليطه ونوادره؛ غيرَ أنه عاد إلى أخلاطٍ وأضغاثٍ فكأنى رأيتَه فى النوم يقول لى: اكتب مقالاً فى السياسة. قلت: مالى وللسياسة وأنا «موظف» فى الحكومة، وقد أخذت الحكومة ميثاقَ الموظفين: لَمَّا عَرَفُوا من نَقْدٍ أو غَمِيزَةٍ ليكتُمْنَه ولا يُبَيِّنُونَه؟ فقال: هذه ليست مشكلة، وليس هذا يصلحُ عذراً، والمخرجُ سهلٌ والتدبيرُ يسيرٌ والحلُّ ممكن. قلت: فما هو؟ قال: اكتب ما شئتَ فى سياسة الحكومة، ثم اجعل توقيعك فى آخر المقال هكذا: «مصطفى صادق الرافعى؛ غير موظف بالحكومة».

فهذه طريقة من طرق المجانين فى حل المشاكل المعقَّدة، لا يكون الحل إلا عقدة جديدة يتم بها اليأس ويتعذرُ الإمكان، وهى بعينها طريقةُ ذلك الطائر الأبله الذى يرى الصائد فيغمضُ عينه ويلوى عنقه ويخبأ رأسه فى جناحه ظناً عند نفسه أنه إذا لم يرَ الصائد لم يره الصائد، وإذا توهم أنه اختفى تحقَّق أنه اختفى؛ وما عمله ذاك إلا كقوله للصياد: إنى غيرُ موجود هنا... على قياس «غير موظف»...

وقد كنت استفتيتُ القراء فى (المشكلة)، وكيف يتَّقى صاحبُها على نفسه، وكيف تصنع صاحبُتها؛ فتلقيتُ كتباً كثيرةً أهدتُ إلى عقولاً مختلفة؛ وكان من عجائب المقادير أن أول كتاب ألقى إلى منها، كتاب مجنون «نابغة» ك نابغة القرن العشرين،

(١) بعد أن كتبنا الفصل الأول من (المشكلة) واستفتينا القراء فى آخره، انتظرنا مدة، وكتبنا فى هذه

المدة مقالات (المجنون) فانظرها فى الجزء الثانى.

بعث به من القاهرة، وسمى نفسه فيه (المصلح المنتظر) وهذه عبارته بحرفها ورسومها كما كتبت وكما تُقرأ؛ فإن نشرَ هذا النص كما هو، يكون أيضاً نصاً على ذلك العقل كيف هو...

قال: «إن هذا الكونَ تعبَت فيه آراء المصلحين، وكتب الأنبياء زُهاءً قرون عديدة، ودائماً نرى الطبيعة تنتصر. ولقد نرى الحيوان يعلم كيف يعيش بجوار أليفه، والطير كيف يركن إلى عش حبيبته، إلا الإنسان. ولقد تفنَّن المشرعون في أسماء العادات والتقاليد والحمية والشرف والعرض، وإن جميع هذه الأشياء تزول أمام سلطان المادة، فما بالكم بسلطان الروح؟

ورأ لهذا الشاب ألا يطيع أباه ولو ذهب إلى ما يسموه الجحيم (كذا) إذا كان بعد أن يعيش الحياة الواحدة التي يحياها ويتمتع بالحب الواحد المقدر له، مادام قلبه اصطفاها وروحه تهواها؛ ولو تركته بعد سنين قليلة لأى داع من دواع الانفصال. (كذا).

وهذا ليس مجرد رأى مجرب، وإنما هو رأى أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن...! وسينتصر على جميع من يقفون أمامه، والدليل أن هذا المقال سيشار إليه في مجلة (الرسالة)، وهذا الرأى سيعمل به، وصاحب هذا الرأى سيخلد في الدنيا، وسيضع الأسس والقوانين التي تصلح لبنى الإنسان مع سمو الروح بعد أن أفسدت أخلاقه عبادة المال.

إن الإنسان يحيا حياة واحدة فليجعلها بأحسن ما تكون، وليمتع روحه بما تمتع به جميع المخلوقات سواه. وإلى الملتقى في ميدان الجهاد».

(المصلح المنتظر) انتهى

وهذا الكتاب يحل (المشكلة) على طريقة «غير موظف»... فليعتقد العاشق أنه غير متزوج فإذا هو غير متزوج، وإذا هو يتقلب فيما شاء؛ وتسأل الكاتب ثم ماذا؟ فيقول لك: ثم الجحيم...

وإنما أوردنا الكتاب بطوله وعرضه لأننا قرأناه على وجهين، فقد نبهتنا عبارة «أكبر عقل أنجبته الطبيعة حتى الآن» إلى أن فى الكلام إشارة من قوة خفية فى الغيب، فقرأناه على وحى هذه الإشارة وهديها، فإذا ترجمة لغة الغيب فيه: «ويحك يا صاحب المشكلة، إذا أردت أن تكون مجنوناً أو كافراً بالله وبالأخرة فهذا هو رأى. كن حيواناً تنتصر فيه الطبيعة والسلام!».

تلك إحدى عجائب المقادير فى أول كتاب ألقى إلى؛ أما العجيبه الثانية فإن آخر كتاب تلقيته كان من صاحبة المشكلة نفسها؛ وهو كتاب آية فى الظرف وجمال التعبير وإشراق النفس فى أسرارها، يمور مَوْر الضباب الرقيق من ورائه الأشعة، فهو يحجب جمالاً ليظهر منه جمالاً آخر؛ وكأنه يعرض بذلك رأياً للنظر ورأياً للتصور، ويأتى بكلام يُقرأ بالعين قراءةً وبالفكر قراءةً غيرها؛ ولفظها سهل، قريب قريب، حتى كأن وجهها هو يحدثك لا لفظها؛ ومادة معانيها من قلبها لا من فكرها، وهو قلب سليم مُقفل على خواطره وأحزانه، مُسترسِل إلى الإيمان بما كُتب عليه استرساله إلى الإيمان بما كُتب له، فما به غرور ولا كبرياء ولا حقد ولا غضب، ولا يكرهه ما هو فيه.

ومن نكد الدنيا أن مثل هذا القلب لا يخلق بفضائله إلا ليُعاقب على فضائله؛ فغلظة الناس عقاب لرقته، وغدرهم نكاية لوفائه، وتهوُّرهم ردُّ على أناته، وحُمقهم تكدير لسكونه، وكذبهم تكذيب للصدق فيه.

وما أرى هذا القلب مأخوذاً بحب ذلك الشاب ولا مُستهماً به لذاته، وإنما هو يتعلّق صوراً عقلية جميلة كان من عجائب الاتفاق أن عرّضت له فى هذا الشاب أول ما عرضت على مقدار ما؛ وسيكون من عجائب الاتفاق أيضاً أن يزول هذا الحب زوال الواحد إذا وجدت العشرة، وزوال العشرة إذا وجدت المائة، وزوال المائة إذا وجد الألف.

وبعد هذا كله فصاحبة المشكلة فى كتابها كأنما تكتب فى نقد الحكومة على طريقة جعل التوقيع: «فلان غير موظف بالحكومة».... وهى فيما كتبت كالنهر الذى يتحدّر بين شاطئيه مدّعيًا أنه هاربٌ من الشاطئين مع أنه بينهما يجرى. تحبُّ صاحبها وتلقاه؛ ثم هى عند نفسها غيرُ جانيةٍ عليه ولا على زوجته... فليت شعرى عنها، ما عسى أن تكونَ الجنايةُ بعدَ زواج الرجل غيرَ هذا الحب وهذا اللقاء؟ ونحن معها كأرسطاطاليس مع صديقه الظالم حين قال له: هَبْنَا نَقْدِرُ على مُحَابَاتِكَ فى ألا نقولَ إنك ظالم؛ هل تقدرُ أنت على ألا تعلم أنك ظالم؟ ورأيها فى (المشكلة) أن ليس من أحدٍ يستطيعُ حلّها إلا صاحبها، ثم هو لا يستطيع ذلك إلا بطريقة من طريقتين: فإما أن تكون ضحيةً أبيها وأبيه - تعنى زوجته - ضحيته هو أيضًا، ويستهدف لما يناله من أهله وأهلها، فيكونُ البلاء عن يمينه وشماله، ويكابِدُ من نفسه ومنهم ما إنَّ أَقْلَهُ لَيَذْهَبُ براحتِه وينغصُ عليه الحب والعيش، (قالت): وإما أن يضحى بقلبه وعقله وبى... وهذا كلام كأنها تقول فيه: إن أحدًا لا يستطيع حلَّ المشكلة إلا صاحبها، غير مستطيع حلّها إلا بجناية يذهبُ فيها نعيمه، أو بجنون يذهب فيه عقله. فإن حلّها بعد ذلك فهو أحدُ اثنين: إما أحمقٌ أو مجنونٌ ما منهما بد... ولسانُ الغيب ناطقٌ فى كلامها بأن أحسنَ حلٍّ للمشكلة هو أن تبقى بلا حل، فإن بعضَ الشر أهونٌ من بعض.

والعجيبَةُ الثالثة أن «نابغة القرن العشرين»^(١) جاء زائرًا بعد أن قرأ مقالات (المجنون)، فرأى بين يدي هذه الكتب التى تلقيتها وأنا أعرضُها وأنظر فيها لأتخير

(١) هو لقب المجنون، فانظر مقالاته فى الجزء الثانى.

منها، فسأل فخبَّرته الخبر؛ فقال: إن صاحب هذه المشكلة مجنون... لو امتحنوه في الجغرافيا وقالوا له: ما هي أشهر صناعة في باريس؟ لأجابهم: أشهر ما تُعرف به باريس أنها تصنع (البودرة) لوجه حبيبتي...

قلتُ: فكيف يرتدُّ هذا المجنون عاقلًا؟ وما علاجه عندك؟

قال: وَجَّه في طلب (أ. ش) ^(١) ليحيى، فلما جاء قال له اكتب: جلس «نابغة القرن العشرين» مجلسه للإفتاء في حل المشكلة فأفتى مُرتجلاً:

«إن منطق الأشياء وعقلية الأشياء صريحان في أن مشكلة الحب التي يَعُسر حلُّها ويتعذر مجازُ العقل فيها، ليست هي مشكلة هذا العاشق أكرهه على الزواج بامرأة يحملها القلب أو لا يحملها، وإنما هي مشكلة إمبراطور الحبشة يريدون إرغامه أن يتزوج إيطاليا، ويذهبون يزفونها إليه بالدبابات والرشاشات والغازات السامة.

«ولو لم يكن رأس هذا العاشق المجنون فارغاً من العقل الذى يعملُ عملَ العقل، إذن لكانت مجارى عقله مطردةً في رأسه، فأنحلت مشكلته بأسباب تأتي من ذات نفسها أو ذات نفسه؛ غير أن في رأسه عقل بطنه لا عقل الرأس، كذلك الشرُّ البخيل الذى طبخ قَدراً وقعد هو وامرأته يأكلان، فقال: ما أطيب هذه القدر لولا الزحام... قالت امرأته: أى زحام ههنا؟ إنما أنا وأنت. قال: كنت أحب أن أكون أنا والقدر فقط... «فعقلُ النَّهم في رأس هذا كعقل الشهوة في رأس ذاك؛ كلاهما فاسدُ التقدير لا يعملُ أعمالَ العقول السليمة، ويريد أحدهما أن تبطل الزوجة من أجل رطلٍ من اللحم، ويريد الآخرُ مثل ذلك في رطلٍ من الحب...

«وإذا فسد العقلُ هذا الفساد ابتلى صاحبه بالمشاكل الصببانية المضحكة: لا تكون من شيء كبير، ولا يكون منها شيء كبير، وهى عند صاحبها لو وُزنت كانت قناطر من التعقيد، ولو كيلت بلغت أَرادب من الحيرة؛ ولو قيسَت امتدَّت إلى فراسخ من الغموض.

(١) هو الأديب أمين حافظ شرف. ويأتى له ذكر في مقالات المجنون.

«هاتان المرأتان: (الحبيبة والزوجة)، إما أن تكونا جميعاً امرأتين، فالمعنى واحدٌ فلا مشكلة؛ وإما ألا تكونا امرأتين، فالمعنى كذلك واحدٌ فلا مشكلة؛ وإما أن تكون إحداهما امرأة والأخرى قردة أو هرّة، وههنا المشكلة. (حاشية: الهرّة من أوضاع نابغة القرن العشرين في اللغة، ومعناها الأنثى ليست من إناث الأناسي ولا البهائم...).

«فإن زعم العاشق أن زوجته قردة فهو كاذب، وإن زعم أنها الهرّة فهو أكذب؛ والمشكلة هنا مشكلة كل المجانين، ففي مخه موضع أفرط عليه الشعور فأفسده، وأوقع بفساده الخطأ في الرأي، وابتلاه من هذا الخطأ بالعمى عن الحقيقة، وجعل زوجته المسكينة هي معرض هذا العمى وهذا الخطأ وهذا الفساد؛ ولا عيب فيها، لأنها من زوجها كالحقيقة التي يتخبّط فيها المجنون مدة جنونه، فتكون مجلى هذيانه ومعرض حماقاته، وهي الحقيقة غير أنه هو المجنون.

«فإن كانت هذه الحقيقة مسألة حسابية استمرّ المجنون مدة جنونه يقول للناس: خمسون وخمسون ثلاثة عشر، ولا يصدّق أبداً أنها مائة كاملة؛ وإن كانت مسألة عملية قضى المجنون أيامه يُشعل التراب لي جعله باروداً ينفجر ويتفرّق، ولا يدخل في عقله أبداً أن هذا ترابٌ منطفئ بالطبيعة؛ وإن كانت مسألة قلبية استمرّ المجنون يزعم أن زوجته قردة أو هرّة، ولا يشعر أبداً أنها امرأة.

«فإن صح أن هذا الرجل مجنون فعلاجه أن يُربط في المارستان، ثم يجيء أهله كل يوم بزوجه فيسألونه: أهذه امرأة أم قردة أم هرّة؟ ثم لا يزالون ولا يزال حتى يراها امرأة، ويعرفها امرأته، فيقال له حينئذ: إن كنت رجلاً فتخلّق بأخلاق الرجال.

«أما إن كان الرجل عاقلاً مميّزاً صحيح التفكير ولكنه مريض مرض الحب، فلا يرى (النابغة) أشفى لدائه ولا أنجع فيه من أن يستطبّ بهذه الأشفية واحداً بعد واحد حتى يذهب سقامه بواحد منها أو بها كلها:

«الدواء الأول: أن يجمع فكره قبل نومه فيحصّره في زوجته، ثم لا يزال يقول: زوجتي، زوجتي. حتى ينام. فإن لم يذهب ما به في أيام قليلة فالدواء الثاني.

«الدواء الثانى: أن يتجرّع شربةً من زيت الخروع كل أسبوع... ويتوهم كل مرة أنه يتجرّعها من يد حبيبته، فإن لم يشفِه هذا فالدواء الثالث.

«الدواء الثالث: أن يذهب فيبيت ليلةً فى المقابر، ثم ينظر نظره فى أى المراتين يريد أن يلقي الله بها وبرضاها عنه وبثوابه فيها؛ وأيتهما هى موضع ذلك عند الله تعالى، فإن لم يبصر رُشده بعد هذا فالدواء الرابع.

«الدواء الرابع: أن يخرج فى (مظاهرة)... فإذا فُتئت له عينٌ أو كُسرت له يدٌ أو رجلٌ، ثم لم تحل حبيبته المشكلة بنفسها... فالدواء الخامس.

«الدواء الخامس: أن يصنع صنيع المبتلى بالحشيش والكوكايين، فيذهب فيُسلم نفسه إلى السجن ليأخذوا على يده فينسى هذا الترف العقلى؛ ثم ليعرف من أعمال السجن جد الحياة وهزلها، فإن لم ينزع عن جهله بعد ذلك فالدواء السادس.

«الدواء السادس: أنه كلما تحرك دمه وشاعت فيه حرارة الحب، لا يذهب إلى من يحبها، ولا يتوخى ناحيتها، بل يذهب من فوره إلى حجام يحجمه.. ليطفى عنه الدم بإخراج الدم؛ وهذه هى الطريقة التى يصلح بها مجانيُن العشاق، ولو تبدلوا بها من الانتحار لعاشوا هم وانتحر الحب.

قال «نابغة القرن العشرين»: «فإن بطلت هذه الأشفية الستة، وبقي الرجل جموحاً لا يرد عن هواه فلم يبق إلا الدواء السابع.

«الدواء السابع: أن يضرب صاحب المشكلة خمسين قناةً يصكُّ بها^(١) واقعةً منه حيث تقع من رأسه و صدره وظهره وأطرافه، حتى ينهشم عظمه، وينقصف صلبه، وينشدخ رأسه، وينفري جلده؛ ثم تطفى جراحه وكسوره بالأطلية والمراهم، وتوضع له الأضمدة والعصائب ويترك حتى يبرأ على ذلك:

(١) القناة: هى العصا الغليظة التى يقال لها «الشومة». والصك خاص فى ضرب الرأس، ولكن لما كانت عظام صاحب المشكلة مقصودة فى هذا العلاج... فقد جاز استعمال الصك فى الجسم كله كما رأيت.

أَعْرَجَ مُتَخَلِّعًا مَبْعَثَ الْخَلْقِ مَكْسُورَ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ شِفَاءهُ التَّامُّ مِنْ دَاءِ الْحَبِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...».

قلنا: فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ وَلَمْ يَصْرِفْ عَنْهُ غَائِلَةَ الْحَبِّ؟

قال: فَإِنْ لَمْ يَشْفِهِ ذَلِكَ فَالدَّوَاءُ الثَّامِنُ.

الدَّوَاءُ الثَّامِنُ: أَنْ يُعَادَ عِلَاجُهُ بِالدَّوَاءِ السَّابِعِ.....



المشكلة

(٣)

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحد، من وجوب إمساك الزوجة والإقبال عليها، وإرسال «تلك» والانصراف عنها، وأن يكون للرجل في ذلك عزم لا يتقلقل ومضاء لا يئنثنى، وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فإنها ستتحوّل، ويجعل الأناة بإزاء الضجر فإنها تصلحه، والمروءة بإزاء الكره فإنها تحمله، وليترك الأيام تعمل عملها فإنه الآن يعترض هذا العمل ويعطله، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدّل؛ ولا يستقلّ القليل تكون الأيام معه، ولا يستكثر الكثير تكون الأيام عليه.

والعديد الأكبر ممن كتبوا إليّ، يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيان الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول، ويحاسبونه به، ويقيمون منه الحجة عليه، ويقولون له: أنت اعترفت، وأنت أنكرت، وأنت رددت على نفسك، وأنت نصبت الميزان فكيف لا تقبل الوزن به؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن، وأن ذلك أسلوب من القول أدركناه ونحلناه ذلك الشاب، ليكون فيه الاعتراض وجوابه، والخطأ والرد عليه؛ ولنظهر به الرجل كالأبله في حيرته ومشكلته، تنفيراً لغيره عن مثل موقفه، ثم لنحرك به العلل الباطنة في نفسه هو، فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً، حتى إذا قرأ قصة نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل، وتلمّح ما خفى عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الإطلاق، وعرف كيف يخلص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاج الماء والخمر. وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدة منحلة في لسان صاحبها، وبقي أن يدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي.

وكثيرٌ من الكتاب لم يزدوا على أن نبّهوا الرجلَ إلى حق زوجته، ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً... وقد أصاب هؤلاء أحسنَ التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة، فإنما جاءت المشكلة من أن الرجلَ قد فقد التمييزَ وجُنَّ بجنونين: أحدهما فى الداخل من عقله، والثانى فى الخارج منه؛ فأصبح لا يبالي بالإثم والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوة والسرور عند الأخرى؛ فتعدى طوره مع المرأتين جميعاً، وظلم الزوجة بأن استلبَ حقها فيه، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية. وقد تمنى أحدُ القراء من فلسطين^(١) أن يرزقه الله مثلَ هذه الزوجة المكروهة كراهة حب، ويضعه موضعَ صاحب المشكلة، ليثبت أنه رجلٌ يحكم الكرة ويصرفه على ما يشاء، ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب. وهذا رأى حَصيفٌ جيّد، فإن العاشق الذى يتلعب الحبُّ به ويصدّه عن زوجته، لا يكون رجلاً صحيحَ الرجولة، بل هو أسخفُ الأمثلةِ فى الأزواج، بل هو مُجرّمٌ أخلاقى يَنْصَبُ لزوجته من نفسه مثالَ العاهر الفاسق، ليدفعها إلى الدّعارة والفِسق من حيث يدرى أولاً يدرى؛ بل هو غبىٌّ، إذ لا يعرفُ أن انفردَ زوجته وتراجعها إلى نفسها الحزينة يُنشئ فى نفسها الحنين إلى رجلٍ آخر؛ بل هو مغفلٌ، إذ لا يدرك أن شريعة السنِّ بالسنِّ والعينِ بالعين، هى بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل... والمرأة التى تجد من زوجها الكراهية لا تعرفها أنها الكراهة إلا أوّلَ أوّلٍ؛ ثم تنظر فإذا الكراهة هى احتقارها وإهانتها فى أخصّ خصائصها النسوية، ثم تنظر فإذا هى إثارة كبريائها وتحديها، ثم تنظر فإذا هى دفعُ غريزتها أن تعمل على إثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النعمة والمجازاة؛ ثم تنظر فإذا برهانٌ كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة، وإنما يأتى من رجلٍ... رجلٍ يحقق لها هى أن زوجها مغفلٌ وأنها جديرة بالحب.

(١) هذه الآراء التى سننقلها قد تصرفنا فى جميعها بالعبارة، ولكننا لم نخرج عما يرمى إليه صاحب الرأى وما أقام رأيه عليه.

وكان هذا المعنى هو الذى أشارت إليه الأديبة (ف . ز .) وإن كانت لم تبسّطه، فقد قالت: إن صاحب هذه المشكلة غبى، ولا يكون إلا رجلاً مريض النفس مريض الخلق، وما رأيت مثله رجلاً أبعد من الرجل.. ومثل هذا هو فى نفسه مشكلة فكيف تحل مشكلته؟ إنه من ناحية زوجته مغفل، لا وصف له عندها إلا هذا؛ ومن جهة حبيبته خائن، والخيانة أول أوصافه عندها.

«وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويُفسد طباعها، وينشئ لها قصة فى أولها غباوته وإثمه، وسيتركها تتم الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها. وبمثل هذا الرجل أصبح المتعلمات يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً، هم كاذبون فى ادعاء الحب، فليس منهم إلا الغواية؛ أو هم محبوبون يكذب الأمل بهم على النساء، فليس منهم إلا الخيبة.

قالت: «وخير ما تفعله صاحبة المشكلة أن تصنع ما صنعتها أخرى لها مثل قصتها: فهذه حين علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها إلى الطريق الذى جاء منه، وأنزلته من درجة أنه كل الناس إلى منزلة أنه ككل الناس، ونبّهت حزمها وعزيمتها وكبرياءها، فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون سبباً لشقاء أو حسرة أو هم، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذى تعرف أنه لا يستقيم إلا للزوجة وزوجها، فإذا مشّت فيه امرأة إلى غير زواج، انحرف بها من هنا، واعوجّ لها من هنا، فلم ينته بها فى الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غبار، وما غبار هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة...

«وقد جهد الرجل بصاحبته أن تتخذة صديقاً، فأبت أن تتقبّل منه برهان خيبتها... وأظهرت له جفوة فيها احتقار، وأعلمته أن نكث العهد لا يخرج منه عهد، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها، فإما أن تكون حينئذ أسقط ما فى الحب، أو أكذب ما فى الصداقة.

ثم قالت الأديبة: «وهى كانت تحبه، بل كانت مُستَهامةً به، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب، لا تريد فى الحبيب رجلاً هو رجل الحيلة عليها فتخدع به،

ولا رجل العار فتسبب به، وفي طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطمأنينة، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال، والصبر للمجاهدة.

قالت: «فعلى صاحبة المشكلة التي عرفت كيف تحب وتُجل، أن تعرف الآن كيف تحترق وتزدري».

وللأديبة (ف. ع) رأى جزل مُسدّد؛ قالت: «إنها هي قد كانت يوماً بالموضع الذي فيه صاحبة المشكلة، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لصة قلوب، وقالت في نفسها: إذا لم يُقدّر لي، فإن الله هو الذي أراد، وإنني أستحي من الله أن أحاربه في هذه الزوجة المسكينة! ولئن كنت قادرة على الفوز، إن انتصاري عليها عند حبيبي هو انتصارها على عند ربي، فلاخسر هذا الحب لأرباح الله برأس مال عزيز خسرتُه من أجله، لأبق على أخلاق الرجل ليبقى رجلاً لامرأته، فما يسرني أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب، ولا معنى لحب سيكون فيه اللؤم بل سيكون الأم اللؤم. قالت: وعلمت أن الله (تعالى) قد جعلني أنا السعادة والشقاء في هذا الوضع ليرى كيف أصنع، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتي أو حمقى، وصحّ عندي أن حسن المداخلة في هذه المشكلة هو الحل الحقيقي للمشكلة.

قالت: «فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً، وكانت نيّتي له هي أكبر أعوانى عليه، فما لبث هذا الانقلاب أن صار طبيعياً بعد قليل؛ وكنت أستمّد من قلب امرأته إذا اختاننى الضعف أو نالني الجزع، فأشعر أن لي قوة قلبيين. وزدت على ذلك النصح لصاحبي نصحاً ميسراً قائماً على الإقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل، وترفقت في التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة، وبينّت له أنه إذا طلق زوجته من أجلى فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لي زوجاً؛ ثم دلتّه برفق على أن خير ما يصنع وخير ما هو صانع لإرضائي

أن يقلدنى فى الإيثار وكرم النفس، ويحتذينى فى الخير والفضيلة، وأن يعتقد أن دموعَ المظلومين هى فى أعينهم دموع، ولكنها فى يد الله صواعق يضرب بها الظالم. قالت: «وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لى إكباراً وإعظاماً، وسما فوق أن يكون حباً كالحب؛ وصار يجدنى فى ذاتِ نفسه وفى ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءاً أو حاول أن يغض منها فى نفسه. واعتاد أن يُكرمها فأكرمها، وصلحت له نيته فاتصل بينهما السبب، وكبرت هذه النية الطيبة فصارت ودّاً، وكبر هذا الودُّ فعاد حبّاً، وقامت حياتهما على الأساس الذى وضعته أنا بيدي، أنا بيدي... أما أنا...؟»

وكتب فاضل من حلوان: «إن له صديقاً ابتلى بمثل هذه المشكلة فركب رأسه فما رده شىء عن الزواج بحبيبته، وزف إليها كأنه ملكٌ يدخل إلى قصر خياله؛ وكان أهله يعذّلونه ويلومونه ويخلصون له النصح ويجتهدون فى أمره جُهدهم، إذ يرون بأعينهم ما لا يرى بعينه، فكان النصح ينتهى إليه فيظنه غشا وتلبيساً، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً، وكان قلبه يُترجم له كل كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لا من الحقائق، إذ غلبت على عقله فيها يعقل، وذهبت بقلبه فيها يحس، واستبدت بإرادته فلها ينقاد، وعادت خواطره وأفكاره تدور عليها كالحواشى على العبارة المغلقة فى كتاب؛ واستقرت له فيها قوة من الحب، أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كُن...»

«ثم مضت الليلة بعد الليلة، وجاء اليوم بعد اليوم، والموج يأخذ من الساحل الذرة بعد الذرة والساحل لا يشعر، إلى أن تصرمت أشهر قليلة، فلم تلبث الطبيعة التى ألقت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملكة، وقصة التاج والعرش، وحديث الدنيا وملك الدنيا - لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم، وكشفت عن غرضها الخفى وحلت العقدة الروائية.

قال: «ففرغ قلبُ المرأة من الحب، وطمئني إلى السكر والنشوة مرةً أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة... وبرَدَ قلبُ الرجل، وكان الشيطانُ الذي يتسعر فيه ناراً شيطاناً خبيثاً، فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض...»
«وجدت الحياة وهزل الشيطان، فاستحَمَقَ الرجلُ نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة، واستجھَلَتِ المرأة عقلها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً، وأنكرها إنكاراً أوَّلُه الملامة، وأنكرته إنكاراً آخر أوَّلُه التبرُّم؛ وعاد كلاهما من صاحبه كإنسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذي مضى!»
«وضربت الحياة ضربةً أو ضربتين فإذا أبنية الخيال كلها هدمَ هدم، وإذا الطبيعة مؤلفة الرواية.. قد ختمت روايتها وقوّضت المسرح، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس: فالحب تأويله البغض، واللذة تفسيرها الألم، و«البودرة» معناها الجير... وتغيّر كلُّ ما بينهما إلا الشيطان الذي بينهما، فهو الذي زوج وهو بعينه الذي طلق...»

وكتب أديب من بغداد يقول: «إنه كان في هذا الموضع القلق موضع صاحب المشكلة، وإن ذات قرباه التي سُميت عليه كانت مُلَفَّقةً له في حُجُبِ عِدَّة لا في حجاب واحد، وقد وُصِفَتْ له باللغة.. وفي اللغة: ما أحسن وما أجمل وما أظرف، وكأنها ظبي يتلفت، وكأنها غصن يميل، وكأن سُنَّة وجهها البدر!»
قال: «وشبَّهت له بكل أدوات التشبيه، وجاءوا في أوصافها بمذاهب الاستعارة والمجاز، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة؛ وكان لم ير منها شيئاً، وكانت لغة نوى قرابته وقرابتها كلغة التجارة في السنة حُذَاق السماسرة: ما بهم إلا تنفيق السلعة ثم يخلون بين المشتري وحظه.

قال: «فرسخ كلامهم في قلبي، فعقدت عليها، ثم أعرستُ بها، ونظرت فإذا هي ليست في الكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما... ثم تعرفت فإذا هي تكبرني بخمسة عشرة سنة... ورأيت اتضاع حالها عندي فأشفقت عليها، وبتُّ الليلة الأولى مُقبلاً على نفسي أوامرها وأناجيها، وأنظر في أي موضع رأي أنا؛

وتأملت القصة، فإذا امرأة بين رحمة الله ورحمتي، فقلت: إن أنا نزعتم رحمتي عنها ليُوشِكَنَّ الله أن ينزعَ رحمته عني، وما بيني وبينه إلا أعمالي؛ فقلت: يا نفسي، إنها أن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله. وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات، فلأجعل هذه المرأة حسنتي عنده، وما علي من عمر سيمضي وتبقى منه هذه الحسنة خالدة مخلدة.

«إنها كانت حاجة النفس إلى المتاع فانقلبت حاجة إلى الثواب، وكانت شهوة فرجعت حكمة، وكنت أريد أن أبلغ ما أحب فساُبلغ ما يجب. ثم قلت: اللهم إن هذه امرأة تنتظرها السنة الناس إما بالخير إذا أمسكتها، وإما بالبشر إذا طلقته، وقد احتمت بي؛ اللهم سأكفيها كل هذا لوجهك الكريم!

قال: «ورأيتني أكون ألام الناس لو أني كشفتها للناس وقلت انظروا... فكأنما كنت أسأت إليها فأقبلت أترضاها، وجعلت أماسحها وألايئها في القول، وعدلت عن حظ نفسي إلى حظ نفسها^(١)، واستظهرت بقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ سورة البقرة الآية ٢١٦، واعتقدت الآية الكريمة أصح اعتقاد وأتمه، وقلت: اللهم اجعلها من تفسيرها.

قال: «فلم تمض أشهر حتى ظهر الحمل عليها، فألقى الله في نفسي من الفرح ما لا تعد له الدنيا بحذافيرها، وأحسست لها الحب الذي لا يقال فيه جميل ولا قبيح، لأنه من ناحية النفس الجديدة التي في نفسها (الطفل). وجعلت أرى لها في قلبي كل يوم مداخل ومخارج دونها العشق في كل مداخله ومخارجيه، وصار الجنين الذي في بطنها يتلألأ نوره عليها قبل أن يخرج إلى النور، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأمل الحلو المنتظر.

قال: «وجاءها المخاض، وطرقت بغلام؛ وسمعت الأصوات ترتفع من حُجرتها: ولداً! ولداً! بَشَرُوا أباه. فوالله لكأن ساعة من ساعات الخلد وقعت في زمني أنا من دون

(١) استوفينا بيان هذه المعاني في مقالة (قبيح جميل).

الخلق جميعاً وجاءتني بكل نعيم الجنة؛ وما كان مُلكَ العالم - لو ملكته - مستطيعاً أن يهبني ما وهبتني امرأتى من فرح تلك الساعة، إنه فرحُ إلهي أحسست بقلبي أن فيه سلامَ الله ورحمته وبركته، ومن يومئذ نطق لسان جمالها في صوت هذا الطفل. ثم جاء أخوه في العام الثاني، ثم جاء أخوهما في العام الثالث؛ وعرفت بركة الإحسان من اللطف الرباني في حوادث كثيرة، وتنفست على أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد، فكان تفسيرها الأفراح، والأفراح، والأفراح.

ويرى صديقنا الأستاذ (م . ح . ج) أن صاحب المشكلة في مشكلة من رجولته لا من حبه؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشر زوجته بوحدة منها، إذ هي كلها أرواح صبيانية تبكي على قطعة من الحلوى ممثلة في الحبيبة... ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره، لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفلي في هذه المشكلة؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحب والكره منزوع من نفسه، إذ الفاصل في الرجل هو الحزم الذي يوضع بين ما يجب وما لا يجب. إنه مادام بهذه النفس الصغيرة فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً، وكلتاها بلاء عليه، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يُشَنَّقَ بامرأة لا بمشقة...

هذا عندى ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثَبَّتَ أنه أحدهما؛ فإن كان طفلاً فمن السخرية به أن يكون متزوجاً، وإن كان رجلاً فليحل هو المشكلة بنفسه، وحلها أيسر شيء: حلها تغيير حالته العقلية.

ونحن نعتذر للباقيين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفر بالأحوال التي تشبه هذه الحادثة، لا بالآراء والمواقف والنصائح. أما رأينا ففي البقية الآتية.

■ ■ ■

المشكلة

(٤)

صاحبُ هذه المشكلة رجلٌ أعور العقل... يرى عقله من ناحية واحدة، فقد غاب عنه نصف الوجود في مشكلته؛ ولو أن عقله أبصر من الناحيتين لما رأى المشكلة خالصةً في إشكالها، ولوجدَ في ناحيتها الأخرى حظًا لنفسه قد أصابه، ومذهبًا في السلامة لم يُخطئه؛ وكان في هذه الناحية عذاب الجنون لو عذبه الله به، وكان يُصبح أشقى الخلق لو رماه الله في الجهة التي أنقذه منها، فتهيأت له المشكلة على وجهها الثاني.

ماذا أنت قائلُ يا صاحبَ المشكلة لو أن زوجتك هذه المسكينة المظلومة التي بنيت بها، كانت هي التي أكرهت على الرضى بك، وحملت على ذلك من أبيها، ثم كنت أنت لها عاشقًا، وبها صبا، وفيها مُتدَلِّها؛ ثم كانت هي تحبُّ رجلاً غيرك، وتصبو إليه، وتفتتن به، وقد احترقت عشقا له؛ فإذا جَلَّوها عليك رأيتك البغيض المقيت، ورأتك الدميم الكريه، وفزعت منك فزعها من اللص والقاتل؛ وتمدُّ لها يدك فتتحامها تحاميهما المجدوم أو الأبرص، وتكلمها فتحمُّ بردًا من ثقل كلامك، وتفتح لها ذراعيك فتحسبهما حبلىين من مشنقتين، وتتحببُ إليها فإذا أنت أسمعُ خلق الله عندها، إذ تحاول في ندالة أن تحلَّ منها محلَّ حبيبها؛ وتقبلُ عليها بوجهك فتراه من تقدِّرها إياك، واشمئزازها منك، وجه الذبابة مكبرًا بفضاعة وشناعة في قدر صورة وجه الرجل، ليتجاوز حدَّ القبح إلى حدِّ العنائة، إلى حدِّ انقلاب النفس من رؤيته، إلى حدِّ القىء إذا دنا وجهك من وجهها...؟!

ماذا أنت قائلُ يا صاحبَ المشكلة لو أن مشكلتك هذه جاءت من أن بينك وبين زوجتك (الرجل الثاني) لا المرأة الثانية؟ ألسن الآن في رحمة من الله بك، وفي نعمة

كَفَّتْ عَنْكَ مُصِيبَةٌ، وَفِي مَوْقِفٍ بَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ يَقْتَضِيكَ أَنْ تَرْقُبَ فِي حَكْمِكَ عَلَى هَذِهِ الزَّوْجَةِ الْمُسْكِينَةِ حَكْمَ اللَّهِ عَلَيْكَ؟

تَقُولُ الْحُبَّ وَالْخِيَالَ وَالْفَنَ. وَتَذْهَبُ فِي مَذَاهِبِهَا؛ غَيْرَ أَنَّ «الْمَشْكَلَةَ» قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّكَ بَعِيدٌ مِنْ فَهْمِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ، وَلَوْ أَنَّكَ فَهَمْتَهَا لَمَا كَانَتْ لَكَ مَشْكَلَةٌ، وَلَا حَسِبْتَ نَفْسَكَ مَذْهُوسَ الْحِظِّ مَحْرُومًا، وَلَا جَهَلْتَ أَنَّ فِي دَاخِلِ الْعَيْنِ مِنْ كُلِّ ذِي فَنٍ عَيْنًا خَاصَّةً بِالْأَحْلَامِ كَيْلًا تَعْمَى عَيْنُهُ عَنِ الْحَقَائِقِ.

الْحُبُّ لَفْظٌ وَهْمِي مَوْضُوعٌ عَلَى أَضْدَادٍ مُخْتَلِفَةٍ: عَلَى بُرْكَانٍ وَرَوْضَةٍ، وَعَلَى سَمَاءٍ وَأَرْضٍ، وَعَلَى بَكَاءٍ وَضَحْكِ، وَعَلَى هُمُومٍ كَثِيرَةٍ كُلُّهَا هُمُومٌ، وَعَلَى أَفْرَاحٍ قَلِيلَةٍ لَيْسَتْ كُلُّهَا أَفْرَاحًا؛ وَهُوَ خِدَاعٌ مِنَ النَّفْسِ يَضَعُ كُلَّ ذِكَاثِهِ فِي الْمَحْبُوبِ، وَيَجْعَلُ كُلَّ بَلَاةٍ فِي الْحُبِّ، فَلَا يَكُونُ الْمَحْبُوبُ عِنْدَ مُحِبِّهِ إِلَّا شَخْصًا خِيَالِيًّا ذَا صِفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ، فَكَأَنَّهُ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ فِي وَجُودِ تَامِّ الْجَمَالِ وَلَا عَيْبَ فِيهِ، وَالنَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ مُوْجُودُونَ فِي الْعُيُوبِ وَالْمَحَاسِنِ.

وَذَلِكَ وَهْمٌ لَا تَقُومُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ وَلَا تَصْلُحُ بِهِ، فَإِنَّمَا تَقُومُ الْحَيَاةُ عَلَى الرُّوحِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَضَعُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ الصَّحِيحَ الثَّابِتَ؛ فَالْحُبُّ عَلَى هَذَا شَيْءٌ غَيْرُ الزَّوْاجِ، وَبَيْنَهُمَا مِثْلٌ مَا بَيْنَ الْاضْطِرَابِ وَالنِّظَامِ؛ وَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ هَذَا الْحُبُّ عَلَى النُّحُوِّ الَّذِي يَجْعَلُهُ حُبًّا لَا غَيْرَ، فَقَدْ يَكُونُ أَقْوَى حُبٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِذَا تَحَابَّا هُوَ أَسْخَفَ زَوْاجٍ بَيْنَهُمَا إِذَا تَزَوَّجَا.

وَذُو الْفَنِّ لَا يُفِيدُ مِنْ هَذَا الْحُبِّ فَائِدَتَهُ الصَّحِيحَةَ إِلَّا إِذَا جَعَلَهُ تَحْتَ عَقْلِهِ لَا فَوْقَ عَقْلِهِ، فَيَكُونُ فِي حُبِّهِ عَاقِلًا بَجْنُونٍ لَطِيفٍ... وَيَتْرَكُ الْعَاطِفَةَ تَدْخُلُ فِي التَّفَكِيرِ وَتَضَعُ فِيهَا جَمَالَهَا وَثَوْرَتَهَا وَقَوَّتَهَا؛ وَمَنْ ثَمَّ يَرَى مُجَاهِدَةَ اللَّذَّةِ فِي الْحُبِّ هِيَ أَسْمَى لَذَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ، وَيَعْرِفُ بِهَا فِي نَفْسِهِ ضَرْبًا إِلَهِيًّا مِنَ السَّكِينَةِ يُؤَلِيهِ الْقُدْرَةَ عَلَى أَنْ يَقْهَرَ الطَّبِيعَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ وَيَصْرِفَهَا وَيُبْدِعَ مِنْهَا عَمَلَهُ الْفَنِّيَّ الْعَجِيبَ.

وهذا الضربُ من السموِّ لا يبلغه إلا الفكرُ القوى الذى فازَ على شهواته وكبحها وتحملها تغلى فيه غليانُ الماءِ فى المِرْجَلِ ليُخْرَجَ منها ألطفُ ما فيها، ويحوّلها حركةً فى الروح تنشأ منها حياةُ هذه المعانى الفنية؛ وما أشبه ذا الفنّ بالشجرة الحية: إن لم تُضَبِّطْ ما فى داخلها أصحَّ الضبط، لم يكن فى ظاهرها إلا أضعفُ عملها. ومثلُ هذا الفكر العاشق يحتاج إلى الزوجة حاجته إلى الحبيبة، وهو فى قوته يجمعُ بين كرامة هذه وقُدسيّة هذه، لأن إحداها توازنُ الأخرى، وتعديلها فى الطبع، وتخفف من طغيانها على الغريزة، وتمسك القلب أن يتبدد فى جوّه الخيالى.

والرجلُ الكاملُ المفكّرُ المتخيّلُ إذا كان زوجاً وعشيقاً، أو كان عاشقاً وتزوَّجَ بغير من يهواها، استطاع أن يبتدعَ لنفسه فناً جميلاً من مسرات الفكر لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج؛ وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال جمدَ على هيئة واحدة، غير أنه لا يُغفل أن هذا هو سرُّ من أسرار الإبداع فى التمثال، إذ تلك هيئة استقرار الأسمى فى سموه؛ فإن الزوجة أمومة على قاعدتها، وحياة على قاعدتها؛ أما الحبيبة فلا قاعدة لها، وهى معان شاردة لا تستقر، وزائلة لا تثبت، وفنها كله فى أن تبقى حيث هى كما هى، فجمالها يحيا كل يوم حياةً جديدةً مادامت فناً محضاً، وما دام سرُّ أنوثتها فى حجابها.

ومتى تزوج الرجلُ بمن يحبها انتهك له حجابُ أنوثتها فبطل أن يكون فيها سر، وعادت له غير من كانت، وعاد لها غير من كان؛ وهذا التحولُ فى كل منهما هو زوال كل منهما من خيال صاحبه؛ فليس يصلح الحبُّ أساساً للسعادة فى الزواج، بل أحر به إذا كان وجداً واحترافاً أن يكون أساساً للشؤم فيه؛ إذ كان قد وضع بين الزوجين حداً يعين لهما درجةً من درجة فى الشَّغف والصبابة والخيال، وهما بعد الزواج متراجعان وراء هذا الحد ما من ذلك بد، فإن لم يكن الزوج فى هذه الحالة رجلاً تامَّ الرجولة، أفسدت الحياةَ عليه وعلى زوجته صبيانية روحه فالتمس فى الزوجة مالم يعدُ فيها، فإذا انكشف فراغها ذهب يلمسه فى غيرها، وكان بلاء عليها وعلى نفسه

وعلى أولاده قبل أن يولدوا؛ إذ يضع أمام هذه المرأة أسوأ الأمثلة لأبى أولادها، ويفسد إحساسها فيفسد تكوينها النفسى؛ وما المرأة إلا حسُّها وشعورها^(١).

فالشأن هو فى تمام الرجولة وقوتها وشهامتها وفحولتها، إن كان الرجل عاشقاً أو لم يكنه. وما من رجل قوى الرجولة إلا وأساسه ديانتُهُ وكرامته؛ وما من ذى دين أو كرامة يقع فى مثل هذه المشكلة ثم تُظلم به الزوجة أو يحيف عليها أو يُفسد ما بينه وبينها من المداخلة وحسن العشرة، بله أن يراها كما يقول صاحب المشكلة (مصابة) فيجأ فيها ويبالغ فى إعناتها ويشفى غيظه بإذلالها واحتقارها.

وأى ذى دين يأمن على دينه أن يهلك فى بعض ذلك فضلاً عن كل ذلك؟ وأى ذى كرامة يرضى لكرامته أن تنقلب خسة ودناءة ونذالة فى معاملة امرأة هو لا غيره ذنبها؟ إن أساس الدين والكرامة ألا يخرج إنسان عن قاعدة الفضيلة الاجتماعية فى حل مشكلته إن تورط فى مشكلة؛ فمن كان فقيراً لا يسرق بحجة أنه فقير، بل يكدّ ويعمل ويصبر على ما يعانيه من ذلك؛ ومن كان محبباً لا يستنزل المرأة فيسقطها بحجة أنه عاشق؛ ومن كان كصاحب المشكلة لا يظلم امرأته فيمقتها بحجة أنه يعشق غيرها؛ وإنما الإنسان من أظهر فى كل ذلك ونحو ذلك أثره الإنسانى لا أثره الوحشى، واعتبر أموره الخاصة بقاعدة الجماعة لابقاعدة الفرد. وإنما الدين فى السموى على أهواء النفس؛ ولا يتسامى امرؤ على نفسه وأهواء نفسه إلا بإنزالها على حكم القاعدة العامة، فمن هناك يتسامى، ومن هناك يبدو علوه فيما يبلغ إليه...

وإذا حل اللص مشكلته على قاعدته هو فقد حلها، ولكنه حل يجعله هو بجملته مشكلة للناس جميعاً، حتى ليرى الشرع فى نظرتة إلى إنسانية هذا اللص أنه غير حقيق باليد العاملة التى خلقت له فيأمر بقطعها.

(١) هذا كله من بعض الحكمة فى أن الإسلام لا يبيح اختلاط الزوجين قبل العقد، إذ لا يعرف الدين الإسلامى من الزوجين إلا أسرة يجب أن تبني بما بينهما، وتسان بما يصونها، وقد أشرنا إلى الحكمة مرة أخرى فى المقالة الأولى من المشكلة.

وعلى هذه القاعدة فالجنسُ البشريُّ كله ينزل منزلة الأب في مناصرته لزوجته صاحب المشكلة والاستظهار لها والدفاع عنها، مادام قد وقع عليها الظلم من صاحبها، وهذا هو حكمها في الضمير الإنساني الأكبر، وإن خالف ضمير زوجها العدو الثائر الذي قطعها من مصادر نفسه ومواردها. أما حكم الحبيبة في هذا الضمير الإنساني فهو أنها في هذا الموضع ليست حبيبة ولكنها شحاذة رجال...

لسنا ننكر أن صاحب هذه المشكلة يتألم منها ويتلذع بها من الوقعة التي في قلبه؛ بيد أننا نعرف أن ألم العاقل غير ألم المجنون، وحزن الحكيم غير حزن الطائش؛ والقلب الإنساني يكاد يكون آلة مخلوقة مع الإنسان لإصلاح دنياه أو إفسادها؛ فالحكيم من عرف كيف يتصرف بهذا القلب في آلامه وأوجاعه، فلا يصنع من ألمه ألماً جديداً يزيده فيه، ولا يخرج من الشر شراً آخر يجعله أسوأ مما كان. وإذا لم يجد الحكيم ما يشتهي، أو أصاب ما لا يشتهي، استطاع أن يخلق من قلبه خلقاً معنوياً يوجده الغنى عن ذلك المحبوب المعدم، أو يوجده الصبر عن هذا الموجود المكروه؛ فتتوازن الأحوال في نفسه وتعتدل المعانى على فكره وقلبه؛ وبهذا الخلق المعنوي يستطيع ذو الفن أن يجعل آلامه كلها بدائع فن^(١). وما هو فكر الحكماء إلا أن يكون مصنعا ترسل إليه المعانى بصورة فيها القوضى والنقص والألم، لتخرج منه في صورة فيها النظام والحكمة واللذة الروحية.

يعشق الرجل العامي المتزوج، فإذا الساعة التي أوبقتة في المشكلة قد جاءته معها بطريقة حلها: إما ضرب امرأته بالطلاق، وإما أهلكها باتخاذ الضرة عليها، وإما عذبها بالخيانة والفجور، لأن بعض العبت من الطبيعة في نفس هذا الجاهل هو بعينه عبت الطبيعة بهذا الجاهل في غيره، كأن هذه الطبيعة تطلق مدافعها الضخمة على الإنسانية من هذه النفوس الفارغة...

(١) استوفينا هذه المعانى في كثير مما كتبنا، وبعضها في مقالات (الجمال البائس)...

وليس أسهل على الذكر من الحيوان أن يحل مشكلة الأنثى حلاً حيوانياً كحل هذا العامى، فهو ظافر بالأنثى أو مقتولٌ دونها مادام مطلقاً مخلّى بينه وبينها، والحقيقة هنا حقيقته هو، والكون كله ليس إلا منفعة شهوانية، وأسمى فضائله ألا يعجز عن نيل هذه المنفعة.

ثم يعشق الرجل الحكيم المتزوج فإذا لمشكلته وجه آخر، إذ كان من أصعب الصعب وجود رجل يحل هذه المشكلة برجولة، فإن فيها كرامة الزوجة وواجب الدين وفيها المروءة، وفيها مع ذلك عبث الطبيعة وخداعها وهزلها الذى هو أشد الجِد بينها وبين الغريزة؛ وبهذا كله تنقلب المشكلة إلى معركة نفسية لا يحسمها إلا الظفر، ولا يُعين عليها إلا الصبر، ولا يُفلح فى سياستها إلا تحمل آلامها، فإذا رُزق العاشق صبراً وقوة على الاحتمال فقد هان الباقي وتيسرت لذة الظفر الحاسم، وإن لم يكن هو الظفر بالحببية؛ فإن فى نفس الإنسان مواقع مختلفة وآثاراً متباينة للذة الواحدة، وموقع أرفع من موقع، وأثر أبهج من أثر؛ وألذ من الظفر بالحببية نفسها عند الرجل الحكيم الظفر بمعانيها، وأكرم منها على نفسه كرامة نفسه. وإذا انتصر الدين والفضيلة والكرامة والعقل والفن، لم يبق لخيبة الحب كبير معنى ولا عظيم أثر، ويتوغل العاشق فى حبه وقد لبسته حالة أخرى كما يكظم الرجل الحليم على الغيظ: فذلك يحب ولا يطيش، وهذا يغتاض ولا يغضب. والبطل الشديّد البأس لا ينبغ إلا من الشدائد القوية، والداهية الأريب لا يخرج إلا من المشكلات المعقدة، والتقّى الفاضل لا يعرف إلا بين الأهواء المستحكمة. ولعمري إذا لم يستطع الحكيم أن ينتصر على شهوة من شهوات نفسه، أو يبطل حاجة من حاجاتها، فماذا فيه من الحكمة، وماذا فيه من النفس؟

وما عقد (المشكلة) على صاحبها بين زوجته وحبيبته، إلا إنه بخياله الفاسد قد أفسد القوة المصلحة فيه، فهو لم يتزوج امرأته كلها... وكأنه لا يراها أنثى كالنساء،

ولا يُبصر عندها إلا فروقاً بين امرأتين: محبوبية ومكروهية؛ وبهذا أفسد عينه كما أفسد خياله؛ فلو تعلّم كيف يراها لرآها، ولو تعودّها لأحبها.
إنه من وهمه كالجواد الذى يشعر بالمقادة فى عنقه؛ فشعوره بمعنى الحب وإن كان معنىً ضئيلاً عطلّ فيه كلّ معانى قوته، وإن كانت معانى كثيرة. وما أقدرك أيها الحبُّ على وضع حبال الخيل والبغال والحمير فى أعناق الناس!

وقد بقى أن نذكر، توفيةً للفائدة، أنه قد يقع فى مثل هذه المشكلة من نقصت فحولته من الرجال، فيدلّس على نفسه بمثل هذا الحب، ويبالغ فيه، ويتجرّم على زوجته المسكينة التى ابتليت به، ويختلق لها العُلل الواهية المكذوبة، ويُبغضها كأنه هو الذى ابتلى بها، وكأن المصيبة من قبلها لا من قبله؛ وكل ذلك لأن غريزته تحولت إلى فكره، فلم تعد إلصوّراً خياليةً لا تعرف إلا الكذب. وقد قرر علماء النفس أن من الرجال من يكره زوجته أشدّ الكره إذا شعر فى نفسه بالهانة والنقص من عجزه عنها... فهذا لا يكون رجلاً لامرأته إلا فى العداوة والنقمة والكرهية وما كان من باب شفاء الغيظ، وامراته معه كالمعاهدة السياسية من طرف واحد: لا قيمة ولا حرمة؛ وإذا أحب هذا كان حبه خيالياً شديداً، لأنه من جهة يكون كالتعزية لنفسه، ومن جهة أخرى يكون غيظاً لزوجته، وردّاً بامرأة على امرأة...

■ ■ ■

الفهرس

الموضوع.....	الصفحة.....
الياماتان.....	١٩.....
اجتلاء العيد.....	٣١.....
المعنى السياسى فى العيد.....	٣٧.....
الربيع.....	٤٠.....
عرش الورد.....	٤٣.....
أيها البحر.....	٤٧.....
فى الربيع الأزرق.....	٥١.....
حديث قطين.....	٥٦.....
بين خروفين.....	٦٣.....
الطفولتان.....	٧٤.....
أحلام فى الشارع.....	٨٣.....
أحلام فى قصر.....	٩١.....
بنت الباشا.....	٩٧.....
ورقة ورد.....	١٠٤.....
سمو الحب.....	١٠٩.....
قصة زواج وفلسفة المهر.....	١٢٠.....
ذيل القصة وفلسفة المال.....	١٣١.....
زوجة إمام.....	١٤٠.....
زوجة إمام.. بقية الخير.....	١٥٠.....

١٥٨	قبح جميل
١٦٨	الطائشة (١)
١٧٨	الطائشة (٢)
١٨٧	دموع من رسائل الطائشة
١٩٣	فلسفة الطائشة
٢٠٢	تربية لأولوية
٢١١	س. ا. ع.
٢١٩	استنوق الجمل
٢٢٦	أرملة حكومة
٢٣٤	رؤيا فى السماء
٢٤٢	بنته الصغيرة (١)
٢٥٠	بنته الصغيرة (٢)
٢٥٩	الأجنبية
٢٦٩	قصيدة مترجمة عن الشيطان.. لحوم البحر
٢٧٥	قصيدة مترجمة عن الملك.. احذرى
٢٨١	الجمال البائس (١)
٢٨٨	الجمال البائس (٢)
٢٩٥	الجمال البائس (٣)
٣٠٣	الجمال البائس (٤)
٣١٠	الجمال البائس (٥)
٣١٩	عربة اللقطاء
٣٢٧	الله أكبر
٣٣٤	فى اللهب ولا تحترق ..
٣٤١	المشكلة (١)

المشكلة (٢) ٣٤٩

المشكلة (٣) ٣٥٧

المشكلة (٤) ٣٦٥